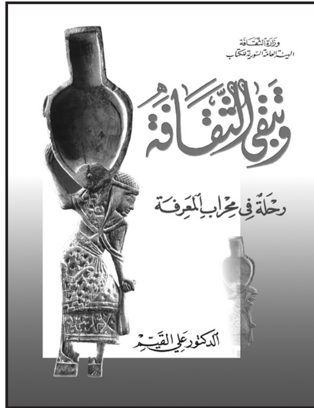
الغلاف الأول:

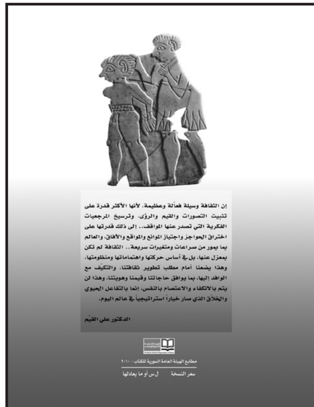
ملعقة بهيئة امرأة سورية تحمل وعاءً كبيراً (١٤٠٠ ق.م)



الغلاف الأخير:

لوحة مطعمة بالزخارف من إيبلا، ٢٤٠٠ ق.م يظهر فيها عدو

عارٍ ومكبّل يساق من قبل المنتصر



الإشراف الفني والطباعي
أحمد عكيدي
الإخراج وتصميم الغلاف
أحمد إسماعيل

التدقيق اللغوي
سمر الزركي
التنضيد
ريما محمود

وتبقى الثقافة

رحلة في محراب المعرفة

الدكتور علي القيّم

تقديم

وتبقى الثقافة

أربعون سنة إلا نيف مضت من العمل المتواصل الدؤوب في وزارة الثقافة والمديرية العامة للآثار والمتاحف.. البداية كانت في الأول من حزيران عام ١٩٧٠، واستمرت متواصلة دون انقطاع أو كلل أو ملل.. البداية كانت متواضعة خجولة، كأي بداية لموظف بسيط يشق طريقه بهدوء وصبر ورغبة في التعلّم واكتساب المعرفة العلمية والإداريّة من باحثين ودارسين كثر كانت تعج بهم مكاتب مديرية الآثار والمتاحف، واستمرت مسيرة العمل التي زادتني خبرة ودراية بكل خفايا العمل الأثري والمتحفي النبيل الذي يعنى بشؤون الفنون القديمة، وحضارة الإنسان العربي وتاريخه الحافل بالإنجازات الكبيرة، وبقاياه الموجودة في آلاف الأوابد والمواقع الأثرية الرائعة..

خلال هذه السنوات المديدة من العطاء والعمل تدرّجت في السلم الوظيفي، من كاتب متواضع في مديرية الهندسة إلى منشئ في محاسبة الإدارة، إلى مدير للمكتب الصحفي، إلى مدير لمتحف الطب والعلوم بدمشق، إلى معاون لوزير الثقافة، تتخللها فترة قصيرة كلّفت خلالها إضافة إلى عملي، بمهام المدير العام للآثار والمتاحف.

خلال هذه السنوات، انفتحت على الثقافة التراثيّة والأدبيّة بشتى أنواعها، فقمت بنشر آلاف الدراسات والمقالات والأبحاث التي تعنى بشؤون الثقافة والآثار والتراث والموسيقى ونشرت ما يزيد عن /٠٠/ كتاب ثقافي لقيت الاهتمام الكبير من قبل الباحثين والدارسين والصحفيين في شتّى أرجاء الوطن العربي، وبدأت رحلة طويلة من البحث الأثري في آثار سورية والوطن العربي، فشاركت في عشرات الندوات والمؤتمرات التي عقدت في سورية والوطن العربي والعالم، كما مثّلت سورية في المؤتمرات العامة لمنظمة «اليونسكو» المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم، وترأست وفد بلادي مرات عديدة في اللجنتين الرابعة والخامسة (لجنة الثقافة والتراث) ولجنة التراث العالمي، كما مثلّت سورية في اجتماعات اللجان التحضيرية لمؤتمرات الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي منذ عام ١٩٩١ وحتى تاريخه وقمت أيضاً بالمشاركة في اجتماعات مؤتمرات وزراء الثقافة لمنظمة «الأسيسكو»- المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، وانتخبت مقرراً ونائباً للجنة الدائمة للثقافة العربية التابعة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منذ عام ١٩٩٤ ولغاية عام ٢٠٠٢، وانتخبت عضواً في مجلس إدارة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية باستانبول (أرسيكا) التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي منذ عام ٢٠٠٠.

وتستمر رحلة العمل والعطاء المتواصل في إنجاز العديد من الأفلام العلمية والوثائقية عن آثار وحضارة سورية القديمة، والمشاركة في عشرات البرامج التلفزيونية والندوات الأدبية والثقافية، وإعداد برنامج «تاريخ وآثار» لصالح إذاعة دمشق منذ أكثر من ثلاثين عاماً لسنوات عديدة والإشراف الشامل على فعاليات وأنشطة مهرجان المحبة، والمشاركة في اللجان العليا لمهرجانات: بصرى الدولي للفنون الشعبية- مهرجان دمشق الدولي للسينما- مهرجان دمشق المسرحي- مهرجان الزهور الدولي- مهرجان دمشق للثقافة والفنون- مهرجان

الرقة للثقافة والفنون- الإشراف المحلي على الندوة الدولية لفنون «الأرابيسك» في العالم الإسلامي- رئيس لجنة مشاهدة العروض المسرحية في سورية، ممثل وزارة الثقافة في اللجنة الفكرية التي تقرّ النصوص السينمائية للمؤسسة العامة للسينما.. وكان لي شرف القيام بأعمال ترميم وصيانة الجامع الأموي الكبير بدمشق بموجب لجنة عليا شكلت بقرار من رئيس الجمهورية الرئيس الخالد حافظ الأسد..

لقد حاولت من موقعي في وزارة الثقافة أن أكون متواصلاً مع إعداد الكوادر الشابة المدرّبة، فقمت لسنوات عديدة بتنظيم ندوة دولية تحت اسم «الندوة الدولية للعلم والعمل في بلاد الشام» كان لها انعكاسات إيجابية في إعطاء الدور للقطاع الخاص للقيام بدوره في تنظيم الندوات والمؤتمرات التي كانت تقتصر على القطاع العام، وساهمت لعدة سنوات بتنظيم وإعداد الاحتفالات التي قامت بها وزارة الثقافة باليوم العالمي للكتاب، واليوم العالمي للشعر.. كما قمت بالإشراف العلمي والإداري على المعهدين، المتوسط للآثار والمتاحف- والمتوسط للفنون التطبيقية، وقمت أيضاً بالتدريس فيهما لسنوات عديدة..

لا أغالي إذا قلت إنني وصلت إلى ما وصلت إليه من مكانة علمية وثقافية وإدارية، انطلاقاً من تعب وشقاء وعناء وسهر وثقافة وعلم وحضور لا منّة لأحد فيها، سوى لله تعالى، وأعتقد أن كثيرين ممن عملت معهم في وزارات الثقافة والإعلام والسياحة والتربية والتعليم العالي، يدركون جيداً ما قدّمته في مجالات عملي، من منجزات كثيرة، كان دافعها الحب والعشق والتفاني بالعمل الذي قمت به في مجالات عديدة.. لقد أصبت منذ الأيام الأولى للعمل في وزارة الثقافة بنوع من الولع غير المحدود، ورغم المنغصّات الكثيرة التي اعترضتني، كان الحب أكبر، وكان الدافع أعظم، وكانت الأفعال والإنجازات أكثر من أن تحصى وتعد..

لقد أصبت بفيروس الولع بتراث سورية الحضاري والفني الرائع الممتد عبر الأزمنة والعهود منذ عصور ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا، فكانت رحلة البحث والدراسة والتقصّي والمعرفة، وكان يقيني في كل ما عملت وأنجزت أن الثقافة في سورية العربية ليست عنصر ترف، ولا هي مجال للاستهلاك، بل هي قطاع مثمر ومنتج بامتياز، وهي مصالحة مع ماضينا ومصالحة فيما بيننا، ومصالحة مع التاريخ العربي العظيم الذي نعيش في كنفه، والثقافة هي أيضاً ميدان جمالي وفكري، يجعلنا نلتقي في حوار مع الذات والآخر، فندخل في صحراء الحياة بعضاً من المتعة والدهشة والسعادة..

لقد تعاملت مع الثقافة، ومازلت، بوصفها منبراً للقول الحر، وميداناً لاحتضان المبدعين، وأداة لإحياء الذاكرة، وقاطرة نحو مستقبل أفضل، فالثقافة هي الرابط بين جذورنا وتراثنا، وبين إلحاحنا على مواكبة العصر، فنكون في صنعه مؤثرين فعلاً، لا مجرد متلقين لآخر إنجازاته وتقنياته..

لقد عملت خلال هذه السنوات الطويلة، بدافع من حب وأمل وحلم ورجاء وعشق، من أجل الحفاظ على إرث سورية الحضاري والتراثي والأثري والثقافي.. في كثير من الأحيان التحدي كان كبيراً، ولكن الإيمان والعزيمة والإصرار، كان أكبر، لذلك كانت النتائج في أذهان الناس تزداد عمقاً، وحباً واحتراماً وتقديراً، وهذا الأبقى والأكثر ديمومة واستمرارية وحيوية..

في نظري إن الإنسانية تعني شيئاً أكثر من جسم بشري ومخ كبير الحجم، ولولا الثقافة التي عملت من أجلها ما استطعت، لكنّا مجرد نوع آخر من أنوع المخلوقات، أي نوع من أنوع القردة العليا، تعيش كبقية الأنواع في جماعات صغيرة لها كل خصائص المجتمعات، ولكنها مجتمعات دون ثقافة، فكل زمر أو مجتمعات

القردة تتصرف بأسلوب واحد، سواء في طريقة الأكل أو النوم فوق الشجر أو التجول، بل في علاقاتها الاجتماعية الصاخبة، وهذه كلها أمور مميزة للقردة، حددتها لها طبيعتها وقدراتها العامة، أما حالة الإنسان فتختلف عن ذلك، فكل مجتمع بشري له رصيد إضافي من السلوك، يغطّي ويخفي تلك الخصائص الأولى، ويعدل منها، وهذا الرصيد الإضافي هو مانسميه بالثقافة، التي يجب الولاء لها حتى نفهم ما تفعله من أجلنا، وأن ندرك أننا يجب أن نقف بجوارها أو نسقط معها، ولا بد للثقافة من أن تتطور وإلا ماتت، وإن أكثر المجتمعات نجاحاً هو ذلك الذي تتطلب ثقافته أفضل ما عند الناس، وتستجيب بدورها إلى أفضل ما عندهم، فالإنسان والمجتمع والثقافة شيء واحد.

إن الثقافة وسيلة فعاّلة وعظيمة، لأنها الأكثر قدرة على تثبيت التصورات والقيم والرؤى، وترسيخ المرجعيات الفكرية التي تصدر عنها المواقف.. إلى ذلك قدرتها على اختراق الحواجز واجتياز الموانع والمواقع والآفاق، والعالم بما يمور من صراعات ومتغيرات سريعة.. الثقافة لم تكن بمعزل عنها، بل في أساس حركتها واهتماماتها ومنظومتها، وهذا يضعنا أمام مطلب تطوير ثقافتنا، والتكيّف مع الوافد إليها، بما يوافق حاجاتنا وقيمنا وهويتنا، وهذا لن يتم بالانكفاء والاعتصام بالنفس، إنما بالتفاعل الحيوي والخلاّق الذي صار خياراً استراتيجياً في عالم اليوم.

الدكتور علي القيّم

ابن خلدون المؤسس

في إطار سنة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المتوفى عام ٨٠٨هـ- ١٤٠٦م، التي أعلنت بمناسبة ذكرى مرور (٦٠٠) سنة على وفاة هذا المفكر والعالم العربي الكبير، أقيمت في دول عربية وأجنبية عديدة ملتقيات وندوات ومؤتمرات كثيرة، كان محورها نتاجات هذا الرائد ودوره الكبير في تطبيق المنهج العلمي في الشؤون الإنسانية.

إذا نظرنا إلى ابن خلدون من خلال مرحلته وعصره، يبدو لنا عملاقاً للآفاق البعيدة، وأباً راسخ القدم من آباء الاتجاه العلمي.. بدأ نشاطه في وقت زوال دولة الموحدين، وقيام مجموعة من الدول الصغيرة على أنقاضها، وكان من حظ ابن خلدون أن يتولى مناصب ديوانية في ظل بعض الـوزراء، وكانت له رحـلات إلى الأندلس، وفي كثير من الأحيان كانت السحب تكتنف مقامه، فينتقل من مكان إلى آخر مما أوصله الأمر إلى الزهد في المراتب، والاشتياق إلى العلم، ولعلَّ التجارب علمته الحذر، فينشط البحث والتأليف، وتلعب الظروف لعبتها، ويدور ابن خلدون معها، ويعيش حياته فترة من الزمن، صاعداً إذا صعد من يواليهم، وهابطاً إذا هبطوا ويلقى من البّر والتوجس والشكوك الشيء الكثير، ويغيّر هو أيضاً ولاءاته، فينسجم مع الأجواء الجديدة أو يصطدم.. وتبدأ سفرة جديدة ومرحلة جديدة من حياته المضطربة.

في عام ٧٨٠هـ يشعر ابن خلدون أنه قد وصل في تأليف تاريخه إلى فصول تحتاج

إلى الإقامة في المدن الكبيرة التي تتوافر فيها المراجع، فيراسل سلطان تونس ويعرض عليه العودة إلى طاعته والعيش في كنفه، فيرحب السلطان بالطلب، ويسير ابن خلدون إليه، فينعم عليه ويهيّئ له الإقامة اللائقة، فيعيش مدة مع أهله في تونس، يتم فيها تأليف تاريخه، وبعد أربع سنوات تبدأ رحلته إلى الإسكندرية ثم ينتقل إلى القاهرة فيعجب بها أيما إعجاب، لأنه رأى فيها «حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح فيها القصور والأواوين، وتزهو بآفاقها المدارس والخوانق، وتضيء فيها البدور والكواكب من العلماء..».

ولعلَّ هذا الإعجاب قد أسهم في قراره أن يعيش بقية حياته في مصر. ثم يتسامع الطلبة بقدومه، فينهالون عليه، ويتصل بالأزهر، ويستقبله السلطان، وينعم عليه، ويغدو مدرساً، وقاضي قضاة المالكية، ويذكر أنه قد قام بعمله خير قيام وطهّر المحاكم التابعة له من محترفي الشهادة المرتشين، ونظّم الأمور فيها بحيث أزال الفوضى، ومنع تدخل المتنفذين وتلاعب أصحاب المصالح .. ولكن ذلك لم يوافق أصحاب المصالح فنقموا عليه وخاضوا في سمعته . وإذ بالسلطان يبادر إلى إقالته، فيبتهج ابن خلدون ويتفرغ للدراسة والتدريس والتأليف..



في عام ٨٠٣هـ يجرد السلطان المملوكي حملة يقودها بنفسه لمواجهة «تيمورلنك» الذي احتل مدينة حلب، وانطلق إلى دمشق، ويصطحب معه عدداً من كبار العلماء ورجال الدين، وكان من بينهم ابن خلدون، ثم يتركهم في دمشق ويعود إلى مصر عندما سمع بأنباء مؤامرة تحاك ضد ملكه، ويتفاوض أهل الحلّ والعقد في دمشق مع تيمورلنك المحاصر لها، ويعدونه بتسليم المدينة، ويقع خلاف بين الناس، ويخشى ابن خلدون أن يخلفوا تعهدهم بالاستسلام فتثور ثائرة تيمورلنك، كما خشي أن

ينسب نكث العهد إليه، لأنه لم يكن بين الوفد المفاوض مع علم تيمورلنك بأنه في دمشق، وقد علم بأنه سأل عنه، ولذلك يقرر ابن خلدون أن يلقى تيمورلنك قبل دخوله دمشق، فيطلب تدليته من الأسوار، ويستقبله ملك المغول استقبالاً حسناً، ويتبادلان الحديث، ويطلب تيمورلنك من ابن خلدون أن يكتب له أوصاف بلاد المغرب بتضاريسها وقراها، فيفعل .. وحين يدخل تيمورلنك دمشق يصبح ابن خلدون من مجالسيه، ولكنه لا يصل إلى أكثر من ذلك، ويعود بعد مدة إلى مصر، فيصل إليها منهوباً مسلوباً على يد بعض الأعراب، ولكنه يجد في مصر تعويضاً مناسباً، فقد أعاده السلطان إلى منصب القاضي، ولا يطول بقاؤه في المنصب كالعادة، فيعزل بعد مدة بسبب رشوة أحد منافسيه للمقربين له، ثم يتولى المنصب ويعزل منه عدة مرات، ويتوفى في عام ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م وهو شاغل له.

لقد كان محور تأليف ابن خلدون كتابه في التاريخ «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» وقد ظلّ ينقحه ويزيد فيه حتى أوصل حوادثه إلى أواخر القرن الثامن الهجري. ويعد تاريخه هذا مرجعاً في شؤون المغرب عامة والبربر بشكل خاص .

أما مؤلفه الثاني فكان «المقدمة»، وهو في الأصل مقدمة لهذا التاريخ، والكتاب الأول فيه، وكان كتابه الثالث، «التعريف بابن خلدون»، وكان في الأصل ذيلاً لتاريخ العبر. وله أيضاً مجموعة من الرسائل، وله نتاج شعري أثبت بعضه في «تعريفه» وثنايا كتاب «العبر».

تذكر الدراسات الكثيرة التي كتبت عن ابن خلدون كيف استفاد من عدد من المؤرخين المعاصرين له والمتأخرين عنه مثل: ابن حجر العسقلاني والمقريزي والسخاوي والقلقشندي، وتعد «المقدمة»، وما فيها من رؤى وأفكار وعلم «لبّ التفكير الخلدوني» وما اشتهر عنه عربياً وعالمياً في تأسيسه لعلم الاجتماع، ويبدو فيها ابن

خلدون فيلسوفاً من فلاسفة التاريخ وفلاسفة المعرفة والعلم، وباحثاً اجتماعياً ملماً بكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية، محاولاً أن يتوصل إلى تفسيرات علمية لها، قائمة على اكتشاف قوانينها وعللها..



لقد كتب ابن خلدون «المقدمة» لتكون أثراً يجمع بين العلم والأدب، لذلك جمعت بين بساطة الأسلوب العلمي ورونق الأسلوب الأدبي، وهو الأستاذ الذي يخاطب القارئ كتلميذ له، ويشيد بفضل علم التاريخ من حيث قيامه على الفكر الدقيق والبحث العميق حتى يدخله في علوم الحكمة، ومن حيث أهميته بالنسبة إلى كل من يفكر في شؤون المجتمعات الإنسانية، ويدلي دلوه في القضايا العامة، لأنه يقدّم ما يجب الاقتداء به، ويعلم كيفية التصرف والسلوك، ويعتقد ابن خلدون أن المؤرخ يجب أن يكون دائماً على حذر عند نقله الأخبار، لأن مجال الوضع والتشويه واسع، والنفس الإنسانية سهلة الانخداع لما فيها من نقاط الضعف، ومنهج التحقيق التاريخي عنده هو العودة إلى الثقات والمقارنة بين الأخبار وقياس بعضها على بعض، وأهم ركن من أركان التحقيق عنده هو العلم بطبائع العمران أو القوانين الاجتماعية التي تسير الحوادث بموجبها سيراً منتظماً..

ويعطي ابن خلدون أهمية كبيرة لمرحلة تحقيق الحوادث، حتى إن علم الاجتماع الذي أسسه يعتبره وسيلة من وسائل التحقيق، لما يقدمه من قوانين تساعد المحقق على تبين الحوادث الممكنة والمستحيلة في عصر من العصور، وكذلك التعليل التاريخي أو الكشف عن أسباب الحوادث، فإن من وظائفه في نظر ابن خلدون أن يهدي المؤرخ إلى الحوادث التي يمكن أن تقع في شروط معينة.

تقوم آراء ابن خلدون في السياسة والحضارة على بيانات تاريخية ودينية وجغرافية زوّدته بها ثقافته، وعلى بيانات واقعية مباشرة وعملية زودته بها رحلاته

وتجاربه، وفي «المقدمة». نجد أن ابن خلدون قد اكتشف جوهر الحياة الاقتصادية وهو العمل، فهو يرى أن كسب الرزق يقوم على عمل الإنسان وسعيه، وأما دور الطبيعة من مطر وتربة ومواد خام، فدور معين للعمل الإنساني ولا يغني بنفسه، وازدهار الاقتصاد يكون نتيجة لكثرة الأعمال، وتقهقره يكون نتيجة لضمور الأعمال، والدولة العادلة هي التي تتيح أفضل الفرص لإقبال الناس على العمل وتطوير إنتاجهم وصنائعهم مما يرقى بالحياة الاقتصادية، وأما الظلم فهو على العكس، طريق الخراب والاضمحلال يؤدي إلى انقباض الناس وضمور نشاطهم وانهيار اقتصاد البلاد.. ويقترن صعود الاقتصاد بصعود الدولة، فالدولة السائرة في طريق القوة والنمو تنتج اقتصاداً مزدهراً إلى التوسع والتحسين، وأما الدولة الآخذة في الهبوط والضعف التي نخرها الفساد والفوضى فإنها تؤدي إلى هزال الاقتصاد وعمقه وضموره..



لقد قال «أرنولد توينبي» أشهر مؤرخي القرن العشرين في مقدمة ابن خلدون: «المقدمة هي بلا شك أعظم عمل من نوعه، وضعه عقل واحد في أي مكان وزمان» وقد سبق هذا الرأي دراسات كثيرة كتبها علماء أجانب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كان محورها الإشادة «بالمقدمة» وكتاب «العِبَر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» واللافت أن آراء ابن خلدون ما زالت قادرة -حتى اليوم- على مساعدتنا في مقاربة الإشكاليات التي يعاني منها المجتمع العربي في عالم المتغيّرات والتحولات الكبرى و«صراع الحضارات والثقافات»..

يقول ابن خلدون في المقدمة:

- إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة . ومنهاج

مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ..

- اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنُّس والعصبيات وأصناف التغلّبات للبشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك بطبيعته من الأحوال ..

- اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر، لأن الخُلُق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه، وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار..

- اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره، «والله الغني وأنتم الفقراء»، والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للإنسان ..

- إن الكسب الذي يستفيده البشر إنما هو قيم أعمالهم، ولو قدّر لأحد وعُطّل عن العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلية، وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته، وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه ..

- اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وتصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تراكيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق

الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلّم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع، وهذا هو معنى البلاغة، والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة..

يحظى ابن خلدون باهتمام كبير من قبل الغرب، الذي احتفل بذكرى مرور /٦٠٠/ سنة على وفاته، بإقامة ندوات ومؤتمرات عالمية تذكّر بأعماله وريادته والمكانة العالية التي يحتلها لدى علماء التاريخ والاجتماع وفي دراسات المستشرقين، فقد كان بالنسبة إلى الغرب رجل التاريخ والقانون والاجتماع وأديب وصاحب نظريات وأفكار تتجاوز الزمان والمكان، وتستدعي يقظة وانتباه من قبل الجميع.

منذ أكثر من قرنين من الزمن لم تتوقف دور النشر الأوروبية عن نشر كل ما يتعلق بفكر وعلم دراسات ابن خلدون، وكان آخرها «المقدمة» التي نشرتها مؤسسة «ويلي» البريطانية عام ٢٠٠٦، ترجمة: «فرانس روزنتال». في المقدمة التي كتبها «بروس. ب-لورانس» نجد أي مركز مرموق كان يتمتع به هذا العالم العربي في الأوساط العلمية والاجتماعية العالميّة والمحافل التراثية، خاصة البريطانية التي تعتبره أحد روّاد التاريخ العلمي والاقتصادي والاجتماعي في العالم، وتضعه في الأهمية إلى جانب «دور كهايم» و«كارل ماركس».. لقد كانت كتاباته ودراساته للزمن كله، وللأقوام كلها..

لقد كان الرجل يجيد صناعة التاريخ ويعرف ضوابط وأصول وشروط هذا العلم بعيداً عن الأساطير والخرافات والمرويات التي لا سند لها ولا ضابط..

في فكر ابن خلدون نجد بقوة ذلك التحوّل النوعي في الفكر العربي الإسلامي فقد ولّى زمن الغزوات والفتوحات، وانفض عهد الدولة القبلية، وبدأ عهد الدولة الحديثة التي تبني نفسها أو تحاول أن تبني نفسها على أسس جديدة، وتواجه

مشكلات التمدن والتصنيع بمعطياتها الجديدة، إضافة إلى مشكلات أخرى رئيسة لم يسبق لها مثيل في التاريخ العربي الإسلامي، والنقطة المشتركة في كل ما كتب هي التركيز على الإنسان وقضاياه الاجتماعية والاقتصادية والحضارية.. لذلك بقيت أفكاره ودراساته حيوية وفاعلة ومستقبلية حتى يومنا هذا..



ابن شيخ وحكايات «الليالي»

بعد حياة حافلة بالعطاء والإبداع، والبحث عن مكنونات الثراء والتجدد في التراث العربي.. رحل في الثامن من شهر آب /أغسطس عام ٢٠٠٥ م الباحث والشاعر والمترجم والأكاديمي العربي الجزائري جمال الدين بن شيخ (١٩٣٠-٢٠٠٥).. رحل بعد صراع طويل مع مرض السرطان.. رحل بعد أن أنجز مشروع العمر وهو الترجمة الرائعة الكاملة لكتاب «ألف ليلة وليلة» التي صدر منها الجزء الأول قبل رحيله عن دار «غاليمار» الفرنسية، وقد أنجزها بالتعاون مع صديقه المستعرب الكبير «أندريه ميكيل» بعد عمل وجهد واستغراق دام أكثر من أربعين سنة..

جمال الدين بن شيخ كان أستاذاً كبيراً في جامعة السوربون الفرنسية، وصاحب تجارب شعرية بارزة، ولعلَّ كتابه المعروف لدى القراء «الشعرية العربية» من أهم الكتب التي تناولت الشعر العربي التقليدي وخصائصه الأسلوبية ومضامينه المتعددة، وقد ظلّ شعره وفياً لذاكرته العربية وثقافته التراثية العميقة، وبقي حتى آخر أيامه يكتب الشعر والنثر بعقل تنويري وروح نقديّة مؤمنة أشد الإيمان بالفكر والتراث العربي المتعدد الجوانب، لقد حمل معه تراثه العربي أنّى ذهب.. حمل معه الضوء والصحراء، وأشجار التين والزيتون، ورياح موسم قطاف العنب في الجزائر.. حمل معه أحلامه وقلقه وآماله ومختبر حكاياته الشرقية التي كانت جزءاً من مشاريع كتاباته عن «ألف حكاية وحكاية من الليالي»وكانت الليالي جزءاً من كتابات رائعة أبرز من خلالها وجوه الموروث الثقافي العربي، منها أجزاء من مقدمة ابن خلدون التي تحدث فيها عن «عقلانية ابن خلدون» وقام بنقل «خمريات أبو نواس» إلى الفرنسية

بلغة كثيفة شديدة الحساسية، وفعل الأمر ذاته مع حكاية «الإسراء والمعراج» التي جمعها من مصادر عدة، لتبيان تأثير الثقافة العربية الإسلامية على «الكوميديا الإلهية» لدانتي.. ومنها أبحاثه عن «العروبة والإسلام» وروايته التي حملت عنوان «وردة سوداء بلا عطر»..



في عام ١٩٩١، زرت باريس لأول مرة، وكنت في عداد الوفد السوري، المشارك في اجتماعات المؤتمر العام للمنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم «اليونسكو»، وكانت فرصة للتعرف على جوانب من معالم الثقافة والحضارة والفنون في عاصمة الثقافة والفن في العالم.. وفي مساء يوم ماطر، زارني في نزل إقامتي صديق قديم تربطني به زمالة وصداقة قوية، وعرض فكرة التعرف على الأستاذ الشاعر والباحث والمترجم جمال الدين بن شيخ.. أصارحكم القول بأنني ترددت قليلاً في قبول الدعوة، فأنا لا أعرف الرجل ولست على اطلاع أو معرفة بأعماله ونتاجاته الفكرية أو الشعرية.. قال الصديق: لا تتردد سوف يسرّ جداً بالتعرف إليك وخاصة عندما يعلم أنك تهتم بالتراث العربي وحضاراتنا القديمة وآثارها الخالدة.. وكان اللقاء الذي ما زلت أتذكر حرارته وعمقه وتأثيره في نفسي.. لقد اكتشفت العمق الإنساني في شخصيته الآسرة، والغنى الفكري والثقافي والتراثي الذي يتمتع به هذا الأديب والعالم الكبير..

في هذا اللقاء تعرفت على أشياء كثيرة من روحه النبيلة وجمال حديثه ومنطقه الذي يجلو الغموض ويسطع من بعده كل شيء.. في أدبه وفي شخصه يلمس المرء مزاياه الشخصية، ورؤاه الإنسانية الواسعة المدى، وصفاء ذهنه المتقد، ونظراته التي تسابق ابتسامته.

في هذا اللقاء، تحدثنا عن الثقافة العربية والتراث وضرورة جمعه وتحقيقه

ونشره وحتى ترجمته إلى اللغات الأخرى.. تحدثنا عن الوطن العربي الغارق في النزاعات والتخلف والبؤس؛ وعن عواصمنا التي لم تعد تتسع لحزن القلب.. تحدثنا عن جماليات الأدب العربي وروعة الآثار التي اكتشفت في إبلا وماري وأوغاريت، وعظمة الإنجاز الحضاري في بناء الجامع الأموي الكبير بدمشق ومسرح بصرى الشام وتدمر وقلعة حلب وعمريت وشهبا وغيرها.. تحدثنا عن نثره الذي لا يقل قيمة وأهميّة عن شعره، وعن ترجماته وحكايات ألف ليلة وليلة التي شغلته سنوات طويلة وأخذت من عمره ووقته وصحته الشيء الكثير، وكيف ستكون ترجمتها الكاملة إلى الفرنسية حدثاً ثقافياً كبيراً، لأن «الليالي» التي ما زالت تكتنفها الأسرار، سوف تترجم بلغة تشبه الأصل، وهي الأجمل والأصح والأكمل..

الأخبار الواردة من العاصمة الفرنسية، تقول إن الأوساط الثقافية الفرنسية قد استقبلت «الليالي» بحفاوة بالغة، واعتبرت إحدى الترجمات الأساسية لها في الغرب، منذ ترجمتها الأولى التي تحمل توقيع المستشرق «أنطون غالان» في مطلع القرن الثامن عشر.. وهنا لا بد من الإشارة على أن هذه الترجمة الجديدة لألف ليلة وليلة، قد سبقتها دراسات وأبحاث لجمال الدين بن شيخ حملت عنوان «الكلمة الأسيرة» وكتاب آخر حمل عنوان «ألف حكاية وحكاية من الليالي» بالاشتراك مع المستعرب «أندريه ميكيل» و«كلود بريمون».

عندما علمت مقدار الحفاوة التي استقبلت بها الترجمة الجديدة لألف ليلة وليلة، تذكرت مقولة الكاتب الإيطالي الشهير «ألبرتو مورافيا» التي همس بها إلى أديبنا الراحل الكبير الدكتور شاكر مصطفى وقال فيها: «لاشيء يمنع الفكر العربي من أن يصبح من الأفكار العالمية، يكفي أن لديكم ألف ليلة وليلة.. إنه كتاب عبقري!».. ودراسات جمال بن شيخ أبرزت مكنونات هذه القصص والحكايات، وأكدت على عوالم الأحلام والخيالات والرموز والقيم التي تلتقي وتفترق وراء ثوبها الفضفاض الممدود، وشخصياتها من شهرزاد وشهريار وقمر الزمان والسندباد والشاطر

حسن وعلي الزيبق ودليلة المحتالة وعلي بابا وغيرها ممن أضحوا شخصيات عالمية أكثر حياة وحيوية من كثير من الأحياء، وأكثر وضوحاً وشهرة من شخصيات كثيرة في التاريخ العربي والإسلامي.. حكايات وقصص حملت المتعة والسلوى والبهجة والحبور إلى ملايين البشر قروناً بعد قرون، وما زالت قادرة على الفعل والمشاركة والتحرك بيننا حتى يومنا هذا..

لقد بحث جمال الدين بن شيخ وغيره من الباحثين والدارسين العرب والأجانب منذ زمن طويل عن أصل ومؤلف هذه «الليالي».. بحثوا عن جذورها في الزمان والمكان والأمم والشعوب، وتوصلوا إلى أنها بنت عدد من العصور والأزمنة، وبنت عدد من البلدان، وهي فيض من الخيال ربما أسهم في صوغه وجمعه مئات من المؤلفين، إضافة إلى أن لها أكثر من نص واحد، وأكثر من مجموعة متفاوتة كل التفاوت من الحكايا..

قالوا: إن النواة الأولى لهذه «الليالي» وجدت في الهند، ثم نقلها الفرس في كتاب «هزار أفسانة» وهذه النواة شاعت وانتشرت في القرن الرابع الهجري باللغة العربية في العصر العباسي وأضيفت إليها القصص البغدادية الشيقة، ثم أضيفت إليها حكايات جديدة في أواخر العهد الفاطمي في مصر، ولعلَّ آخر ما كتب من «الليالي» كان في أوائل العهد العثماني قبل خمسة قرون، حسب رأي أستاذنا الدكتور شاكر مصطفى (رحمه الله).

هذا الكم الكبير من حكايات ليالي ألف ليلة وليلة، جمعها الراحل جمال الدين ابن شيخ، وانكب على دراستها وتدقيقها وتحقيقها أكثر من أربعين سنة، حتى استقام له النص الشامل لها، ليكون في طبعته الفرنسية الجديدة رمز الحضارة العربية في الغرب.. لقد أراد في عمله الكبير هذا أن يكون الحلم ثميناً، وأن يكون الخيال كنزاً،

ويكون المستحيل بوابة العالم، وقد كان له ما أراد، فلم يرحل قبل أن يرى بعينيه، ويلمس بيديه حلمه «ألف ليلة» قد تحقق..



في دراسته العميقة عن ألف ليلة وليلة يؤكد الراحل جمال الدين بن شيخ على أبعاد البطل الشعبي وقصص الشطّار وحكاياتهم، فيضع أعمالهم في ميزان الأخلاق والعلاقات العاطفية والاجتماعية والاقتصادية، ويرى فيهم غير ما يراه المستشرقون أمثال «نولدكه» و«ديغويه» و«أويستروب» و«ماكدونالد» و«ليتمان» وغيرهم، فقد رأى أن هؤلاء الأبطال والعيّارون والشطّار والفتيان كانوا يتمتعون بمفاهيم ومواقف وطرق خاصة في الحياة، لهم قيمهم وأفكارهم النبيلة التي تتفق مع طموحات الشعب ورفضهم الاستغلال والظلم والاستعباد..

إن الطابع العام الذي يحكم أبطال حكايات «الليالي» ويسيطر على مغامراتهم وقصصهم وأفعالهم هو خلائق الفروسية والمروءة والشهامة والنخوة والإيثار والكرم والبذل والعطاء واحترام المرأة وتقديرها والدفاع عنها، ورعاية الجار وصلته وإغاثة الملهوف وعون الضعفاء ونصرة المظلومين ومساعدة الأرامل، والعفو عن الخصوم إذا استعانوا بهم والدفاع عن الغرباء الشرفاء وبسط حمايتهم عليهم وتزويدهم بالمال اللازم حتى يعودوا من غربتهم.. ويرعون أسرة من يغيب منهم حتى يؤوب أو يموت، فيتعهدون أولاده وزوجته بالتربية والإنفاق المستمرين..

هكذا قدّم «ابن شيخ» أبطال ألف ليلة للمجتمع الغربي بعيداً عن الدراسات والأبحاث القديمة التي ظلمتهم وقلّلت من قيمتهم ومن شأنهم، فهم يصدرون في سلوكهم عن تكافل اجتماعي أصيل عرف به العربي منذ عصور ما قبل الإسلام، وهم فوق هذا كله معتزون بأنفسهم وطبقتهم غاية الاعتزاز، مقبلون على الحياة في تفاؤل أخاذ، وثمة خصوصية أخرى يمتازون بها وهي الحذق والبراعة والحيوية

وخفّة الحركة والقدرة على التغلب على الأعداء والخصوم، وسرعة الخاطر وجسارة القلب وخصوبة الخيال، وهم في كل هذا لا يسعون في سلب أحد لذات السلب ولا يسرقون لغاية السرقة ولا يستهدفون شراً لذات الشر بفرد أو جماعة..

هذه الشخصيات والأبطال بكل أبعادها الإنسانية والشعبية التي أكد عليها «ابن شيخ» هي التي جعلت الغرب يقبل على «الليالي» منذ أكثر من ثلاثة قرون، وجعلت الكاتب والفيلسوف الفرنسي «فولتير» يقول: «إنه لم يزاول القصص حتى قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة». وجعلت الروائي الفرنسي الشهير «ستاندال» يتمنى أن يمحو الله من ذاكرته ألف ليلة ليعيد قراءتها من جديد، وجعلت «غوته» أكبر شعراء ألمانيا يعتبرها إنجيله القصصي..



في لقائي مع جمال الدين بن شيخ لمست جيداً مدى حزنه لأنه عُرف في الغرب أكثر مما عُرف في وطنه العربي، وعُرف باللغة الفرنسية أكثر بكثير مما عُرف بلغته الأم التي أكد باستمرار حبّه لها وحرصه الشديد في مجمل كتاباته على الانتماء إلى منظومتها الثقافية والأدبية والتراثية، وهذا ما نجده بصورة واضحة وجليّة في كتابه الرائع «الشعرية العربية» الذي ترجم إلى العربية ونشر في الدار البيضاء ١٩٩٦، حيث يؤكد عظمة الشعر العربي ومكانته التليدة..

«الشعرية العربية» كتاب في الثقافة العربية، ومرافعة معرفية عالية الطراز عن الشاعر كما كان في أدواره المثلى، من منطلق «أن أدب اللغة العربية القديمة من العصر الجاهلي حتى بداية القرن العشرين هو شعري أساساً، وأن الشعر كان النتاج الوحيد لهذه الثقافة وكان مناخها الأول، وإنه كان التعبير الأكثر دلالة»

في كتاب «الشعرية العربية» يبحث ابن شيخ في كتب التراث العربي عن الذين

كتبوا حول الشعر أو نظروا إليه، أو استحالوا نقاداً له مثل: الآمدي- ابن طباطبا- ابن قتيبة- ابن المعتز- الجاحظ- الجمحي- الجرجاني- العسكري.. ليقدم من خلالهم محاكمة للعقلية المؤسساتية التي كتبت في الشعر، وأعدمت روح الشعر طويلاً، ومقاضاة للذين أبقوا كثيراً على هذا الأرشيف الكبير المهدِّد لأي محاولة شعرية ناهضة، ومسعى لتحريك ما بقي من النفس للشعر، ومن روح قادرة على إنعاش ثقافة مغايرة.

ابن شيخ يؤكد في دراسته على الرباط الحميمي بين الشعر كإرادة وعي نافذة للعالم، والمتخيل بوصفه العالم المتعدد الأبعاد، ويرى أننا ما نزال في مرحلة يبدو فيها المتخيل تهديداً تخشاه الثقافة السائدة، وقد ظل دائماً «مشبوهاً» لأنه فعل حرية وتطور في التفكير الإنساني، وهو في الوقت نفسه علامة قصوى من علامات الاختلاف في حقول المعرفة كافة، والمثقف العربي كان وما زال محدداً سلفاً بأيديولوجيته ومتخيله.. مقنّن بتلك «الأيديولوجيا» التي تقدم أجوبة عن كل شيء، حتى عن الأحلام؟!



التنوّع والسياسات الثقافية

ورشة العمل الإقليمية التي أقامها مكتب اليونسكو بيروت بين ٢١ و٢٣شباط/ فبراير ٢٠٠٦، حول «السياسات الثقافية» وكلفت بتمثيل سورية فيها،كانت فرصة جيدة لحضور الحوارات والمشاركة في فهم جيد للمفاهيم والجوانب المرتبطة بهذا الموضوع الحيوي الذي يعني التعمّق في مفهوم السياسة الثقافية، ومعرفة التدابير المطلوب اتخاذها لتحديد العناصر المختلفة لها، فضلاً عن توزيع المهام بين الدولة والقطاع الخاص، والأنشطة الثقافية التي يتعين جمعها ووصفها..

لقد شكّل إنجاز إحصاء ثقافي نقطة أساسية لنقاشاتنا مع الخبير الدولي الدكتور رضا تليلي مدير مكتب الاتصال الثقافي في تونس، لأن الإحصاءات ضرورية جداً في عالم اليوم لمعرفة الطاقات الكامنة التي تسمح لبلد ما، مثل سورية أو غيرها من دول العالم الثالث، بتحسين أداء سياسته وتكييفها مع احتياجاته وواقعه وآفاقه وطموحاته، وهذا ما أكدته كلمة المهندس جوزيف كريدي، مسؤول البرامج/ قطاع الثقافة- مكتب اليونسكو- بيروت.

حول السياسات الثقافية والتنوع الثقافي، كانت ورقة العمل التي تقدمت بها السيدة ليلة رزق الخبيرة في السياسات الثقافية، حيث أشارت إلى تداخل التعبيرات الثقافية في صلب التكوّن الاقتصادي والاجتماعي للمجتمعات الحديثة، فأضحت تلك التعبيرات الثقافية المكان الأنسب لتزاوج الإبداع الفردي مع القيم المتوازنة عبر التاريخ للمجتمعات البشرية، وهذا التعبير على اختلاف أشكاله الفنية، هو ليس

فقط شاهد على خصوبة التراث الوطني لشعب من الشعوب، بل هو، بما يحمل من أصالة وتأكيد على الهوية، عامل أساس في تطويره..

إن التراث الوطني للشعوب هو حصيلة طبيعية لتراكم المساهمات الإبداعية للأجيال المتعاقبة على مدى العصور التي تحمل بذلك حركة العالم المتجددة، غير أن هذا التراث الذي يشكّل المعنى الأساس والحافز المتجدد للتطور الثقافي للأفراد، مادياً كان أم غير مادي، أخلاقي أو فكري، لا يمكن ترسيخه في أنماط معلّبة وأمكنة محددة مهما ارتدت من قدسية، كما أنه لا يمكن حصره في دور المرجع الوحيد الذي يكتسب صدقيته من كونه ماضياً.

إن التعبير الثقافي هو حتماً متعدد ومختلف، حيث إنه نتاج مبادرات فردية، ولأنه تعبير عن تنوع المجموعات التي يتألف منها المجتمع، وهو الآتي في سياق «ديناميكية» خصبة وإبداعية، يحمل في طياته أحياناً رسائل مزعجة نظراً لكونه سجالياً بالأساس، رافضاً للأفكار الجاهزة.. إن ازدهار التنوع الثقافي، يستدعي بالتأكيد مناخاً من الحرية يتعارض مع أنظمة الرقابة والممنوعات.. إن الشعر والأدب والموسيقا والغناء، بل أيضاً الرسم والمسرح والسينما هي أعمال وروائع لفاعلين ومؤثرين في المجال الثقافي.. إنهم شهود عصرهم المميزين.. إنهم التعبير الصادق للوجع العام والواقع الذي نعيشه.. هم بريق الأمل ومبدعو أشكال تعبيرية جديدة.. فالتعبير الثقافي هو تعبير أيضاً عن ذاتنا والصورة التي نقدمها للآخر عبر مراحل تطورنا المختلفة.



في وقتنا الراهن، في عصر «العولمة» والمتغيرات الدولية المتسارعة بشكل مذهل في عالم المعلومات ووسائل الاتصال، لم يعد ممكناً إغلاق الدول حدودها.. لقد شكّل هذا التطور فرصة نادرة سانحة للتعبير الثقافي بالتبادل والانتشار متخطيّة سيطرة الدول.. إن كثافة التبادل الثقافي إضافة إلى دوره في تحويل نظرتنا الجمالية، وأذواقنا

وطرق تفكيرنا، منح التعبير الثقافي قيمة تجارية، فتجارة المكتسبات الثقافية تجعل منها منتجات استهلاكية، وتحوّل إنتاجها إلى صناعة ثقافية في ازدهار متصاعد، وقد اتسمت المكتسبات والخدمات الثقافية بطبيعة مزدوجة ذات وجه اقتصادي وثقافي.

إن ثقافة أي مجتمع هي حصيلة خبرات جماعية يشارك فيها الناس على مرّ الزمن، وبهذا المعنى فإن إدارة الثقافة هي أيضاً وسيلة جماعية تضم أشكالاً وآليات تميّز الشأن العام في كل بلد، وغالباً ما نستنتج أن عقم الإدارة العامة، يكمن في قلّة خبراتها والنقص في الإمكانيات الموضوعة في تصرّفها، علماً أن التدابير والسياسات الثقافية يلزمها لتغدو فاعلة، ليس فقط الإمكانات المادية الضرورية بل أيضاً وخصوصاً طريقة ونهج إدارة يعتمد على كوادر وخبرات مهيأة ومطّلعة على أحدث تقنيات الإدارة الثقافية، وهذا ما يسمح ليس فقط بالتخطيط والتقييم، ووضع مشاريع بعيدة المدى، بل يسمح أيضاً بتلافي، أو الحد من نتائج القرارات الخاطئة..

لقد انطلقت ورشة العمل، من مفهوم الثقافة، التي رأت أن ينظر إليها بوصفها مجمل السمات التي تميّز مجموعة بشرية ما، روحياً وفكرياً ومادياً، أي الخصوصيات التي يتصف بها المجتمع، كما أنها تشمل إلى جانب الفنون والآداب، طرائق الحياة وأساليب العيش ومختلف الصناعات والفنون ومنظومة البنى الاجتماعية من قيم وتقاليد ومعتقدات.. وتتخذ الثقافة أشكالاً متنوعة عبر الزمان والمكان، ويتجلى ذلك في الخصوصيات التي تميّز المجموعات والمجتمعات الإنسانية، من خلال التنوع الثقافي الذي يعدّ مصدراً للتبادل والتجديد والإبداع، فهو ضروري لتواصل الجنس البشري، والتنوع الثقافي هو التراث المشترك للإنسانية، لذلك يجب التأكيد عليه كعامل ثراء للمجتمعات الإنسانية، بينما يقتصر المفهوم الضيق للثقافة والمتداول عند بعض «المثقفين». على الفنون والآداب والأنشطة الفكرية، ويحصر هذا التعريف

في «النخبة»، وهو لا يفيد في فهم خصوصيات الشعوب وهويتها الثقافية من حيث تطويرها وقابليتها للتكيف مع محيطها..

لقد اعتمدت منظمة «اليونسكو»، في إعلانها الدولي للثقافة المنبثق عن قمة «مكسيكو» للسياسات الثقافية سنة ١٩٨٢، مفهوماً موسعاً للثقافة على أنها: «كل مركب من عناصر روحانية ومادية وفكرية ووجدانية، يختص بها مجتمع أو مجموعة من الناس، وهو لا يشمل الفنون والآداب فحسب بل أيضاً أنماط الحياة والحقوق الأساسية للإنسان ومنظومة القيم والتقاليد والمعتقدات».

من هذا نرى أن الثقافة في المفهوم العالمي تتصدر الحياة الاجتماعية، بل هي متجذرة فيها، وهذا ما يفسّر صلابتها وقابليتها في الوقت نفسه للتغيّر والتطور والتأثر بثقافات أخرى، وبما أن المجتمعات تعيش في عزلة عن بعضها البعض، فإن موقف المجتمع من ثقافته، أي تقييمه الإيجابي أو السلبي لها، يتأثر بعلاقته مع المجتمعات الأخرى.



لقد تركزت مناقشات ورشة العمل حول الأسس التي يجب أن تقوم عليها الثقافة فهي:

- حق إنساني وغاية في التخطيط التنموي الشامل، بحيث لا يتم تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية إلا بالاستناد إلى تخطيط ثقافي يحدد الأهداف المستقبلية وآفاقها.

- التراث الحضاري العربي الإسلامي، يشكّل الركن الأساسي في تكوين الثقافة العربية.

- ديمقراطية الثقافة، باعتبار أن الثقافة تنبع من الجميع، ولأنها الزاد الفكري والروحي للجميع.

- عصرية الثقافة،بمعنى تحديد الثابت والمتغيّر في الثقافة العربية الحالية، واستيعاب تيارات العصر، ومواكبة تحولاته تحديثاً وانفتاحاً، مع الحفاظ على الأصالة والهوية.

- إنسانية الثقافة وعالميتها. وهذا يعني متابعة تقاليد الفكر العربي في التفاعل مع الثقافات الأخرى.

- مسؤولية الدولة ومؤسسات القطاع الخاص في التخطيط الثقافي الشامل من منطلق أن السياسات الثقافية هي مجمل الإجراءات والآليات التي تقوم بها المؤسسات والهيئات المعنية بالنهوض بالتراث الثقافي وحمايته وتنمية التعبيرات الفنية والإبداعية المختلفة.

- تعنى السياسة الثقافية بالأنشطة والصناعات الثقافية في مراحلها المتعددة، وتهدف إلى بناء خطة وطنية للنهوض بالتنمية الثقافية، وإسهام شرائح المجتمع كافة في الحياة الثقافية.

السياسة الثقافية يجب أن تنطلق من تخطيط ثقافي شامل تتوافر فيه: إسهام العناصر المبدعة والخبرات الثقافية، وحرية الإبداع، وحرية التعبير عنه، وتوافر التمويل القادر على القيام بالمشاريع الثقافية الكبرى، وإصدار القوانين والتشريعات الناظمة للعمل الثقافي، وإزالة العقبات أمام التطور الثقافي، والقيام برصد العمل الثقافي وطرق تفاعله مع العصر، وتوفير مرافق النشر ورعايتها، وإزالة العقبات أمامها..

السياسات الثقافية لا تكون واقعية قابلة للتطبيق، إن لم تكن نابعة من احتياجات المجتمع الحقيقية، وهذا يتطلب القيام بعمليات إحصائية وافية لواقع الثقافة ولنوعية حاجاتها، حيث يمكن أن نجد المطلوب والممكن والمستحيل في ذلك الواقع.

السياسات الثقافية، يجب أن تنظر إلى الحداثة، ليس في إطار نقل للأشياء أو الطرائق أو التيارات الحديثة، بل في إطار دخول بالثقافة في ضمير العصر، وتجاوب إيجابي مع مدّه وجزره وأجوائه، وإبداع يأخذ الزمن بعين الاعتبار،كما تستفيد من تراكم المعرفة الهائل في توسيع الآفاق، ومن تقدم التقنية في الوسائل الإبداعية.

وهنا يبرز دور التخطيط المستقبلي الذي يجب أن يتصدى للمهمة الصعبة في إقامة التوازن بين التأثر والأصالة، بالعمل على استيعاب التطورات التقنية جميعاً على أسس إبداعية لا تقليدية، وأن يحقق التحولات الثقافية من خلال سمات الحضارة العربية الإسلامية والحفاظ على الهوية الثقافية.



كيف يمكن أن تتفاعل السياسات الثقافية مع «العولمة»؟! حول هذا الموضوع كان للمشاركين في ورشة العمل، وقفة متأنية، من منطلق أن «العولمة» تحولت إلى همّ فكري ومحوري في الساحة الثقافية العربية خلال السنوات القليلة الماضية..

يذهب الكثير من المفكرين والباحثين العرب إلى أن ثقافة «العولمة» هي غزو هدفه الدس والتشويه والاستلاب واستهداف قيمنا الحضارية والدينية والسلوكية، وبالتالي يكون الرد عليها الانغلاق والتقوقع على الذات، ويحمل هذا الموقف الكثير من الخلط والغلو.. والخوف هنا من المبالغة في النزعة الدفاعية الاحتمائية واتخاذها سداً منيعاً يحول دون الانفتاح والتجدد.. وهناك من يدعو إلى المجاراة والتبشير بالعولمة بصفتها عقيدة العصر الراهن ونمط التحديث الوحيد المتاح للعرب إن هم أرادوا اللحاق بالأمم المتقدمة.

لقد أوضح أكثر من مفكر عربي مخاطر «العولمة» حيث تقوم بتعميق النظرة الفردية والتفكيكية للأفراد، ويهيم الناس في فضاء كوني بلا روابط أو عقل جمعي،

ومن الواضح أن حق الاحتماء بالشخصية الحضارية والهوية الثقافية شرط أساس للتعامل مع تحديات العولمة والثقافة لا تتجدد إلا بالحوار والانفتاح والتواصل..

إن الثقافة العربية بحاجة إلى أن تبذل الجهود الكبيرة في جميع الميادين حتى تحتفظ لنفسها اليوم بالنفوذ الذي كان لديها في القرون الماضية، وهذا لن يكون إلا في حال وضع استراتيجية وطنية شاملة لتجديد وإحياء وتنمية الثقافة العربية.

صحيح أن هناك ركوداً ثقافياً، وانتشار حالة إحباط جماعي، وانصراف المجتمع عن الثقافة، أمام تراجع المشروع التنويري العربي، أمام تحديات «العولمة».. إلا أن هذا الصراع هو الذي يدفع بالإنسان العربي لإعادة اكتشاف نفسه واكتشاف تاريخه وثقافته وإنسانيته..

وحتى نستطيع فهم الدور الذي تقوم به الثقافة في هذا المجال، لابد من فهم المؤثرات التي تفعل فعلها في قيام المثقفين بدورهم، وبالتالي جعل الثقافة قائمة ومثمرة وفي نمو متوازن، ويمكن حصر هذا في نقاط ثلاث:

أولاً: تفهم دور الواقع المعاش، بما يمثله من معطيات مادية ومعنوية في قيام ثقافة مزدهرة ومتطورة.

ثانياً: تفهّم دور الرؤى الاستشرافية التي يقدمها المفكرون والأدباء في تحديد النموذج الثقافي المرغوب في تحقيقه، وسنجد أنها تتمثل في مجموعة الغايات المستخدمة في التنمية الشاملة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والقيم الأخلاقية، لتؤدي دورها في إغناء وتوجيه السلوك والتأثير في المجالات الإبداعية المختلفة.

ثالثاً: تفهّم دور الوسائل والأدوات المتاحة التي بوسعها أن تنقل الواقع إلى النموذج المطلوب..

إن ما تحتاجه الثقافة العربية في عالم اليوم، هو ابتكار منظومة عمل جديدة، لتلعب دورها في نظام العالم المتغيّر، ضمن منهجية نقدية تهدف إلى التحديث، ويكون بوسع هذه الثقافة استيعاب حقائق الواقع، ومنه الماضي، وتطلعات المستقبل، لذلك من المفيد جداً تشجيع الإبداع ومبادرات الأفراد والمؤسسات، والإبداع هنا لا يعني قطاعي الفن والأدب فحسب، بل يتعداهما إلى طيف عريض من البحث عن الحلول لكل المشكلات الإنسانية، فالإبداع المتكيّف مع المعطيات البشرية والطبيعية والبيئية من ناحية، ومع المعرفة والخبرة من ناحية أخرى يمكن أن يساهم في التقدم المادي والمعنوي للبشرية، فالعبرة ليست في التحكم في التقانة، وإن كانت مهمة، بل في امتلاك المهارات الإنسانية والاجتماعية والمعرفية في الوقت نفسه، فالغاية المنشودة -اليوم- في عالم معقد ويزداد تعقيداً مع الأيام هو إثراء الإبداع والذكاء الجماعي من أجل مساعدة الأفراد، على تصور آليات جديدة للتعايش الجماعي والعمل معاً لبناء مستقبل مشرق تتفاعل فيه عناصر المعرفة والثقافة والتنمية.



الثقافة الإسلامية وتحديات العصر

متابعة للجهود الرامية إلى تفعيل الاهتمام بالاستراتيجية الثقافية في العالم الإسلامي، وبدعوة من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وفي مقرها بمدينة الرباط، «عاصمة المملكة المغربية» عقد بين ٢٢ و٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٥م، الاجتماع الخامس للمجلس الاستشاري لتنفيذ هذه الاستراتيجية، وحضرت هذا الاجتماع بصفتي عضواً ومقرراً، وكانت فرصة جيدة لمناقشة وتعديل وثيقة مهمة ومرجعية للعمل الثقافي الإسلامي المشترك، وآلية تفعيلها في زمن تتكاثر فيه المخاطر والتحديات التي تهدد الهوية الثقافية للأمة، ونلمس حيرة وارتباكا أمام الحضارة الغربية المتميزة بأدواتها ووسائلها التكنولوجية التي تزداد فاعليةً وانتشاراً، ولذلك فإن المثقف قبل غيره– يشعر باضطراب الرؤية، وبالحاجة إلى مراجعة إرثه الثقافي، وإعادة توظيفه لخدمة قضاياه في هذه المرحلة، لكي يستعيد ثقته بنفسه..

لا نبالغ إذا قلنا إن القرن الحادي والعشرين هو عصر التحولات الكبرى في تاريخ الإنسانية، حيث أصبح فيه امتلاك العلم والمعرفة بديلاً عن امتلاك الثروات الطبيعية، وغدت فيه قوة العلم والمعرفة بديلاً عن قوة رأس المال، تقدمت فيه العقول المفكّرة على الأيدي العاملة، ومن أبرز التغيرات الجذرية في الميدان الاقتصادي تغيّر الأهمية النسبية لقوى الإنتاج وعلاقاته، فمع «الثورة المعلوماتية» انتهى التمييز التقليدي بين العمل اليدوي والعمل العقلي والعمل الإداري، كما انتهى التفريق بين التجارة والإنتاج والخدمات، ويتكامل الاقتصاد في بعديه المادي واللامادي، فكل نشاط أساس في الثورة التكنولوجية الجديدة، ينطوي على جزء عقلي كبير، وعلى

جزء إداري وجزء يدوي مصاحبين له، ويتضمن كل نشاط اقتصادي عناصر إنتاجية وخدمية وتسويقية متداخلة، وإن اختلفت نسبتها. ومع هذه الثورة يصبح الإنسان هو الإنسان متعدد المهارات، والقادر على التعلم الدائم، والقابل للتدريب والتأهيل في حياته العملية..

إن تغيير هذا الواقع يتطلب استراتيجية للإصلاح محكمة المضمون، واقعية التحليل، عميقة التصور والاستنباط، تصاحبها دراسة استشراقية دقيقة وبعيدة المدى، وتطوير للبنى الاجتماعية و السياسية والاقتصادية والتربوية التي تشكل مضمون هذه الاستراتيجية وأهدافها وغاياتها.. لذلك كان التركيز على الدور الذي يمكن أن تلعبه الثقافة بوصفها الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي والتمدن والازدهار الحضاري.



لقد أكدت استراتيجية الثقافة الإسلامية على موضوع التحدي الكبير الذي سيواجهه العالم في السنوات القادمة، هذا التحدي الذي هو بالأساس تحدٍ ثقافي، وقضايا العالم الإسلامي تلح على تعزيز أسباب حضوره الفعّال وسبله في ساحات الحراك الدولي، وربما أصبح وجود الشعوب في المستقبل مرهوناً في المقام الأول بوجودها الثقافي.. ومع كل هذا ما زال «الشأن الثقافي» يعد قطاعاً ثانوياً يفتقر إلى سياسات وبرمجة واضحة قائمة على استراتيجية متكاملة مع باقي القطاعات الحيوية، الاجتماعية، التعليمية، الاقتصادية، السياحية، على أساس مشروع واضح للعالم، ويعود غياب هذه السياسات أيضاً إلى ضعف الميزانيات، ومحدودية الموارد البشرية المرصودة لهذا القطاع..

تعميق وتعميم المعرفة الموضوعية والنقدية بـ«الذات الحضارية» وتجديد الخطاب الفكري في كل مظاهره السياسية والدينية والقانونية والاجتماعية والفنية،

وتعميم معرفة موضوعية ونقدية بـ«الآخر»، وتدعيم دور مؤسسات الإنتاج الثقافي، والتفاعل فيما بينهما.. هو الضمان للتفاعل بين الموروث والمستجد، بين النقل والنقد، وبين «إعادة الإنتاج» والإبداع، وبين ما هو «ذهني» وبين ما هو اجتماعي، تاريخي، واقعي..

إن غياب التوظيف المالي اللازم في البحث العلمي وتطوير التكنولوجيا، سيبقيان دول العالم الإسلامي، عاجزة عن حل أزماتها الكثيرة، وسيحرمانها من أجيال متعاقبة، لأنهم سيسلكون طريق الهجرة للاستقرار في مراكز البحث العلمي خارج العالم الإسلامي، وتتوقف قدرة المجتمعات الإسلامية على التفاعل الإيجابي مع مرحلة الحداثة الثانية التي تعيشها المجتمعات الصناعية المتطورة في عصر «العولمة»..

لقد تناقص دور المادة أمام الذكاء الإنساني والآلي، وانتقال المجتمع الإنساني المعاصر من مجتمع إنتاج إلى مجتمع معرفة، للذكاء فيه الدور الأساس في كل ابتكار، وأسبقية على المادة والرأسمال في كل إنتاج، بل نجد التسابق والتنافس على الابتكار في مجال الذكاء الصناعي، السمة الأساسية للصراع التكنولوجي بين الدول الصناعية المتقدمة..

الثقافة أصبحت اليوم بفعل التقلّبات والتفاعلات والتغيّرات أهم عامل في مجال العلاقات بين الدول والشعوب، لذلك يجب علينا أن نكون على بصيرة من الناحية الثقافية، وأصحاب استراتيجية محكمة متطورة يكون منطلقها «التنمية» التي قال عنها «رونيه ماهو» المدير العام السابق لمنظمة اليونسكو:

«التنمية هي العلم حين يصبح ثقافة»

حيث إن التنمية تحتاج لنفس ما تحتاج إليه الثقافة من توفر مناخ منفتح، وجوّ

سليم من النقد والحرية والتعبير والإبداع، وبغيابها تنزوي الثقافة، وتغيب التنمية الهادفة، ولا يجوز النظر إلى التنمية بوصفها بعداً كمياً، دون وصف بعدها المتمثّل في تلبية متطلبات الإنسان الروحية والثقافية بجانب حاجاته المادية، فالثقافة تتجلى في التنمية بوصفها بعداً أساسياً من أبعاد العملية التنموية، وهذا ليس إقحاماً للثقافة في مناطق وعوامل لا سلطان للثقافة عليها، أو خارجة عن نطاقها، ولكنه تصحيح للأوضاع، وإعادة لها إلى الطريق القويم بوصف الثقافة جزءاً من مكونات الإنسان، وركناً أساساً في تكوينه، وقد أفردت منظمة «اليونسكو» للبعد الثقافي للتنمية مساحات واسعة، حيث أكدت أن التنمية يجب أن تركز على الإنسان وكيانه المتكامل، وأن التنمية تنطلق من الثقافة، وبأن الإنسان هو غاية التنمية، وبأنها نتاج ثقافته ولهذا فإن التنمية يجب أن تركز على القيم الثقافية المتعددة والمتنوعة للمجتمعات..



إن صراع الثقافات داخل سياق المنافسة الدولية وما يحركها من برامج علمية وتكنولوجية وتربوية في شتى أنحاء العالم الصناعي طرح السؤال التالي:

«هل العلم جزء من الثقافة؟!»

والجواب المؤكد:

إن مستقبل الثقافة لا يستقيم دون دراسة العلوم وتطبيقاتها التكنولوجية..

لقد أضحى على العلم أن يعد نفسه جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الذي تطور بين أحضانها، وتلاحم العلم والثقافة سنّة من سنن الكون الإلهية، وتأثير كل منها على حاضر ومستقبل الآخر عامل أساس في تطور الحياة البشرية، وأي استشراف لمستقبل الثقافة لا يمكنه أن يتم بشكل موضوعي وعلمي إلا إذا كان يوازيه ويصاحبه استشراف لمستقبل العلم والتكنولوجيا.. لذلك الثقافة لم تعد شأن الدولة وحدها، بل

هي شأن الجميع، وهي قاسم مشترك بين كل القطاعات الأخرى، والإبداع يشترط التنوع والتعددية، والثقافة إبداع، وإعادة إنتاج وعطاء مسترسل ومتجدد بفضل الاكتشاف والابتكار..

أمام هذا الواقع، والتحديات الجسام التي يواجهها العالم الإسلامي، بأشكال مختلفة، سواء تحت غطاء تيار العولمة الجارف، أو تحت شعار «مقاومة الإرهاب والتطرف» أو التبشير بمقولات مثل «الحوار الثقافي» أو «الحوار بين الحضارات» وغيرها.. إلى تقريب نظر شعوب العالم الإسلامي حول القضايا المختلفة، وقبول تنوّع الآراء. وفي إطار هذه التحديات تتبلور أهمية الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي وأهدافها الأساس التي تفتح أمام الثقافة آفاقاً جديدة للتعبير عن نفسها في الزمان والمكان والحضور بين الثقافات المعاصرة.

مفهوم تحديث الثقافة ينطوي على نظرة مستقبلية تميل إلى تحديد المستقبل وأبعاده وخصائصه ومقوماته، وتوجيه الثقافة بحيث تستطيع الاستفادة من عناصر المرونة، وتنسجم مع مقتضيات ومتطلبات المستقبل.. لذلك فإن البعد التاريخي لتحديث الثقافة هو بعد مستقبلي يأخذ في الاعتبار ما ينبغي أن تكون عليه مفردات الثقافة، بالمعنى الواسع للكلمة، في المستقبل القريب والبعيد، والصورة التي سوف يكون عليها المجتمع الإسلامي والمجتمع العالمي، والتغيرات التي سوف يكون عليها المجتمع، والتغيرات التي سوف تطرأ على العلاقات بين المجتمعات والثقافات المختلفة، ومجالات الإبداع التي يحتمل ارتيادها نتيجة لهذه التغيرات والأوضاع الجديدة.

إن فكرة «تحديث» الثقافة في العالم الإسلامي، تنبع من العمل على تحقيق ذلك التغيير في ضوء خطة محددة ومرسومة، تأخذ بعين الاعتبار التطورات التي طرأت على الساحتين الإسلامية والدولية، وتستوعب المتغيّرات، وتقترح الحلول للمستجدات، وتتجاوز في تطلعاتها نطاق الثقافة بالمعنى الضيق، أو المعنى الذي يعني

«طبقة النخبة» إلى المعنى «الأنثروبولوجي» الواسع والأكثر شمولاً، وما ينتظر أن تكون عليه صورة الثقافة بل وصورة العالم بصورة عامة، فمفهوم «التحديث» إذاً هو مفهوم متحرك، يستلزم التغيير والمراجعة والتقييم المستمر للنهوض بالثقافة الإسلامية، وليس للقطيعة مع تراثها ورموزها الفكرية، ثم لتطويع التراث الحضاري والتراكم الفكري الذي يميزها بحيث يسهم في تطوير الثقافة وتحديثها، وإدماج العناصر الثابتة فيه مع العناصر المكونة للثقافة الراهنة، لتظهر تلك العناصر التراثية هي ذاتها في ثوب جديد يتلاءم مع متغيرات العصر ومتطلباته وتوقعات المستقل..



إن الحديث عن الثقافة الإسلامية، يقتضي تحديد مفهوم الثقافة، التي هي ذات مفهوم «ديناميكي» يراد منه تخصيب للمدارك بالاطلاع، واستثمار للمعرفة بالتخمين والتدبير والسعي، وتنمية الطاقات الذاتية للإنسان، وتقدر ثقافة الشخص بحجم الطاقات الذاتية للإنسان، وتقدر ثقافة الشخص بحجم معارفه وتنوعها، وقدرته على الاستنباط والتنسيق والمقارنة بين المعلومة المكتسبة، واستخلاص آراء واتخاذ مواقف قد تبلور تصوراً معيناً..

الثقافة ليست محايدة، وهي سلاح ذو حدين، إذ يمكن أن تستخدم أداة للتغيير، ويمكن استخدامها في الوقت نفسه أداة لتثبيت الوضع القائم، ويمكن للثقافة أن تكون وسيلة لاجترار الماضي، أو قاطرة للمستقبل، ويمكن لها أن تكون سياج الانغلاق على الذات، أو نافذة الانفتاح على الثقافات الأخرى..

المفروض في الثقافة أنها تصقل العقل وترهف الحس، وتقوي الوعي والإدراك، ولذلك كانت ضمن التربية، حقاً لكل إنسان، وواجباً يفرض عليه استيعابها، فقد جبل الإنسان على حب الاطلاع والفضول المعرفي، وعلى الحس الاجتماعي الذي يتراوح بين الضيق والاتساع، حيث يمكن أن ينمّي لدى المثقف خصال الأنانية والتعصب

والكراهية، أو خصال الإيثار والتسامح والتواضع، فالثقافة لها أثر على السلوك الفردي والجماعي فيما يتعلق بالأخلاق والميول والنزعات الفكرية والسياسية والعرقية..

على طبيعة مضامين الثقافة ونوعيتها ومصادرها والأساليب المستعملة في تبليغها،تجعل هذا التأثير إيجابياً أو سلبياً، نافعاً أوضاراً، وهنا تتجلى أهمية الثقافة الإسلامية، التي تندد بالجمود والتعصب. وتنسجم مع التقدم والرقي في مختلف جوانب الحياة البشرية ومجالاتها، وأبرز ما يبدعه الإنسان من خلال تفاعلاته مع الوجود المحيط به..

هذا المفهوم يتطلب وضع خطة ثقافية إسلامية شاملة، تكون بمثابة الإطار الشامل للسياسات الثقافية الإسلامية، بوصفها وحدة ثقافية لها قيمتها ووزنها في العالم المعاصر، تؤثر فيه، وتتأثر به، شاملة لجميع القطاعات الثقافية دون أن تطغى أحدها على الآخر، ذات نظرة جديدة لأفق ثقافي جديد متطور وسريع لمواكبة التطورات والتفاعلات العالمية..

يتفرع عن الخطة الشاملة، خطط تنفّذ على فترات، منها القصيرة، والمتوسطة، أو الطويلة المدى، كما تقتضي تحديد المفاهيم وحصر الأهداف والتذكير بالثوابت، حيث إن تغيير الأوضاع لا ينطلق من صفحة بيضاء، بل من أوضاع متتابعة ومتمكنة بحكم ظروف وضغوط يصعب التغلب عليها بسهولة، وهنا لا بد من الإشارة بأن السياسة الثقافية تتأثر في معظم الأحوال بدرجة المشاركة ووعي الشعوب، كما تتأثر ببرامج التعليم، وقصور البرامج التربوية..

ونظرة الاستراتيجية الثقافية الإسلامية، التراث تنطلق من وصفه حصيلة نتاج العقل المسلم في مختلف الطبقات الاجتماعية والتيارات الفكرية والثقافية من البلدان الإسلامية جميعاً، وبوصفه أيضاً حاضناً لهوية الأمة.. وهذا يتطلب العمل على إعادة

دراسته وتخليصه من شوائبه، وفتح الباب للاجتهاد في مجالاته المتعددة، وتوظيفه لخدمة حاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها، والسهر على إحياء التراث الإسلامي الفكري والفني، والحفاظ عليه ونشره بمختلف الوسائل، وترجمة روائعه إلى اللغات الحيَّة، والتعريف بالثقافة والقضايا الإسلامية المعاصرة من خلال وسائل الإعلام الدولية، فالتراث مظهر للإبداع الفردي، مثلما هو مظهر للإبداع الجماعي للأمة، لا أن يغلق عليها الآفاق ويسجنها في الماضي، وهو أفضل تعبير عن الذاتية الثقافية..

الرباط - المملكة المغربية



الثقافة جوهر الإنسان

الثقافة ظاهرة إنسانية قديمة قدم الإنسان، فنحن نتحدث عنها في كل شأن من شؤون حياتنا، وعبر مشكلاتنا الفنية والإبداعية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. ومع كل هذا وذاك، مازال الاختلاف قائماً بين الباحثين والعلماء والأدباء والمفكرين حول طبيعة وجوهر ومكنونات الثقافة..

وقد وجدت من خلال متابعتي الدقيقة لهذا الموضوع، أن الثقافة تشتمل على الأشياء التي يبدعها البشر، ويتمثلونها بحيث تصير جزءاً من بيئتهم المعيشة، كما تشتمل أيضاً على الأفكار الخاصة المرتبطة بحياتهم الاجتماعية، والثقافة في المطلق هي ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع عن البيئة ومعبّر عنها أو مواصل لتقاليدها في هذا الميدان أو ذاك، وكلما كانت الظاهرة الحضارية أكثر التصاقاً بطبيعة البلد الذي قامت فيه فهي ثقافة.

الثقافة كل مركب يشتمل على اللغة والعادات والتقاليد والدين والعلاقات التاريخية الناجمة عن الروابط القومية –إنها في النهاية تنطوي على ذلك الفهم العام والشائع الذي تصاغ حياتنا من خلاله وتتمحور حوله، وتختلف الثقافة من فترة لأخرى، ومن حقبة لأخرى وتكمن مفارقة الثقافة في أننا نصنعها، ولكنها تستمر لتقيدنا نحن الذين صنعناها، وكأننا ونحن نبدعها، نخلق حدوداً وإرهاصات ومعالم جديدة تقيدنا، نحتكم إليها، ونصدق مرجعياتها، ونحيلها من أشيائنا الخاصة المصنوعة إلى عوالمنا المعمارية التي نعيش عليها، ومن خلالها، كل ما يحيط بنا..



ثقافة الأمة هي علمها غير الواعي الذي تتوارثه أجيالها وتسير به في شؤون حياتها أي هي طريقتها في الحياة.. تدخل في ذلك اللغة أو اللهجة من اللغة، ونظام إقامة البيوت، وأنواع المآكل وطرق تحضيرها وطرق تناولها والملابس والفرش والثياب وأشكالها والحكايات الشعبية وتصور أهلها للدنيا وموقعهم من الحياة وطريقة سيرهم فيها وحرفهم وطرائقهم في الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة.. باختصار ممارستهم للحياة بشتى الطرق، وما يختفي وراء هذه الممارسة من علم متوارث، ويتسع معنى الثقافة فيشمل أيضاً المأثورات الشعبية المتواترة، كما يشمل ما يقدمه من طرق الصناعة اليدوية القائمة على تقاليد متوارثة، وما يتغنى به الناس من أغانٍ شعبية بسيطة، وما يعزفون من موسيقا، أو ما يستخدمون لذلك من آلة، وما يضربون من أمثال نظماً أو نثراً، وكل ما يدخل تحت ما يسمى اليوم بـ «الفولكلور»..

هذا المفهوم الشامل لمعنى الثقافة، لم يصل إليه العلماء إلا بعد بحث ودراسة، فقد اختلف معنى الثقافة وتطور كثيراً منذ عرفه واستخدمه الناس، وأول من استخدم اللفظ هم الألمان وقالوا إنها هي «الحضارة» واستعملوها في هذا المعنى زمناً طويلاً، وقد أخذوا اللفظ من اللاتينية، ويراد بها أصلاً إصلاح الشيء وتهذيبه وإعداده للاستعمال، ومن هنا قالوا إصلاح الأرض وزراعتها، واستعملت في الأدب اللاتيني المسيحي في معنى «تهذيب الروح».. وفي عصر النهضة الأوروبية كانوا يستعملون اللفظ للفنون والأدب.. ومنذ بدايات القرن الماضي تقريباً، استقر الرأي على أن الثقافة تتضمن كل المعاني السابق إيرادها، وهي أنها التهذيب ومحاولة الوصول إلى الكمال وأنها جماع المعارف الإنسانية، وذهب العالم الشهير جوي ديوي إلى القول: «الثقافة هي ثمرة التفاعل بين الإنسان وبيئته» وهذا هو المعنى الذي أعطاه المؤرخ البريطاني «أرنولد توينبي» للحضارة كلها، أي أنها ثمرة تحدي البيئة للإنسان ونوع

استجابته لها، وقد ثار جدل طويل حول العلاقة بين الثقافة والدين، وذهب ت-س-إليوت إلى أن الثقافة تجسيد لدين الشعب.



منظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم والتربية «اليونسكو» ناقشت في أكثر من مؤتمر وندوة عالمية موضوع الثقافة ومفهومها وميادينها ومستقبلها، وكان لي شرف المساهمة في أكثر من ندوة أقيمت على هامش المؤتمرات العامة لليونسكو التي عقدت في باريس في السنوات القليلة الماضية، وقد وجدت أن كلمة ثقافة، استعملت في «اليونسكو» في أوسع المعاني وأضيقها في آن واحد، فهي تعني في أوسع معانيها «جوهر الإنسان» ومعنى ذلك أن الثقافة داخله في كل ما يتصل بالإنسان فكرياً وأخلاقياً وبدنياً حتى تدريبه النفسي، وفي هذا المعنى الواسع جداً تشمل كل ما يقوم به الإنسان من جهود، غير أن الثقافة هي على وجه التحديد ما يجعل الإنسان يختلف عن الإنسان في أنه يتعلم، فلا يظل قانعاً بما لديه من غرائز يعيش بها، بل نجده يسعى بطبعه إلى أن يحصل على اكتساب خبرات ومهارات، بل لا بد له من أن يدرب نفسه، ويحصل على قدر معين من الصفات المعنوية والفكرية والثقافية التي تجعل منه مخلوقاً مثقفاً، وعلى هذا نجد أن كل ميادين النشاط الإنسانية مرتبط ارتباطاً أساسياً بالثقافة.

وخلصت الآراء إلى القول إن ثقافة شعب هي طريقته الخاصة به في الحياة (موقفه منها وآراؤه فيها، وفلسفته تجاه مشاكلها، ثم تصوره لوضعه في الحياة) وهذه الثقافة تتكون للشعب على مرّ الأجيال، وهي تنبع من طبيعته الخاصة به، وظروفه البيئية وتجاربه في الحياة، وعلاقاته مع غيره من الأمم وهكذا، فالشعب لا يصنع ثقافته واعياً، وإنما هي تصنع وتتكون من تلقاء نفسها أثناء تجارب الشعب

الطويلة في الحياة، وهذا يتفق مع رأي المؤرخ والفيلسوف العالمي «أوزفولد شبنجلر» الذي يرى أن الثقافة هي مرحلة التطور والنمو والحيوية..



يفرّق العلماء والأدباء بين ثلاثة أنواع من الثقافة: الثقافة نفسها الخاصة بشعب معين، ثم ما يتفرع منها من ثقافات محلية، ثم الثقافة العالمية أو العامة التي تتكون الآن بفضل تطور وفعالية وقوة انتشار وسائل الاتصال بين الجماهير، والتي أخذت أبعاداً جديدة بعد انتشار أفكار ورؤى «العولمة» التي رأت في الثقافة وسيلة جديدة للهيمنة والسيطرة على مكونات الثقافة، فمنطقها التسليعي القوي يسري على كل المنتجات بما في ذلك المنتجات الثقافية التي تميزت في الثقافات التقليدية والكلاسيكية لقدسيتها وسموها وبعدها عن الإطار التجاري والمادي، وهكذا تقوم «العولمة» بتصميم قانون السوق على حقل الثقافة وعلى موادها، فتتحول إلى سلعة كبقية السلع، ويتم «إلحاق» ميادين الثقافة والفن والرياضة والحب والموت بنظام السوق المعمم، أي بقانون العرض والطلب، فالسمة الجديدة لعصر العولمة هي حسب تعبير أحد العلماء: «التسليع المعمم للكلمات والأشياء، للأجسام والأرواح، للطبيعة والثقافة».

وهكذا تنزل الثقافة من عليائها وتصبح بضاعة استهلاكية كبقية البضائع، بل تتخلى عن مضمونها وبعدها النقدي، فتصبح ثقافة مبسّطة، استمتاعية، استهلاكية، منحّطة.. تنتج ما يشبه المعلّبات الثقافية وترتبط بما أطلق عليه اسم «الصناعة الثقافية»..

تحولات العولمة طالت مادة الثقافة وحواملها ونواقلها ودوائر انتقالها، وكيفية تأثيرها وسرعة انتشارها، وبحكم القدرات التواصلية والتفاعلية الهائلة التي تمتلكها العولمة الثقافية وارتباطها بالهيمنة الاقتصادية والإعلامية، والمعلوماتية، فإنها

تدخل الثقافات الكلاسيكية أو التقليدية في دوامة من التفاعل والتثاقف لا نهاية لها، فهي محمّلة بأقساط من التحرر الفكري والثقافي من الثقافة التقليدية، كما أنها تحمل معها تهديداً للهوية الثقافية أي للروابط التفاعلية والتواصلية بين أعضاء الجماعة، كما تقحم هذه الثقافات في أتون نمط جديد من السيطرة الثقافية.. إن ثقافة العولمة هي تكثيف لثقافة الحداثة في مسعاها إلى تفكيك الثقافات التقليدية باعتبارها ثقافات متأخرة تاريخياً، والهيمنة الثقافية للعولمة هي هيمنة شمولية كاسحة، فهي لا تطال فقط الثقافات التقليدية بل تطال الثقافات المتقدمة نفسها بدرجات متفاوتة..



لا جدال في أن الثقافة العربية هي المرآة التي تعكس بدرجة كبيرة من الصدق، الوضعية العامة للعرب في الخريطة العالمية المعاصرة، وموقعهم من العلم والتقانة والمعرفة العلمية والأخذ بأساليب الحداثة في النظام الاجتماعي والنظام السياسي وموقعهم الاقتصادي والثقافي وذهنيتهم والأيديولوجيات والتصورات السائدة بينهم..

أمام واقع «عولمي» الغلبة فيه للأقوى، الذي يملك، تحولت الثقافة العربية في مجملها إلى ثقافة تدافع عن الهوية ضد ما يسمى بالغزو الثقافي، وتدافع عن الماضي ضد هجمة الحاضر، وعن الذات ضد هيمنة الآخر.. لقد أصبحت الوظيفة الدفاعية بأدوات بدائية، الخيار الاستراتيجي في الثقافة العربية المعاصرة، وفي كثير من الأحيان انتهى دور هذه الوظيفة إلى طرق مسدودة، وقد فاتنا معرفة أن الغزو الثقافي لا يمكن مقاومته بآليات المقاومة الثقافية وحدها، فكما أن الغزو ليس غزواً ثقافياً منعزلاً بل هو غزو كلي، لأنه ناتج عن التفوق الحضاري الشامل علمياً وتقنياً واقتصادياً ومعرفياً ومالياً وسياسياً.. فإن مقاومته لا تكون بمجرد الاحتجاج

والخطاب التعويضي بل بالتفوق الحضاري الموازي، الذي يتطلب التخلص من أشكال الوعي الزائف المتداولة على نطاق واسع في ثقافتنا سواء حول الذات أو حول الآخر، وهنا لابد من الاعتراف بأن الفصل بين العلم التقني وثقافته هو فصل تعسفي مبني على أحكام أكل الزمان عليها وشرب.

حتى تقوم الثقافة بدورها الشمولي الواسع، لابد من تصعيد مفهومها، ورفع مستواها ليشمل عالم الإعلام بوصفه عنصراً مهماً في بناء الهياكل السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية، وغني عن القول إن القنوات الفضائية العربية الكثيرة، وبما تمتلك من انتشار واسع وكبير، تستطيع إذا أحسن استخدامها من أجل الثقافة أن تعوّض النقص، وتعدّل الميزان لصالح الثقافة العربية، في مواجهة الغزو الثقافي من ناحية، ومن ناحية أخرى المساهمة بوساطة البرامج الثقافية والاهتمام بالمحتوى الثقافي للبرامج بشكل عام في دعم وتثبيت أسس ومفاهيم جديدة للثقافة العربية.

الثقافة هي نتاج تاريخي، وتطلع للمستقبل من خلال هذا التاريخ، وهذا يعني أننا في تعاملنا معها لابد أن نضع في اعتبارنا أننا نتعامل مع تاريخ ومع واقع، أي مع أمر له ثقله الضاغط، ولذلك من الصعب تغييرها بقرارات.. لابد لنا أن نتعلم آليات التعامل مع التاريخ دون محاولة تزييفه.. لنا أن نطور ثقافتنا على أن نتقن آليات ذلك، أما أن نتصور أن ذلك أمر يسير ويمكن تحقيقه في المستقبل القريب فمن الأوهام..

لقد تبين أن الثقافة بطبيعتها تنزع للتجاوز والاختلاف حتى مع ذاتها، وهذا يقودنا إلى البحث عن صيغة حوارية تساهم بشكل حيوي وفعال في إغنائها وتطوير مفهومها، ومعلوم أن سقراط كان أول من استخدم الحوار كأداة للوصول إلى الحقيقة، وقد جعله بحثاً مشتركاً بينه وبين محاوريه، بمعنى أنه لم يكن يلعب دور

الأستاذ صاحب السلطة المرجعية، بل دور الذي يجيد طرح الأسئلة، المعين على توليد الحقائق من هؤلاء المتحاورين، ومعنى هذا أن الحوار عند سقراط كان آلية لتحقيق الطرح الجذري، وإعادة النظر، ونقد المألوف المستقر من المفاهيم كخطوة لإعادة بنائها، وعلى الرغم من أن سقراط كثيراً ما كان يلجأ للتهكم إلا أن العلاقة الأساسية التي كانت تربط بينه وبين محاوريه في الحوار هي علاقة الحب، فالحب هو الوسيط الجدلي الوحيد بين الأطراف..

في حياتنا الثقافية، يمكن اصطناع الحوار شكلاً للعلاقات الإنسانية إذا ما ألفنا الحوار كمفهوم وكآلية، ولكي يكون الحوار مفيداً ومثمراً وخلاقاً، يجب اعتباره مرآة وليس ساحة سجال، فهو مرآة بمعنى أنه يكشف لنا عن صورتنا عند الآخر، تلك الصورة التي قد تكون بعض جوانبها غائبة عنا، فالإنسان قد ينظر لنفسه دون أن يراها، وإذا كانت مقولة سقراط الشهيرة: «اعرف نفسك بنفسك» مبدأ معرفياً خطيراً، فلا بد من تعديله الآن في ظل مفهوم الحوار ومعرفة الآخر وثقافة الآخر، لتصبح «اعرف نفسك بنفسك وبغيرك» وبالحوار نكتشف اختلافنا عن الآخرين، ونكتشف أهمية ثقافتنا فتزداد معرفتنا بأنفسنا.. إن الحوار ليس وسيلة لنقل المعلومات وتبادلها بين أطرافه فحسب، إنما هو وسيلة تغيير وتصحيح ومراجعة الذات لذاتها مما يتيح لها الفرص للارتقاء، وأهم شروط الحوار الصحيح تقوم على قناعة كل الأطراف بالندية، وثقافتنا العربية، بما لديها من تاريخ عريق وآفاق حيوية واسعة قادرة على القيام بدورها وتحمّل مسؤولياتها إذا أعددنا أنفسنا لذلك بشكل جيد وفعال.



الثقافة، مشروع دائم النمو

تجمع الدّراسات والأبحاث الكثيرة التي قدمت في ملتقيات ومؤتمرات عديدة، عقدت في مناسبات مختلفة، في مغارب الأرض ومشارقها. في السنوات القليلة الماضية، على الدور الكبير الذي يمكن أن تقوم به الثقافة في عمليات النمو والتطور والتحديث الاقتصادي والاجتماعي والفكري والسياسي..

لقد عاد كثير من علماء الاجتماع والفلسفة والاقتصاد إلى العوامل الثقافية لتفسير التحديث والديمقراطية السياسية، والتقارب والصدام بين الحضارات المختلفة.. كما ظهرت أيضاً نظريات تعارض هذا الرأي وتنادي بمبدأ «المنفعة المادية» وعلى الرغم من التعارض الواضح بين هذا وذاك، فمن الصعب أن نتصور رفضاً كاملاً لدور الثقافة وتأثيرها على السلوك الإنساني، بل إن دراسات كثيرة نشرت حديثاً، وبحثت في أكثر من مؤتمر عالمي تؤكد على الدور المهم للثقافة في عملية التنميّة، وعلى الجوانب الإيجابية التي يمكنها أن تقوم بها في عمليات التغيير.

لقد اختلفت النظريات وتعددت جوانبها، فمنها ما كان يغلب عليها التفاؤل، مثل نظرية «مراحل النمو الاقتصادي» التي نشرها الأمريكي «والت روستو» في عام ١٩٦٠، والتي يقول ملخصها: «لكي يتمكن إنسان البلاد المتخلّفة من أن ينتج ويستهلك كما يفعل الأغنياء، عليه أن يغيّر من الخصائص الثقافية التقليدية، وأن يتقدم بطريقة منتظمة ليحقق الإقلاع إلى مرحلة التنمية المستدامة».. وتتالت الدراسات الأخرى التي أكدت على أهمية العامل الثقافي لفهم المجتمعات وتحليل الفوارق بينها، وتفسير

تطورها الاقتصادي والسياسي، وقد أثار كتاب «صموئيل هنتنغتون» عن «صدام الحضارات» عام (١٩٨٩) كثيراً من الضجة والاهتمام، حيث أكد مؤلفه على أهمية الثقافة كعامل أساس بالنسبة للتنمية والصدام بين الجماعات البشرية، وفي نظره إن هذا الصدام لن يكون مصدره في المقام الأول «الأيديولوجية» أو الاقتصاد، ولكنه سيكون ثقافياً، وقسم العالم إلى «مناطق ثقافية» تشكلت على أسس دينية ما زالت قوية –حتى يومنا هذا– رغم قوى التحديث، وهذه المناطق هي:

المسيحية الغربية. العالم الأرثوذكسي. العالم الإسلامي. المناطق الكونفوشية واليابانية والهندوكية، والأفريقية، وأمريكا اللاتينية.. وسوف يهيمن الصدام على السياسات العالمية، وستكون خطوط معارك المستقبل عند نقاط الانفصال والتصدع بين هذه الحضارات، مع تركيز خاص على احتمالات الصدام بين الغرب والعالم الإسلامي.

لقد تابع «هنتنغتون» دراساته حول هذا الموضوع على الرغم من الانتقاد الشديد الذي تعرض له عالمياً، واعتبر أن هذا الانتقاد يقدم الدليل على نجاح مدرسته التي تتبنى التفسيرات الثقافية، والكيفيّة التي تؤثر بها الثقافة على تنمية المجتمع..

كثير من العلماء رفضوا ما اعتبروه «تفسير أحادي لدور الثقافة» على الرغم من دورها المؤثر على التنمية الاقتصادية، إلا أنها في حد ذاتها ليست على الإطلاق ثابتة وتتطور مع الفرص الاقتصادية، وهذه النظرة المتشائمة لـ«هنتنغتون» حول مستقبل العالم الذي تسوده الصدامات الثقافية، سوف تؤدي إلى تضخيم الميزانيات العسكرية أكثر مما تؤدي إلى الإثراء الفكري والعلمي..

دراسات أخرى أكدت على أن الثقافات لاتتحرك أبدا في عزلة، فهي حين تؤثر على سلوك الناس، هي دائماً جزء من مزيج أوسع، وهذا المزيج يضم السياسات الحكومية، والتغيير التقني أو الاقتصادي.. وليس من السهل تحديد ما إذا كانت

الثقافة، أو عامل آخر ضمن هذا المزيج، هو السبب وراء نتيجة معينة، كما أن «العولمة» وهي أساساً قوى اقتصادية، تؤدي إلى تغييرات كبيرة في كل مجتمع، ومن الواضح أن تلك التأثيرات تترك أثرها بطرق مختلفة على الثقافات المختلفة. في عالم اليوم الذي تمارس فيه ضغوطات قوية على المجتمعات لتبني قيم واتجاهات تتفق مع النموذج الإنتاجي السائد، قد تؤدي إلى انكماش مدى المجال المتاح أمام العوامل الثقافية، وعلى الرغم من أن التقارب حول نموذج اقتصادي بعينه سوف يتزايد، فإن الفروق والاختلافات بين الثقافات سوف تظل قائمة، وسوف لن تحمي «العولمة» الثقافة، بل ويمكن أن تكون الاختلافات الثقافية مصدراً لميزات تخصصية تساهم في رفاهية كل الأمم في الاقتصاد العالمي.

هناك نوع من الإجماع، على أن القيم الثقافية ليست جامدة، ويمكن أن تتغير، وإن كان ذلك يتم بصورة بطيئة، في أغلب الحالات، وأن المواقف والاتجاهات أكثر قابلية لتغيير أسرع، وهناك من يعتقد أن من الأسباب الرئيسة لتخلف العالم الثالث، هو الفشل في الأخذ في الحسبان قوة الثقافة كعامل مؤثر يمكن أن يساعد على التقدم أو يعرقله.



لقد أكدت مؤتمرات «اليونسكو»، العديدة التي عقدت في العقدين الماضيين حول «السياسات الثقافية» التي هي في مفهومها الواسع: تلك المجموعة المعقّدة والمتشكلة من طرائق روحانية ومادية وفكرية وحسيّة، التي تميز مجتمعاً أو جماعة، وهي لاتحتوي فقط الفنون والأدب بل تشمل أيضاً طرائق الحياة والحقوق الأساسية للجنس البشري والمنظومات القيميّة والتقاليد و المعتقدات.

كما أكدت هذه المؤتمرات على أهمية الاعتراف بالبعد الثقافي ضمن منوال التنمية والتأكيد على الهويات الثقافية، وفتح أفاق المشاركة في الحياة الثقافية، مع

دعم التعاون الثقافي الدولي، وقد اعتبر من الضروري اعتماد القيم الكونية، وفي آن واحد التعددية الثقافية، بحيث تهدف السياسات الثقافية إلى المحافظة على تعددية المبادرات الثقافية وحمايتها قصد دعم التفاهم والاعتبار والاحترام بين الأفراد والأوطان، في مجابهة مخاطر الصراعات والتغلب عليها.. وهذا ما جعل الثقافة بالمنظور الكوني الجديد في قلب عملية الوجود البشري، وعملية التنمية الإنسانية من منطلق أن الثقافة هي مجمل الخطوط المميزة روحانياً و مادياً وفكرياً وحسيّاً.. هذه الخطوط التي تميّز مجتمعاً ما أو مجموعة اجتماعية وهي تعني الفنون والآداب وطرائق الحياة، ونوعية الحياة الجماعية، ومنظومة القيم والتقاليد والمعتقدات.

وهكذا أصبحت الثقافة في قلب الحوارات العالمية المعاصرة.حول الهوية والتماسك والترابط الاجتماعي والتنمية واقتصاد المعرفة، وقد نتج عن هذه الحوارات والمؤتمرات شبه إجماع على أن التنمية البشرية المستدامة ومجتمع المعرفة لايمكن أن يحقق الغايات النبيلة المنشودة إلا بفضل تنوع الثقافات وثرائها في جو من التسامح، أي قبول الآخر، والاعتراف به والتعاون الصادق والتضامن الحقيقي معه، في جو من الثقة والتفاهم المتبادلين.

وقد أكد ذلك الإعلان العالمي حول التنوع الثقافي، الذي صدر في ٢٥ كانون الثاني (٢٠٠٢م) على ضرورة التحاور بين الثقافات والإخصاب المتبادل في منظور أن الثقافة التي تتشكل من خلال الزمان والمكان، يتجسم تنوعها من خلال خصوصيات وتعدد الهويات التي تميّز المجتمعات والمجموعات التي تتألف البشرية، فالتنوع الثقافي مصدر التبادل والتجديد والابتكار، وهو ضرورة لديمومة الحياة، ويشكل التنوع، التراث المشترك للإنسانية، وهو كسب للأجيال الحاضرة، وكذلك للأجيال القادمة.



أما وثائق ومؤتمرات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «ألكسو» فقد أكدت على ضرورة تفعيل الثقافة كمحرك للتنمية الشاملة، في إطار منظومة متكاملة تربط بين الثقافة والاقتصاد، وبين الثقافة والتعليم والتدريب كما أن هذا التفعيل مطلوب وبأسرع ما يمكن، نظراً للأخطار المتأتية من «العولمة» والقدرة الهائلة التي تعطيها «تكنولوجيا» الاتصال والإعلام للثقافات الغربية المسيطرة على اكتساح فضاءات جديدة وغزو الأسواق بمنتجاتها.

لقد أكدت «الخطة الشاملة للثقافة العربية» التي أقرتها منظمة «ألكسو» على ضرورة أن تنطلق الثقافة من الذات العربية، وتستجيب للتطلعات المنسجمة مع التراث وخصوصيته، مما يعزز التنمية الشاملة من منطلق أن الثقافة مشروع جماعي يتطور باستمرار، ويحمل في طياته مضموناً تنموياً شاملاً، يسعى إلى توفير أسباب رقي المجتمعات وتقدمها وتأكيد ذاتها، وإشاعة قيمها وضمان حضورها الفاعل في كل الميادين..

إن الثقافة المطلوبة، يجب أن تبتعد عن الركود والانعزال، وتكون غايتها إعداد الإنسان المدرك لحقيقة وجوده والواثق بقدرته على التغيير نحو الأفضل، فالثقافة تمثّل خيارات في سلم قيم لها أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية والإعلامية.. وهذا يتطلب توسيع نطاق السياسات الثقافية، ليتجاوز حدود المجالات التي تناط مسؤوليتها بوزارة الثقافة، لكي يتحقق التطور الشمولي الذي تستطيع من خلاله الثقافة القيام بما يخدم الإنسان وقضاياه المستقبلية، وتصبح الثقافة العربية، ثقافة تنمية مستدامة، متواصلة مع مسيرة التطور والنمو والارتقاء.

إن الأخطار والتحديات التي تحيط بنا، تفرض علينا إعادة النظر في الثقافة، وإعطاءها الحركية والحيوية اللازمة، وجعلها في مستوى المعطيات العالمية المتطورة،

وهذا لن يتم إلا من خلال مشروع نهوضي شامل يتعامل مع حقائق العصر بصورة مستقبلية واعية.



المشكلة الأساسية التي تواجه الثقافة العربية في وقتنا الراهن، هي مدى إمكان التصدي للتحديات الثقافية الناشئة عن الأوضاع التي تثيرها التغيرات الثقافية المتلاحقة والمتسارعة في العالم، وضرورة الإفادة منها في تشكيل وعي ثقافي عربي متطور، يتابع ويدرس ويفهم ويقبل أو ينقد التيارات والاتجاهات الفكرية الحديثة، ويفيد من أساليب ووسائل نشر الثقافة العربية، ويتولى تطويعها واستخدامها في الارتقاء والتنمية، وفتح مجالات جديدة أمام الإبداع في شتى المجالات، مع الاحتفاظ بالمقومات الأساسية للثقافة العربية والاعتزاز بتاريخها وتراثها وإبراز الجوانب الإنسانية العميقة فيها.

وفي هذا المجال يجب الإيمان المطلق بأن التأخر الثقافي العربي ليس حتميّة لا رادّ لها، بل هو واقع يتطلب إرادة تتجسد في خطة لتحديث الثقافة وتفعيل دورها في شحذ الوعي ومراجعة الذات والانخراط في زمنية العالم الحديث، وهذه مهمة استراتيجية طويلة الأمد، بالإمكان الشروع بتطبيقها بشكل تدريجي، ومحاربة ما يسمى بـ«الغزو الثقافي» وردم هوّة التخلف الفكري الذي يفصلنا عن التطورات المعرفية الحالية، ومن المعروف إن الغزو الثقافي لايمكن مقاومته بآليات المقاومة الثقافية وحدها، فكما أن الغزو ليس غزواً ثقافياً منعزلاً، بل هو غزو كلي لأنه ناتج عن التفوق الحضاري الشامل علمياً وتقنياً واقتصادياً ومعرفياً ومالياً وسياسياً.. فإن مقاومته لاتكون بمجرد الاحتجاج والخطاب التعويضي، بل بالتفوق الحضاري الموازي. إن الوعي التاريخي الحاد والدقيق، يتطلب التخلّص من كثير من أشكال الوعي الزائف المتداولة على نطاق واسع في ثقافتنا، سواء حول الذات أو حول الآخر،

وهنا لابد من التعرف على مستجدات الثورات المعرفية في العالم، ليس فقط في مجال «التكنولوجيا» بل أيضاً في مجال العلوم الإنسانية والفكر والفلسفة..

وأعتقد أن «الممانعة الثقافيّة» مهما اجتهدنا في تحسين دورها في عصر «العولمة» فإنها إذا لم تنفتح على ثقافات المجتمعات والشعوب الأخرى، وتتعلم منها، فإنها تحكم على نفسها أن تبقى أسيرة العزلة، وعرضة للانكماش.. والثقافة العربية التي نبحث عن مقومات لها في عصر «العولمة» ما تزال مشروعاً ثقافياً قيد البناء، ولا خير في ذلك، فكل ثقافة حيّة، هي مشروع ثقافي دائم الانفتاح ودائم التشكلّ..



الحقيقة بنت الزمن

تابعت في الأشهر الماضية ما حدث في الأوساط العلمية والدينية في الولايات المتحدة الأمريكية حول نظرية «النشوء والارتقاء» التي كتبها العالم الشهير «تشارلز داروين» في كتابه الذائع الصيت «أصل الأنواع» الذي نشر فيها عام ١٨٥٩ وأعيد طبعه عشرات المرات وبأكثر لغات العالم، واللافت أن هذا الكتاب وما ورد فيه من آراء وطروحات حول أصل الإنسان وعلى الرغم من مرور الزمن عليها، مازال يثير الجدل والاختلافات العميقة والواسعة بين مؤيد ومعارض، وبين من يحاول إثبات وتأكيد صحتها، وبين من يعارض ويبحث عن أدلة وبراهين تثبت كذبها وعدم دقتها، وتعارضها مع الدين وخاصة ما يقوله «داروين» إن الإنسان خلق في البداية على هيئة قرد، ثم تطورت خلاياه وهيئته حتى وصل إلى ما هو عليه الآن..

الخريطة الجينية أكدت أن التشابه بين جينيات الإنسان والشمبانزي يصل إلى أكثر من (٩٨,٧٪)، وهذا يعني أن عدداً محدوداً من الجينات لا يتجاوز (١,٣٪) هو الذي يحدد جوهر الإنسان، وهذا ما أكده الدكتور أحمد مستجير، خبير الهندسة الوراثية في مصر الشقيقة.. لقد رصد العلماء (٧٦٤٥) جينياً مشتركاً بين الإنسان والشمبانزي والفأر، وبحثوا بينها عن الجينات التي سببت التغيّر، وميّزت هذا عن ذاك، فاتضح وجود تغيّرات سريعة قد وقعت في (١٥٤٧) جينياً بشرياً، ومن ثم في البروتينات التي تنتجها، ومن ثم توصل «البيولوجيون» إلى أن الانتخاب الطبيعي حوّر في البشر (١٥٤٧) جينياً أضفت علينا صفة البشرية، وهذه الجينات حوّرت لتتلاءم مع البيئة التي نعيش فيها.



معارضو نظرية التطور، يرون أن أحداً لم يلحظ التطور، ولا توجد حفريات انتقالية تمثّل كل الصور التي مرت بها الكائنات الحية عبر تطورها، فالسجل الأثري لا يبين عملية التطور، إنما يكشف عن الظهور الفجائي للصور الجديدة من الحياة، ثم إن الوضع مع نظرية التطور مختلف، فالإنجيل ذكر صراحة أن اللّه خلق الكون كله، وبه الإنسان، في ستة أيام، ورجال التطور يدعون أن الإنسان تطور عبر ملايين السنين، فإذا كان الصحيح أن /١٨/ زوجاً من «الكروموزومات» تكاد تكون متطابقة مع البشر والشمبانزي، فإن «الكروموزومات» ٤ و٩ و١٢ تظل شواهد على أنه قد أعيد تشكيلها بمعنى أن الجينات الواسمات على هذه «الكروموزومات» الثلاثة ليست بنفس الترتيب في النوعين، ويستخدم التطوريون هذه المعلومات للقول بأنه تمت إعادة تشكيل هذه «الكروموزومات» عبر الزمن، لكن أصحاب نظرية الخلق يردون عليهم بالقول: «لماذا لا تقول إنها فروق جوهرية» بسبب الخلق المنفصل..

ويرد عليهم العالم «فرانسيس كولينز» رئيس مشروع الجينوم البشري بقوله: «إنني أرى اللّه بحكمته قد استخدم التطور مخططاً للخلق»، وهناك من يرى أن الخلقوية والتطور يمكن أن يعملا سوياً دون تضارب، مادمنا قد أكدنا أن اللّه تعالى لا سواه هو الذي ينفخ الروح في البشر، وهذا يعني أن جوهر نظرية داروين لا يرفضه الدين، بمعنى أن الإنسان يتطور في مراقي التدرج، والتطور هنا ليس بمعنى الانتقال من نوع إلى نوع، أو من قرد إلى إنسان كما قال «داروين» فالإنسان كان في البداية مجرد «خلق» يحتاج إلى نفخة روح من اللّه تعالى، وعقل الإنسان كان في البداية صغيراً، ثم زادت الإمكانات وارتقت مدارك الإنسان، واستطاع بعد ذلك أن يستخدم صوته، ويعبّر عن أهدافه فتكلم، وكلام الإنسان لم يأتِ مرّة واحدة، ولكن وصول الإنسان لمرحلة الكلام استغرقت أكثر من مليون سنة، ومن خلال استخدام الإنسان للعقل واللغة تكونت الأسرة، ومجموع الأسر كوّن مجتمعاً بدائياً لم تكن له قيم ولا مُثل ولا حاجات روحية، ومن خلال تطور العلاقات والمعارف والعلوم والأفكار استطاع

الإنسان التطور والرقي والتقدم ليصل إلى ما وصل إليه من حال، وهذا يعني أنه ليس غريباً أن نتصور أن آدم مسبوق بمرحلة متطورة كان فيها بشر آخرون عمرهم ملايين السنين، ومؤخراً عثر في أوستراليا على بقايا عظام لإنسان يعود عمرها إلى /١٢,٥/ مليون سنة، في حين أن آدم (أبو البشر) عمره في أقصى التقديرات عشرة آلاف سنة فقط.



لا أدري لماذا هذه الحرب الشعواء على نظرية داروين، وأصل الأنواع، على الرغم من مرور (١٤٦) عام على نشرها لأول مرة، فقد أفادت الأنباء أن (٤٠) ولاية أمريكية ترفض تدريسها في مدارسها، وقام بعض أولياء الأمور بالاعتراض على تدريسها، لأنها تتعارض مع العقائد الدينية، وهناك من احتج واعترض على منع تدريسها اعتراضاً على الخلط بين العلم والدين..

الدراسات البيولوجية الحديثة أفادت أن الجينات المؤثرة التي تحدد صفات الإنسان أثبتت أن الإنسان إنسان وليس قرداً رغم أن هناك أموراً مشتركة بينهما مثل الانتماء إلى فصيلة الثدييات.. نظرية «داروين» لم يعد يؤخذ بها منذ اكتشاف «الكروموزومات» والعوامل الوراثية الأخرى، مثل تحديد الحمض النووي، وهو القاعدة الوراثية للفرد والنوع، وكل النظريات العلمية الحديثة تتحدث عن التطور في الصفات في إطار الكائن الواحد، وليس هناك تحول كائن إلى كائن آخر، بل يمكن أن يكون هناك تطور في الصفات في إطار الكائن الواحد.

لا أدري لماذا يتم شغل العالم بنظرية قديمة عمرها الزمني (١٤٦) سنة، وهي ليست في الجوهر العلمي للدراسات البيولوجية الحديثة، فعلم الوراثة ليس قائماً على نظرية «داروين» ولكنه -كما هو معروف- قائم على الصفات الوراثية المتوارثة في الخلايا البشرية نفسها، واندماج الخلية الذكرية مع الخلية الأنثوية..

منذ أمد بعيد والناس يسألون هل الإنسان قرد أم ملاك؟! ومما لاشك فيه أن الصورة التي نرى أنفسنا عليها قد تعاقبت متأرجحة بين هذين النقيضين؟! لقد حاول العلماء منذ قرون عديدة كشف سر تميّز الإنسان عن غيره من الأحياء، وقد ثبت أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يملك القدرة على أن يعكس الآمال والمخاوف والتخيلات الحالية على أعمال مستقبلية، وهو المخلوق الوحيد الذي يحاول منذ زمن طويل اكتشاف هويته، ومعرفة أي نوع من المخلوقات هو، وما زالت تمتلكه الدهشة وتثور فيه التخمينات كلما نظر إلى نوعه وذاته، وهو يفعل ذلك دائماً إذ إن نظرته إلى الكون تنطلق من اعتباره نفسه في مركز الأشياء، وهو الوحيد الذي يستطيع بوساطة اللغة أن يستعيد ذكريات طفولته، ويستفيد منها في مستقبل حياته، كما يمكنه أن يخطط لحياته عندما يصبح عجوزاً هرماً، ويمكنه كذلك أن يتوقع حدوث حوادث معينة من معرفته بما يجري حالياً أو بما جرى في الماضي، وهو أيضاً الوحيد بين المخلوقات الذي يدرس تاريخه على وجه الأرض، وهو الذي يحمل على كتفيه «الثقافة».



دراسة ماضي الإنسان وتطوراته البيولوجية والفسيولوجية وما نتج عنها من نظريات ودراسات هي في المجمل محاولات لفهم الاتجاه العام للتطور الإنساني، وهذا يعني دراسة التغيرات الجوهرية في التاريخ الإنساني، وحتى تتم عمليات اكتشاف أعرض الخطوط العامة للتغير الإنساني، كان على العلماء الطبيعيين الاستعانة بعلماء الآثار، لأنهم يقومون بالتنقيب في مواقع الآثار وبقايا المدن القديمة بحثاً عن السجلات الصامتة -قطع الفخار والخزف المكسورة - الأكواخ والكهوف- بقايا الحيوانات المتفحمة -قطع العظام والهياكل الإنسانية- الفؤوس الحجرية وعصي الحفر.. لنكتشف جوانب من أقدم المجتمعات البشرية قبل اختراع الكتابة وحياة المدن وتشكل القرى.. بوساطة علم الآثار تمكن العلماء من نبش آثار الجماعات

الإنسانية السابقة، وكيف تطورت وتقدمت في سلم الحضارة والفكر والحياة المختلفة وأهم ما حدث فيها من تحولات مدهشة.

علماء الآثار استطاعوا أن يرسموا مراحل التطور الإنساني بكل بساطة عن طريق تنقيباتهم ودراساتهم، وكلما ازداد عمق التنقيب الأثري ازداد التوغل في معرفة الإنسان وحضاراته القديمة، وبهذه الطريقة اكتشف علماء الآثار ثلاث مراحل من التاريخ الإنساني على وجه التقريب: مرحلة الصيد وجمع الثمار، ومرحلة الزراعة، ومرحلة الحياة في المدن، وحينما يقومون بالتنقيب فإنهم يجدون بقايا هذه المراحل الثلاث بترتيب معكوس، فقد عثروا تحت أقدم المدن مباشرة على أدوات الفلاحين، وتحت مخلفات الفلاحين كانوا يعثرون دائماً على أدوات جماعات الصيد وجمع الثمار.. بل استطاعوا أن يحددوا تواريخ تقريبية للأدوات والعظام التي اكتشفوها، لأنهم يعلمون أن المادة العضوية (البشرية - النباتية - الحيوانية) تفقد نصف إشعاعها الكربوني كل خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة، وقد دلتهم طريقة التأريخ عن طريق الإشعاع الكربوني هذه، على أن أقدم المدن الإنسانية قد شيدت منذ زهاء خمسة آلاف سنة، وأن أقدم القرى التي تعتمد على الزراعة تعود إلى نحو عشرة آلاف سنة..

من خلال علم الآثار، نستطيع أن نلخص كل التاريخ الإنساني بطريقة شديدة العمومية، فقد كان الناس جميعاً في بداية الأمر صيادي وحوش أو جامعي نباتات برّية وحشرات، ولم تكن حياتهم التي اعتمدوا فيها على الأغذية البرّية تختلف كثيراً عن حياة القرود ثم بدأ الناس تدريجياً بعد عام (٨٠٠٠) قبل الميلاد، يتعلمون كيف يزرعون غذاءهم ويروضون حياتهم، ولا نجد اليوم إلا نسبة تصل إلى نحو (٠,٠٠١٪) من سكان العالم لم يدخلوا بعد هذه المرحلة الثانية من التاريخ (مرحلة الزراعة) وسرعان ما بدأت (مرحلة ثانية) في التاريخ بعد عام (٣٠٠٠) قبل الميلاد، على الأقل في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام التي اكتشفت الزراعة لأول مرة،

وبفضل اختراع المحراث الذي تجرّه الدواب، أصبحت الزراعة في هذه المجتمعات على درجة من الكفاءة أتاحت لأعداد كبيرة من الناس أن تعيش وأن تعمل دون أن تشتغل بالزراعة نفسها، بل ويمكننا أن نضيف إلى هذا الإطار العام مرحلة رابعة حديثة، أطلق عليها «المرحلة الصناعية»..



هذه المراحل بكل ما فيها من تطور زمني ومكاني وفكري ومعرفي وروحي، ساهمت كثيراً في تطور الإنسان وتطور حياته وطريقة عمله وأدواته.. لقد اكتشف العلماء أن الناس يتصرفون في إطار «ثقافتهم» الخاصة، وأن في العالم عدداً كبيراً من الثقافات المختلفة، وإن دراسة الآثار قد علمتنا أن نرى أن ثمة تغيّرات أساسية بل مراحل أساسية قد طرأت على التاريخ الإنساني، فإذا جمعنا بين اكتشاف أهمية الثقافة، والتغيرات الأساسية في التجربة الإنسانية، كان معنى ذلك اكتشافاً للتغير الثقافي في التاريخ الإنساني، وهو تغير يصل مداه من حقبة إلى أخرى، إلى حد تبدو معه فكرة الطبيعة البشرية، فكرة غير صحيحة، وهكذا بدأنا في العقود القليلة الماضية نرى أن ما نريد أن نسميه «الطبيعة البشرية» ما هو إلا أنموذج ثقافي خاص من التاريخ البشري، وهذا ما عبّر عنه بدقة عالم الآثار الشهير «جوردون تشايلد» في فكرة مفادها: «عدم وجود طبيعة بشرية سوى تلك الطبائع التي صيغت تدريجياً في داخل التاريخ الإنساني، والعملية التي يصنع بها الرجال والنساء طبائعهم، لها صلة وثيقة بالأدوات التي يشكلونها لصياغة عوالمهم، فالأدوات تغيّر صانعها كما تغيّر العالم، وكل عالم جديد يتطلب أناساً مختلفين، ذوي قدرات مختلفة وإمكانات مختلفة، فالنظام التكنولوجي في العصر الحجري القديم لم يقتصر على خلق نظام اجتماعي يقوم على الصيد وجمع الثمار، بل ابتكر أيضاً من المعرفة العملية ومن الأحاسيس والخرافات والأدوات، ما يسند حركة ذلك المجتمع، ومعرفتنا بتلك

الطبيعة البشرية في العصر الحجري القديم هي أداة من الأدوات الكثيرة الحديثة التي لدينا لتشكيل أنفسنا، ومعرفة ذاتنا.



لقد وصل الإنسان خلال مسيرة طويلة ومعقدة من التطور حتى احتل مركز السيادة، وقد تم ذلك بفضل عملية الانتخاب الطبيعي، فهو النوع الأكثر لياقة للبقاء في مواجهة المنافسة الحادة التي واجهها خلال المليون سنة الأخيرة، فلديه منظم حرارة كفء داخل مخّه سمح لبقية المخ أن ينمو بحرية إلى أبعد بكثير مما يستطيعه أقرب أقربائه في شجرة التطور، وكان لابد من النمو ليتمكن من البقاء في ظل تلك الظروف القاسية، وخلال تلك العملية نمت لديه القدرة على التميّز إلى درجة أنه سجل خبراته واستخدم تلك القدرة ليبسط سلطانه على الأرض.

وعودة إلى نظرية «داروين» و«أصل الأنواع» وما يثار حولها من انتقادات جديدة في وقتنا الراهن، نرى أن ما يقال عن خطأ النظرية فيه الكثير من التهويل والمغالاة، وما ينسب إليها وإلى صاحبها من أخطاء، كان التقدم العلمي لم يصل إليها، ففي زمن «داروين» لم تكن «الكروموزومات» الناقلة للوراثة الموجودة في نواة الخلية قد عرفت، وهذه النظرية كانت علامة مميزة على الطريق الخاص بالمعرفة الإنسانية التي لا يمكن محوها أو إزالتها.

بالمناسبة لم يكن «داروين» أول من وضع نظرية التطور ونشأة الأنواع الحيّة، والتي استمر يعمل عليها أكثر من عشرين عاماً في محاولات مضنية حتى استطاع التمكن من نشرها، وقد سبقه إلى هذه المحاولات علماء كثر أمثال: «جورج لويس بوفون» الذي نشر محاولته في عام (١٨٠٤م)، و«جان باتيست لامارك» الذي نشر نظريته عام (١٨٠٩م) وعرفت بنظرية «الكائن الذي لا يعمل لا يتطور»..

وعلى مدى القرن العشرين تقريباً، أخذ علماء «الأنثروبولوجيا» مسألة تنوع الحياة الاجتماعية باعتبارها بنية تجريبية لا سبيل إلى دحضها، وأن التفسيرات التطورية لها دور بسيط في الحياة الاجتماعية البشرية، وسارت حجتهم على النحو التالي تقريباً:

ثبت لنا في السابق بالوثائق، تباين الثقافات بدرجة تفوق التصور، ويكشف هذا التباين عن مرونة النوع البشري، وأن هذه المرونة، أي القدرة على التشكل بفعل حياة المجتمع الذي يولد فيه الإنسان، هي الخاصة الكلية الوحيدة الأهم لدى الإنسان، وهي القيمة الحاسمة التي تميّز الإنسان عن الحيوان.. إنها تفترض مقدماً وجود حالة من العقل، وقدرة على التعلم وغير ذلك من قدرات مثل الكلام، والتي لا نجد لها نظيراً واضحاً ومميزاً بين الأنواع الأخرى من الكائنات..

حقاً إننا من نواح عدة نشبه أبناء عمومتنا الأقربين، من الحيوانات الثديية من الرئيسات الاجتماعية (قردة وشمبانزي) ولكننا أيضا نختلف عنهم، وأن التماثل هو الذي يجعل المقارنة أمراً وثيق الصلة بالموضوع، كما أن الفوارق هي التي تلقي ضوءاً عليه، ولقد زاد هذا الضوء التوضيحي كثيراً في الأعوام الأخيرة، بفضل جهود الباحثين الذين درسوا سلوك الرئيسات، ، وعلم نفس الطفل، وعلم اللغة، وكذلك جهود الفلاسفة، إذ كشف هؤلاء عن قدرة جديدة على التنوع أكثر قوة ودقة وإحكاماً مما كان متصوراً حتى الآن.



الحوار الثقافي بين العرب والغرب

عقدت في السنوات القليلة الماضية، في دول عديدة، عشرات الندوات ونشرت دراسات كثيرة ومعمقة حول علاقة العرب والغرب، والمثاقفة والاختلاف الثقافي، وحوار أو صراع الحضارات، ومستقبل الثقافات الوطنية والقومية في عصر العولمة وغيرها.. وأظهرت هذه الندوات والدراسات أن الصورة المتبادلة بين العرب والغرب، لم تكن دقيقة في غالب الأحيان، وأن هناك تباين حاد لدى الجانبين في كيفيّة النظر إلى القضايا الكبرى التي تهم شعوب العالم، مع معرفة الطرفين بأنَّ تلك القضايا باتت الآن بحاجة إلى إعادة نظر جذرية، ناهيك عن أن الصورة المتبادلة بين العرب والغرب، أصبحت مشوهة إلى حد بعيد وخاصة بعد أحداث أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١.

لقد سلك الحوار الثقافي -حتى الآن- بين العرب والغرب سبلاً وعرة للغاية بسبب غياب الندّية أو التكافؤ ما بين الطرفين المتحاورين، فقد قطعت المجتمعات الغربية أشواطاً بعيدة من التقدم السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والتكنولوجي وغيرها.. بالمقابل بدت المجتمعات العربية وكأنها تكرر شعارات النهضة الأولى في أواخر القرن التاسع عشر مما رسّخ مقولة خطرة مفادها «المجتمع الكوني لامكان فيه إلا للطاقة الخّلاقة، المدعومة بالمال والسياسة والقوة العسكرية التي بفضلها تنشر نتاجها وثقافتها وقيمها» وقد عبّر عن هذه الصورة «فوكوياما» و«هنتغتون» في كتاباتهما، وهي صورة الأقوى سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ومعرفياً..



إنَّ الحوار الذي لا يستند إلى وضوح مرجعي ومنهجي، ولا يخضع للمعايير العقلانية في استخراج المواقف لا يستطع أن يكون واقعياً ولا مقنعاً كما أنَّه لا يستطيع أن يبني نسقاً منسجماً من المواقف ولا سياقاً مستمراً لها، والثقافة العربية والفكر العربي شأنها شأن أيّ ثقافة أو فكر لابد من أن يكونا في حال تكيّف دائم مع معطيات التطور الفكري والثقافي العالمي المتسارع، وهذه الخطوة المهمة تشكّل شرطاً سابقاً لأيّ حوار لأنّ هذا يحررنا من الوقوف موقف المنافح عن الظواهر الثقافية أو الفكرية أو المسلكية التي، إما أنّها لا تقبل الدفاع عنها لمنافاتها للواقع ومنطق الأشياء، وإما أنّها غير جديرة بالدفاع عنها، لأنها لم تعد تمثّل قيمة بالنسبة إلينا على الأقل في صورة تجسدها الراهن، وسوف تتيح هذه الفرصة لأن يتركز الحوار عندها حول الظواهر والقضايا التي ندرك بأن المواقف غير السلبية إزاءها إنما تقوم على أساس من سوء الفهم أو قصور في الفهم يمكن تجاوزه عبر التواصل والحوار.

من المفيد جدا لإنجاح الحوار، وتجنّب الخلط بين مظاهر ومصادر الاختلال الحقيقية والموضوعية، وتلك المترتبة على مجرد سوء أو انعدام الفهم أو إثارة التحيزات المغرضة، ولتحقيق هذه الغاية، لابد من الدخول في حال نقد ذاتي حضاري جريء وحكيم يستهدف تقويم واقع الثقافة والفكر العربي في ضوء المقومات والمتطلبات الموضوعية لامتلاك، ليس فقط خصائص وقدرات التفاعل مع العالم الخارجي، بل امتلاك مقومات الكفاية والقدرة الأدائية الذاتية في مجال إدارة مجتمع فاعل وحيوي، يجبر العالم على أن يفسح له مكاناً لائقاً، وأن يجد مصلحة وضرورة للتفاعل معه، وليس مجرد تفعيله وفقاً لمقتضيات الأحوال، وأي جهد لا يتسم بالشجاعة، فإنّه يتحول حتماً إلى صيغ غير واضحة، وغير عملية مفعمة بروح التردد والانكفاء.



في خريف عام ٢٠٠٤، زرت جمهورية الصين، لمدة أسبوعين، وكانت فرصة

جيدة للبحث عن الطريقة التي حلّت بها هذه الدولة العظيمة مشكلة الصراع مابين التراث والحداثة؟! لقد وجدت من خلال مشاهداتي وحواراتي وقراءاتي أوّل شيء فعلته الصين في الربع قرن الماضي هو البحث عن سر التفوق الأوروبي،كي تستفيد منه، واعتقد المثقفون في البداية أنه يكفي أن تسيطر الصين على «التكنولوجيا» كي تواجه الغرب أو تتفوق عليه، ولكنهم فهموا بعدئذٍ أن الأمور أكثر تعقيداً، وانقسم المثقفون عندئذٍ إلى عدة اتجاهات مثلما حصل ويحصل عندنا، فهناك اتجاه يريد نقل «التكنولوجيا» فقط، والمحافظة على التراث «الكونفو شيوسي» الصيني العريق كما هو، وهناك اتجاه «راديكالي» يريد تدمير التراث القديم متهماً إيّاه بأنه سبب الهزيمة والتخلف، وهو اتجاه استغرابي بالكامل، ويعتقد أن تبني الصين للحداثة الأوروبية هو الحل الوحيد.. وهناك اتجاه بين بين يريد المصالحة بين التراث والحداثة وهو ما يدعى بالتيار «الكونفوشيوسي» الجديد، أو الإصلاحي الوسطي، وكل هذه التيارات كانت مسيطرة على الصين قبل ظهور «ماوتسي تونغ» في الخمسينات.. ولكن الصين عادت مؤخراً لتطرح مشكلة الصراع بين التراث والحداثة، ويعتقد البعض بأنّه إذا ما استطاعت الصين حل هذه المشكلة فإنها ستصبح القوة العظمى المنافسة للولايات المتحدة الأمريكية خلال السنوات القليلة القادمة، وهذا ما لمسته بقوة في كل مكان زرته.. انتظروا الصين بكل ما فيها من طاقات وإبداعات وتاريخ وفنون وحضارات رائعة.



في عصر العولمة الكونية، أصبحت التراثات الثقافية مضطرة للاحتكاك ببعضها البعض سلباً أو إيجاباً، غصباً عنها.. في الماضي، وحتى أمد قريب كان يمكن للثقافة الهندية أو الصينية أو العربية أو الإسلامية أن تنفتح على الخارج أو لا تنفتح، كان بإمكانها أن تغلق الأبواب في وجه بعض «الأيديولوجيات» أو الأفكار التي لا تعجبها،

وأما الآن، وفي عصر «الإنترنت» والفضائيات التلفازية ومختلف وسائل الاتصال «الإلكترونية» فلم يعد بالإمكان أن تفعل ذلك، أو قل إنّه أصبح أمراً صعباً جداً..

السؤال الذي يطرح نفسه، ما العمل؟! هل ندخل في حرب ثقافات وحضارات؟! أم ندخل في عصر التواصل والتفاعل بين الحضارات؟ وطبعاً العرب يميلون إلى الحل الثاني، على عكس طروحات «هنتغتون» والتيارات الغربية الملتزمة التي تريدها، «صراع حضارات» وحروب شعراء بين الثقافات، والحل الثاني لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال الإجابة على سؤال: كيف استطاعت الحضارة الغربية أن تصبح كونية بحجم العالم؟ وما هي السمات الأساسية التي تميّزها عن بقية الحضارات الأخرى التي ظهرت على سطح الأرض؟!

لقد أجاب عن هذا السؤال علماء كثر، منهم من يرى أن أوروبة تفوقت لأنها «ديناميكية» ومنهم من قال: إنَّ أوروبة عرفت كيف توحّد العلم بالمعنى الحديث واليقيني للكلمة، ولا ريب في أنه وجدت معارف متفرقة لدى الحضارات الأخرى وكذلك تأملات عميقة عن الحياة والكون وكذلك نوع من الحكمة والنظرات الفلسفية واللاهوتية، ولكن كانت تنقصها الأسس الرياضية الدقيقة.

بمعنى آخر فإنّ العلوم والتقنيات خارج الغرب ظلّت في مرحلتها الجنينيّة، ولم تتطور وتصل إلى مرحلة النضج في العصر الحديث إلا في أوروبة، والمنهجية التجريبية لم تزدهر إلا في أوروبة، وقل الشيء ذاته عن أشياء كثيرة يمكن تلخيصها بكلمة واحدة هي «العقلانية» التي ميّزت الحضارة الغربية عن الحضارات الأخرى في القرن الماضي.



إنّ حوار العرب والغرب، في وقتنا الراهن، هو حوار سياسي من الدرجة الأولى، والذي يجب أن نعرفه ونتأكد منه، أن العولمة، ليست هدية سعيدة للثقافات الضعيفة، وليس صحيحاً أن هذه «العولمة» بما تقدمه من وسائل جديدة، ذات مدى عالمي، سوف تزيد من فرص الثقافات التي بقيت هامشية، أو مهمّشة، بل العكس هو الصحيح، فالثقافة الضعيفة بحاجة إلى أن تبذل جهوداً أكبر في جميع الميادين حتى تحتفظ لنفسها -اليوم- بالنفوذ الذي كان لها في ماضيها الغابر.

وهذا لن يتم بالانغلاق على الثقافات الأجنبية، ويجب أن نعلم أن تمسّك الأجيال العربية بثقافتها، لغة وقيماً ومشاعر وانتماء، يرتبط كل الارتباط بقدرة هذه الثقافة على أن تكون مصدراً من مصادر تغذية الإنسانية بالإبداعات الأدبية والفكرية والأخلاقية وسوف تفقد ثقافتنا تأثيرها على هذه الأجيال بقدر ما تبدو هامشية وعاجزة عن التأثير في فضاء الثقافة العالمية.

ما أبدعه العرب في الماضي من إنجازات حضارية، لم تكن ملكاً لهم وحدهم، بل كانت ملك البشرية جمعاء، وما أنتجه العالم المتقدم في مجالات عديدة من حقّنا الاستفادة والإفادة منه من منطلق أننا حين لا نوظف العلم لخدمة تطورنا وتقدمنا، يستعمل ضدنا، دون أن يكون لنا القدرة على مواجهته، مع الإيمان بأن الحضارة الغربية في وقتنا الراهن ليست آلة وتنظيماً اقتصادياً وأسلوباً في الحياة والإدارة، وحياة اجتماعية ذات طابع خاص وحسب.. هذه كلها من الحضارة، ولكن ليست كل الحضارة، لأن الحضارة روح، والحضارة الغربية تقوم على ركن آخر، هو الإيمان بالإنسان وبمقدراته، أو الإيمان بالعلم والأسلوب العلمي، وعندما يتوخى العلم الحقيقة، يتخلّص الإنسان من ربقة الأوهام، والعلم يتطلب تجرداً وإخلاصاً وتنزهاً وثقة بالنفس، وعند ذلك لن تعوزنا الحيلة، ولن تنقصنا الوسيلة، لنخرج من صمتنا ويأسنا وحالتنا التي لا نحسد عليها، من منطلق أنّ الثقافة هي أولاً وقبل كل شيء، فعل تغيير وتطوير للواقع المعاش، وذلك استناداً إلى الطاقات البشرية والمادية

القادرة على إنجاز ذلك الفعل، وهي تتمثل كذلك في توظيف المهارات والخبرات العلمية والتقنية في إطار مشروع ثقافي شمولي بعيد المدى يؤمن بأن الثقافة في عالم اليوم، هي قوة جديدة، قادرة بكل أدواتها وإرهاصاتها على تحريك العقول نحو التطوير والإبداع، في وقت يتطلب بقوة، إعادة النظر في ترتيب الأولويات، والبحث عن الأساليب والسبل الكفيلة بالنهوض بها تحقيقاً لغاياتها وأهدافها السامية النبيلة.

في وقتنا الراهن، وفي حوار العرب مع الغرب، أصبح من غير الممكن النظر إلى «الثقافة» بمعزل عن «التكنولوجيا» وما تنتهي إليه من أولويات ومعنويات، كما لا يمكن النظر إليها بمعزل عن وسائل الاتصال الجماهيري، وأصبح من غير الممكن النظر إليها بوصفها مرتبطة بالمصدر الاتصالي وحده، أو بالرسالة وحدها، أو بالوسيلة وحدها، أو بالتأثيرات وحدها.. لأنّها ترتبط بهذه كلها، من خلال ارتباطها بمجمل عملية الاتصال، ومن هنا فإنّ الثقافة بصفتها مضموناً فكرياً وإرثاً قيمياً، وأسلوب حياة، ترتبط بمختلف النظم والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بما فيها من نظام الاتصال ومصادره ومؤسساته وعملياته، وما تحدثه في السلوك البشري.



العاشق المتمرد

قبل أيام قليلة من رحيل الأديب والشاعر الصديق محمد الماغوط، هتفت له، فجاء صوته متهدجاً واهناً بعض الشيء: أهلاً علي.. كيف حالك؟! قلت:الحمد لله، ماذا تسمع في هذه الأيام.. قال: أسمع «أوبريت» بساط الريح، لفريد الأطرش.. قلت: لماذا إصرارك على سماع أوبريت (بساط الريح) ولفريد الأطرش، مجموعة من الأعمال الغنائية الاستعراضية التي لا تقل قيمة عن (بساط الريح)مثل: الشرق والغرب، ما تقولش لحد، انتصار الشباب..

قال: عندما غنّى فريد الأطرش للوحدة، انتهت الوحدة العربية.. لذلك أستمع إلى «بساط الريح» من باب الذكرى..

وتم الاتفاق على لقاء قريب، وكان الرحيل دون سابق إنذار.. لقد ترجّل الصديق الشاعر ورحل حاملاً أحزانه وهواجسه وعشقه وتمرده وخيبات آماله.. لقد رحل «سياف الزهور» ليعود إلى «سلمية» بعد مسيرة طويلة حافلة بالحب والحرمان والفقر والتمرد والسخرية.. رحل بعد أن عاش سنوات عمره «خارج السرب».. عاش الحزن بكل أبعاده ومسميّاته، في ضوء القمر، يبحث ويفتش عن الغلط، ليضع الإصبع على الجرح، ويشير إلى خيبات الأمل..

عاد «الماغوط» إلى سلمية، في يوم ربيعي ماطر..

عاد إلى معقل الفكر والفلسفة.. عاد إلى المدينة التي كوّنت شخصية الإنسانية المتمردة بكل أحلامها ورياحها وغيومها السريعة.. عاد إليها يحمل مرارته

الساخرة.. عاد إلى أحبته وعشاق شعره ومسرحه وكتاباته.. عاد بعد أن عاش داخل (غرفة بملايين الجدران) وأدرك جيداً أن «الفرح ليس مهنته»، وتجوّل كثيراً في صحراء التيه العربية، يبحث عن الحقيقة والأحلام المنكسرة.. عاد إلى المدينة المقيمة في دمه ووجدانه.. عاد إلى:

«سلمية: الطفلة التي تعثّرت بطرف أوروبا

وهي تلهو بأقراطها الفاطميّة

وشعرها الذهبي

وظلت جاثية وباكية من ذلك الحين

دميتها في البحر

وأصابعها في الصحراء»



محمد الماغوط، كان شديد الحضور في حياتنا الثقافية والأدبية.. كان حاضراً بقوة لدرجة أنه يصعب تصور قصيدة النثر بكل تجاربها وآفاقها وأفانينها دون أن يذكر اسمه، فقد اعتبرها بادرة حنان وتواضع في مضمار الشعر العربي الذي كان قائماً على القسوة والغطرسة اللفظية، وجعلها مرنة تستوعب التجارب المعاصرة بكل غزارتها وتعقيداتها.. لقد وضعنا«الماغوط» وجهاً لوجه أمام التجربة، وجعلنا نضطرإلى مواجهة الأشياء دون لف وراء البحور، ودوران حول القوافي.. لقد أحب قصيدة النثر من أول نظرة وأول كرباج.. وكانت بالنسبة له طريقة بديعة في التعبير الشعري، وأصبح من خلالها أحد روّادها دون أن يدرك بعدها النظري والفكري، وكانت صادقة «سنية صالح» حين اعتبرته من أبرز الثوار الذين حرروا الشعر من عبودية الشكل.. فكان مثل الكناري المسافر في ضوء القمر.. لقد أحب المطر وأنين

الأمـواج البعيدة، فكتب وحلم واقترب من الناس ومن قلب السماء العالية، وكان جميلاً كوردة زرقاء على رابية..

صاخب عاش «الماغوط».. الكلمة الحمراء الشريدة، كانت مخدعه وحقوله.. طريقه كانت طويلة، موسيقاه كانت حزينة.. سفنه كانت فارغة، وريحه كانت مسقوفة بالأجراس..

يقول في «الفرح ليس مهنتي»:

هكذا خلقني الله
سفينة وعاصفة
غابة وحطاباً
زنجياً بمختلف الألوان كالشفق، كالربيع
في دمي رقصة الفالس
وفي عظامي عويل كربلاء
وما من قوة في العالم
ترغمني على محبة ما لا أحب
وكراهية ما لا أكره
ما دام هناك
تبغ وثقاب وشوارع..

هذا هو العاشق المتمرد، الذي محال أن يتخيّل نفسه إلا نهراً في صحراء أو سفينة في بحر، جواده يصهل على التلال.. قالوا له: إن الحب موجود في كل مكان، فقط عليك أن تبحث عنه.. وراح يبحث وينقب ولكن دون جدوى..



قصائد الماغوط، ممزوجة بضحكات الأطفال، وتنهدات العذارى، وبكاء الطيور، ورياح المقابر.. كتب عن الجوع بالسنابل، وبالزهور عن الخريف، وبالأجنحة عن الأقفاص، وبالثلج عن المشردين، وبالرياح عن الشموع والحب والثأر والعداء، وآلام الموت والولادة والاحتضار، حتى يهطل المطر من قلمه، وتغرّد العصافير في دفاتره..

لقد استخدم عكازه ليتفادى الحفر، ومظلّته للوقاية من المطر، والخبز والماء لمواجهة العطش والجوع، والمعطف والوشاح والقبعة لتفادي الزكام.. في زمن انتهت فيه البطولات والشعارات.. لقد كان يريد الربيع والخريف، وخطوط العرض والطول، وكل الفصول على مكتبه، ليعيد ترديد الكلمات الحمراء الصافية كالعيون بعد بكاء طويل..

في سنواته الأخيرة، كانت قواه تستنفد كشجرة على ضفّة نهر يجفّ تارة، ويفيض تارة أخرى.. لقد نسي أشياء كثيرة، ولكنه لم ينس دفاتره التي سجل فيها أحزانه لحظة بلحظة.. لقد دوّن فيها أمسيات الإبداع الماطرة، وصوره الشعرية الجميلة التي بحث عنها ومازالت تبحث عنه..

يقول في أحد نصوصه التي دوّنها في آخر إبداعاته:

مللت اللجوء إلى التبغ

والخمر

والمهدئات

وأبراج الحظ

إن سعة الخيال تمزّق أعصابي

ولم تعد عندي حدود واضحة أو آمنة بين المجد والعار

والأمل واليأس

والفرح والحزن

والربيع والخريف

والصيف والشتاء

والمذكر والمؤنث

والمرفوع والمنصوب

وها أنا أضع أجمل وآخر قصائدي في أذني

وإصبعي على الزناد

وأنا واثق بأن حلقات من الدخان ستتصاعد وكأنها رصاصة حقيقية.

لقد كتب الماغوط على أغطية التوابيت بقسوة ملحمّية، وبلغة جرداء، جدباء، وقام بتوزيع قصائده على الحصادين وناضحي الماء من الآبار.. لقد وضع راحته فوق فمه وصرخ:

يا إلهي

أنقذني من هذه الصحراء

إنها تفقدني عقلي وصوابي وتوازني

وأنقض على كل ما فيها من شعر ونثر

ومسرح وغناء وعواء

وسجع وتجويد وتفخيم وإطناب وهذيان



في آخر أيامه اشتاق الماغوط إلى القلق الشعبي، وإلى بلدته سلمية بامتداداتها بما فيها من طيور وغيوم وأكفان متوارثة وشآبيب الرحمة والغفران والجنازات المقفاة كشعر الأفراح والأتراح والمناسبات الأخرى..

يقول في «البدوي الأحمر»:

أيها الشعر الجميل والمزعج كمطر النزهة

من يعيدني إلى قريتي النائية على أطراف الصحراء؟

والشمس والغبار والتقاليد البالية

إلى قطرة اللؤلؤ والمراهم المحرقة

والخربشات الدينية على الخدود المنفوخة

وقراءة الطالع

وتفسير الأحلام والكوابيس

وتبييض الفال

وإبعاد الغجر عن الأطفال.

لقد امتلأ رأسه حتى آخره بالأحلام والأمنيات، ولم يعد فيه مكان لحلم جديد، وحتى لخيبة جديدة:

لقد قضيت حياتي وأنا أنتظر

حلول الليل

طلوع الفجر

الحب

تغريد الطيور

الإبداع

الإلهام

الهبوط

الإقلاع

إلا الذي أحبه أن يعود

فلا أرى له أية بارقة أمل.

ومع كل هذا وذاك، في مسيرة الماغوط، نجد البريق نفسه الذي حمله في بداياته، لقد ظلّ قادراً على مقاومة الزمن، وظلّ شعره طازجاً على الدوام، مشبعاً بنبض متوتر وسخرية عنيفة وحيوية دافقة.. لقد عرف جيداً كيف يجمع بين الفكرة والألفاظ وبين الصورة والكلمات، لذلك ستظل إبداعاته عصيّة على التقليد..

باقية في الذاكرة والوجدان.. شاهدة على «البدوي الأحمر» المشبع بالحب والتمرد والحزن والعتابا وريح الشمال..

محمد الماغوط، هو الاستثناء في الشعر والمسرح والحياة، كان وسيبقى «خارج السرب» في الثقافة العربية.



الفعل وردّة الفعل

من يتابع نتاجات المطابع ودور النشر العربية، وما تقدمه للقارئ العربي من مؤلفات وأبحاث ودراسات وإبداعات جديدة، يجد منها ما يمكث ويحتفل به بإعجاب وتقدير، ومنها ما يذهب جفاء في مهب الريح، وميزان ذلك «الفعل وردّة الفعل» فالفعل يتمثل بغنى الكاتب الفكري والعلمي، وسعة اطلاعه والتحوّل الذي تحدثه أفكاره في المجتمع والوسط الثقافي أو العلمي الذي يخاطبه.. نقول «التحوّل» لأن ثمّة مؤلفات وكتابات تحدث تحولاً في تفكير القارئ، وتحثه على طلب المزيد من المعرفة والاطلاع والبحث عن مصادر جديدة ليستقر على قرار.. وردّة الفعل تتمثل بالضجة الفكرية التي يحدثها ذلك الأثر، إيجابية كانت أم سلبية، وبقدر اتساع الفعل وردة الفعل وعمقها، وبقدر تفاعل الآراء حولهما يكون الكاتب قد حقق بعضاً من أهدافه وغاياته التي يسعى إليها من خلال كتاباته وآرائه التي طرحها في مؤلفاته.. وهذا ما فعله كثير من الكتّاب الذين أثروا المكتبة العربية بإبداعات هي نتيجة لتمحيص ودراسة ومعاناة وبحث ومعايشة وتقصي، فكانت الغاية والهدف والمنى الذي يصبو إليه الإنسان المبدع والمفكر والباحث.



نقول ذلك، ونحن أمام مجموعة من الأبحاث والدراسات الجديدة التي تزيّن واجهات العديد من المكتبات في وطننا العربي، التي حشد فيها مؤلفوها كميّات من الأفكار التي أفرزتها حالة التحولات الكبيرة في المجتمع العالمي بالفعل وردّة الفعل

التي أحدثتها أفكار العولمة وصراع الثقافات ونهاية العالم و«حوار الحضارات» ونجد أنفسنا في حالة يتعذر علينا الاختيار، فنعود بعد مطالعة كتاب معين في موضوع من هذه المواضيع الجديدة، ونحن أشد حاجة إلى المعاودة والتكرار، لأن الموضوع -بصراحة- لم تكتمل عناصره، ومازال بحاجة إلى قراءة عميقة ومتأنية، ومازال يندرج في إطار المحاولة التي نرجو لها النجاح، ونجد أن هذا الكتاب لايغني عن الآخر، وهذا الجزء لا يستعاض به عن الكل، وأن الفرع لا يلغي الأساس، وهذا من المسلّمات.. وأن الوصول إلى النتائج غاية صعبة المنال..

على العموم، فإن أيّ كتاب، مهما كان متواضعاً في مادته، يعكس ثقافة مؤلفه التي تستحق الاحترام، سيما أنه موجّه إلى قرّاء يسعون إلى تحصيل المعرفة ومعرفة أشياء عديدة ومتشعبة في عالم يمور بمتغيّرات وتحولات فكرية وثقافية وسياسية كثيرة، فأن يعرف المرء نفسه، وأن يعرف كيف يفهمه الآخرون، من الضرورات المهمة جداً في عملية التعامل الصحيح والبناء المستقبلي.. وهنا لابد من القول إن هذه الأبحاث والدراسات في مجملها لم تبلغ بعد المرحلة المرجوة من النضج لأن أفكارها وغاياتها وأبعادها ما زالت تنتظر المزيد من البعث والرؤى والآفاق الواسعة.



«الفعل وردّة الفعل» في الكتابات والدراسات الحديثة، هي محاولات جادة لدراسة التحدي الذي فرضته الولايات المتحدة الأمريكية على كل مستويات الوجود الإنساني بشكل عام، والإنسان العربي بشكل خاص، هناك محاولات جيدة لتحليل الاستجابة العربية له على مستوى الوعي الفكري، ولأن الغاية هي دراسة التحدي، كان لابد من معرفة الدوافع التي تحملنا على مواجهة التحدي.. فهناك كتب كثيرة هي ثمرة معاناة ورؤى وآفاق مستقبلية عساها تمحو من الذهن ما يعيق بنا من أخطار وآفات وعساها تقوم بدرء الخطر، فالطاقة الفكرية والعلمية متوافرة، وبكثرة في عالمنا

المعاصر، لكنها لا تعبّأ ولا تستخدم إلا بنسبة صغيرة وبطريقة عفوية.. قد تكون صحيحاً في هذه الفترة، أنّ خدعة المجتمع ممكنة فقط بالسير ضد كل ما يمثّله المجتمع، وقد يكون صحيحاً كذلك، أن على المثقف وذوي الاختصاص ألاّ ينتظرا من يدعوهما إلى المساهمة في العمل الجماعي، بل عليهما ترك كل شيء، وممارسة معتقدهما مهما تكن النتائج، في وقت لم يسبق للبشرية أن واجهت مثل تلك المهمة التي برزت على أعتاب الألفية الجديدة الثالثة، حيث انتهى زمن العصرين الصناعي وما بعد الصناعي، بل انتهى كذلك زمن ما بعد الحداثة، لتبدأ الآن مرحلة جديدة هي مرحلة المعارف والإعلام والثورة التقنية «التكنولوجية»..

في وقتنا الحالي لن يتركز الاهتمام على النمو الاقتصادي أو التدهور الاقتصادي، ولا على القدرة السياسية أو الأخطار السياسية.. إن حق الأولوية سيكون من نصيب الذي يعرف ماذا ومتى وإلى أين؟ إذ إنّ من يعرف أكثر يدير في صورة أحسن، الوعي بهذه الحقيقة وتسريع عملية البناء والتطوير، وحل مسائل كثيرة عالقة منذ سنوات طويلة في بنية المجتمع والاقتصاد ستكون البداية لإعادة الهيكلة والاستقرار الشامل.



لقد أصبحت المعرفة في وقتنا الراهن، هي استخدام المعروف في إماطة اللثام عن المجهول، وقد بدأت الحضارة الغربية الحديثة حين شرع «فرانسيس بيكون» يتشكك في النتائج التي توصل إليها «أرسطو» وكانت من المسلّمات في القرون الوسطى، فأصرّ على رفض المسلّمات، وأخضع كل شيء للتجربة ولإعمال العقل والتفكير الوطن العربي، من شرقه إلى غربه، يواجه الآن تحديات جسيمة تهدد كيانه وهويته وحتى حقّه في الوجود والبقاء، وهذا ما يجعل مهمة من يفكر ويبحث ويكتب، مهمة حيوية ومصيرية، في وقت ما زالت جوانب كثيرة من التحجر الفكري والعقلي تسيطر على

تيارات عديدة مازالت تعيش وتفكر في ترهات وقضايا لاعلاقة لهما بما يحدث حولنا وما يحيق بنا من مخاطر وأحداث جسيمة.. مازلنا- بكل أسف – نسير على هدى عصر الانحطاط، لقد أخذنا الشعارات وأهملنا المضمون، وتحولت جامعاتنا العربية إلى مدارس لتخريج الموظفين والعاطلين عن العمل، وأصبح المواطن يحمل قضية نفسه بدل أن يحمل قضية وطنه وأمته، وأصبحت القطيعة الثقافية والفكرية تستحكم فينا وتسيطر علينا، وأصبحنا- بكل أسف- نشك أن يحمل لنا المستقبل شيئاً أفضل مما نحن فيه، زد على ذلك أن الجيل الحالي، جيل المستقبل، انصرف عن دراسة الآداب والعلوم الإنسانية إلى العلوم الطبية والهندسية و الرياضة والمعلوماتية، وهذا من حقه، لأن الزمن، زمن علوم ومعارف وتقانة وطب وهندسة.. وكلنا على علم أكيد أن دورنا في هذه المجالات في عالم العولمة، لا حول ولا قوة، وهذا يعني «مجتمع الاستهلاك» الذي لا تتحكم فيه أخلاقية غير أخلاقية السوق والرفاه المادي «أكون أو لا أكون» وثقافة الأقوى والاستلاب والتغريب والترهيب والترغيب..



في عالم اليوم نشهد بداية تبدلات سيكون مفعولها أضعاف التبدلات السابقة كلها.. وثقافتنا العربية التي لا نعرف في تاريخ الثقافات، ثقافة لها من القدرة على الاستمرار ما كان لثقافتنا، وفسحة أصلب وأقدر على مواجهة عوادي الزمن مما كان لفسحة الوجود العربي الإنساني، ولكن الزمن تغيّر والعقل يقول ويحكم.. إننا نعيش في زمن التجزئة العربية السائدة في كل شيء.. الاقتتال العربي على أشدّه، والضعف العربي «حدّث ولا حرج»، ومن مبدأ «الفعل وردّة الفعل» لا أحد يبحث عن الخلاص، و«استعادة الوضع المفقود» وعن العودة إلى منظومة عربية كانت موجودة في الماضي الغابر، وحس الانحدار أصبح وعياً وأخذ موقعه في شتى مجالات الحياة العربية، والدنيا في عالم اليوم غير قابلة لأن تكون جنة، إلا لمن يسعى بكل قواه وأفكاره وإمكانياته، لأن يحسّن واقعه ويتقدم ويتطور، دون الأخذ بمقولة «الأقدم هو

الأفضل»، السومريون اخترعوا الدولاب في الألف الثالث قبل الميلاد، ومن الدولاب كانت فكرة العربة ثم السيارة، والقضية هي قضية فعل وعمل وطريقة تفكير وتدرّج وتوالي وحركة تقدم..

في تاريخنا، الذروات تتعاقب، والانحدارات تتعاقب، ويبدو أننا أصبحنا نحب حالة الانحدار التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه، في الماضي كانت صرخة «وامعتصماه» التي دوت في الوجدان العربي، وحرّكت الضمائر وكانت ردة الفعل، التي صنعت الانتصار والتحولات.. في وقتنا الراهن نسمع في كل يوم مئات الصرخات ولا أحد يستجيب أو يتحرك من مكانه- لقد فقدنا ردة الفعل..



القراءة في خطر

«القراءة في خطر» عنوان دراسة دقيقة وعلميّة ورصينة نشرت حديثاً في الولايات المتحدة الأمريكية، ووزعت في شتى أصقاع العالم، وقد امتد العمل في إعدادها وجمع بياناتها على فترة عشرين عاماً، وشملت مجموعات كبيرة ومتنوعة من فئات الأعمار جميعاً، ومن مختلف مستويات التحصيل العلمي.. وقد جمع معطيات هذه الدراسة «المكتب الأمريكي للإحصاءات» وساهم بها نحو /١٧/ ألف شخص على التوالي في أربع دفعات في الأعوام: ١٩٨٢- ١٩٨٥- ١٩٩٢- ٢٠٠٢.

لقد ظهرت هذه الدراسة بما لا يقبل الشك، أن جمهور القرّاء أدار ظهره تماماً للقراءة بشكل عام، ولقراءة الأدب بشكل خاص، وقد تناقل هذه الدراسة أصحاب دور النشر والمكتبات الكبرى في العالم، كما لو أن واحدهم يمسك بجمرة محرقة يريد التخلّص منها بسرعة،ويكادون لا يتحدثون بها إلا همساً، كما لو أنهم يخشون أن يسمع الحديث القراء، فتستيقظ هواجس ما زالت هاجعة.

الدراسة ترصد التحولات التي طرأت على المدى الطويل على العادات الثقافية،وعلى أنواع القراءات ومواضيعها. وظهر فيها على نحو ساطع، تراجع دور القراءة في الثقافة بشكل عام. وقد ظهر هذا التراجع بوضوح بين القراء الرجال، فقد انخفض عددهم في السنوات العشرين التي رصدتها الدراسة، من (٤٩,١) في المئة إلى (٣٧,٦) في المئة في حين أن القارئات النساء، انخفض عددهن في الفترة نفسها من (٦٣) في المئة إلى (٥٥,١) في المئة، وتوضح الدراسة أن هذا التراجع

يطاول الناس جميعاً بمختلف مستوياتهم التعليمية.

كما تراجعت نسبة القراء الذين يقرؤون كتاباً أدبياً واحداً على الأقل في السنة، بين حملة الشهادات الجامعية من (٧٢,٩) في المئة، إلى (٥٢,٩) في المئة، كما تبين عدم اهتمام الفتيان والشبان الصغار، بالأدب بشكل يثير القلق على المستقبل..



في اليوم العالمي للكتاب، الذي يحتفل العالم به، بناء على قرار من المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم «اليونسكو» في الثالث والعشرين من شهر نيسان، في كل عام، تكثر الدراسات والأبحاث عن أفول عصر الكتاب وتراجع جمهوره ودوره كمصدر للثقافة والمعرفة، لصالح «الإنترنت» والكتاب الإلكتروني والشيء اللافت قي رصد حال الكتاب والمجلات الثقافية العربي، انخفاض مبيعاتها من رقم كان يتراوح بين (٣-١٠) آلاف نسخة، إلى ما بين ألف وألفي نسخة، وتراجع نسبة المنتسبين إلى أقسام الدراسات الأدبية والإنسانية في الجامعات العربية، وانحسار الهمّ الثقافي عند الناس والمؤسسات العامة، وانحسار الثقافة في إطار المقررات المدرسية، ومن الواضح أن الأجيال الشابة والمراهقة أصبحت- في وقتنا الراهن- تمضي المزيد والمزيد من الوقت أمام الإنترنت وشاشة الحاسوب، والفضائيات التي لا حدّ لانتشارها وتأثيرها، مما يمكن القول إن القراءة أصبحت من المنسيّات، وتحولت إلى فعل يتجاوز في فحواه المطالعة التقليدية، إلى أمر أكثر تعقيداً لكون مصادره ازدادت تنوعاً وتشعباً.

في استطلاع للرأي لطلبة كلية الآداب في إحدى جامعاتنا، سئل (٥٠٠) طالب وطالبة عن توفيق الحكيم وآثار الحكيم الممثلة، فتعرف ٩٠٪ على الممثلة، بينما عرف ١٠٪ فقط الكاتب الكبير، وفي استطلاع آخر شمل (٢٠٠) طالب وطالبة عن سؤالين، الأول: متى يصادف يوم الكتاب العالمي،والثاني: متى يصادف يوم الحب «الفالنتاين

داي» وأظهرت الإجابات ، أن الجميع يعرفون موعد يوم الحب في ١٤ شباط «فبراير» وبالمقارنة لم يعرف أي طالب موعد يوم الكتاب العالمي، الذي يصادف ٢٣ نيسان «إبريل» من كل عام ؟!

ومن يتابع البرامج الثقافية، وبرامج المسابقات التي تقدم في بعض الفضائيات العربية، يدرك جيداً مدى الأمية الثقافية لمعلومات بسيطة وأولية، بعضها تاريخي والآخر جغرافي والأمر نفسه في العلوم والأدب واللغة وغيرها..

لقد أصبحت «مقاهي الإنترنت» واستراحات «البوب» و«توب ون» و«نايت كلوب» ومطاعم الوجبات السريعة، التي انتشرت في كل مكان، تستأثر باهتمام الجيل الجديد وتستحوذ على اهتماماته ورغباته ومتعته أكثر بمرات عديدة مما يلفت نظره مكتبة أو كتاب..

لقد كانت الأجيال السابقة تشتري الكتب وتتبادلها، وتجتمع لتناقش فحواها ومحتوياتها، فتعم الفائدة والمتعة والمعرفة الشاملة.. أما اليوم فقد أصبح الكتاب بالنسبة لأجيال اليوم، وكأنه من الأعباء الثقيلة التي يجب التخلص منها، لأنه يرمز إلى الكتاب المدرسي الذي نهمل صياغته وفقاً لجاذبية التأليف التشويقي الحديث، أو نبقيه معلاً منفراً بلا ابتكار، أو نقعّر لغته ونحنّط أسلوبه بعيداً عن العصرنة، ولا نريد أن ننسى كم وكم من المجازر ترتكب لدى تدريس كتبنا المدرسية بأسلوب الحشو المصطنع للمعلومات، مما يجعل الكتاب لدى التلميذ أو الطالب، وكأنه «بعبعاً» وليس جسراً للمعرفة والعلم والثقافة، وهذا ما أدى إلى انكفاء الجيل عن الكتاب، الذي يعبّر عن حاله، المشهد المأساوي المتمثل في تمزيق الكتب المدرسية، مع أفول آخر أيام الامتحانات، وهذا المشهد له دلالته الكبيرة عند الأجيال الجديدة، مما يراد لهم أن يقرؤوا، والمشكلة أننا نريد لأبنائنا أن يتفوقوا دراسياً، ولا يهمنا أن يكونوا مثقفين..

مما لا شك فيه أننا لا نربيّ الأجيال الصاعدة تربية قرائية، بل العكس صحيح،

فبدلاً من أن نحبّب إليهم المطالعة، يفرض عليهم «المقررات» التي تؤمن لهم النجاح في الامتحان فقط، وكم من جيل نشأ وتخرّج وحمل شهادة تلو الشهادة حتى الجامعية منها، وربما «الدكتوراه» دون أن يكلّف نفسه عناء المطالعة أو حتى شراء كتاب ثقافي أو معرفي..



في اليوم العالمي للكتاب، وعلى الرغم مما قيل ويقال، ويكتب وينشر من دراسات وأبحاث وإحصاءات عن تراجع دور الكتاب، وغيابه من حياتنا العامة بشكل أو بآخر، فإننا نقول:

لم يكن الكتاب يوماً ما مستوعباً محايداً، فهو يحرّك ويغيّر، أو يؤسس ليعمّر، وهو المبتكر الاستثنائي بفكرته ومضمونه وتكوينه،ولا يمكن أن يرزح تحت غبار الاندثار، ما دام في البشر توق إلى المعرفة، وعشق إلى الحرية، وسعي للحقيقة، وحب للنقاش والفهم..

الوسائل السمعية والبصرية، تزيدنا في أفضل الأحوال، اطلاعاً على أمور ناقصة، ولا تستكمل إلا بالقراءة.. القراءة فقط تدعونا إلى الحلم والخيال والتأمل والرجوع إلى الذات.. التقنيات ووسائل الاتصال الحديثة، تختزن المعرفة من دون وعائها، كأنها أوراق مبعثرة.. الحاسوب و«الإنترنت» بنك معرفة، أما الكتاب فهو حضارة إنسان.. الوسائل الحديثة تضيف إلى اللغة المكتوبة، ولكن لا تلغيها ولا تتفوق عليها..

أن تقرأ.. يعني أنك حي، تعيش زمانك، تتفاعل معه، فالقراءة والاطلاع وسيلة تلاق وتواصل، خاصة إذا كان ما تطالعه متعلقاً بعملك، فيوسع الأفق ويزيد الخبرة ويقرّب من الكمال.. وليس أحلى ولا أجمل من أن تغمض عينيك بعد جلسة طويلة مع

كتاب ومبدعين تحاورهم عبر المطالعة، وتطلّع على أفكارهم، كأنك تناقشهم، وهم يعرضون عليك خلاصة تفكيرهم وعصارة عقولهم وزبدة نتاجهم.

لاشك بأن تطور عالم التلفاز والفضائيات والإنترنت والبرمجيات، أخذ حيزاً كبيراً من وقتنا المتاح لنا، ولكن هذا يجب أن لا ينسينا الكتاب، على الأقل من الناحية النوعية، فقد ثبت علمياً أن المعلومات المستقاة من وسائل المعرفة الحديثة، هي معلومات سريعة تلائم عصر السرعة، وتجيب عن الأسئلة والتساؤلات بطريقة سطحية..

الفكر والثقافة الحقيقيان يتطلبان وقتاً وجهداً وتفاعلاً، ولايحصل ذلك إلا من خلال الكتاب الذي يتيح للفرد أن يناقش الفكرة التي يقرأ، فيقبلها أو يرفضها، وذاك مالا تتيحه الوسائل السمعيّة البصرية..

كثيرون يقولون في عصر «العولمة» لم يعد حاجة للقراءة، ونقول لهم في يوم الكتاب العالمي: كيف لا نقرأ،والقراءة قدر وأمر وسنّة، إلا أنها قدر جميل، وأمر مطاع وسنّة تكوين، أما أنها قدر، فلأنه لا فكاك منه، وأمر مطاع لأنه منزل من الخالق وباسمه: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» وهي سنّة التكوين، لأنها حاجة عقلية، تتحقق بتلبيتها متعة عظيمة، تماماً كمتعة سدّ الجوع، ومتعة النشوة النبيلة، في وقت مناسب، وبإرادة مستقيمة..

الأدوات الحديثة للمعرفة بكل ما فيها من تطور وتقنية، لا أجدها عائقاً يقلل من أهمية القراءة، وأرى خلافاً لما يظنّه المتشائمون، فالكتاب لن يموت، ولن يندثر، وهو مكمّل لكل الألوان المعرفة الحالية، أو سيكون منها في المستقبل، وأن القرن الحادي والعشرين بما جاءنا به من انطلاقة لا محدودة في عالم العلم والمعرفة، أو ماقد يبشّرنا به من عطاء.. لن يقضي على المطالعة والقراءة، لأن ما تقدمه أدوات المعرفة السمعية والبصرية الحديثة فيها جمود العلم الجاف، مثل وجبة غذاء

جاهزة وسريعة.. بينما في القراءة عاطفة إنسان، وآراء مخضّبة بروحه وتجربته، وشتّان بين محاورة رجل ذي عقل نيّر وبين عطاء آلة..

يجب أن نقرأ من أجل تكريس الوجود بالفعل.. يجب أن نقرأ حتى نجد لنا مكاناً بين الذين يفتشون عن الحقيقة، ويدافعون عنها.. أن نقرأ كتاباً فمعناه أننا ما زلنا منحازين إلى الإبداع والمعرفة والمتعة الشخصية للكتاب.

القراءة الآن، وفي المستقبل هي، من دون منازع، الوسيلة الأقوى والأمتع لتحصيل المعرفة أولاً، ولإدراك الوضع البشري ثانياً، ولإرضاء الذات ثالثاً.. يعلمنا «تاريخ القراءة» أن السلطان الذي تهبه الكتب لقارئها لا يضاهيه أي سلطان آخر، أليس محترفو القراءة هم «الصفوة» ومن يقرأ يحصل على الامتياز؟!



المثقف وحركة التاريخ

مسكين المثقف العربي! كم تلصق به من التهم، وهو منها براء، ولا أدري لماذا تثار حوله بمناسبة أو غير مناسبة، آراء ومناقشات ودراسات، وتعطيه أكثر مما يستحق في وضع عربي لا نحسد عليه.. هو جزء من حالة عامة، ومن ظاهرة من مظاهر أخلاقيات وذهنيات تتقاطع مع أشياء كثيرة في المجتمع العربي، أهمها تأخر الوعي العربي عن مواكبة الحداثة والعصرنة.

منذ سنوات طويلة لم يكف الناس عن الحديث عن المثقف ودوره في التصدي لحالات الانهيار والتراجع والسقوط، من دون أن تتحدد معالم هذا الموقف وحيثياته أو طبيعته، أو يتبين للمواطن العادي فحوى القضية من أساسها.

هو حديث يتخذ تارة شكل الشتيمة والاستنكار، وتارة أخرى يتخذ شكل نداءات حارة تدعو المثقف إلى الانخراط في معركة كثرت جبهاتها، وتعددت مهامها، وهي دعوة تتعامل مع المثقفين وكأنهم فرقة عسكرية عالية التدريب والتسلح، وقادرة على التدخل في أي مكان كيفما كانت ملابسات الوضع وتعقيداته..يتم الأمر، كما لو أن المثقف العربي ينتمي إلى طائفة يوحدها كل شيء: المأكل والملبس والعقيدة والطقوس وتقاسم الخيرات.. طائفة فيها المثقف للمثقف كالبناء المرصوص يشد بعضه بعضاً، ولا شيء يفرق بين المثقف والمثقف سوى التنافس في خدمة الأمة والدفاع عن مصالحها..

الحال أن الأمور أعقد بكثير من ذلك، فلا يمكن الحديث عن صورة مثلى لمثقف

يكون هو التعبير الأسمى عن حالات الانتماء الإرادي والعفوي لقضايا بعينها من دون قناعات «إيديولوجية» وسياسية وتقديرات ظرفية، يمكن من خلالها تحديد معالم المثقف راهناً وماضياً ومستقبلاً، والنماذج القديمة للمثقف، التي كانت مرتبطة بأفكار «غرامشي» فقدت توهجها وأهميتها، في ظل التغييرات العالمية، التي تحاول حصر دور المثقف في إنتاج الإبداع والمعرفة، مستقلاً عن دوره السياسي، وطبعاً هذه النظرة قاصرة، لأن إنتاج الإبداع والمعرفة لا يمكن أن يكون في عوالم وأحلام بعيدة عن الواقع وحياة الناس..

في الماضي القريب جداً، كان الاحتماء بالأيديولوجيا والتفكير باستراتيجيتها ضماناً للمثقف كي يحصّن من جهة شرعية خياره، ويحفل بتفكيره خطأً واضحاً، لكن مع تراجع مجموعة من الإيديولوجيات، واختلال التوازنات واختلاط الأوراق وامتلاء الساحة بالفوضى، وهيمنة فكرة السوق بكل ما تحمله من معاني الاستهلاك السريع والربح والوصول إلى مراكز القرار، فقد بتنا نشهد ظواهر ليس لها علاقة بدور المثقف الحقيقي.

وهنا يجب أن نشير إلى أنَّ المثقف، ليس نسيج وحده، بحيث يمكن التعامل معه بوصفه ذا طبيعة رسالية، بغض النظر عن إيمانه بأن عليه أن يعمل رسالة، فإن لم يكن له رسالة فإن وصفه بالمثقف ينتفي، لكن المثقفين أنواع لأنهم ببساطة بشر ينوءون تحت ضغط الواقع وثقل الحاجات، ومن هنا لا يجوز أن نحمل المثقف أكثر مما يحتمل فهو قابل مثل غيره من البشر للترهيب والترغيب.



شغل تعريف «المثقف» جزءاً كبيراً من المناقشات الفكرية، في العقود الثلاثة الماضية، ويعيد كتاب المفكر العربي الكبير الراحل «إدوارد سعيد» (صور المثقف) فتح تلك المناقشات التي تعدّ، بحد ذاتها، دليلاً على صعوبة النظرية في اعتماد

تعريف نهائي حاسم، والمهمة تبدو أشد صعوبة في الساحة العربية، وربما في العالم الثالث عامة، لأن وظائف «المثقف» ليست محسومة، شأنها في الغرب.

وظيفة المثقف، هي إعلاء شأن حرية الإنسان ومعرفته، والعلاقة بين المعرفة والحرية عضوية، فتقدم الحرية يتناسب طرداً مع تقدم المعرفة، والتقدم هو العمل الدائب والمتصل لتوطيد الحقيقة، لأن الحقيقة غير معطاة أبداً، ولابد من اكتشافها بلا توقف، وتطهيرها من الشوائب والأخطاء، وتعريتها من المظاهر الزائفة، وطرد الشعوذات منها وعنها، وهذه العملية النقدية هي محرك التقدم.

والحقيقة في المعرفة التي تتناول المجتمع الإنساني، لا العالم الطبيعي، مكوّنة من الواقعة والمعنى.. المعطيات الخام من جهة، والتفسيرات والأحكام من جهة أخرى، أو الواقع والحق.. إن معرفة الواقع عملية نضالية شاقة، ومع ذلك فإن الجزء الأهم من وظيفة المثقف ينصبّ على التساؤل والبحث في إطار «مشكلة المعنى» فالثقافة وسيلة لاكتشاف المعنى، وأيضاً لإبداعه واختلاقه..

إن الأفكار أعمال في كل زمان ومكان، والمثقفون هم أكبر مصانع الأفكار، وهم «الشركة» الوحيدة للإعلان عن الأفكار وترويجها، ومن هنا تأتي أهمية التساؤل عن تعريف المثقف العربي، ولا يحدونا الشك في وجود صفوة من المثقفين العرب بأفضل المعاني والتمثيلات في شتى حقول الثقافة، ولكن هذا وحده لا يجيب عن السؤال.. إن سيادة مرجعيات «إيديولوجية» متعارضة جذرياً من شأنها أن تعدد «الصفوات» فما هو من الصفوة هناك قد يكون من الحضيض هنا، كما أنه لا يمكن استنتاج تصور عن المثقف العربي انطلاقاً من الصفوة.

إن للثقافة وظائف اجتماعية يقوم بها جمهور المثقفين في كل مجتمع، واعتماداً على هذه الوظائف يشاد التصور، وتعريف المثقف ليس مهما لذاته، وإلا أصبح الموضوع كله شكلياً.. الموضوع يتناول في العمق مسألة تجاه تطور التاريخ أو المصير..

لقد فرض النموذج الحضاري الغربي المعاصر نفسه على العالم، كمجموعة من المقدمات في السياسة والعلم والثقافة، وهذه الحقيقة مجسّدة على المستوى العلمي، بدرجات وأشكال مختلفة، وعلى الصعد كافة، أجهزة الدولة، الاقتصاد، العلم، الثقافة، الصناعة، التعليم، حتى الأزياء والزينة وفن «الديكور»

وتتفاوت درجات هضم الحداثة في هذه الصعد.. غير أنّ مالم يهضمها بدرجة مهولة ومروعة هو صعيد الحياة الروحية والفكرية، أي مجال عمل المثقف بالذات ويبدو المثقف العربي في وضع لا يحسد عليه، فالتحديات والمعوقات التي تواجهه تتكثف وتتعقد، والمهمات الملقاة على عاتقه تتفاقم وتتسع، والخيارات من حوله تتحدد وتضيق، وفوق هذا وذاك، عليه أن يكافح لإثبات هويته الضائعة، عليه أن يعمل في ظل اختلاف واسع حول مفهومه ودوره وشرعيته..



خلال مسيرة طويلة من الزمن، كان على المثقف أن يختار دائماً بين الرفض والتبعية، بين الاتبّاع والإبداع، بين أن يعقّم فكره ويدجّن، وبين أن يكون سبباً للتوتر المبدع الخلاّق، وحركة التاريخ، وبين أن يراوغ ويحابي ويحظَ بالمكاسب، وبين أن يرفض ويحاصر ويضطهد، ويترك للتاريخ أن ينتصر له..

ويتطلع المثقف العربي من حوله فلا يجد، رأياً عاماً قوياً ينصره ويتكئ عليه، إذ يشكل استشراء الأمية والفقر في الوطن العربي، عائقا حقيقياً أمام مشاركة الأكثرية الساحقة، المشغولة بمفهوم البقاء ولقمة العيش، والعاجزة عن معرفة واستيعاب ما يجري من صراع الثقافات والأفكار، ولا يمكن تبرئة المثقف العربي ذاته من الوضع الذي آل إليه، بالإضافة إلى تراجع الإبداع وتعطل الإنتاج العلمي، رغم وجود أكثر من /١٥٠/ جامعة ومعهد عالٍ في الوطن العربي..

لقد انكفأ العديد من المثقفين إلى همومهم المهنية والوظيفية، وانصرفوا إلى مصيرهم الشخصي بعيداً عن الاهتمام بقضايا مجتمعاتهم، في وقت تتضافر على الأمة العربية كل عوامل التيئيس والإحباط نتيجة الهجمة المنظّمة على تراثها وتاريخها وقوميتها وهويتها ولغتها، حيث تتستّر في غزوها للوطن العربي، كل تلك الاستراتيجيات الكونية، المنطوية في حقيقتها على الاستعلاء العنصري والتمييز بين الشعوب.. من هنا كان على المثقف العربي أن يعاني حصاراً مزدوجاً، حيث يواجهه في آن واحد، محاولات العولمة من جهة، والأنماط والسلوكيات البالية الموروثة من عصور الانحطاط، والحقبة الاستعمارية من جهة أخرى..

هل يعني هذا كله، نهاية الدور الطليعي للمثقف العربي، وانهزامه أمام كل تلك التحديات التي تختلف بعمقها وتشعبها وخصوصيتها عن التحديات التي تواجه المثقف الغربي حيث استقر المجتمع وحسم الموقف من السلطة والتراث؟! لا نعتقد ذلك، بل على العكس نرى أنّه أمام المثقف العربي الملتزم مهمّات عظيمة يجب أن ينهض بها، وليس معنى هذا أننا نلقي على عاتقه مهمّات مستحيلة، بل على العكس، نرى على الرغم من خصوصية وضعه، أنّه قادر على إنجاز تحولات ذات أهمية في المجتمع العربي، إذا استطاع أن يتوغل إلى معاناة الناس، ويدخل في همومهم اليومية، فالناس العاديون والبسطاء هم عصب التاريخ وقواه التغييرية، مهما توهم المثقفون أنهم هم وحدهم الفاعلون والمؤثرون، وقد أثبت التاريخ العربي أن هؤلاء البسطاء، كانوا دائماً في طليعة الذين جاهدوا وضحّوا وغيّروا مجرى الأحداث، ولكن على المثقف أن يعرف كيف يدافع عن موقفه وقناعاته.. والخروج من المأزق الثقافي الراهن، رهن بإدراك مثقفينا أنّ الثقافة المغتربة عن الواقع والتاريخ وهموم الناس، لا يمكن أن تنتج حضارة ولا أن تبني مستقبلاً، وأنه وراء كل حضارة «قلّة مبدعة» قلة تحقق القيم وتعمقها في المجتمع.. قلّة تعمل لا لذاتها، بل للغير، قلة لا تتعالى ولا تتعب، بل تحب وتخلص وتعمل.



عندما نتحدث عن المثقف، يطرح السؤال التالي: هل الثقافة هي انعكاس للعمل، أم هي عمل صرف؟ وهل الطقوس والأغاني والموسيقى والرقص الجماعي وغيرها من أنواع التعبير الإبداعي، ولدت في ضوء الحاجة إلى العمل، أم ولدت على ضوء الحاجة إلى إعطاء التوازن بين الحاجات المادية، والحاجات الروحية معنىً واقعياً؟

لا حاجة للذهاب إلى تاريخ العمل أو تاريخ الإنسان أو تاريخ الثقافة، فهذا التاريخ مكرر في جوهره، بمعنى أن دوافعه واحدة لم تتغير، وسيكون من المفيد الانتباه إلى أهمية وسائل وعلاقات العمل وأهمية وسائل وأدوات التعبير لنعرف التطور الذي طرأ على كل مرحلة، ومقدار هذا التطور...

لقد وجد المثقف نفسه منساقاً في أنماط ثقافية تشيع سيادة النمط الذي يمثله، وفي هذا النمط شكل خاص مستمد من الأطروحات «الأيديولوجية» الشائعة، وكثيراً ما تكون متعارضة مع دوره وموقفه، مما شكل ظواهر ثقافية عدة مثل: «عزلة الثقافة» و«انحسار تأثير التطور التصاعدي من التراث إلى المعاصرة» و«انحسار الإبداع الثقافي» و«ثقافة السوق» و«الثقافة الموجهة» و«الثقافة الحرة».. وهنا تكمن المفارقة في الحياة الثقافية في مختلف أطروحاتها وأطوارها، وهي انضواء هذه الثقافة في إطار الصراع «الإيديولوجي» مرة باسم «الإيديولوجيا» ومرة أخرى ضد «الأيديولوجيا» وسيادة هذه الأنماط أو غيابها، هي بالضبط المشكلة التي تعاني منها الثقافة العربية في وقتنا الراهن.



الميمني علاّمة الهند

زيارتي إلى الهند في خريف عام ٢٠٠٥، كانت فرصة جيدة للتعرّف على أعلام هذا البلد العريق في مجالات الأدب والتراث والفقه العربي الإسلامي، وعلى رأسهم العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي (١٨٨٩-١٩٧٨) الذي يعد من علماء الهند الأفذاذ الذين ذاع صيتهم في العالم وطبقت شهرتهم الآفاق،وكان أسلوبه أقرب إلى أسلوب أبي العلاء المعري في النثر.. ممزوجاً بالأمثال والأبيات، وفيه روعة البلاغة والفصاحة.

لقد اشتغل الميمني بالعلم أكثر من نصف قرن، فخدم اللغة العربية والأدب تدريساً وتأليفاً، وخلّف وراءه مجموعة كبيرة من تلاميذه، ومؤلفات علمية قيمة في اللغة والأدب، تعد آية في التحقيق والشرح والتعليق، وقد عرف في الوطن العربي والعالم الإسلامي كحجة في اللغة والأدب، وحافظ للأشعار والأنساب والآداب، على طريقة السلف من العلماء والأعلام، وعالم بالنحو والصرف والمعاني والبيان، كما عرف بقوة ذاكرته وبصيرته النافذة واستنتاجه العميق وشغفه بالبحث والتحقيق والتعليق والتدقيق.

يتحدث الميمني عن نفسه فيقول إنه: «حفظ في صباه المعلقات العشرة، وديوان الحماسة، وديوان المتنبي، كما حفظ جزءاً كبيراً من مراجع اللغة والأدب مثل: جمهرة القرشي، والمفضليات للمفضل الضبيّ، والكامل للمبرّد، والنوادر لأبي زيد، والبيان والتبيين للجاحظ، وأدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري، وشرح الاقتضاب لابن السيد

البطليوسي» ومما يدل على قوة ذاكرته وحسن استحضاره إلى آخر أيام حياته، ما نقل عنه أنه كان يحفظ نحو / ١٠٠/ ألف بيت من شعر التراث العربي القديم.



لقد اشتغل العلامة الميمني بالتدريس في مراكز علمية عديدة في شبه القارة الهندية. وقام بجولات واسعة في البلدان الإسلامية مثل: إيران وتركيا ومصر والعراق ولبنان وتونس والمغرب والسعودية، وخصّ سورية بزيارات عديدة، فأحبها وأحبته وأكرمته أكثر من أي دولة أخرى من تلك البلاد، فاستفاد من مكتباتها الفنية، وتعرّف على علمائها وأدبائها ومثقفيها الذين كانوا يحبونه ويكرمونه ويقدرونه حق تقدير، وكانت أول رحلة علمية عام ١٩٣٥، استفاد فيها من خمس وسبعين مكتبة عامة وخاصة في القاهرة والإسكندرية واستانبول وحلب ودمشق والقدس ولبنان والنجف، وانتخب من تلك المكتبات مخطوطات نادرة، قام فيما بعد بتحقيقها ونشرها بنفسه، أو عن طريق تلاميذه، وزار سورية مرة ثانية عام ١٩٤٤م حين شارك في الذكرى الألفية لأبي العلاء المعري، ثم قام برحلتين سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٥٨ إلى إيران والعراق وسورية ولبنان وتركيا ومصر وتونس والمغرب وذلك لشراء مصادر العلوم الإسلامية والآداب العربية لمعهد الدراسات الإسلامية في كراتشي، وقام بزيارة الحرمين الشريفين لأداء مناسك الحج سنة ١٩٥٧، وكانت آخر زيارة لسورية سنة ١٩١٠، بناء على دعوة من وزارة الثقافة السورية، وذلك للاستفادة من خبرته في أمر تحقيق بعض المخطوطات المهمة ونشرها تحت إشراف الوزارة.

انفردت سورية بقصب السبق بين جميع البلدان العربية والإسلامية في تكريم العلامة الميمني، وتقدير خدماته العلمية والأدبية، فاختاره المجمع العلمي العربي بدمشق لعضويته في عام ١٩٢٨، كما نشر له كثيراً من الدراسات والتحقيقات في مجلة المجمع قبل العضوية وبعدها، وبعد ذلك منحه مجمع اللغة العربية بالقاهرة

عضويته، كما انتخبه محب الدين الخطيب، لطول باعه وعلو كعبه في اللغة العربية، عضواً في لجنة التحقيق الرباعية لتصحيح القاموس العربي المعروف «لسان العرب»، لابن منظور، وكانت الحكومة السورية هي الوحيدة بين البلدان العربية التي كرمت الميمني، بناء على طلب من المجمع العربي بدمشق، بمنحه وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى، عام ١٩٧٧، تقديراً لعظيم جهوده في تحقيق التراث العربي ونشر اللغة العربية.. وقد قامت حكومة باكستان بتكريمه مرتين: أولاً، منحته سنة ١٩٦٦م وسام الرئاسة، اعترافاً بخدماته الجليلة في العلم والأدب وإحياء التراث العربي القديم، وثانياً: منحته في أواخر حياته لقب شرف..

مؤلفات الميمني المطبوعة، فقد شملت التأليف وتحقيق المخطوطات الأدبية القديمة والقيام بشرحها والتعليق عليها، نذكر من هذه الكتب:

- ابن رشيق القيرواني: حياته والبيئة التي نشأ فيها — القاهرة- ١٩٢٤.
- النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف- القاهرة- ١٩٢٤.
- ثلاث رسائل من نوادر المخطوطات — القاهرة- ١٩٢٥م.
- كتاب ما تلحن فيه العوام، لعلي بن حمزة الكسائي.
- رسالة محي الدين بن عربي إلى الإمام الفخر الرازي.
- أبو العلاء وما إليه- القاهرة ١٩٢٥م.
- رسالة الملائكة للمعري- القاهرة- ١٩٢٦م.
- زيادات ديوان شعر المتنبي — القاهرة- ١٩٢٦م.
- سِمط اللآلي في شرح أمالي القالي- القاهرة- ١٩٣٥م.

- الطرائف الأدبية – القاهرة- ١٩٣٧.
- ديوان زهير بن أبي سلمى.
- شرح الحماسة لأبي تمام.

ويعدّ كتاب «سِمط اللآلي» من أهم كتبه التي أثرى به العلامة الميمني المكتبة الأدبية العربية، وأثبت به كفاءته العلمية، ورفع به رأس أهل الهند في مجال خدمة اللغة العربية وآدابها، وضرب أنموذجاً رائعاً وقدوة مثلى لكل من رام خدمة اللغة ورغب في تحقيق آدابها، والكتاب في الأصل شرح وتعليق على كتاب الوزير أبي عبيد البكري، والميمني بنفسه يشير إلى بعض مزايا كتابه فيقول: «فجاء الكتاب على ما يروق كل أديب ظريف جماله وبهاؤه.. والكتاب احتوى على كثير من الفوائد العلمية والأدبية، وقد أضاف الميمني إلى شرح البكري أموراً نافعة».



أما كتابه «الطرائف الأدبية» فيعد تحفة أدبية جمع فيها مختارات من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام، وقصائد نادرة لأمية أبي النجم، وتائية عمرو، وعينية الصمة، واللامية والداليه والهائية لابن الرقاع، وعينيه أبي زبيد الطائي، ونونية خالد بن صفوان.

يذكر «الميمني»، في هذه الطرائف تاريخ نسخ القصائد، ويثبت خلافات النسخ، ويحل رموز النصوص المستعصية، ويكمل نواقصها المشوهة، ويحلل مضامينها ويشرح أشعارها، ويترجم رجالها، وكل سطر في تعليقاته يدل على علمه بمفردات اللغة ومعجماتها، وأسرارها ورجالها في الأدوار المختلفة، كما يدل على قدرته الفائقة في علم النحو والمعاني والبيان..

ومما لفت نظري في كتاب «الطرائف الأدبية»، المقدمة التي كتبها الأستاذ الكبير أحمد أمين التي نقتطف منها:

«حدّثني أثناء إقامته أن لديه وسائل كثيرة يود نشرها بعد أن يُعنى بتصحيحها وتخريجها، وظل يدأب في العمل في دار الكتب المصرية ويمضي أكثر وقته في النسخ والتعليق، ثم سافر إلى الشام والعراق والأستانة.. نقب في دور الكتب باحثاً عن النفائس، منقباً عن النوادر، مما لم يسبق نشره، ولم يسمع به إلا العدد القليل من العلماء، ولما عاد إلى الهند خلا بنفسه وبيض ما جمع وصحح وذيل، ولقي في ذلك من العناء ما أترك تقديره على القراء، ثم كان يرسل إليّ هذه الرسائل تباعاً حتى تم عندي هذا المجموع، فترددت في أن أنشره في رسائل صغيرة، كل رسالة لها موضوعها وعنوانها أو أن أجمعها في كتاب، ثم رجحت بعد التفكير الرأي الثاني، لأننا جربنا نشر الرسائل المفردة فرأينا إقبال الجمهور عليها ضعيفاً والعناية بها قليلاً والمجموع من الرسائل أكثر اجتذاباً للقراء وهم به أكثر عناية، ورأيت الدّر إذا نظم، خير منه إذا نثر، والزهر في طاقة أجمل منه منثوراً في حديقة أو قل هو أقرب منالاً وأسهل وصالاً وأيسر على الفنان إن أراد الموازنة بين الألوان»..

من يدقق في أعمال العلامة «الميمني» يجد أنه درس مئات الكتب العربية المهمة والمخطوطات الفريدة التي وجدها في المدن والأمصار العربية والإسلامية التي زارها، واجتذب نوادرها وفرائدها إلى قلبه وقام بتدقيقها وتحقيقها ونشرها، فكانت ذخيرة عظيمة لتاريخ اللغة العربية وأشعارها ومفرداتها وأعلامها، فضرب بذلك أنموذجاً رائعاً، وقدوة مثلى لكل من رام خدمة لغة الضاد، ورغب في تحقيق آدابها.



الهند لا تشبه إلا ذاتها

عندما جاءت موافقة الحكومة الهندّية على زيارة وفدنا الثقافي السوري إلى ولاية بيهار وعاصمتها «باتنا PATNA» تنفيذاً للبرنامج التنفيذي لاتفاق التعاون الثقافي الموقع بين الجمهورية العربية السورية وجمهورية الهند للأعوام (٢٠٠٤-٢٠٠٥- ٢٠٠٦) ولمدة أسبوعين.. كان السؤال الملح، أين تقع هذه الولاية؟ وما هي حال عاصمتها «باتنا» التي لا يعرف عنها إلا القليل القليل من المعلومات؟

السفارة الهندية بدمشق وبمساعدة من السيدة ريم دوجي أعطتنا معلومات مختصرة، من خلالها استطعنا أن نأخذ فكرة عن المكان الذي سوف نذهب إليه.. يبلغ عدد سكان هذه الولاية نحو /٨٦/ مليون نسمة، ويتكلم أغلبهم اللغة الهندية، ويبلغ عدد سكان عاصمتها «باتنا» أكثر من مليون ونصف المليون نسمة، وتعد من أفقر الولايات والأقاليم الهندية، يعتمد أهلها على الزراعة والصناعات الخفيفة واليدوية، وأهم مزروعاتهم: الموز والحمضيات والتفاح والأرز والقطن..

«بيهار» كلمة مشتقة من كلمة بيهارا VIHARA وتعني باللغة العربية، البوذية وهذه الولاية كانت ومازالت من المراكز الدينية المقدسة لدى الهندوس والبوذيين، ومن أشهر الأماكن فيها: «بوذا غايا» وهو سوق للبوذيين، ويقع بالقرب من شجرة «بوذا» المقدسة، وجامعة «نالاندا» التي تعد من أقدم الجامعات في الهند، ومتحف، باتنا» الذي يضم روائع من تراث وحضارات وفنون وآثار قديمة تدل على عمق التراث الموجود في هذه الولاية وخاصة في الفترة الواقعة بين القرن السادس قبل

الميلاد والقرن الخامس الميلادي، حيث تعاقب عليها الكثير من الحكام والأباطرة وكان من أشهرهم: (موراريا- ما كاد الثاني- والإمبراطور آشوكا.. وكانت مدينة «بيهار» في القديم من أهم المدن الهندية، وقد حكمت من قبل البنغال حتى عام ١١٩٧م، وجاء المسلمون بعدهم ودام حكمهم فيها من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع عشر الميلادي، وتركوا بصماتهم الواضحة بقوة في كثير من الأوابد والمواقع التاريخية الباقية آثارها حتى يومنا هذا، وقام البريطانيون باحتلالها بعد معركة «بوكسر» الشهيرة مع المسلمين عام ١٧٩٤ وظلوا فيها إلى أن نالت جمهورية الهند استقلالها عام ١٩٤٧.



وصلنا إلى «باتنا» بعد ظهر يوم الجمعة الواقع في ٢٠٠٥/٩/٣٠ بعد رحلة متعبة، شاقة استمرت نحو /١٧/ ساعة (من دمشق، إلى الشارقة، ثم إلى دلهي، باتنا) وكان في استقبالنا في مطار باتنا، مساعد مدير مكتبة «خودا بخش» الدكتور عتيق الرحمن، الخبير في التراث العربي الإسلامي، وانتقلنا إلى فندق «PATNA WIND» الذي يقع وسط المدينة المزدحمة بالسكان والدراجات الآلية والعادية التي تستعمل «سيارة الأجرة».. الناس جميعاً في حالة ركض مستمر، كأنهم في يوم الحشر .. يركضون نحو ماذا؟! لا نعرف! وبدأت رحلة الامتزاج برائحة المكان الذي تعبق به أشياء كثيرة.. بهارات، كاري- حيوانات داشرة في كل مكان. أصوات عالية، زمامير وأبواق العربات العتيقة ثلاثية العجلات- روائح الطعام الهندي الذي يطبخ في الشوارع ليباع إلى المارة ويؤكل «على الواقف»..

في صباح اليوم التالي بدأت الصورة الأولى تتغير نوعاً ما، عندما جاءنا الدكتور امتياز أحمد، مدير مكتبة «خودا بخش» صاحبة الدعوة، وأخذنا إلى مكتبته العامرة بالوثائق والمخطوطات العربية الإسلامية النادرة، وتعد هذه المكتبة مأثرة من مآثر

العرب المسلمين في شبه القارة الهندية، وقد بدأت بجهود شخصية لمحمد بخش الذي كان عالماً ومولعاً بالمطالعة، ومغرماً بجمع الكتب النادرة، فتجمعت لديه ذخيرة من الكتب التي بلغ عددها في آخر حياته نحو ألف وأربعمئة مخطوط، فأوصى ولده «بخدا بخش» أن يجعل منها مكتبة فأسس «خودا بخش» تحقيقاً لوصية ورغبة والده، وقد عمل على تزويدها بكل ما هو جديد من كتب عربية وفارسية وهندية وأردية، وكان له مساهمة كبيرة في الحفاظ على التراث العربي الإسلامي الهندي، ويصل عدد المخطوطات العربية في المكتبة إلى /٤١٠٦/ مخطوطة، كما يبلغ عدد المطبوعات والكتب العربية والفارسية والأردية إلى نحو أربعين ألف مجلد، وفيها مخطوطات لا تقدر قيمتها نظراً لندرتها ومكانتها التاريخية.

لقد جعلت هذه المكتبة منذ عام (١٨٩١) مكتبة وطنية عامة للناس، وما زالت في تطور مستمر، وتلاقي الدراسات العربية الإسلامية فيها الاهتمام الكبير..



الصحف الهندية الصادرة في ولاية بيهار وغيرها، أولت الوفد الثقافي السوري كثيراً من اهتمامها ومتابعتها وقامت بمتابعة جولاتنا في مكتبة «خودا بخش» والخانقاه والأرشيفات والمتاحف والأماكن الأثرية والمواقع التاريخية الإسلامية، وطالبت في تقاريرها وموضوعاتها التي نشرتها في صحف (التايمز الهندية- هندستان تايمز- فاروقي تنظيم- انقلاب جديد- قومي تنظيم- روزنامة سنكم..) بضرورة تطوير العلاقات العديدة بين سورية وجمهورية الهند، وتبادل الخبرات وتعزيز أطر التعاون في مجالات الثقافة عامة، والتراث العربي الإسلامي وترميم المخطوطات ونشرها لتعم فائدتها على جيل الشباب في العالمين العربي والإسلامي.

في منطقة نائية تبعد عن العاصمة «باتنا» نحو خمسين كيلو متراً، زرنا «الخانقاه» الإسلامي بكل ما فيه من معالم البناء وروعة التصميم.. يعود تاريخه إلى القرن

الحادي عشر الميلادي/ السابع عشر الميلادي،ويقيم فيه مجموعة من العلماء الأفاضل الذين قدموا لنا شرحاً عن تاريخ البناء، ومن عاش فيه، وعن مجيب الله القادر الجيلاني الذي أسس فيه زاوية، وجمع حوله الكثير من التلاميذ، ويضم هذا «الخانقاه» مجموعة كبيرة ونادرة من الكتب والمخطوطات العربية، في التاريخ والفقه والحديث والطب والفلسفة وعلم الأديان،والمؤسف أن هذه النوادر من التراث العربي تحفظ في مكان سيِّئ لا تتوافر فيه أدنى أنواع الرعاية والاهتمام وقد تعرض معظمها إلى التلف الشديد.

أثناء وجودنا في «باتنا» بدأت احتفالات الهندوس بعيد «الدشارة» التي استمرت عشرة أيام بصورة متواصلة رافقتنا في زياراتنا إلى رامبو ودلهي وعلي ليكر «اليكرا» وكانت فرصة للتعرف على عادات وطقوس وتقاليد رسمية شعبية ودينية لها جذورها التاريخية الموغلة في القدم، ويشكل الرقص والموسيقا والغناء أحد أهم سماتها، وتعكس هذه الاحتفالات شيئاً واضحاً من فلسفة الهندوس وديانتهم هذه الفلسفة التي هي المنهاج الفكري للحياة الطيبّة عند الهنود بشكل عام، ولها تأثير عظيم في أعمالهم وسيرهم، وعاداتهم وتقاليدهم..

وكانت لنا وقفة في متحف «باتنا» حيث اطلعنا على محتويات قاعاته المتعددة، وقد بني هذا الصرح الحضاري الجميل عام ١٩٥٠، وتضم أقسامه مراحل تطور الحيوانات والطيور والزواحف وأنواعها المختلفة،وجزء من شجرة متحجرة يعود تاريخها إلى ٢٠٠ مليون سنة، ونماذج رائعة من كتابات عربية وفارسية قديمة، وتماثيل حجرية وخشبية لبوذا، وأسلحة ولوحات فنية وتصاوير رائعة من التبت، ونماذج من قطع وأدوات فخارية ومعدنية مكتشفة في ولاية «بيهار»

وكانت لنا زيارة لمكتبة «باتنا» الوطنية الضخمة، ومكتبة ومتحف غاندي الذي يقع بالقرب من مكتبة «خودا بخش» ومكتبة الأرشيف الوطني والسجلات الرسمية

التي تضم كل ما يتعلق بتاريخ ولاية «بيهار» والأحداث السياسية التي مرت بها..

وكانت قمة هذه الأنشطة والفعاليات، اللقاء الثقافي والفكري الذي ضم نخبة من كبار الأساتذة والباحثين والأدباء الهنود في العاصمة مع أعضاء الوفد الثقافي السوري، حيث كانت جلسة حوار مفيدة وممتعة مع القادمين من دمشق، أقدم عاصمة مأهولة في العالم وأساتذة الجامعة وكبار الفلاسفة والعلماء الهنود الذين أشادوا بسورية ودورها الكبير في تطور ونقل العلوم والمعارف إليهم، كما جرى الحديث عن العلماء العرب الذين نشروا الدين الإسلامي الحنيف بطريقة سمحة فيها الكثير من المحبة والتسامح والإخاء، مما جعل الشعب الهندي يعتنق الدين الإسلامي، ويقوم بنشره في شتى أرجاء شبه القارة الهندية.



من الحقائق التاريخية المهمة التي عرفناها خلال زيارتنا إلى الهند، أن المكتبات لعبت دوراً رائعاً في ترويج اللغة العربية ونشر العلوم العربية الإسلامية في جميع العصور، وقد كان لإقبال العلماء والأمراء على اقتناء الكتب والمخطوطات دوره الكبير في تطور وازدهار هذه المكتبات الخاصة والعامة، إضافة إلى المكتبات القائمة في المساجد والمدارس والزوايا.. لذلك كان لا بد من زيارة بعض المكتبات الشهيرة في الهند، مثل مكتبة رضا الشعبية في مدينة «رامبور» التي أسسها النائب فيض الله خان (المتوفى سنة ١٧٩٤م) وشارك في إغنائها وتطورها أمراء الإمارة، حتى أصبحت هذه المكتبة من أضخم المكتبات في الهند، ولا يستغني عن مراجعها ومصادرها النادرة أي باحث في مجال الدراسات العربية الإسلامية، وتحتوي على أكثر من خمسة آلاف من المخطوطات العربية القيمة، منها مخطوطات لا توجد لها نسخة أخرى في العالم، كما تحتوي على الآلاف من المجلدات العربية المطبوعة.

أما مكتبة مولانا آزاد في مدينة علي أكرة (أليكرا) التي أمضينا يوماً كاملاً في

رحابها، فهي اليوم المكتبة المركزية الكبرى لجامعة علي أكره الإسلامية، وتحتل مكانة رفيعة بين المكتبات الشرقية في العالم، وتذخر بأنفس المخطوطات العربية، وأثمن المطبوعات، وقد ضمت مجموعة كبيرة من ذخائر الكتب القيمة للأمراء والعلماء، مما جعلها متقدمة على معظم المكتبات الشرقية في الهند، ومن مزاياها أنها جمعت عدداً وفيراً من المطبوعات القديمة جداً، يعود تاريخ بعضها إلى القرن السادس عشر الميلادي،وبلغ عدد المطبوعات العربية فيها أكثر من ثلاثين ألف مجلدٍ، كما وصل عدد المخطوطات العربية إلى ما يزيد عن عشرة آلاف مخطوطة.

كما أمضينا يوماً كاملاً في مدينة «أليكار» وجامعتها الإسلامية التي أعطتها شهرة عالمية، وكان لنا فيها لقاءات وحوارات متعددة مع أساتذة وطلبة الدراسات العليا في قسم اللغة العربية، وقسم الدراسات الإسلامية، وقسم المخطوطات والأرشيف، وزيارة إلى قاعات الجامعة ومكتبتها الحافلة بالمخطوطات والكتب والمراجع العربية النادرة، وكان لنا وقفة مطولة في مركز (معهد) الدراسات الآسيوية الغربية التابع للجامعة، وهذا المعهد تأسس عام ١٩٦٧ في إطار خطط برامج المنح الجامعية، وهو مخصص للدراسات المقارنة والإصدارات الخاصة بآسية الغربية، وتكمن أهمية هذا المعهد الكبير في وجود مجموعة كبيرة من الباحثين والدارسين والمدرسين من شتى أصقاع العالم، ومختلف الاختصاصات (اقتصاد- جغرافية- تاريخ- علوم- سياسة- دراسات استراتيجية) ويعد تدريس اللغة العربية جزءاً هاماً من برامج البحوث والدراسات في المعهد الذي تصدر عنه صحيفة مهمة جداً اسمها «الدراسات العربية الآسيوية».

زيارة الهند لا تكتمل إلا بزيارة «تاج محل» هذا الصرح المعماري الشهير المسجل في عداد الممتلكات الثقافية العالمية لدى منظمة «اليونسكو» وبني في العصر المغولي أزهى عصور الهند الإسلامية، وأرقاها في مجال الثقافة والفن والحضارة، يقول الشاعر:

لا تسأل أين ابتكار المسلمين

فسل الحمراء واشهد حسن تاج

وقد صدق الرحالة الإنكليزي «فينست اسمث» عندما زار الهند في عهد الإمبراطور «شاه جهان» باني تاج محل، حيث وصف مدينة «أكرا» و«فتح بورسيكري» بأن كلاً منهما أعظم من لندن شأناً وأكثر منها ثراءً.. لقد زرنا المسجد الرائع في «فتح بورسيكري» هذا الأثر المعماري العظيم الذي بني في عهد السلطان جلال الدين أكبر على بعد نحو /٤٠/ كيلو متراً غربي مدينة «أكرا» في عام /١٥٧١م/ وهو من أضخم المساجد في الهند، أطواله (١٦٥×١٣٣) متراً، ويبلغ ارتفاع إحدى بواباته التي تسمى «بولاند دروزا» والتي تشبه القصور، أربعين متراً.

أما «تاج محل» في مدينة أكرا فيعد بحق من روائع العمارة الإسلامية في العالم، حيث تبلغ فنون العمارة وتنظيم الحدائق فيه الذروة، ولا ندري أين يكمن موطن الجمال والروعة والدهشة البالغة في هذا الصرح العظيم، هل هي في رخامه الأبيض الناصع؟! أم في عناصره المعمارية المتناسقة المنسجمة؟! أم في النسب القائمة بين أجزائه أفقياً وشاقولياً؟! أعتقد جازماً أن السبب يكمن في كل هذه العناصر مجتمعة.

تاج محل وممتاز محل، كما تشير المصادر التاريخية، لقبان لزوجة الإمبراطور شهاب الدين شاه جهان، وقد توفيت تاج محل في عام ١٦٣١م، فبادر زوجها بإشادة أجمل ما ابتكره المهندسون من الأضرحة والترب، تعبيراً عن حبه ووفائه لها..

أقيم هذا الصرح الرائع على ضفاف نهر «جمنا» الذي يخترق مدينة «أكرا» في نهاية حديقة واسعة، أحسن تخطيطها وتنظيمها لتتقدم مبنى الضريح من الطرف الآخر، ويجاور عمارة تاج محل، من الجانبين بناءان آخران،مسجد في الغرب، و«خانقاه» في الشرق، وقد أقيم مبنى الضريح فوق دكة مربعة طول ضلعها نحو

/١٠٠/ متر، وارتفاعها ستة أمتار، وجعلت في أركانها أربعة مآذن يبلغ ارتفاعها /٤٠/ متراً، ولها قاعدة مثمنة الشكل ترتفع بارتفاع الدكة، وقد شيد المبنى كله (التربة والدكة والمآذن) من الرخام الأبيض الذي يزداد نصاعة بالتضاد مع لون البيئة المحيطة به..

الزخرفة في تاج محل لا تبدو كثيفة، ذلك لأن البناء –كما أشرنا– شيد بالرخام الأبيض الجميل بذاته، لكنه لم يترك دون زخرفة تبعد عنه الرتابة، فزينت أجزاء منه، كالحشوات المحيطة بالعقود والوزرات الجدارية بالعروق النباتية، عن طريق الترصيع بالحجارة الثمينة، أو بإنشاء أشرطة من الكتابات والآيات القرآنية..

الهند لا تشبه إلا ذاتها،فهي بلد العجائب والغرائب والتنوع الحضاري والعرقي والثقافي والديني والفني، وكفى بالهنود مأثرة أنهم قد وعوا ما جاء به أسلافهم من مهدهم القديم، فجمعوها وزادوا فيها، فانعكس هذا في أدبهم وحياتهم، وحلّهم وترحالهم وحضارتهم وثقافتهم ومساكنهم وطعامهم وتقاليدهم وعاداتهم، ونرى في تراثهم مدارج الارتقاء للحياة العقلية. من سذاجة البدوي إلى شعور الفيلسوف. وهذه خصوصية فريدة لا يمكن العثور عليها إلا في شبه القارة الهندية..

باتنا- دلهي (تشرين الأول 2005م)

آفاق الثقافة العربية

كثيرة هي الدراسات والأبحاث والكتابات والندوات والمؤتمرات، التي عُنيت بواقع ومستقبل وآفاق تطوير الثقافة العربية، وبحكم العمل والطموح والرؤى، كنت من المشاركين والفاعلين في كثير من الأعمال والندوات والمؤتمرات العربية التي ناقشت هذا الموضوع الحيوي وخاصة مؤتمرات الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، التي كانت مواضيع مؤتمراتها في السنوات الماضية مخصصة لهذا الهم الكبير مثل: «مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين» و«السياسات الثقافة من أجل التنمية في الوطن العربي» و«دور الثقافة العربية في الحفاظ على الهوية» كما كان هذا الموضوع الكبير، الهاجس والدافع الكبير للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، لوضع «الخطة الشاملة للثقافة العربية» التي أنجزت عام ١٩٨٦، وكانت من الأعمال الرائعة التي تاقت إليها الأجيال العربية، وكانت حلماً من أحلام مفكريها ومثقفيها، وتطلعاً كبيراً من تطلعات أمتنا العربية، ولكنها –بكل أسف– لم تأخذ دورها في التنفيذ، وبقيت دون الآمال والطموحات.

أسئلة كثيرة طرحت في هذه الكتابات والدراسات والمؤتمرات، عن موقف الثقافة العربية من تيار «العولمة» ودور الثقافة في القرن الحادي والعشرين؟! والثقافة العربية في عالم الاتصال؟ وفائدة الثقافة، والثقافة العربية ودورها في التنمية؟ والثقافة العربية والتقانة؟ والثقافة العربية وحوار الثقافات أو النظام السياسي والاقتصاد العالمي الجديد؟ والثقافة العربية وحقوق الإنسان والديمقراطية وغيرها من الأسئلة الحيوية التي لها علاقة قوية بمشكلات العصر وإشكاليات المستقبل الذي نهفو إلى

صنعه وبلورته في مجالات الثقافة والفكر، وخدمة الحضارة العربية الإسلامية، وتأكيد هويتنا العربية، دونما تعصب أو انغلاق، ودونما تفريط أو تهاون..

إذا ما ألقينا نظرة «بانورامية» سريعة على الثقافة العربية بعد كل هذه المؤتمرات والندوات وما خلصت من قرارات وتوصيات ودراسات، ماذا نجد؟! نجد بعض المحاولات الجادة هنا أوهناك من أجل الخروج من المأزق، ولكننا نجد أن الجهود في معظمها موجهة نحو الخارج، إما من أجل الدفاع عن الذات (ضد الغزو الثقافي والفكري)، وإما من أجل الاستعارة الجاهزة والسهلة من الثقافات الأخرى، ولكن لم تحصل -حتى الآن- أية محاولة فعلية للتغيير من خلال الصراع الداخلي مع الذات، ومن خلال التفاعل الجدلي والخلاق للذات مع الذات..



ثقافتنا العربية، ثقافة غنية، جذورها ضاربة في التاريخ القديم، تمكنّت في كثير من جوانبها، وخاصة في جوانبها المعرفية من تقديم مساهمات عظيمة وكبيرة في تطوير الثقافة الإنسانية وهي في المطلق ثقافة تنتسب إلى أمة بنت حضارات، لذلك توفرت لديها كمية هائلة من الخبرات والمعارف التي استفادت بها بقية ثقافات العالم فعلى أرض الوطن العربي ازدهرت أعظم وأهم حضارات العالم القديم، وعلى أرض العرب تمكن الإنسان من تطوير جميع أشكال التجمع البشري منذ عصور ماقبل التاريخ وحتى العصور والعهود العربية الإسلامية.. من قرية صغيرة إلى بلدة إلى مدينة إلى إمبراطورية.. وفي ممالك المدن والعواصم العربية الكبرى تمكن الإنسان العربي من تطوير المعرفة العلمية والفكرية والفلسفية.. لذلك لا يستغرب المرء في شتى أصقاع العالم، وجود جذور عربية لكثير من ميادين المعرفة العلمية..

ثقافتنا العربية كما تتقدم فإنها تتقهقر، كما تنمو وتزدهر فإنها تمرّ بفترات تبدو وكأنها ثقافة خاملة، وكما جرّبت الثقافة العربية الازدهار والسيطرة والتأثير

في الغير، مرّت بعصور تخلّف وجمود، مما مكن ثقافات أخرى من فرض سيطرتها، وأصبحت الثقافة العربية تأخذ أكثر مما تعطي، وتقلّد وتستورد أكثر مما تصدر، وعندها بدأ العرب يدخلون مرحلة التحديث كانت ثقافتهم في كثير من جوانبها، تستورد وتقلّد..

ولأن ثقافتنا العربية ثقافة قديمة وغنية، فإن هناك من يدعو إلى التخلص مما أخذته هذه الثقافة من الثقافات الأخرى، والعودة إلى ما كانت عليه أيام عصور ازدهارها، وهناك من يعارض هذه الأفكار لأن لكل عصر ظروفه وطبيعته، والتشبث بالماضي لأنه ماضي مجيد قد يؤدي بالعرب إلى حياة الاغتراب، ويفوّت عليهم فرصة بعث ثقافتهم من جديد، وفرصة المساهمة الإيجابية والفعالة في مسيرة الحضارة الإنسانية المعاصرة..

لقد تحولت علاقتنا بالحداثة منذ بداياتها الأولى إلى إشكالية في المنهج والرؤية، وكان في صلب هذه الإشكالية تلك الحساسية العميقة تجاه التعامل مع الغرب وما يمثله كقوة كانت وما تزال تهدّدنا في صميم وجودنا، مما أثر في نظرتنا لطبيعة الحداثة نفسها، وبذلك كانت الأزمة أكثر عمقاً وتعقيداً من مجرد قيام الازدواجية الثقافية بين التوجه الذي يقول بالتقدم نحو المستقبل، والتوجه الذي يقول بالعودة إلى الماضي، والمسألة تكمن بطبيعة تصورنا للسلفية والحداثة معاً، لا تكون فيها السلفية عودة بقدر ما تكون تمسك بتقاليد موروثة، ولا تكون الحداثة عملية تفكير خلاق، بقدر ما تكون إقبالاً سطحياً، على مقتبسات استهلاكية عشوائية،دون حصول تفاعل حر، وهذا ما أدى إلى نوع من الانفصام بين الثقافة الرسمية والثقافة الشعبية، والثقافة السائدة، والثقافات المتعددة والمضادة..



إذا دققنا النظر في الطروحات الثقافية العربية المتعددة التي كانت مثار نقاش وحوار ودراسات في السنوات القليلة الماضية، نرى أن هناك تنظير ثقافي يشدد على مسألة استعارة بعض المقتبسات الغربية، ورفض بعضها الآخر الذي يتعارض مع الدين باعتبار أن الصراع القائم هو صراع بين حضارتين دينيتين، وليس بين مجتمعات شرقية وغربية، والغريب في الأمر إن الاستشراق والسلفية يلتقيان في مثل هذا التنظير..

وهناك من يشدد على مسألة اتخاذ الغرب نموذجاً للتحديث، بحرية دون خوف أو مواربة أو حساسية، والسير بالثقافة العربية، على اختلاف فروعها وألوانها وفق الأسلوب الغربي،

وهناك فريق يرفض التوجه السلفي والتوجيه التغريبي لأنهما مثلان حسّيان للاغتراب الثقافي لكونهما يعالجان الأمور خارج التاريخ وبمنهج غير تاريخي..

وهناك فريق ثقافي يركّز بالدرجة الأولى على الصراع داخل الثقافة العربية نفسها، وإلى حدّ بعيد خارج الصراع مع الغرب، ودونما تدقيق في البنى والتشكيلات الاجتماعية.. بين قوى الاتباع وقوى الإبداع منذ ظهور الإسلام، ويظهر مثل هذا التوجه في الكتابات التي تركز على الصراع الداخلي والتاريخي بين الفكر الديني والفكر العلمي، وبين القوى العقلانية وغير العقلانية..

هذه هي بعض الآراء والطروحات التي يمكننا من خلالها أن نتبين إشكالية علاقة العرب بالحداثة والثقافة، وإن المواجهة لا تقتصر على مواجهة الآخر المستبد، بل تشمل أيضاً مواجهة الذات، بما فيه الماضي والحاضر والنظام السائد.. إن المواجهة ضد الآخر المستبد، ومع الذات هي في صلب معنى الحداثة، ولكن بقدر ما نواجه الذات والآخر معا، بقدر ما نجد أنفسنا مستفردين وربما هامشيين في معارك كبرى..

الحداثة لا تكون بتقليد الغرب الذي يصر على السيطرة على مواردنا وحياتنا بالذات،ولا تكون ضد العلم الحديث لأننا ضد الغرب المستبد، ولا تكون ضد حصول الوعي الطبقي والقومي معاً، وضد تغلب الإنسان على اغترابه واستعادة موقعه في المركز بعد أن سلب الحلم والقدرة على الإبداع والخلق والتفكير الحر الطليق.



في عصر التحولات الكبرى، وهيمنة «العولمة» تحولت الثقافة الاستهلاكية التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية إلى نظام ثقافي كوني، تستخدمه بكل قوة واقتدار كسلاح فاعل لتشويه الإنسان من الداخل وإدخال التشكيك لديه لتبديل قناعاته الوطنية والقومية والطبقية والفكرية وحتى الدينية، وذلك بهدف إخضاع العالم للهيمنة الأمريكية.

إن الثقافة الاستهلاكية الكونية تبقى مسيطرة ما دامت الانهيارات مستمرة، ومادام البديل المناهض لها غير قادر على البروز والمقاومة والتصدي. وما دام العرب عاجزين عن بناء وحدتهم الوحدة والقومية، في عصر الوحدات الجغرافية العملاقة. فستتعرض ثقافتهم القومية، إلى التدمير والتبعية، والتاريخ مليء بالأمثلة بالنسبة للشعوب التي لم تحسن قراءة عبر التاريخ وتستفيد منها.

إن تأثير الغزو الثقافي الفاعل والعميق على المجتمع المغزو، لا يكون إلا بمقدار الخواء الثقافي الذي يقع عليه الغزو، فحيثما توجد ثقافة حيّة نامية متحركة تتعامل مع مشكلات عصرها الكبرى وتحدياته المصيرية بنجاح معقول وتتعامل مع قضاياها الوطنية والفكرية والعلمية بصورة خلاقة. ينكمش تأثير الغزو الثقافي ويميل فعله إلى التلاشي تلقائياً والعكس هو الصحيح.

الغزو الثقافي -بشكل عام- محاولة تقوم بها الحضارات المتقدمة للانتشار في

العالم، وبالتالي لصهر الحضارات الأخرى في كيانها، فالعملية قديمة قدم التاريخ، إلا أنها أخذت اليوم بفضل التقدم العلمي المتطور، شكلاً عالمياً وكلياً.. والغزو الثقافي الأمريكي أصبح من الحقائق المقررة التي لا مهرب منها ولا مفر، فالولايات المتحدة الأمريكية تمثّل اليوم أكبر غازٍ عرفه التاريخ، فالنموذج الأمريكي باتت عناصره تدخل في تكوين كل ثقافة قومية إما بصورة مباشرة، وإما عن طريق التأثير على الذين يخلقون في كل مكان هذه الثقافة، ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تعلم أن غزواً كلياً ودائماً يفترض اكتساب انتماء الشعوب المغزوة أو على الأقل نخبها المحلية.

الغزو الثقافي الأمريكي في زمن العولمة، بات يأخذ علاوة على التصدير المباشر شكل تحويل غير مباشر للقيم الثقافية الأمريكية ولأدواتها بالذات، فالأداة هي بحد ذاتها خالقة للقيمة، وما دامت الولايات المتحدة الأمريكية صاحبة السبق في ابتكار أحدث أشكال وأدوات التنظيم المعرفي والمعلوماتي، فلا غرو أن تكون الرسالة التي تحملها العقول الإلكترونية والأقمار الصناعية هي رسالة أمريكية حتى بصرف النظر عن مضمونها المباشر.

إن الغزو الثقافي ما كان أن يحدث لولا قابلية المجتمع العربي له بسبب تفكك بنيته وركوده الفكري، إذ من المسلّم به في غياب الإبداع تزداد قابلية التلقي من الآخر، وقد جاء هذا التلقي مرفقاً بمد وقوة وسطوة ثقافة «العولمة». التي بثت السلوك في الموروث العربي بكل أبعاده، وقد خضع المثقف العربي لنفس الشروط السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية التي خضعت لها الأمة،على الرغم من الدور الكبير المطالب به ودوره في إيقاظ الوجدان والوعي الوطني والقومي، ومن المعلوم أنه لا يوجد نهضة واحدة من حركات النهضة التي عرفتها الإنسانية في كل العصور وفي الأزمنة الحديثة، قامت دون نهضة ثقافية تدعمها وتشرحها،

وتدافع عنها وفي كل نهضة لابد من الوضوح الفكري، والوضوح المنهجي من أجل بناء المستقبل واستشراف أفاقه وأبعاده.



هناك مسائل وأمور منهجية كثيرة تبدّلت في وقتنا الراهن على ضوء المتغيرات الدولية، نستطيع من خلالها أن نحدد كيف يمكن أن يكون دور المبدع والمثقف العربي فاعلاً وحيوياً في تشكيل الوعي الثقافي الجديد، من هذه المفاهيم نذكر:

مفهوم الوحدة الذي كان يميل في السابق إلى رفض مفهوم التعدد، وعدم تقدير أهمية التنوع في إغناء المجتمع، وإقامة توازن خلاق بين التوحد والتعدد واحترام حق الاختلاف والرأي والرأي الآخر، وقبل أن نقيم مثل هذا التوازن، قد يتعذر علينا البدء بالتغيير الذي به على الأغلب يمكن أن نملك مصيرنا ونضع حداً لهيمنة الآخر علينا..

والحديث عن هذا التوازن الخلاق يقود بالضرورة إلى مسألة رسم حدود بين الذات والآخر، بين الـ«هم». نرسم دوائر حول الذات، وقد تكون الدوائر صغيرة أو كبيرة، ضيقة أو رحبة الأفق، منفتحة على الآخر أو منغلقة على ذاتها، مرنة أو متصلبة، متسامحة أو متعصبة، منعزلة أو متفاعلة، قسرية أو طوعية.. وذلك حتى نستطيع من القيام بعملية التغيير على أسس سليمة.

ومما يجب علينا إدراكه حين ندعو إلى حدوث تغيير في مفهومنا الثقافي أن نعي جيداً أن المجتمع العربي، مجتمع مرحلي -انتقالي- تراثي، تتجاذبه السلفية والحداثة أو التراثية والعصرنة، وأن ننظر إلى عملية التغيير على أنها حالة دائمة من التطور والتكوّن أو التحول.. إنها كينونة مستمرة شكلاً ومضموناً، من حيث علاقتها بذاتها وبالآخر.

إن الثقافة المطلوبة في مواجهة تحديات العصر، هي ثقافة التجريب والبحث والابتكار والتجاوز انطلاقاً من حاجات المجتمع وقضاياه الكبرى، والاستفادة القصوى من ثورة المعلومات والإعلام، حتى يستعيد الإنسان العربي سيطرته على حياته ومؤسساته ومنتوجاته، فيخرج من حالة الاغتراب والعجز، إلى حالة الإبداع والتغيير والقوة الذاتية، التي ستقودنا بكل تأكيد إلى ردم الفجوة العميقة التي تفصل بين الحلم والواقع، في الحياة العربية الحديثة، وإلى تجاوز الإحساس العميق بالاغتراب عن الذات والمجتمع والدولة.

إن الحضارة في جوهرها مشروع للنهوض، وعلى الإسهامات الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية أن تدرك هذا الأمر، وتدرك أين موقعها فيه أو محلّها منه، لتصب في السياق الصحيح، ففي وضعنا الراهن ليس بوسعنا الحديث عن الإنسان ككل، ولا عن مدن فاضلة، ولا عن ثورات عالمية.. وإنما بوسعنا أن نجعل مكاننا وزماننا أفضل من السابق ولو بدرجات.. ومستقبل الثقافة العربية المنشودة يتوقف على فهم وإدراك ذلك..



أربعون عاماً على اكتشاف إبلا

أربعون عاماً مرّت على اكتشاف إمبراطورية إبلا، وما زالت معطيات الآثار تؤكد الدور الريادي الكبير الذي اضطلعت به هذه المدينة العظيمة في تاريخ المشرق القديم، مما يؤكد مكانة سورية ودورها الخلاّق المستمر في إطار التعاون بين الثقافات، وفي إطار الحوار بين الأمم والشعوب والعمل على حماية الإرث الثقافي والحضاري للبشرية.

باكتشافات إبلا الرائعة التي تمّت في الأربعين سنة الماضية، استرجعت سورية العربية، صفحة من أنصع صفحات تاريخها، ووقفت على قدم المساواة مع حضارتي وادي النيل وبلاد ما بين النهرين.. بعد أن كان ينظر إليها كمحطة متلقيّة للحضارة، وليست صانعة وفاعلة فيها، وبهذه الاكتشافات تفتّحت أمام الباحثين والمؤرخين والآثاريين آفاق لا تنتهي من العمل المتجدد للبحث عن أصول التمدن وبواكير الحضارة في المشرق العربي القديم بشكل عام، وسورية بشكل خاص، ففي ضوء الغياب الكامل للشواهد الكتابية في الألف الثالث قبل الميلاد في سورية، قبل اكتشافات إبلا، أصبح بمقدور العلماء البحث في تفاصيل الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتجارية والدولية والثقافية.

لقد كشفت إبلا الشيء الكثير من أخبار سورية وحضارتها القديمة، وتفتحت أمامنا صفحات كانت مجهولة عن بدايات الإنسان العربي السوري وفنونه وثقافته وعمارته وتطوره الأدبي، وكانت بحق بمنزلته «ثورة» على المفهوم التاريخي للمشرق

القديم .. لذلك ليس غريباً أن تحتل أخبار وأحداث إبلا، الطبعات الجديدة لكبريات الموسوعات العالمية، باعتبارها مملكة مهمة من ممالك الشرق القديم في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، كان لها في أوقات مختلفة نشاطات سياسية كثيرة وحركة مستمرة فاعلة على امتداد زمن طويل.



«الموسوعة الأمريكية» تحدثت عن أهمية إبلا وسيطرتها على أراضٍ واسعة، لكن الحدود القصوى لسلطانها صعبة التحديد، فقد امتدت أحياناً حتى نهر الفرات،عند كركميش إلى الشمال الشرقي، وحتى ماري «تل الحريري» إلى الجنوب الشرقي وتتحدَّث «الموسوعة البريطانية الجديدة» عن إبلا وأعمال التنقيب الأثري التي تمت فيها خلال العقود الماضية، ودعامات اقتصادها وازدهارها، وديانتها التي كانت قائمة على تعدد الآلهة، وكانت كنعانية في المقام الأول، ولغتها التي كانت أقرب في وجه الإجمال إلى المجموعات الشمالية المركزية للّغات، ولاسيما الآكادية والعمورية القديمة.. ويسجل «أرشيف العالم – لاروس» معلومات جديدة عن السجلات السياسية لمملكة إبلا في سنة /٢٥٠٠/ قبل الميلاد، فاكتشافاتها اعتبرت «أرشيف العالم» وثورة في المعلومات التي نمتلكها عن بدء تاريخ هذه المنطقة من العالم، فقد كان يعتقد قبل بدء هذا الاكتشاف، بأنَّ الحضارة المدنية قد تطورت في جنوب بلاد الرافدين، وبأنَّها -من هناك- أخذت تشع إلى البلاد والمناطق المجاورة، وتفرض نمطها، ولكن بعد اكتشاف مدينة إبلا «تل مرديخ» تبين أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق، وأنّ منطقة سورية الشمالية قد عرفت انطلاقة مدنيّة أصيلة.

وتشير «الموسوعة الآثارية» إلى بزوغ سورية في فجر الأزمنة التاريخية باكتشافات إبلا، وتؤكد «الموسوعة التاريخية» على أهمية هذه الحضارة العظيمة، كعاصمة للثقافة الكنعانية التي ازدهرت بين /٢٤٠٠ و٢٢٠٠ قبل الميلاد/ وكانت المدينة –

الدولة، ذات يوم بسكانها الذين يربو عددهم على /٢٦٠/ ألف نسمة، تسيطر على معظم سورية، نزولاً حتى فلسطين، وشرقاً حتى ماري على الفرات الأوسط، وكانت مملكة تجارية، تديرها قواعد منظمة، وملك منتخب يسنده مجلس للشيوخ.

وتتحدث «الآثارية الفرنسية» بإسهاب عن إبلا وريادتها في هندسة العمارة، والدور الكبير الذي لعبته في تكوين لغة التعبير الفني في العصر السوري القديم، التي تنبع من تجربة تقنية، وأسلوبية خاصة. فنرى تراث الماضي الشكلي يقولب التجارب الحالية ويتحكم بها، سواء كان ذلك من حيث الأسلوب أو من حيث اختيار الموضوعات..



الصديق العزيز «البروفيسور باولو ماتييه» مكتشف إبلا، لم يترك هذه المناسبة تمرّ دون الاحتفال بها من خلال ندوة عالمية نظمتها جامعة «لاسابيينزا» في روما، وشارك فيها مجموعة من أبرز علماء الآثار في العالم، حضروا من جامعات باريس ودمشق وفيينا وميونخ ولندن وبلتيمور، ليتحدثوا عن سنوات طويلة من البحث والكشف والدراسة في «تل مرديخ» وعثورهم في عام ١٩٧٥ على نحو /١٦/ ألف رقيم طيني مسماري بدد الشكوك والغموض، وليصبح الاكتشاف أسطورياً، فلم تبدل يوما ألواح كتابية عثر عليها في أعمال التنقيب تاريخ الشرق القديم، كما فعلت ألواح إبلا، هذه المدينة - المملكة التي يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت جسراً بين نهر الفرات وحضارة البحر المتوسط، ونقطة عبور طبيعية بين الدروب التي كانت تربط بلاد ما بين النهرين بوادي النيل، ولم تكن من تلك المدن التي تنشأ على ضفاف الأنهار، بل مدينة داخلية تقوم على زراعة الأرض وغرس أشجار الزيتون في مساحات شاسعة ليتبدّل بذلك مفهوم المدينة نفسه.

الاحتفال باكتشافات إبلا، أعادني إلى حوارات ولقاءات عديدة جمعتني بالصديق

العزيز «باولو ماتييه» فهو شديد الثقة بمستقبل الدراسات الأثرية، وأهمية سورية في عالم الآثار ومكتشفاته، ودائماً يعطينا بمستقبل مشرق، وأمل واعد لأن «الأركيو لوجيا» المعاصرة، تمنح إلى الجيل الحالي وإلى الأجيال اللاحقة، شهادات عن الماضي باعتبارها أساس الغد.. ويؤكد دائماً على القناعة التامة بالأهمية القصوى للحضارة العربية السورية، التي تجسّدت في كثير من المواقع الأثرية المهمة.

«باولو ماتييه» يعدّ إبلا ثورة متنامية في العلوم والمعارف، وقد أصبح العالم يعرف جيداً مدى أهمية الحضارة القائمة في سورية من خلال مكتشفات كثيرة تمَّت في السنوات الماضية، ويعتقد أن تطور الاكتشاف والعمل في إبلا كان له أهمية كبيرة في توضيح أهمية بدايات الحضارة في سورية في الألف الثالث قبل الميلاد.. لقد استعادت إبلا نظام الكتابة من منطقة «كيش» وتأثرت تأثراً شديداً بأسلوب الكتابة والمراسلات الرسمية المتبعة في مدارس «أكاد» ولم تقف عند هذا الحد، بل بدأت خلال هذه المرحلة المبكرة من تاريخ البشرية، بتطوير شخصيتها، وأخذت أبعادها المستقلّة لتصبح الوجه المميّز للحضارة السورية منذ ذلك التاريخ، وذلك استناداً إلى قاعدة اجتماعية واقتصادية مغايرة، لنظيرتها الموجودة في جنوب بلاد ما بين النهرين، فضلاً عن وجود بنيان تأسيسي سوري الطابع، وتطلعات دينية مرتبطة بتاريخ بلاد الشام، وفي هذه المرحلة بالذات، ترسّخت أسس متميزة، أصبحت فيما بعد، منطلقاً للتطور الحضاري المتعاقب في سورية، وهنا يكمن دور إبلا وتأثيرها المهم والنادر في تاريخ كنّا نجهل جوانب كثيرة من معطياته وتأثيراته وريادته..



ثمرات العمل الأثري في إبلا غيرّت مقولات كثيرة، وأحدثت ضجة على نطاق عالمي، والعثور على «الأرشيف الملكي» في داخل القصر الملكي، وضعا العالم أجمع أمام «تاريخ جديد» ولغة جديدة، وحضارة جديدة.. منذ أربعين عاماً لم تتوقف

وسائل الإعلام العالمية والمجلات العلمية والندوات والمؤتمرات الدولية عن الحديث عن إبلا ومكتشفاتها العظيمة الرائدة، وبناء على الدراسات المستمرة، يمكن أن نجمل النتائج التي توصل إليها علماء الآثار والتاريخ والحضارات القديمة في النقاط التالية:

- لغة إبلا هي ثاني أقدم لغة «سامية» بعد اللغة الأكادية، وكلاهما كانتا أم اللغات المتعاقبة كالبابلية والآشورية والأوغاريتية والفينيقية والآرامية والعربية الجنوبية.. كما أن لغتنا العربية قد ورثت جميع المفردات التي استخدمتها إبلا في كتاباتها..

- كنز إبلا الكبير المؤلف من نحو /١٦/ ألف رقيم مسماري يشكّل أقدم وأضخم مكتبة وثائقية في تاريخ البشرية.

- أهالي إبلا كانوا يقدسون الأموات في ملوكهم الصالحين ويرفعونهم إلى مصاف الآلهة.

- قبل اكتشافات إبلا، كان الزواج الذي تمَّ بين ابنة «نارام - سن» ملك آكاد، وابن ملك عيلام، أقدم زواج دبلوماسي في التاريخ، لكن وثيقة الزواج الدبلوماسي بين ابنة ملك إبلا «جيردوت» وابن ملك آشور «أبا» هي الأقدم في التاريخ.

- استوردت إبلا أحجار اللازورد -شبه الكريمة- من بلاد بادخشان (أفغانستان حالياً) وهذا دليل على أقدم تجارة بعيدة.

- العلاقات الودّية بين سورية ومصر كانت قوية ووثيقة منذ عهد الفرعون خفرع، باني الأهرام، فقد وجد في إبلا آنية حجرية تحمل اسم هذا الفرعون، وأخرى تحمل اسم الفرعون بيبي الأول.

- اكتشف في إبلا أقدم وثيقة صلح وعلاقات سلمية ودبلوماسية في العالم يعود

تاريخها إلى /٢٤٠٠/ قبل الميلاد، بين مملكة إبلا ومدينة «أبارسال» الواقعة في مكان ما قرب نهر دجلة.

- احتوت رقم إبلا على أقدم نصوص أدبية معروفة في بلاد الشام، وفيها قصائد وترانيم وأساطير وأمثال، تعود إلى أوائل النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد.

- وجدت نصوص معاهدة عقدها ملك إبلا مع مملكة «خمازي» في شمال إيران، وإذا عرفنا أن المسافة بين إبلا وخمازي تزيد عن ألف من الكيلو مترات، أدركنا موقع إبلا في الشرق القديم في الألف الثالث قبل الميلاد.

- عثر في إبلا على عشر معاهدات، عقدت بين إبلا، وبين عدد من المدن —الدول في الألف الثالث قبل الميلاد، منها، معاهدة بين إبلا وآشور حول إقامة سوق مشتركة يتعامل معها تجار المدينتين الواحدة مع الأخرى.

- قدّر عدد سكان إبلا، على أساس حصص الشعير الموزعة عليهم بنحو /٢٦٠/ ألف نسمة، فقد كان يقطن المدينة نحو أربعين ألفاً فقط. أما ما تبقى فكانوا يسكنون في البلدان والقرى التي تدخل في إطار «إبلا الكبرى».

- كان المورد الأول والأقدم لإمبراطورية إبلا ومجتمعها هو الزراعة، وكانت إبلا تتوسط رقعة واسعة تبلغ مساحتها سبعة وخمسين كم٢، تضم عشر قرى، وكانت تنتج الشعير والقمح والكرمة والزيتون والتين والرمان، ويكفي أن نعرف أن الشعير الذي كانت تنتجه إبلا كان يكفي سكان بلاد الشام، ويصدر منه كميات إلى أرض الرافدين، وكان الكتّان من النباتات التي تزرع في المنطقة، ومن هنا كانت إبلا مشهورة بالأقمشة الكتّانية.

- المصدر الثاني لثروة إبلا كان تربية المواشي، وكانت المدينة تنعم بصناعة

رائجة ومتقنة، وأشهرها صناعة النسيج حيث كانت مصانع النسيج تصنع الكتان والأصواف، تحت إشراف الدولة، كما كانت تصنع الأدوات والأشياء المعدنية، وكان الذهب يصل إليها بكثرة تسديداً لأثمان ما تصدّر، أو مكوساً تفرضها، أو سلعة للاتجار بها مثل السلع الأخرى، ولأوّل مرة يذكر الذهب على أنّه «سلعة» عالمية كان في وثائق أرشيف إبلا.

- عرفت إبلا كتابة «الموسوعات» وهي كتب كانت تحوي معلومات أساسية موزعة على أبواب المعرفة (نبات - حيوان - معادن.. أماكن جغرافية).. وكانت مدرسة إبلا أو «أكاديميتها» التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، متقدمة بشكل ملحوظ، بحيث أنّها كانت تنافس المدارس السومرية المعاصرة في أوروك وفارة و«أبو صلابيخ» ونيبور، وكانت على صلات وثيقة بهذه المدارس، بل إنها أصبحت تستقطبها لعقد ما يصحّ أن يسمّى «مؤتمرات علمية»، وكان المدرّسون في سومر يؤمّون إبلا ضيوفاً على مدرستها.

- أظهرت إبلا أصالة فنيّة واضحة ومتميزة في العديد من الآثار المنحوتة وخاصة الحفر على الخشب وصنع قطع الأثاث وهندسة الأبنية والقصور والمعابد والتحصينات التي يمكن القول من خلال مكتشفات إبلا في هذا المجال، أنّ سورية القديمة أوجدت تقليدها الخاص في فنون البناء والعمارة.



إطلالة سودانيّة

الأيـام الثقافية السورية، التي أقامتها وزارة الثقافة في الخرطوم، عاصمة السودان الشقيق، بين ١٢ و١٨آذار ٢٠٠٥، كانت مناسبة جيّدة للتعرف عن قرب على جوانب مشرقة وحيوية من حضارة وفنون وتاريخ وعادات وتقاليد عريقة يحفل بها هذا الجزء الغالي من وطننا العربي..

لقد حملنا إليهم فعاليات وأنشطة ثقافية وفنية عديدة متنوعة تعكس غنى وتنوع الثقافة والأدب والحضارة في سورية العربية، وتعبّر عن مدى فرحتنا واهتمامنا بمشاركة إخواننا بفرحتهم بالخرطوم عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٥، وهذا من حقّهم لأن الثقافة العربية العريقة، ظلّت على مدى قرون طويلة هي السائدة والمسيطرة، في بلد كبير تختلف فيه الأعـراق والقبائل، وأصبحت العربية، لغة التخاطب الوحيدة والمفهومة في ولايات السودان الست والعشرين، كما أصبحت هي وسيلة التعبير عن ثقافات العديد من الشعوب والقبائل التي تشكّل السودان بكل أبعاد حضارته وفنونه وثقافته العريقة..

زيارتنا إلى معهد حضارة السودان، ومتحف السودان القومي وجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، وجامعة الخرطوم وجامعة أم درمان، وجامعة الأحفاد للبنات وغيرها من معالم الحضارة الغنية والمتنوعة التي تعكس مدى عراقة هذا الشعب العربي الطيب الذي كان منذ آلاف السنين على تواصل مستمر مع شعوب العالم

القديم، وكانت أرضه منطقة تواصل بين شعوب أفريقيا الوسطى، وبين شعوب عالم البحر المتوسط..

متحف السودان القومي، أخبرتنا معروضاته الرائعة عن بداية سكن الإنسان الأول في شمال السودان منذ ثلاثمئة ألف سنة على الأقل، وقد أمكن التعرّف على أدواته الحجرية التي صنعها واستعملها في حياته اليومية، وتبعاً لنوع هذه الأدوات الأثرية المصنوعة، جرى تقسيم عصور ما قبل التاريخ (أي الزمن الذي سبق استعمال الكتابة) إلى ثلاثة أقسام: العصر الحجري القديم (الباليوليتي) ويمتد من ٢,٥ مليون سنة، حتى تسعة آلاف سنة قبل الميلاد، العصر الحجري الوسيط (الميزوليتي) ويمتد من تسعة آلاف سنة قبل الميلاد، حتى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. والعصر الحجري الحديث (النيوليتي) من خمسة آلاف سنة ق.م، حتى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.. وخلال هذه العصور تقلّب المناخ بين فترات مطيرة، وأخرى جافة، مما كان له أخطر الآثار على البيئة والنبات والحيوان.

لقد أعقب العصر الحجري الحديث في الألف الرابع قبل الميلاد، ظهور حضارتين متمايزتين، فإلى الجنوب من الشلال الثاني على النيل، يمكن التعرّف على حضارة ما يعرف بما قبل كرمة، وكانت أكواخها دائرية الشكل يتراوح محيطها بين (٤و٥) أمتار التي شيدها أهل كرمة.



إلى الشمال، وبالقرب من الحدود المصرية، في منطقة عرفها المصريون باسم «واوات» ازدهرت مجموعة سكانية تميزت باستخدامها للكثير من البضائع المصرية المستوردة، كما حوت مستوطناتهم على حضر للتخزين وأكواخ صغيرة شيدت من الخشب، وفخار مميز برقته، وقد ظل الفخار منذ ذلك الحين في الألف الرابع قبل

الميلاد، واحداً من أفضل منتجات شمال ووسط وادي النيل السوداني وحتى نهاية العصور الوسطى..

في الألف الثالث قبل الميلاد، انجذب المصريون إلى السودان، وخلال المملكة المصرية القديمة (٢٦٨٦-٢١٨١) قبل الميلاد، أقيمت مستوطنة في «بوهين»، وفي زمن معاصر للمملكة القديمة في مصر، أقام أهل المنطقة دولة جديدة، عرفت باسم «مملكة كوش» التي تطورت في شمال السودان بالقرب من الشلال الثالث، وقد أطلق عليها علماء الآثار اسم «حضارة كرمة» (٢٥٠٠-١٥٠٠) قبل الميلاد، وقد تطورت «كرمة» إلى مدينة متقدمة للغاية، وجد فيها مجمّع ديني هائل البنيان، وقصور ملكية، ومخازن ومبانٍ إدارية ومنازل وفواخير وأفران لصهر المعادن ودفاعات ضخمة، ويعدّ فخار كرمة من أفضل ماأنتجه وادي النيل، وقد قام رخاء المملكة على الزراعة، وخاصة في أحواض النيل الخصبة، وعلى رعي الحيوانات..

في نحو /١٧٠٠/ سنة قبل الميلاد صارت «كوش» أقوى دولة في وادي النيل، وكان ملوك هذه المملكة في أواخر عصر كرمة الكلاسيكي، الذين عاصروا الأسرة المصرية السابعة عشر، ذوي بأس شديد، ومن مظاهر سطوتهم، تلال مدافنهم الضخمة، والتي اشتملت على أساس جنائزي غني، وقد شكلوا بتحالفهم مع الهكسوس دولة قوية هددت الفراعنة، ومع بداية عهد «كاموس» (١٥٥٥-١٥٥٠) قبل الميلاد، دخلت مصر وكوش في صراع من أجل القوة والسيطرة، انتهى بغزو تحوتمس الأول (١٥٠٤-١٤٩٢) قبل الميلاد لكوش، وبقي الفراعنة في هذه المنطقة حتى أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد، تاركين خلفهم فراغاً في السلطة أدى إلى ظهور المملكة الكوشية الثانية، التي نشأت أسفل مجرى الشلال الرابع، في القرن التاسع قبل الميلاد.. وفي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، غزا ملوك كوش، مصر كأنصار للإله المصري الرسمي «آمون» وحكم ملوك كوش، إمبراطورية امتدت من حدود فلسطين شمالاً، حتى النيلين الأزرق والأبيض جنوباً. موحدين بذلك وادي النيل من الخرطوم إلى

البحر المتوسط.. وفي منتصف القرن السابع قبل الميلاد. وبعد قرابة مئة سنة من حكمهم لمصر. طردهم الآشوريون منها، إلا أن المملكة الكوشية، ظلّت محتفظة بقوتها وازدهارها في السودان، أكثر من ألف سنة أخرى.

في القرن الرابع الميلادي تدهورت أحوال المملكة الكوشية، وتقطعت أوصالها.. واستمر هذا الحال حتى منتصف القرن السادس الميلادي، حيث استقر الوضع السياسي وتمكن حكام ممالك العصور الوسطى الثلاث: نوباتيا والمقرة وعلوة، من حكم وادي النيل من الشلال الأول وحتى النيلين الأزرق والأبيض، وقد تحوّلت هذه الممالك إلى المسيحيّة، على يد إرساليات التبشير التي بعثتها الإمبراطورية البيزنطية، والتي أدخلت عنصراً ثقافياً مختلفاً إلى المنطقة، وبالتحول إلى المسيحية حلّت الكنائس محل المعابد، وانتشرت المدافن البسيطة بدلاً من المقابر الفخمة.. وأدى دخول الساقية للري إلى اتساع الزراعة، وأدى ذلك إلى زيادة السكان واستقرارهم، فانتشرت على جانبي نهر النيل القرى والمدن والقلاع الكثيرة، وتوطدت العلاقات التجارية والسياسية مع العالم الإسلامي، وفي نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، أصبح أغلب سكان السودان يدين بالدين الإسلامي، ويخطئ من يظن أن السودان لم يعرف العروبة إلا من خمسة قرون مضت، فهذه العلاقة قديمة ماقبل ظهور الإسلام.. حول هذا الموضوع يقول الباحث نجم الدين محمد شريف: «لقد اتخذ العرب مراكز لهم على الشاطئ الأفريقي، ونزحوا منها إلى قلب القارة حتى وادي النيل، ونعلم أيضاً أنه في الألفي سنة قبل الميلاد هاجرت جماعات عربية من جنوب الجريرة العربية إلى الحبشة، وحمل هؤلاء لواء التجارة في البحر الأحمر ووصلوا في تجوالهم غرباً إلى وادي النيل.. كذلك نعرف أنه نشطت حركة التجّار العرب في زمن البطالمة والرومان، ويحدثنا ابن خلدون عن حملات قام بها الحميريون في وادي النيل الأوسط وشمال أفريقيا».



علماء الآثار والتاريخ في جامعتي السودان والخرطوم ومعهد حضارة السودان، يفتخرون بمملكة مروى، هذه المدينة العظيمة الحافلة بكل ما هو مدهش وجميل من آثار نادرة، حيث نجد فيها بقايا الأهرامات الملكية والمعابد ومنها «معبد الشمس» وأفران صهر الحديد الكثيرة، التي جعلت علماء الآثار يعتقدون أن صناعة الحديد التي أحدثت أكبر أثر في نمو الحضارة وتقدمها في القارة الأفريقية انتشرت إلى داخل القارة من مروى..

لقد كانت مروى عاصمة لكوش منذ القرن الخامس قبل الميلاد، حتى القرن الثالث الميلادي، وكانت خلال هذه الفترة الطويلة تنشر النور حولها وتقدّم الأفكار النيّرة والفنون الجميلة، التي جعلت العلماء يقولون إن حضارة كوش في هذه الفترة كانت أكثر الحضارات التي نشأت في أفريقيا تميزاً، وقد استعارت كثيراً من مظاهر الحياة في العالم القديم، وشواهدها نراها في معابد «النقعة» وقبورها الملكيّة والشعبية.

اللافت في حضارة مملكة مروى، ذلك الدور الكبير الذي لعبته المرأة في حياة المملكة السياسية والاجتماعية والدينية، فقد قدمت لنا المكتشفات الأثرية لوحات تتويج تبيّن أن الأم أو الزوجة أو الأخت أو الابنة، أخذت موقعها دائماً خلف الملك المتوّج.. وأبرز هذه اللوحات، لوح تتويج الملك «أسبلتا» (٥٩٣-٥٦٨)ق.م حيث تقوم أم الملك بطلب السيادة من الإله آمون لابنها..

وتعدّ الملكة «شنكد خيتو» (١٦٥-١٤٥) ق.م أول امرأة تصل إلى عرش مروى، وقد شيّد لها معبد في «النقعة» ووجد لها نقش بارز جنائزي من الحجر الرملي داخل هرمها في المقبرة الملكية الشمالية بمروى، ومن أعظم المشاهد لهذه الملكة، النحت المصور على الجدران الشمالية والجنوبية من القبر الملكي الشمالي في مروى، ويعرض الآن في متحف السودان القومي.

أما أشهر ملكة سودانية عبر التاريخ فهي «أماني شاخيتو» (٤١-١٢) ق.م واهرامها من أجمل الأهرامات عمارة، شيّد من الحجر الرملي ويتكون من /٦٤/ درجاً، ويبلغ ارتفاعه /٣٠/ متراً، ويشهد على عظمة هذا الهرم الرسومات والكنوز الذهبية المطعمة بالأحجار الكريمة ذات الصياغة الفنية العالية التي وجدت فيه، والموجودة حالياً في متحف «ميونيخ بألمانيا».

أما الملكة «أماني تيري» (١٢ق.م- ١٢م) فقد تولت الحكم بعد وفاة أمها الملكة «أماني شخيتو» وشكّلت مع زوجها الملك «نتكاماني» ثنائي متكامل في السلم والحرب، فقد اهتما بالمنشآت العمرانية الحربية والدينية والمدنية، فقاما بإعادة ترميم معبد «آمون» بمروى، وشيّدا المعابد في «النقعة» والقصر الكبير الذي بني تحت سفح جبل البركل، ووجدت فيه تماثيل أسود من الحجر الرملي.



من يزور السودان ومعالم الحضارة والثقافة الموجودة فيها، يرى بوضوح أن الثقافة العربية في هذا البلد العريق والغني بتراثه وفنونه وآدابه، قد تأقلمت في البيئة السودانية، وامتزجت بعناصرها البشرية والثقافية والحضارية منذ زمن بعيد، بطريقة عضوية لا يمكن فصلها، وهذه سمة الثقافة العربية حيثما حلّت، فهي تمتاز بالمرونة التي تسلك بها سبيلها للتلاقح والتماذج مع غيرها من الثقافات والحضارات والتقاليد، واحترام الآخر، وقد حملت هذه الثقافة رسالة السلام البشري والبناء الحضاري في أي مكان ذهب إليه العرب في شتى أصقاع العالم..

الإنسان، الزرع، الكتاب، البناء المعماري الرائع، القيم الدينية والفكرية للآخرين، كانت دوماً أكرم الأمور على العرب، والتحول إلى البناء والاستقرار كان أول ما يفعلون، وقد لا يعرف الكثيرون أن الحضارة العربية الإسلامية بنت ما بين مشارق الأرض ومغاربها (٤٩٠) مدينة ما يزال أكثر من ثلثيها مراكز مدينة كبرى

حتى الآن، وندر في التاريخ أن بنت أمة مثل هذا العدد من المدن، حتى الإغريق، وليست المدينة عند العرب، مجرد بناء بيت وطريق.. إنها مركز مدني وحضاري كبير.

بكل أسف، اقترن اسم السودان خلال السنوات الماضية بالحروب الأهلية والأزمات الغذائية والفقر، ولكن هذا البلد العربي الشقيق، الغني بحضارته وثقافته وعروبته وفنونه وثرواته البشرية والطبيعية، سيتخلص في القريب العاجل، بإذن الله، من هذه التركة الثقيلة، وسوف تحمل لنا الأيام القادمة مفاجآت سارة ستتكشف مع إطلالة السلام وتدفق الثروات والخيرات من أرض السودان الغنية بالمواقع السياحية والأثرية والمحميّات الطبيعية الرائعة النادرة الوجود في العالم.



ثقافة الممكن واللاممكن

ما زالت الدّراسات والأبحاث عن «العولمة» أكثر من أن تعد وتحصى، وما زالت مفاهيمها وتعريفاتها تتطور وتتجدد مع تجدد وتعدد الرؤى والأبحاث والمفاهيم والآراء، وآخر تعريف يبيّن معضلاتها الراهنة وتناقضاتها يقول: «إنها غير معولمة بما فيه الكفاية، ذاك أن عمق العولمة مشروط بعمق الثراء، باختصار إنها عولمة لا مكان فيها للفقراء، فهي إذ توفر حقاً إمكانات التواصل والتنقل، وتضغط الزمن، فإنها توفر ذلك لمن يملك لا لمن لا يملك».

مخاطر «العولمة» وتناقضاتها لم تقتصر على دول العالم الثالث، بل امتدت إلى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، فها هو «صموئيل هنتنغتون» في كتابه الجديد عن «الهوية الأمريكية» يثير جملة من الانتقادات حيث يقول: «تقلب العولمة أشياء كثيرة رأساً على عقب، وتكثّف عمليات التفاعل بين المجتمعات المختلفة، وتخلق أوضاعاً متشابهة في بلدان غربية عدة، تمر بأزمات مرتبطة بهويتها الوطنية».

وبعد أن شبعنا من مصطلحات «الحداثة» و«ما بعد الحداثة» ما هي تناقضات «العولمة» تفرز مصطلحاً جديداً، تحمل عنوان «السوبر حداثة» التي تدرس حداثة الأكوان الممكنة والافتراضية، أي تدرس الأفكار التي لم نفكر بها من قبل، وحقل «السوبر حداثة» هو دراسة ما هو ممكن أن يكون صادقاً، لا دراسة ما هو صادق بالفعل، أما الحداثة فتعتبر المعرفة ممكنة في عالمنا الواقعي فقط، وبينما تدرس

الحداثة العالم الواقعي، وتعتبره قائماً بذاته ومستقلاً عن العقل، تعتبر ما بعد الحداثة، أن العالم غير مستقل عن العقل، بل هو نتيجة بناءات عقلية.

أما «السوبر حداثة» فتتجنب المذهبين السابقين، حين تدرس الممكن واللا ممكن، فالممكن قائم بذاته، أي مستقل عن العقل ويعتمد على العقل في آن معاً.. وتعترف «الحداثة» بنظام فكري واحد صادق ومقبول ومسلم به، أما «ما بعد الحداثة» فتتجه نحو التعددية، فتقول بعدم فصل نظام فكري أو سلوكي عن نظام آخر. أما «السوبر حداثة» فتدافع عن التعددية في الفرد الواحد ذاته، فمن غير الضروري أن يكون للفرد الواحد نظام فكري واحد، بل لا بد أن يكون للفرد نظم فكرية متعددة، كمن ينتج نظريات علمية مختلفة، ومتناقضة فيما بينها، كما أنتج العالم الشهير «أنيشتاين» نظرية «ميكانيكا الكم» ونظرية «النسبيّة» المتعارضتين.

تسعى «الحداثة» للوصول إلى اليقين ودراسته.. أما «ما بعد الحداثة» فتدرس اللايقين، وتدّعي أنه ملازم للعلم.. أما «السوبر حداثة» الذي يقدمها لنا الأستاذ حسن عجمي في كتاب جديد صدر عن مكتبة بيسان – بيروت ٢٠٠٥، فتدرس اللامعقوليات وتدرس اللايقين على أساس أنه يقين، ولأنها تدرس الممكن الافتراضي، فهي تدرس اللامعقول في عالمنا، على أنه معقول في عالم ممكن، واللايقين في عالمنا، على أنه لا يقين في عوالم أخرى.. أيضاً تقول «الحداثة» مع «هيغل» أن الواقعي عقلاني، وأن العقلاني واقعي، بينما تقول «مابعد الحداثة» أن الواقعي ليس عقلانياً، والعقلاني ليس واقعياً، وعلى هذا الأساس نعتبر «السوبر حداثة» أن الوهمي عقلاني، والعقلاني وهمي، والواقع أحد تشخصات الوهم، كما أن الوهم أحد تشخصات الواقع..



في عالم «العولمة» الراهن وما أفرز من تناقضات ملموسة في الفكر والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والأدب، أصبح الموضوعي، يتكون من مجموع تشخصات

اللاموضوعي، والحقيقة من مجموع تشخصات اللاحقائق، والمعيار الصحيح من مجموع تشخصات المعايير النسبية والمتضاربة فيما بينها.. بمعنى ما، الحقيقة هي مجموعة أوهام، والأوهام هي العوالم الممكنة، والمعنى هو مجموع اللامعاني التي تتكون منها الأكوان المختلفة، والمعرفة هي مجموع اللامعرفيات التي تشكل العوالم الممكنة.

في ظل هذا التناقض «العولمي» يمكن القول إذا كانت «ما بعد الحداثة» التي شغلنا بها سنوات عديدة، تميّزت بالكشف عن نهايات الأشياء، كنهاية «الأيديولوجيا» والفن والطبقة.. فإن «السوبر حداثة» تركز على بدايات الأشياء لأنها تدرس الممكن الذي يندفع نحو أن يتحقق، وقد لا يتحقق، وهذا يعني أن الفرد أصبح أو سيصبح عاجزاً عن أن يحس الإحساسات التي كان ينبغي أن يحسّها، وأصبح لا يستشعر المشاعر التي كان يستشعرها، ولا يرد ردود الأفعال التي كان يتوقع أن يرّد بها.. فكأن الفرد في عالم «السوبر حداثة» فقد حسّ الواقعية، بل حسّ التمييز بين ما ينبغي أن يفعل، وما لا ينبغي أن يفعل، وبين ما ينبغي أن يقال ولا يقال..

إن الإعلام لم يعد في عالم اليوم، يخبرنا عن الواقع، بل أصبح يصهرنا فيه، إن صحّ التعبير.. أصبح يحشرنا في اليومي، ويغرقنا فيه، أصبح يخبرنا إلى حدّ التخمة، مفوضاً عن أن يجعلنا ندرك الأحداث في بعدها التاريخي ودلالاتها العميقة،صرنا نضيع في جزئياتها، بل إن الأحداث هي التي أصبحت تضيع وتتحلل وتتفتت.. لقد غدا الإعلام أداة لتفتيت الواقع والأحداث، وتحليلها وتحويلها إلى مركبات.. مثل: تحويل الحروب إلى معارك متفرقة، وتحويل المواقف إلى ردود أفعال متغلّبة، والأفكار إلى انطباعات مترددة، والانقلابات إلى سلسلة من الفتن،والاحتلال إلى عمليات إصلاح وتحرير..

أمام تحولات «السوبر حداثة» فقد العالم التمييز بين الواقعي واللاواقعي،

وأصبح هناك صعوبة كبيرة في تحديد صحة الخطابات ومعناها، وفقد حسّ الانفصال وحس الاختلاف، وفقدت القدرة على التمييز.. في عالم اليوم أصبحت اللحظة ليست هي أصغر جزء في الحاضر.. إن الحاضر كلحظة يحدث فجوة في الحال الراهن، واللحظي هو ما يقوم ضد الراهن.. وما يميّز العصر هو كونه علاقة متفجرة للماضي بالمستقبل، فعند كل عصر ينكشف عالم من العوالم، أي تنكشف علاقة جديدة للماضي بالمستقبل، والحداثة إذاً شكل من العلاقة المتوترة مع ما يحدث في الوضع الراهن، وهي بذلك لا تقابل ما قبلها، ولا ما بعدها، وإنما تقابل ما ليس إياها..



مصطلحات «الحداثة» و«ما بعد الحداثة» و«السوبر حداثة» وما قد تفرزه الأيام في «عالم العولمة» من تيارات فكرية وثقافية وحياتية جديدة، ليس المهم الوقوف طويلاً عند معناها ودلالاتها، بل المهم فهمها ودراستها على ضوء الواقع والأحداث.. لأن الوقوف السطحي عند هذه المصطلحات يؤدي غالباً إلى تعامل انفعالي معها، فإما الرفض التام بحجة المحافظة على الأصالة، وإما التمسك الأعمى بدليل ضرورة مواكبة العصر..

الحركة الحضارية تتطلع دائماً إلى الجديد، دون تفريط بما حققته في تاريخها الحضاري، ودون أن تلغيه، لأنها حركة واحدة مترابطة الخطا، متواصلة الحلقات، ولو ألقينا نظرة على تاريخنا الموغل في القدم وخاصة فترة الازدهار في العهدين الأموي والعباسي، لرأينا الرفض الكامل للتقليد والجمود، والسعي المتواصل إلى التجديد والتطور والتواصل مع حضارات الشعوب والأمم، وكانت الحركة الحضارية العربية الإسلامية تميز دائماً وبصورة واضحة وجليه بين البدعة والإبداع ، وبين

«التحديث» الحقيقي، و«التحديث» المزيّف، وعندما توقفت مسيرة هذه الحركة، توقفت حركة الإبداع والتطور فيها.

تأكيد الماضي والموروث، لا يلغي الانفتاح على المعارف الحديثة الكونية، ذلك أن «العلم اللاحق هو الذي يفسّر العلم السابق، وبقدر ما أن الحاضر الفاعل هو الذي ينقد الماضي المنفعل، يقوم الأمر في اكتشاف الآخر، ويقوم أولاً وأخيراً، في عقل نقدي حداثي، يتخلص من المجرد، ويتعامل مع المشخص، ويتحرر من الكلي ويقبل بالجزئي، ويطرد التعميم الذي لا يقبل بالاختيار ويذهب إلى حيّز محدود قابل للتجربة» (العولمة والمشروع الثقافي العربي المحتمل - د.فيصل درّاج).

من الواضح أن المفاهيم قد تغيرت جذرياً في السنوات القليلة الماضية، مما خلق تحديات كبرى على مستويات مختلفة، خلقت بدورها مخاطر حقيقية للشعوب والأمم، كان سببها المبالغة في النزعة الدفاعية الاحتمائية، واتخاذها سداً منيعاً يحول دون الانفتاح والتجدد..

الإنسانية في عالم اليوم أمام مفترق طرق: فإما أن تواصل في تزاوج العقلانية والاستهلاك المادي واللامادي اللا محدود للأقلية، وإما أن تنتهج الطريق الثاني الذي يحاول تفعيل النجاعة والحيوية، أي التوافق بين المصالح الجماعية، والبحث عن الهوية والذات في الوقت نفسه.

مفاهيم «الحداثة» و«السوبر حداثة» أدت إلى الخلط واللبس بين مفهومي التغيير والتقدم، فالتغيير كمي ومادي، في حين أن التقدم معنوي وفكري وروحي، والتغيير محرّكه العلم والتقانة والعمل، في حين أن التقدم يبنى على القيم والأخلاق، وكان الفيلسوف والعالم الشهير «برتراند روسل» قد وصف هذه الحالة بقوله: «يمكن أن يحدث التغيير يوماً، ولكن إحداث التقدم مشكوك فيه، أي أنه إشكالي».



تحديات «العولمة» ومفاهيمها، وضعت العرب في حالة لا يحسّدون عليها، مما جعلهم لا ينظرون إلى مستقبلهم نظرة تفاؤل، وسبب ذلك يعود إلى أنهم وجدوا أنفسهم محاصرين في عالم لا يلعبون فيه أي دور تقريباً.

لقد انتهى زمن كانت فيه الأفكار والتيارات واضحة مستقرة، فأصبحنا نعيش التمزق بين المثال الذي نؤمن به، والواقع الذي نعيش.. من هنا يمكن القول: إن فرصة التفكير الإيجابي المنظم لن تتوافر لنا إلا بعد وقت طويل، وقد يستغرق ذلك جيلاً كاملاً، فقد أصبحت كل المفاهيم «بفضل العولمة» وتحولاتها، محلّ شك، فقد حلّت «أيديولوجيا الاستهلاك» في كل شيء، وأصبحت البديل الذي يفرض نفسه في حالة الفراغ الحالي الذي نعيشه، وهي المرحلة التي خلفت نهاية العصر «الأيديولوجي»، ولا يبدو أن هذه النهاية قد فتحت مسالك النقاء أو أسفرت عن عصر أكثر استنارة.. الثورة «التكنولوجية» لا توفر مجالاً واسعاً للتفكير النقدي، وإن جاءت فتحاً في مجال توفير المعلومات وانتشارها، لأن التدفق العالي والعشوائي للمعلومات، يؤدي إلى ضمور ملكة النقد، وتضييق إمكانية السبر والتمحيص.. كما أن المجتمعات بقيت متخلفة عنها بمراحل.

قد يقال: «إذا كان ذاك حال الدنيا» وقدر البشر، فلماذا نظن - نحن العرب- أننا أكثر تضرراً من الآخرين»، السبب يكمن في ضعفنا، فثقافة الاستهلاك، سيطرت على العالم كله، ولكن المجتمعات الأقوى هي التي تملك القدرة على التحكم والتوجيه، فهذه الثقافة، مثل الاستهلاك نفسه تلبي حاجة أطراف، وتحرم أطرافاً أخرى، والمجتمعات القوية لا تتكون بالضرورة من مواطنين يهتمون يومياً بالسياسة ويفكرون بالعقل ويتابعون عن كثب أحداث البشرية، بل لعلَّ الأقرب إلى الصحة أن نقول إن المجتمعات التي تبلغ درجة متقدمة من القوة يفقد فيها المواطن الرغبة في متابعة القضايا التي تتجاوز محيطه المباشر، لأنه لا يشعر بفائدة يجنيها من ذلك، كما لا تمثّل له القضايا الكبرى مهرباً من قضاياه المباشرة.

أما المجتمعات الضعيفة، فهي تتكون من مواطنين يتضاعف اهتمامهم بقضايا العالم، لعدم قدرتهم على تغيير الواقع اليومي، وهذا ما أفسح المجال للمزايدات «الأيديولوجية» بأنواعها، دون أن نستطيع تحقيق القدرة على نقد الذات، وعلى رسم المستقبل دون تهويم في المطلقات، وقد أدى هذا إلى حال من الاستلاب الذي أدى إلى تحويل الإنسان العربي وخصائصه وقدراته ونواتج نشاطه، إلى أشياء غريبة عنه ومسيطرة عليه، وهذا ما يؤدي إلى التشويه، داخل ذهن الإنسان لعلاقاته الحيوية، وللعالم المحيط به، ولذاته نفسها، والنتيجة ذلك الضياع والتخبط والاستلاب والفوضى..



جوهرة الفرات

وقبل الحادث الأليم، الذي وقع له في فندق أمية، مقر إقامته عندما يزور دمشق، زارني الأديب الكبير والصديق العزيز الدكتور عبد السلام العجيلي في مكتبي وعلائم الإرهاق بادية على وجهه السمح النبيل، وبعد أن استراح قليلاً قال: يا أخي علي يبدو أن وقت الرحيل قد اقترب، وحان الموعد لنترك المكان لغيرنا، قلت: يا أستاذنا الكبير لا أحد يستطيع أن يحلَّ مكان أديب وإنسان ومبدع كبير مثلك، فقد كنت وما زلت الرائع الشامخ المتجدد، الشخصية الفريدة الثرية المناضلة، التي حملت الهمّ العربي في الحِل والترحال والسياسة والأدب والطب..

قال: أشكرك على المجاملة، ولكن الشاعر قال يوماً:

لعمرك ما ضاقت البلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق

قلت: ومن قال يا سيدي أن أخلاقنا ضاقت بك، فأنت والله مثالاً رائعاً للإنجاز والمنجز في الحب والفكر والأدب، وقد مارست فعل الحياة بعفوية وحب ووفاء وصدق وإخلاص للقيم.. كنت الفارس الذي لم تترجل يوماً عن حصانك.. كنت العاشق الكبير لمدينة الرقة إذ لا يذكر اسمك الكبير إلا وتذكر هذه المدينة الغافية على ضفاف نهر الفرات، ولا تذكر حتى ينهض اسمك مع ذكراها، وأنت دائماً مثال الإنسان الرائع الذي نعتز بك ونفتخر.. أنت العقل الذي نفكرّ والقلب الذي نشعر به، والوجدان الذي نستضيء به.

قال: يا أخي علي، الزمن لا يرحم، جسمي أصبح واهناً، نظري تعب، وسمعي خف، إنها سنّة الحياة يا صديقي، وأحمد الله أنني طفت العالم، ولقيت تكريماً رسمياً وشعبياً كبيراً، وقد لمست ذلك بنفسي في جميع الأمكنة التي زرتها وعايشت أهلها.

بعد هذا اللقاء بأيام، تعرض فارس الحرف والكلمة، إلى حادث في فندق أميّة.. لقد وقع من السرير، وكسرت ساقه، ونقل من فندق أميّة، إلى مستشفى أمية، وزرته مرات عديدة حتى سمح له بالمغادرة إلى مدينة الرقة، ولم تنقطع الاتصالات الهاتفية التي كنت أطمئن من خلالها على صحته وأحواله، وكان دائماً يشرفني بطلب الحديث معي، رغم اعتلال صحته وتراجع قدرته على الكلام.. وكان الرحيل..

رحل الجسد الواهن، وبقيت أعماله ومآثره وإبداعاته الأدبية الرائعة، التي ستظل مضيئة كما «قناديل اشبيلية» رحل الحكواتي الأخير في العالم، ولكن رمال البادية السورية ستظل تردد حكايات رواياته وأحاديثه في العشيات، وفي الرحلات، وخواطر السفر، ومقامات (أبي البهاء) وأحاديث الطبيب التي نثرها في كل الوديان والبراري والقرى والمدن.



يا للموت الذي لا مفرّ منه.. لقد أخذ منّا في السنوات الأخيرة، سعد الله ونوس، محمد مهدي الجواهري، نزار قباني، عبد الوهاب البياتي، فاتح المدرس، محمد عمران، عبد الرحمن منيف، غالب هلسا، ممدوح عدوان وغيرهم.. وها هو يسحب بقوة الشاعر الكبير والأديب محمد الماغوط، والروائي والأديب والطبيب الكبير الدكتور عبد السلام العجيلي، ويتم دفنهما إلى مثواهما الأخير في يوم واحد.. رحل «الماغوط» صاحب القلم الساخر المحفّز للعقل كي يخرج من أسره.. عاشقاً مات الرجل.. لم يأبه كثيراً لمن اختلف أو اتفق معه.. رحل ولم يغادر مبادئه.. رحل ولم

يخن وطنه.. رحل ومازالت روحه في أوج يقظتها، وما برح هو على سخريته وغضبه وتمرده وطرافته.. وكان شاعر المستقبل بمقدار ما هو شاعر الواقع والحاضر..

أما أديبنا الكبير عبد السلام العجيلي، فقد كان جسده يبذل أكثر من طاقته ليواكب طموحات شخصية ووطنية وقومية ندر وجودها في هذا الزمن، فمن مهنة الطب الشاقّة في ريف ناء، متعب وفقير إلى كرسي النيابة في دمشق، مروراً بالتطوع في جيش الإنقاذ لنجدة فلسطين، وليس انتهاءً بالعمل الدبلوماسي والثقافي.. كانت مسيرة حافلة بالأسفار والمعرفة والعطاء والتواصل والإبداع.. لقد تحدى «العجيلي» التعب، وغالب الإنهاك، بالأدب والحكايا الناقدة الطريفة، المبطنة بالسخرية والمرح..

في الأشهر الأخيرة، عندما كنت أتصل به، كان يشكو أديبنا الكبير من تعطله عن الكتابة، فيده لم تعد تساعده على حمل القلم، ويتذكر بأسف أمير قلعة شيزر أسامة بن منقذ، أحد الفرسان والعلماء الكبار في سورية في العصور الوسطى، مؤلف كتاب «الاعتبار» الذي أعلن جسده إضرابه عليه، بعدما عاش أكثر من ثمانين عاماً، تخللتها عدة حملات على الفرنجة فيردد شعره:

متعجب لعجز يدي عن حملها قلماً

من بعد ما حطم القنا في لبّه الأسد

فقل لمن يتمنّى طول مدتّه

هذه عواقب طول العمر والمدد

عبد السلام العجيلي، كان بطبعه يحب الأشياء الشاقة، الخوف من الفشل، ساعده على تداركه.. عاش الحياة، حلوها ومرّها، كتب وكتب فارتقى بالكلمة السردية إلى آفاق مميزة معبرّة، عن الكتابة يقول:

«كان همّي الأول منذ بداياتي الأدبية هو أن أنفث ما في صدري من إحساس، وما أفكر به فأكتبه وأستريح كل الراحة حينما أضع ما أفكر فيه، وما أحس به على الورق وينشر، ولا يهمني أن أُعرف، وهذا ما دعاني إلى أن أبدأ كتاباتي الأدبية طيلة عشر سنوات تحت أسماء مستعارة..

بدأت كما بدأ كل الأدباء، وأجيز فأقول: كبار الأدباء بدؤوا شعراء، ذلك لأن الإنسان في مطلع حياته قليل التجربة، جياش العاطفة يصيغ أفكاره ومشاعره في الشعر، ولكن في عالم مثل عالمنا، ولاسيما إذا طال عمره وامتدت به السنوات يجد أن الشعر يضيق إيهابه عن استيعاب ما يحس به أو يفكر فيه، إلا إذا كان شاعراً كبيراً ملهماً قادراً على أن يطوّع الشعر، وأعترف أنني لا أحمل طينة الشاعر الكبير».

ولكن «العجيلي» عرف جيداً كيف يصوغ رواياته وقصصه وحكاياته ومقالاته الأدبية الساخرة، لقد عرف دوماً بأن في كل قصة نقطة بارزة يحسن البدء بها ويحسن القفل بها.. لقد عرف بنفحه الواقعي، وارتباط أدبه بالحياة، وكان من فضيلة الأدباء الكبار الذين ردموا الهوّة بين الحياة والحكاية.



كانت مدينة الرقة، حاضرة بقوة في أكثر كتابات الدكتور عبد السلام العجيلي، ففي جوّها الريفي، ذي الطابع البدوي عاش ومارس مهنة الطب خلال أكثر من ستين عاماً، وعلى الرغم من مغريات الحياة الكثيرة في حلب ودمشق، والأسفار المتعددة وفترات العمل السياسي التي كانت تبعده عن مدينته الأثيرة، فإنه بقي مخلصاً لها وفياً لأهلها ولحياتهم الاجتماعية.. لقد سجّل عنها وعن أهلها حكايات وروايات ومقالات ومحاضرات كثيرة.. في بعضها كان يحرص على تصوير الواقع وألوان الحوادث التي وقعت له من خلال ظروف العمل، كما فعل في «عيادة في الريف» التي

كانت تدوين لحكايات صادقة، نقلها بمضحكاتها ومؤسياتها، فجاءت تعبيراً عن البيئة التي أقام فيها.

لقد اتخذ «العجيلي» الأدب متعة مجردة منذ بدايات حياته الحافلة بالعطاء، عن ذلك يقول: «ففي طور التلقي، أعني أيام الصبا والدرس، كنت أقف أمام لذّاته موقف المنفعل، وحين استطعت أن أعبّر عما في نفسي من خواطر، بالأسلوب الأدبي ظللت أجد الأدب مصدر متعة، وإن تغيّر موقفي منه إلى موقف الفاعل المعطي.. أما مشاغلي التي كنت أسميها مشاغل جادة فكانت كل شيء غير الأدب، كانت الدراسة العلمية، والصراع مع المرض في أجساد المرضى ونفوسهم، ومعاناة المشاكل الاجتماعية في بلدة صغيرة، وحتى الزراعة والسياسة كانتا من بين تلك المشاغل، وحين كان يطلب مني أن أتحدث في الأدب، أو أن أشترك في مؤتمرات الأدباء واجتماعاتهم التي يبدون فيها كنوعية خاصة من الناس، كنت دوماً أمتنع وأتخفّى، ثم أعتذر بأني هاوٍ وأني إذا وجدت فائضاً من الوقت فإني أفضل أن أتمتع بالأدب، متلقّياً ومعطياً، على أن أتحدث فيه أو عنه..».

ماذا كانت النتيجة؟! لقد كتب هذا الأديب الكبير أكثر من /٤٥/ كتاباً مطبوعاً، وقد وجدناه قد أبدع وحاضر ونشر وتعامل مع وسائل الإعلام المختلفة، أكثر من كثير من المنصرفين إلى الأدب أو من العاملين معه في الميادين المتصلة به، ووجدنا أنه عرف بالأدب الذي لم يتعمد الانتساب إليه أكثر بكثير مما عرف بالطب، وفوق ذلك وجدنا أن هذا الذي أراده متعة وتزجية وقت، قد استأثر بالزبدة التي تبقت من كل ما أراده ونتاجاً مثمراً.. عن هذا يقول في كتابه «أحاديث العشيّات»: «وهكذا وجدت أن أدبي، الذي ظننته لهواً زائلاً، قد أصبح قيمة ثابتة، وزال أو تضاءل كل ما عداه، لقد تمسكن الأدب فتمكن، وكان خادماً مسخراً فأصبح سيداً متملكاً».

لقد كتبت «العجيلي» الكبير بكثير من الواقعية والشفافية وأحياناً السخرية،

فعبّر عن واقعه المعاش وعن أحاسيسه وقام بتصوير ما أراد تصويره من عوالم واقعة أو متخيّلة، بأساليب شتى، وبأنماط مختلفة، وكان في كل ما كتب أميناً لبيئته الجغرافية والاجتماعية، ومعرفته وتجاربه التي طورت ونسجت موهبة الأديب فيه..

في الأدب نراه يتصف بسعة الخيال وبحثه عن الكمال، واستطاع أن يخلق بموهبة الهاوي ما يقصر الواقع عن خلقه وما لا تسمح بكينونته قوانين الكون السائدة.. لقد كتب عما يشعر بأنه ينقصه أو ينقص العالم الذي يعيش فيه.. كتب الأدب الذي تثيره نوازع الأماني إلى الكمال، أو الذي تحركه دوافع النقمة على النقص، فكان مبدعاً وكبيراً وشامخاً ومدهشاً في أدبه وحياته وإنسانيته.. إنه بحق –كما قال الرائع نزار قباني إلى الأديبة العزيزة كوليت خوري«أروع بدوي عرفته المدينة.. وأروع حضري عرفته البادية».



خطوات عربية على طريق الحرير

في خريف عام ٢٠٠٤ زرت الصين الشعبية لأول مرة بدعوة كريمة من وزير الثقافة الصيني، وفي الفترة الواقعة بين ١٩و٢٩ حزيران ٢٠٠٦، كانت زيارتي الثانية لهذا البلد العظيم الذي صنع شعبه الحضارة منذ سبعة آلاف سنة، واستمر منذ ذلك التاريخ يصنع ويطوّر بقوة وحيوية يحسده عليها شعوب العالم..

مناسبة الزيارة كانت للمشاركة والاحتفال بالذكرى الخمسين لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين الصين والبلدان العربية، وكانت فرصة مناسبة لتأكيد متانة العلاقات العربية الصينية وامتدادها في أعماق التاريخ من خلال مشاركة سورية الفعّالة بمهرجان الفنون العربية، الذي رعته ونظمته جامعة الدول العربية ووزارة الثقافة الصينية..

لقد حرصت سورية العربية على المشاركة بهذه المناسبة بوفد ثقافي كبير ترأسهُ الأستاذ الدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة، وكان الحضور فاعلاً وقوياً في عروض الافتتاح والأزياء الشعبية العربية، ومعارض الفن التشكيلي العربي، والصناعات التقليدية، وندوة المنتدى الثقافي العربي الصيني، وفي لقاءات الحوار المنفتح على الآخر الذي يؤكد نظرة المحبة التي تكنّها أمتنا العربية كلها نحو شعب الصين العظيم.

لقد كان مهرجان الفنون العربية في الصين خطوة جديدة على طريق الحرير، حيث تؤكد مصادر التاريخ العربي والصيني أن مظاهر وأنشطة التفاعل الحضاري

بين الثقافتين العربية والصينية استمرت منذ قرون بعيدة، موغلة في القدم، في إطار التفاعل السلمي الإيجابي عن طريق تبادل السلع، ونشاطات التجار والرحالة وطلاب العلم والمعرفة، وفي التقدير إن دخول الثقافة العربية إلى الصين عن طريق قوافل التجارة العربية، يعد أحد أبرز جوانب الاعتزاز لدى المجتمعات العربية بالصداقة الصينية، وتقول مصادر التاريخ إن دخول اللغة العربية وتعليمها قد بدأ في الصين منذ القرن السابع الميلادي، وتشير الروايات إلى أن أول بعثة رسمية قدمت من الوطن العربي إلى الصين كانت في عهد الخليفة عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) مما يدل على قدم التواصل والاتصال بين العرب والصينيين.. ومنذ ذلك التاريخ دخلت الصناعات الصينية في حياة الشعوب العربية والإسلامية، وأصبحت المصنوعات الخزفية أياً كان نوعها ومصدرها تعرف إلى يومنا هذا بالصيني..



في الزيارتين التي قمت بهما إلى الصين اكتشفت بقوة مدى عظمة الحضارة والتاريخ في هذا البلد العظيم المترامي الأطراف.. لقد اكتشفت أرض الأحلام التي لم تنقطع الحضارة فيها مطلقاً منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى يومنا هذا، فما زال الصينيون بكل ألوانهم وثقافاتهم يحملون تراث حضارتهم التقليدية.. إنها حضارة أبناء التنين..

لقد اخترع الصينيون الورق والطباعة والإبرة المغناطيسية والبارود، وهذه المخترعات انتشرت مع الخزفيات والحرير في شتى أصقاع العالم، وعلى طريق الحرير الذي ازدهر منذ ثلاثة آلاف سنة، تتناثر آثار التبادل الثقافي بين الشرق والغرب.

لقد ابتكر الصينيون أساليب متميزة في الرقص والشعر والغناء والرسم

والموسيقا والمسرح والأوبرا والخزف، وكان جوهر الروح الأدبيّة والفنيّة الصينية هو الاهتمام بالأخلاق وحب الطبيعة..

الصين التي كانت قبل سنوات قليلة منغلقة على نفسها، فتحت الأبواب مشرعة نحو العالم.. فتحت أبواب قصور مدينتها المحرّمة التي بنيت عام ١٤٠٧، وأقام فيها /٢٤/ امبراطوراً لأسرتي «مينغ» و«تشينغ» لتقول لنا: أهلاً بكم رسل حضارة عربية زاهية، في عرس الثقافة الصينية العربية في بكين.. أهلاً بكم في معابد الشمس وفي حدائق الامبراطورية النادرة الوجود في العالم.. أهلاً بكم في سور الصين العظيم الذي يمتد طوله نحو /٦٣٥٠/كيلو متراً.. تبحث عن عظمة الماضي وروعة الإنجاز الحضاري العالمي، فتجده في هذا السور العظيم الذي ما أن تقترب منه وتصعد إلى أحد أبراجه الشاهقة، حتى ترى نفسك عند سقف الدنيا، فيذهلك المكان وتتساءل أية قوة بشرية عظيمة هائلة أنجزت هذا المشروع الخالد؟ كم من الوقت والجهد صرف حتى تم إنجاز هذا البناء العظيم الذي يعد أحد عجائب الدنيا السبعة..

في الصين حيثما تذهب تجد حكاية قديمة تتحدث عن أسطورة سادت آلاف السنين، فإن السماء هي القوة العليا التي تمثّل الحكمة والعدالة المطلقة، وهي تراقب الناس جميعاً، و«ابن السماء» هو الحاكم المطلق على الأرض، وقد وفرت هذه الرؤية «الكونفوشية» القاعدة لبناء الامبراطورية الصينية العظيمة خلال آلاف السنين، وعلى الرغم من جميع التحولات والتغيرات التي طرأت على حياة وفكر ومعتقدات الشعب الصيني، ما زالت هذه الأفكار راسخة في عقول الناس، لأنها في عمقها وفلسفتها تحثّ أيضاً على فعل الخير والتآخي بين الناس، وتروّج لمكارم الأخلاق، وتخفف من الغلواء الوطنية..

عندما تتحاور مع الصيني تدرك جيداً أن هذا الإنسان تقف خلفه حضارة عمرها سبعة آلاف سنة، ولكن هذا لا يمنعه من أن يكون حيوياً ولطيفاً معك، وهذا

ما وجدناه بقوة ووضوح في أيام مهرجان الفنون العربية في بكين ونانجين وشنغهاي وفي كثير من المواقع والأماكن التي زرناها وتعرفنا عليها عن قرب.



وجه الصين الجديد، تجده ما زال مستمراً بقوة في الأفكار والفلسفة، وأساليب الحياة وتعابير الشعب.. تجده في العناصر الخمسة: الماء والخشب والنار والتراب والذهب.. كل عنصر من هذه العناصر لا غنى له عن الآخر في الهيئة وفي الحياة نفسها على حد سواء.. إنها فلسفة استمرارية العلاقات منذ أقدم الأزمنة والعصور..

الأفكار ما زالت أصواتاً للماضي وتنبؤات للمستقبل تحث الخطا على ساحل التحضّر والتقدم المذهل.. إن الصين ذات السواحل الطويلة مع مدنها المتحولة، هي الآن محور المنافسة العالمية في تجارة المال والحياة الهانئة.. الناس يهيمون في أفكار محلقّة، مبدعين مزيداً من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية.

في بكين ونانجين وشنغهاي سمعت صوت الخشب يصغي إلى أحاسيس الضباب.. لقد أصغيت بعناية وسمعت صوت الخشب يغني وآلة «أرهو» الوترية الصينية في قاعة الشعب الكبرى تعبّر عن الحماسة والفرح بأسلوب طليق.. وأعظم ميزة للرقص الصيني التقليدي الذي شاهدناه في مناسبات عديدة، تلك الحركات الرائعة التي تجمع بين المهارة الفنية والدقة المتناهية في رسم اللوحات الفنية الساحرة..

الرسم الصيني التقليدي تجده في أي مكان تذهب إليه في الصين.. ففي تاريخ العالم لا يوجد مذهب للرسم يشبه هذا الفن من ناحية أسلوب الرسم باستثناء اليابان التي تأثرت بالثقافة الصينية..

يرسم الصيني بريشة الشعر، ويحتل رسم الحبر المائي مكانة رئيسة، لذلك كلمتا «الريشة» و«الحبر» لا يمثلان فقط أدوات الرسم والخط، بل يمثلان منزلة

فنية.. ويهتم الرسام الصيني بشكل عام برسم الأشخاص ورسم الجبال والأنهار والزهور والطيور، وفي هذا الفن الجميل المميز يجتمع الشعر والخط وفن الختم، مما يعطي اللوحة قيمة فنية متنوعة، ففن الخط يبين أسلوب الخطوط في الرسم، وفن حفر الختم يوضّح صفة الفنان.. في بداية الرسم يفكر الفنان في توزيع الصور والشعر والخط والختم ليساعد بعضها بعضاً، وأصبحت هذه الطريقة التقليدية أهم سمات الرسم الصيني..

الجانب التقليدي الآخر الذي نجده يمثل سمة من سمات الفن الصيني العريق، مازال مدهشاً وقوياً ومؤثراً في كثير من مظاهر الحياة اليومية.. إنه فن الخزف، الذي تشكل أدواته المتنوعة والفنية، أهم مصادر اكتشاف الهوية الصينية.. والفخّار هو الجد الأوّل للخزف الصيني، حيث صنع السكان الأوائل منذ سبعة آلاف سنة الأنواع الكثيرة من الفخاريات والتماثيل المميزة للخيول والجنود، وكان أول اكتشاف للخزف تلك الأوعية المطليّة بالمينا النيلية التي تطورت بعد ذلك لتصبح حتى يومنا هذا من الكنوز النفيسة التي لا تقدر بثمن..

مهرجان الفنون العربية شاركت فيه /١١/ فرقة فنية من الوطن العربي، هي: فرقة إنانا للفنون الشعبية (سورية)- فرقة رضا للفنون الشعبية (مصر)- فرقة فهد العبد الله (لبنان)- فرقة الأكروبات للأطفال (السودان)- فرقة الفنون الشعبية (السعودية)-الفرقة الفنية التونسية (تونس)- الفرقة الفنية الشعبية (المغرب)- الفرقة الفنية الشعبية (الأردن)- الفرقة الشعبية (قطر)- فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية (فلسطين)- فرقة البالية الوطنية (الجزائر)..

هذا المهرجان كان ثمرة رائعة من ثمرات منتدى التعاون العربي الصيني، ويعد نقلة نوعية في تاريخ وطبيعة العلاقات بين أمتين لهما تاريخهما الأصيل والعريق،

وهو أيضاً طريق جميل ومعبّر لتحقيق المزيد من التعاون العربي الصيني، والذي يعد الجانب الثقافي والفني أحد أركانه..

لقد حظيت عروض هذه الفرق بجمهور صيني كثيف، في كبريات المسارح في بكين ونانجين، ونالت فرقة إنانا السورية اهتماماً خاصاً في حفل الافتتاح الكبير، والحفل الخاص الذي انفردت «إنانا» بتقديمه على مسرح بكين، حيث قدمت لوحات فنية راقصة فيها الكثير من عناصر الروعة والإبهار، مما جعل الجمهور الصيني يتفاعل معها بصورة لافتة..

معرض الفنون التشكيلية العربية، شاركت فيه سورية بـ(٢٧) لوحة فنية لأكثر من ثمانية عشر فناناً تشكيلياً، وكانت مشاركتنا بعروض الأزياء العربية مميزة ومعبّرة عن تطور وغنى التراث الشعبي السوري..

والمشاركة الأهم لسورية في هذا المهرجان العربي-الصيني كانت في ندوة المائدة المستديرة لوزراء الثقافة العرب والصين، التي تحولت إلى منتدى ثقافي عربي -صيني، ألقيت كلمات رؤساء الوفود العربية، وأكد فيها الدكتور رياض نعسان آغا رئيس الوفد السوري، وزير الثقافة، على عمق علاقات الصداقة والتعاون بين العرب والصين، وأهمية تفعيل العلاقات الثقافية بخطوات عملية تدفع العلاقات العربية الصينية إلى الأمام، وأوضح في كلمته بأن الصين وقفت إلى جانب العرب في قضاياهم العادلة، وترفض سياسة الكيل بمكيالين.. وأضاف: لقد اشتهرت ثقافة الصين بالحكمة.. تلك الحكمة التي أتت منها مقولة «التناغم مع الاختلاف»، والاختلاف سر من أسرار العملية «الديالكتيكية» في الحياة.. الله تعالى أراد لهذا الكون أن يزدهي بالألوان.. في الصين الشعبية تعمّق التعارف بين /٥٦/ قومية، وأمتنا العربية استطاعت عبر التاريخ أن تحقق الثقافة الإسلامية، وأمتنا حافظت على «الاثنيات»، والعرب حكموا في إسبانيا من خلال تجربة فريدة في العالم..

من جهته وزير الثقافة الصيني «سون جيا جامغ» أكد من خلال كلمته في المنتدى الثقافي على عمق عرى الصداقة القوية التي تربط الصين بالأمة العربية على امتداد قرون طويلة.. وقدم مقترحات فعّالة وجيدة من أجل تعزيز التعاون الثقافي بين بلده والدول العربية، وأكد على ضرورة مواصلة تنظيم الأسابيع الثقافية والمهرجانات الفنية المتبادلة..

في مهرجان الفنون العربية تعانقت الحضارة العربية بكل أطيافها وألوانها وأزيائها المزركشة، مع الحضارة الصينية العريقة الشامخة، وكانت خطوات جديدة على طريق الحرير، وقفزة نوعية رائعة في العلاقات العربية الصينية.

ونجدها مناسبة لنوجه تحية إلى أصدقاء الشمس رفعها شاعرنا الكبير الأستاذ سليمان العيسى إلى الصين الشعبية، وشعبها العظيم قبل /٥٠/ سنة، ونقتطف منها:

يا أصدقاء الشمس، يا صانعي
براعم التاريخ.. منذ أثغرْ!
تفتح الفكر على دربكم
فالأرض غرقى بشهيّ الثمرْ

والفن، هل يقرع محرابهُ
شعري، وحولي معجزات السّورْ؟
فرائد الإبداع.. ما يشتهي
القلب، وتستحلي الرُّؤى والفِكرْ

حلّيتُمُ الدهر.. فكم روعةٍ
على خُطى الدهرِ، وكم من أثَرْ!
تحية ظمأى.. ولن ترتوي
وفي الثرى عن أي قيدٍ خَبَرْ
وأصدقاء الشمس جيرانُنا
والمبدعو عالمِنا المنتظرْ

(بكين 20- 29 حزيران 2006)



دون كيشوت.. ما زال يعيش بيننا

احتفل العالم في سنة ٢٠٠٥م بذكرى مرور (٤٠٠) عام على صدور الطبعة الأولى من العمل الروائي الملحمي «دون كيشوت» للكاتب الإسباني الشهير «سرفانتس» (١٥٤٧- ١٦١٦) وقد بدأت الاحتفالات الكبرى منذ ١٦ كانون الثاني في خمس مدن في العالم هي: مدريد- باريس- بروكسل- دالاس- مكسيكوسيتي- وسان بطرسبورغ.

وبهذه المناسبة، وجدت في مكتبتي المتواضعة ثلاث ترجمات عربية لهذه الرواية الرائعة، الأولى قام بها عبد الرحمن بدوي، والثانية ترجمها سليمان العطار، والثالثة نقلها بدقة جميلة الزميل رفعت عطفة، وكم كانت المفارقة عندما انتهيت من قراءة هذه الرواية للمرة الثالثة أو الرابعة على فترات زمنية متباعدة، ما وجدته فيها من تفسيرات لعصر التحولات التي مرّ بها بطل الرواية، فقبل أربعمئة سنة كانت أوروبة في حال من التحولات من العصور القروسطية، إلى العصور الحديثة، وبالتالي فهذه الرواية تعبّر عن أزمة الفرد الذي لا يتكيف مع التغيير في زمن التحولات، ولو نظرنا إلى «دون كيشوت» الذي يصور هذه الأزمة، فسنجد أنه رجل يعيش في عصره، في حين أن عقله ينتمي إلى عصر آخر أي إنه كان يعيش في عصر التحولات، بينما عقله مايزال يعيش في عصر لم يعد موجوداً ونحن في عالم اليوم، ما زلنا نحارب طواحين الهواء- «دون كيشوت» مازال يعيش بيننا بأحلامه وأوهامه، في شكل أو بآخر.. نشبهه في مأزق الأحلام الذي يحبطنا باستمرار، ولا ينفك يدفعنا كي نحقق أمراً لا قدرة لنا عليه، ونعلم أننا لا نقدر عليه.. لقد كان «دون كيشوت» منسجماً مع

نفسه ومتناقضاً مع العالم من حوله، ولم يكن يبحث عن حل وسط ولا كان بإمكانه أن يفيد من تجاربه المريرة مع الحياة.. هو في المحصلة الأخيرة أحمق طيب، يقتله البشر ويبكون عليه.



لقد كتب عن «دون كيشوت» دراسات كثيرة، في مختلف أنحاء العالم، وسوف يظل يكتب عنها وعن تأثير ها في الأدب العالمي لسنوات طويلة، وعن هذه الشخصية وعلاقته بالعالم وصفاته وشطحات لياليه التي تبعث على السخرية والضحك ولا تثير الاشمئزاز أو الاستهزاء ولا شك أن هذا التحول في مسار الشخصية كان جزءاً من تغيّر أكبر وأشمل طرأ على العصر كله..

المشكلة الأساسية التي واجهت الفارس الإسباني، هي مشكلة إنسانية عامة، وإن كانت تقل في درجتها وخطورتها عند الإنسان العادي، وأن الجنون الذي يبدر عن ذلك الفارس إنما يعبّر عن موقف الإنسان المثالي عندما يواجه واقعاً لا يرتضيه ولا يقبله ولا يملك حياله سوى إطلاق العنان لخياله كتعويض عن التغيير الذي يجب أن يحدثه فيه.

لقد تعاطفت الدراسات التي كتبت عن «دون كيشوت» بشكل كبير معه، واكتسبت محاولاته المتكررة واليائسة لإصلاح العالم، لوناً من النبل الذي اعتبروه خير تعبير عن الإنسان كوجود مثالي، وكان أكثر مابهر هذه الدراسات وأصحابها، أن السخرية وروح الفكاهة التي تسود العمل بأسره قد استطاعت أن تحطم الكثير من الأصنام، وعلى قمتها تلك المفاهيم الخيالية التي كانت سائدة في القرن السادس عشر، وتلك الحكايات غير واقعية عن بطولات خيالية لأبطال تفوق قدراتهم قدرات البشر.. يقول أحد النقاد حول هذا العمل: «ماكاد هذا العمل يظهر حتى تبددت أفكار الفروسية كما يذوب الثلج عند طلوع الشمس، واستيقظت الإنسانية كما لو كانت في

حلم، وضحك الناس على أنفسهم لأنهم سمحوا لهذا العبث أن يسيطر عليهم لفترة طويلة، وتعجبوا كيف لم يكتشفوا هذه الحقيقة من قبل»..

لقد تسبب «دون كيشوت» في موت الروايات الرومانسية القديمة، وأنجب الرواية الجديدة، فمن يومها تخلّى الأدب الروائي عن حجمه الهائل ومظهره المخيف، وطريقته الطائشة، ونزل إلى مستوى الحياة العادية، وخاطب الإنسان كند له وكصديق مهذب مرح.. لقد كانت سخرية «سرفانتس» في «دون كيشوت» سلاحاً مدمّراً للقيم البالية، وأداة للتغيير والإصلاح، لذلك ليس غريباً أن اعتبر هذا الأديب، المؤسس الحقيقي للرواية العالمية، ولا شك أن الاهتمام العالمي بـ(دون كيشوت) يرجع إلى الهجوم الذي شنته هذه الرواية على الروايات الخيالية الرومانسية وما تحويه من قصص لا أساس لها من الصحة.



يعد عنصر السخرية واحداً من أهم الجوانب التي جعلت من «دون كيشوت» عملاً متميزاً فريداً، وقد لاقت الطريقة التي استخدمها «سرفانتس» لإشاعة المرح والضحك البريء من ناحية،ومحاولة إصلاح المجتمع من ناحية أخرى، استحساناً كبيراً من مفكري ذلك العصر.. استحساناً حدا بالروائيين منهم أن يحاولوا تقليد هذا العمل بطريقة أو بأخرى، وإحداث تغيير في مجتمعهم يماثل ما أحدثه «سرفانتس» في بلاده.

تدور أحداث رواية «دون كيشوت» حول نبيل إسباني ناهز الخمسين من العمر، ويعيش في إحدى قرى «لامانشا» وقد أمضى معظم وقته في قراءة الروايات الخيالية التي كانت واسعة الانتشار في هذا العصر، وتدور أحداثها حول الفروسية والبطولة والأعمال الخارقة التي يقوم بها فارس أو آخر، ويطلق اسم «الفارس الجوال» على هذا الفارس، لأنه يقوم دائماً الترحال من مكان إلى مكان سعياً وراء مغامرات جديدة،

أو عملاً على تحقيق رغبة محبوبته، والتي دائماً ما تطالبه بأعمال لا يستطيع إنسان عادي القيام بها..

لقد شغف «دون كيشوت» بهذه الروايات شغفاً وصل إلى الحد الذي جعلها تسيطر عليه سيطرة كاملة على عقله، فأصبح يخلط بين الواقع والخيال، بل وأصبح يرى أحداث هذه الروايات كحقيقة واقعة لا شك في صحتها، ويحاول محاكاتها أو حتى التفوق عليها، كما أصبح يرى العالم من خلال المنظار التي تقدمه، وفقد القدرة على رؤية الواقع كما هو، أو كما يراه الآخرون.

وهكذا دفعت هذه الروايات بدون كيشوت إلى حافّة الهوس والجنون، فخرج يمتطي جواده، بصحبة خادمه «سانشو» ممتطياً حماره، ويحمل رمحه مرتدياً درعه ومتخيلاً نفسه فارساً هماماً يجول العالم، ليقهر الظلم ويدافع عن الضعفاء وعلى الرغم من نواياه الطيبة، فإن «دون كيشوت» قلما كان ينجح في درء الظلم عن المظلومين، لأن الطريقة التي يستخدمها في الدفاع عنهم ينقصها العقل والتعقل والفهم السليم للواقع..

لم يجعل «سرفانتس» بطله إنساناً مجنوناً لا يستطيع التفكير، بل جعله قادراً على تقديم الحجج وإبراز البراهين، وإن كانت المقدمات التي يبدأ منها خاطئة دائماً، وعلى سبيل المثال نجده حائراً يفكر كيف يعبّر عن خضوعه التام لمشيئة حبيبته «دالسينيا» وهي حبيبة لا وجود لها إلا في خياله، وكيف يكفّر عن أخطائه لكي ترضى عنه، ولهذا يحاول أن يجد مثالاً يقتديه في الفرسان القدماء.. وربما كان من أهم أسباب بقاء «دون كيشوت» كعمل أدبي ناجح وخالد عبر القرون، هو أن «سرفانتس» لم يصوّر بطله كرجل مسلوب العقل تماماً، لا يثير اهتمام القارئ أو تعاطفه بل جعله إنساناً تتسلط على عقله أوهام معينة، وإن لم تنف عنه صفة الآدمية، فدون كيشوت، لا ينقصه الذكاء، أو الشهامة، أو الإقدام، وهي لا شك صفات تثير إعجاب القارئ

وتقربه منه، والقارئ، إذا يضحك على مغالاة هذا الفارس في محاولته تقليد سلوك عصر من الفروسية قد مضى وولى، فهو يدرك أن لدى كل إنسان نقطة ضعف يمكن أن تجعل منه شخصاً لا يختلف كثيراً عن «دون كيشوت».

ولا شك أن التناقض بين السيد وخادمه من أبرز سمات هذه الرواية، بل إنه ليصعب أن نتخيل «دون كيشوت» دون خادمه، فهما يمثلان إلى حدّ كبير وجهين أساسيين للطبيعة الإنسانية، فإذا كان «دون كيشوت» يمثل العقل فسانشو يمثل الجسد أو الغريزة، وإذا كان «دون كيشوت» يعبّر عن مثالية الإنسان غير الواقعية، فإن «سانشو» يمثّل فطنة الإنسان الغريزية التي لا تأخذ في حسبانها الأفكار المجرّدة، بل تسعى إلى إشباع الحاجات الأساسية للإنسان. ويمكن القول إن التناقض بين الاثنين يولد نوعاً من السخرية لا ينصب على واحد فقط منهما دون الآخر.

أربعة قرون مرّت على الإصدار الأول لرواية «دون كيشوت» التي تؤكد كلما عدنا إليها أننا لسنا غرباء عن ثقافة «سرفانتس» ولا عن حكاياته التي يتنوع فيها السرد، وتتماهى الشخصيات بعضها ببعض، لأنها ما زالت ثقافة مشهدنا اليومي الذي يهيمن عليه الشفوي والمحكي، ويتمازج فيه الحلم بالوهم.

في «ذكرى دون كيشوت» كتب الأديب الكبير «محمد بنيس» يقول: «أنا متيقن من أن دون كيشوت ينفعنا اليوم في استرجاع الصورة، هؤلاء المثقفون الذين كانوا في عز مراهقتهم يقرؤون عن عالم وعن قيم، ثم في لحظة عثروا على أنفسهم وهم يحاربون من أجل تجسيد ما قرؤوا.. كل واحد من هؤلاء كان دون كيشوت معاصر، القراءة أفسدت العقول، القراءة فتحت النوافذ وبنت الجسور، القراءة وضعت إلى جنب كل قارئ فرساً وسيفاً ودرعاً وسانشو مهذباً لبيباً وتلك قصة نحتاج إلى روايتها، هؤلاء

الذين غلبت ثقتهم على ذكائهم، هم الذين علينا أن نفهم اليوم ما الذي كان وقع لهم.. زمننا يسخر مما كنّا نقرأ، ومن رد فعلنا على ما كنّا نقرأ..».

رؤية «محمد بنيس» قد نختلف معها أو نتفق،ولكننا نستمد منها قراءة الكلمات والأفكار في زمن كانت الكتب هي الطريق إلى زمن منفتح، ولم نكن نحسّ فيه أننا خارج الزمن، فما فعله «دون كيشوت» في الأدب العالمي كبير جداً، وصورته كان «المثقف العربي» يتماهى معها في أكثر حالات حياتنا الثقافية والاجتماعية.



رؤى واقعية

منذ عدة سنوات قرأت كتاب «رؤى مستقبلية» لمؤلفه الدكتور «ميتشو كاكو» الحائز على جائزة نوبل، وعدت إلى أبحاث الكتاب مؤخراً لأنه يحتوي نظريات مصاغة بكثير من العلمية والشمولية والبساطة عن موضوع العلم الذي سيغيّر حياتنا في القرن الواحد والعشرين، وأكثر ما لفت نظري وأعجبني تحليل «كاكو» للتقدم العلمي، حيث يقسّمه إلى ثلاث ثورات هي:

- الثورة المعلوماتية.
- الثورة البيوجزئية.
- ثورة الكم.

والأهم أنه يشير في أكثر من مكان في كتابه إلى انتهاء عصر التخصص الضيّق والاختزال في العلم، وبداية مرحلة جديدة تتصف بالتعاون المثمر بين المجالات المختلفة، وتلاقح الثورات الثلاث.

لقد ظللنا خلال معظم التاريخ الإنساني نقف موقف المتفرج على رقص الطبيعة الجميل، ولكننا اليوم على أعتاب عصر جديد لا نعود فيه متفرجين سلبيين على رقص الطبيعة، بل نشارك فيه بشكل إيجابي في تصميم رقصاتها..

إنَّ وجهة نظر «كاكو» وغيره من العلماء، تقوم على أن «رؤى المستقبل» تُبنى

بشكل كبير على وقائع المعرفة العلمية بعيداً عن رؤى نقاد علماء الاجتماع وغيرهم ممن أبدوا تنبؤاتهم قبل أن تصبح القوانين العلمية الرئيسة معروفة بالكامل..



تشكل العناصر الثلاثة: (المادة والحياة والعقل) أعمدة العلم الحديث، وقد سجل المؤرخون أن قمة الإنجاز العلمي في القرن العشرين، كان الكشف عن العناصر الأساسية التي تعتمد عليها هذه العناصر الثلاثة، والتي تمثلت في تحطيم نواة الذرّة، وفك شفرة نواة الخلية، وتطوير الحاسوب، وبإتمام فهمنا الأساسي للمادة والحياة تقريباً، فإننا نشهد إغلاق أحد الفصول الكبرى في تاريخ العلم «ولا يعني هذا أن كل القوانين لهذه العناصر الثلاثة معروفة بالكامل، وإنما الأكثر أساسية، منها فقط».

لقد كانت ثورة الكم أولى ثورات القرن العشرين، وأكثرها أساسية، وهي التي ساعدت بعد ذلك على زرع بذور الثورتين العلميتين الكبيرتين وهما: «الثورة البيوجزئية» و«ثورة الحاسوب»..

منذ زمن سحيق تساءل الناس عن طبيعة المادة التي صنع منها العالم، وقد اعتقد اليونان أن الكون صنع من عناصر أربعة هي: الماء والهواء والتراب والنار. واعتقد الفيلسوف «ديمو قريطس» أنه من الممكن تحطيم هذه العناصر الأربعة إلى أجزاء أصغر دعاها «الذَّرات» ولكن المحاولات الساعية لشرح كيف تمكنت الذرّات من خلق هذا التنوع الكبير والمدهش للمادة الذي نراه في الطبيعة فشلت دوماً، وحتى «نيوتن» الذي اكتشف القوانين الكونية التي فسرت حركة الكواكب والأقمار احتار في شرح الطبيعة المحيرة للمادة..

لقد تغير كل هذا مع ميلاد «نظرية الكم» عام ١٩٢٥ والتي أطلقت موجة مد

عارمة من الاكتشاف العلمي استمرت في الارتفاع دون توقف إلى الآن.. لقد زوّدتنا ثورة الكم بوصف كامل تقريباً للمادة، سامحة لنا بأن نصف هذا التعدد الظاهري اللامتناهي للمادة، الذي نراه معروضاً حولنا إلى عدد قليل من الجسيمات بالطريقة ذاتها التي تنسج بها سجادة غنية بالرسوم من بضعة خيوط ملونة.

في القرن العشرين مكنتنا «نظرية الكم» من فهم المادة التي نراها حولنا.. أما في القرن الحادي والعشرين، فقد تفتح أمامنا الباب إلى الخطوة التالية، وهي القدرة على التحكم في المادة وتصميم أشكال جديدة منها حسب رغبتنا تقريباً.



كانت أجهزة الحاسوب في الماضي، غرائب رياضية، كانت آلات سمجة، غريبة الشكل، تتألف من كتلة معقدة من الدواليب والرافعات والمسننات، وخلال الحرب العالمية الثانية، استبدلت الأنابيب والصمامات المفرغة بالحواسيب الميكانيكية، ومع ذلك فقد كانت هذه أيضاً ضخمة الحجم تملأ غرفاً كاملة بصفوف من آلاف الأنابيب المفرغة من الهواء.

لقد حدث التحول المهم عام ١٩٤٨، عندما اكتشف العلماء «الترانزستور» الذي جعل «الحاسوب الحديث» ممكناً، وبعد عقد من هذا، اكتشف «الليزر» الضروري للإنترنت ولطريق المعلوماتية السريع، وكلاهما من أجهزة «ميكانيكية الكم» التي أصبح بفضلها اليوم حشر عشرات الملايين من «الترانزستورات» في مساحة بحجم ظفر الأصبع، وقد تغيرت أنماط حياتنا وسيتواصل هذا التغيير في المستقبل بشكل دائم، عندما تتوافر الشرائح الدقيقة بكثرة، بحيث توزع الأنظمة الذكية بالملايين في كل الأنحاء المحيطة بنا..

في الماضي لم يكن بإمكاننا سوى التعجب لظاهرة الذكاء النادرة، أما اليوم وفي المستقبل فقد أصبحنا قادرين على التحكم فيها حسب رغباتنا.. وقد سمحت لنا «تكنولوجيا البيولوجيا الجزئية» من قراءة الشفرة الوراثية للحياة، كما لو كنّا نقرأ كتاباً، وستحل شفرة «الجينوم البشري» كاملاً بحدود عام ٢٠٠٥م، وبدلاً من مراقبة رقص الحياة، ستعطينا «الثورة البيوجزئية» في النهائية قدرة خارقة على التحكم في الحياة حسب إرادتنا تقريباً.



تسارع العلم و«التكنولوجيا» في القرن الحالي، سيكون له تأثيرات واسعة حتماً في ثروة الأمم ومستوى معيشتها.. في القرون الثلاثة الماضية تراكمت الثروة عادة لدى الأمم التي امتلكت مصادر طبيعية غنية، أو التي تراكمت لديها كميات ضخمة من رأس المال، ويتبّع صعود القوى العظمى في أوروبة في القرن التاسع عشر، والولايات المتحدة في القرن العشرين هذا المبدأ «الكلاسيكي» المعهود.

الدراسات العلمية تؤكد أن هناك انتقال تاريخي في الثروة في القرن الحادي والعشرين، بعيداً عن الأمم التي تمتلك المصادر الطبيعية ورأس المال. بالطريقة ذاتها التي تولد فيها الانزياحات في الصفائح «التكتونية» للأرض، بوساطة هزّات أرضية قوية، وهذا الانزياح سيعيد توزيع القوى على الأرض، وسيكون عماد هذا الانزياح القدرة العقلية والخيال والابتكار وتنظيم «التكنولوجات» الحديثة.. ستزدهر دول عدة نفتقر إلى المصادر الطبيعية والمال، لأنها وضعت أولوياتها في «التكنولوجيا» التي يمكن أن تعطيها ميزة تنافسية في السوق العالمية.. وسيكون الرابح من الدول تلك التي تعي كاملاً الأهمية الحيوية لثورات العلم و«التكنولوجيا» حيث سنرى

في القادم من السنوات انفجارات لم يسبق لها مثيل في النشاط العلمي، وسنرى صناعات بأكملها تصعد وتهبط على أساس تطورات علمية أخّاذة.

إن الاكتشافات العلمية، سوف تتسارع في قرننا الحالي، وستقدم لنا «الثورة البيوجزئية» وضعاً جينياً كاملاً لكل الكائنات الحية، معطية إيانا الفرصة لأن نصبح مخططين للحياة على الأرض، وستعطينا ثورة الحاسوب أجهزة ذات قدرات مطلقة وغير محدودة، واضعة في النهاية الذكاء الاصطناعي في متناول أيدينا، أما ثورة الكم، فستعطينا مواد جديدة، ومصادر طاقة جديدة، وربما تتيح لنا الإمكان لخلق أشكال جديدة من الحياة.



هذه «الرؤى المستقبلية» التي طرحها «ميتشيو كاكو» حامل جائزة نوبل، وغيره من علماء المستقبل جعلتنا نفتح ملفات عديدة على الاحتمالات الهائلة للعلم في مستقبل، لا أحد يستطيع بدقة تحديد آفاقه وأبعاده ومراميه.. والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة أمام كل ما يحصل؟! أين نحن من كل هذا؟

إن هذا السؤال يبعث على اليأس، نحن مازلنا، لا نستطيع حتى الاعتناء بحاجتنا من الغذاء والطاقة، ليس لنا قدرة من أي نوع، لنكون في إطار الحدث والفعل المستقبلي.. جيوب الفقر والأميّة والتصحّر، تزداد وتتوسع سنة وراء سنة، وقوتنا وأهميتنا العالمية تتضاءل وتنكمش مع كل عقد بسبب القوى الاجتماعية والاقتصادية الضخمة التي أطلقتها الثورات العلمية التي لم يكن لنا فيها أي دور يذكر.

العالم، بشكل عام، يمر بعملية تصنيع ضخمة، وفي بعض الدول التي كان يطلق عليها اسم «عالم ثالث» نرى نهضة شاملة وقوية كان منطلقها التساؤل: «لماذا لا

يستطيعون أن يمتلكوا ما يمتلكه الآخرون» فكانت نهضة كبيرة لدول كانت قبل سنوات قليلة، ظروفها أتعس من ظروفنا، وإمكاناتها المادية والبشرية أقل بكثير من إمكاناتنا، ولكنهم بالإصرار ولغة العلم والتخطيط الواسع المدى، استطاعوا تحقيق نقلات نوعية «اقتصادية وصناعية واجتماعية» والتحرك نحو حضارة من نوع جديد كانت قبل سنوات قليلة بمثابة «رؤى مستقبلية».

لقد حطموا الحواجز، وتحوّلوا من مراقبين لرقص الطبيعة، ليصبحوا مخططين فاعلين لها.. إن قطف ثمار الثورات العلمية، هو الخطوة الأولى نحو آفاق نحلم بها في وقت أصبحت الأحلام والرؤى واقعاً ملموساً في جوانب الحياة كافة.



زوربا العربي

أعرف أن الموت لم يمهلك حتى تكمل مشاريعك المؤجلة.

أعرف أنك لم تترك السيف والحصان، ولم تترجل..

كافحت.. ناضلت، وانتقلت من ميدان إلى آخر، ومن موقع إلى موقع، ولكنك لم تهادن، ولم تستسلم..

كنت في كثير من الأحيان تجيد فن المشاكسة، وتعرف جيداً كيف تنتفض من تحت الرماد، مثل طائر الفينيق.. وكنت في كل هذا وذاك تتقن فن الغناء، وطرق الحرب والهجوم، وتعرف جيداً كيف تعبر التخوم والفيافي..

كنت يا صديقي صاحب خصال.. تحب الابتعاد عن طرق العبث في الظلام.. تحب الحياة، وتعرف أين تقف قدماك.. وتكره دهاليز الأقبية والدروب والأزقة الضيقة..

تحب التطواف.. ترقب العابرين في الطريق.. مرة تسير معهم ومرة تخالف سيرهم، ولكنك كنت دائماً معذّب الذاكرة، توقظ في القلوب الجراح الغافلة، ولا تجيد فن المجاملة، ولا الأساليب المواربة..

كنت ترقب أطراف القلق الراجف، وتحلم بالعودة إلى الريف وأخلاق القرية، التي اتهمت ظلماً بعدم قدرتها على مواكبة أخلاق العصر والتطور والحداثة، وتقنيات وأفكار «العولمة».

وكنت تراقب عن قرب، كيف صارت المدن «متاحف» وكيف أصبحت الخيل سلاحف..

لم تخنقك الرهبة.. ولكنك تكلمت كثيراً عن سيفك الضائع وكيف ابتلعت الصرخات الموجوعة، والليل المرخى على الأبواب المقفلة.. جابهت ريح الموت عارياً، وعرفت مرارة الكلمة، وعرفت عطش الباحث عن الماء في الصحراء القاحلة، وكنت كالسمك المذعور، تدور وتدور في بحيرة يجف منها الماء..

أعلم جيداً أنك رأيت خيل الطعن والنزال، مربوطة تدور حول حجر الطاحون.. في أحيان كثيرة كنت تقص الرؤيا علينا، وفي أحيان قليلة كنت تقول: ما كل ما يعرف يصلح أن يقال..

آه يا ممدوح.. في وجهك يتموج قمح أصفر.. وفي ملامحك يتصبب تاريخ جامع.. في آخر لقاء لنا في مجلة المعرفة، لم أجرؤ على النظر في عينيك، خفت أن ألمح فيها طعم التاريخ المنتهك في فلسطين والعراق وأماكن كثيرة من وطننا العربي.. حملت لي قصيدة«موت الورود»، وكنت مثل الذي يحمل أحلامه المعبأة في سر، ويلقي بها فوق الكثبان، وفي الواحات المهجورة، وبعد لحظات ارتسم على وجهك ومض بشارة والتقت عيناي في عينيك بغتة، ووجدت الوهج ما زال يقوى على الحب..



عندما ودَّعناك في صباح يوم دمشقي ندي، كان الحزن يسري في العروق، وكان الدمع جامداً على النوافذ والبيوت.. كان الصمت قاسياً كالجليد..ها هو الممدوح يغادر المدينة عائداً إلى «قيرون» محمّلاً بالتعب والهموم، يطارد خيط الشعاع، وتتشابك المساحات التي يغتالها الضجيج، النصف هنا والنصف الآخر هناك، وما بينهما جسر حنين مدماكه قصيدة حل وترحال في آن واحد.

اللغة لم تعد معولاً للزرع، بل صارت لحفر القبور أو نبشها في معنى أن الزمان أقحل، وموسم الحصاد كسد.. ومع كل هذا وذاك فلكل مدينة شمسها التي تشرق من غياب الآخرين، والبعث يزهر مع اشتعال الروح، وإلا يباس، فجفاف وأرض يباب، وممدوح عدوان جعل من الكتابة فعل بقاء وخلود وتحايل على الموت.. كان يعلم جيداً أن العالم في زمن «العولمة» يوشك أن يدرك نهايته، ولكنه جعل من الأدب مطرقة تقوم بتكسير بحر الجليد فينا، فكسر بذلك قاعدة اليومي والواقعي على نحو مفاجئ، وكانت كتاباته قنبلة مقذوفة في وجه الهاربين والخائفين والواهمين..

الواقعية السحرية التي تتشكل فيها الحياة، كانت مادة الكتابة الأثيرة لديه.. إنها الحياة كينبوع قصص وروايات وحكايات وذكريات وتجارب ومشاكسات.. الحياة كمصدر توتر وقلق وشغف واختراع.. حيث نرى الحب في الحياة، والحياة في المرض، والمرض في الموت، والموت في الحب.. في لوحات بانورامية مغلقة بين المادي والوجداني.. تعبق بحضور ساخر، قاس، مؤثر،مثير للجدال، يلقي الضوء على ظلال الطبيعة الإنسانية التي تزاوج بين الحب والكراهية، وبين الدراما والكوميديا السوداء، وبين المرارة والأمل.

الشاعر الجميل صفوان حيدر يقول في قصيدة جديدة له:

«لو لم تكن ثمة قهقهات لما كان الفرح على ما هو عليه.

ولو لم يكن ثمة أغنيات لما كان الشعر على ما هو عليه.

ولو لم يكن ثمة تضحيات لما كان الشكر على ما هو عليه.

ولو لم يكن ثمة عقوبات لما كان الخوف على ما هو عليه».

وأنت يا صديقي، أغلقت عينيك أمام الحوافز والمغريات، وفتحتها أمام العوائق

والعقبات، وكانت أبواب عيون حياتك متحركة دائماً.. اختبرت الحياة بحلوها ومرّها، بأفراحها وأتراحها، وبقطوف الأمنيات.. في البداية والمسار، وفي النهايات.

لقد اقتربت من الضياء بعد ليل طويل، تخلصت من سطوة الريح، حملت سنابل القمح، وعبرت الزمان والمكان، أقوى من الوجع والألم كنت.. تعزف لحن الصمت على ربابة خرساء.وناي لا يصفّر، وكمان ينأى عن أوتاره.. كنت توقظنا من هذا الصحو الأخرس..

ها أنت تعود من حيث جئت، إلى المدى الأرحب، حيث تتداخل الروح والظلال، تحت شمس دافئة، بين السهوب الخضراء، وتداخل أغصان الغابات الكثيفة، حيث الأبيض أبيض، والأخضر أخضر، والأحمر أحمر..

النشيد صامت،و السكينة تطفئ مزاميرها ،والسطور تتضرع إلى أقلامها..الليل يسترنا من الأحزان، والحلم يشتعل بالأضداد، والبحر ما زال منذ آلاف السنين بين مدّ وجزر، لا يكف عن البكاء..

كانت حياتك مترعة بالأماني وبألف نشيد ونشيد، وهاهي الحياة تعبر سريعة، كأن الأيام لحظات.. سلكت الدروب.. كل الدروب، وسافرت إلى المدن البعيدة، تحمل على كتفيك صخرة «سيزيف» وقلق «جلجامش»..تقف في حيرة تتكرر هنا وهناك، تنتظر اللون الأخضر، ويكون الأحمر هو الثابت، ويستقبلك الزمن بمسافات.



كل هذه الأعوام، وأنت تنتقل من أفق إلى آفاق بعيدة إلى مواضيع لم تطرق وإبداعات لم تكتب.. تزرع هنا، وتحصد هناك، وفي أحيان ترشينا بوردة بيضاء، وفي محاولة للقول بأن الحياة ما تزال مستمرة قبل وبعد.. في محاولة لاختصار

المسافات، ولنكتشف بأن الأحلام لم تتحقق، وأن كل ما عشناه لم يكن إلا قبض ريح، ومشياً في فراغ..

لقد حكيت ورويت أجمل الحكايات عن «سفر برلك» و«الزير سالم» و«المتنبي» و«الأبتر» و«الأيدي المتعبة» وذهبت بنا من الوجع لنرتاح، ومن الصراخ والفوضى إلى التأمل، وأبحرت بنا بعيداً في عوالم الشعر والشعراء لتخبرنا عن ضجيج الناس وصمت الليالي..

كنت تومض كالبرق، وتشتعل كالنيازك، في انتظار أغنية أو ضوء، وبقيت كالشجرة الضاربة جذورها في الأرض، تغني أغنية الحياة..

لم تحمل راياتك البيضاء وتمضي مستسلماً لوهم الحياة، ولم تكن في يوم من الأيام أسطوانة تدور وتدور، ولم تكن ذلك الشاعر الذي ترك أوراقه ومضى، عندما شعر بالإحباط والخيبة والوهن.. لم تذبل كما تفعل الأزهار البرّية في صيف حار.. لقد ظللت العمر كله تحاول اقتناص اللحظات السعيدة، ولكنك لم تفلح إلا في حالات قليلة، لأن هذا الزمن اختلفت فيه الأصوات، ولم تعد فيه مساحة للأحلام.. كنت دائم البحث عن رؤى جديدة، ومشهد جديد تستطيع فيهما أن تجدد تجربتك الأدبية والشعرية والروحية.. كنت تقاوم الكآبة والسأم واللامعنى، حتى لا تفقد الكلمة سحرها أو سرّها..وفي هذه الحالة كنت تشبه حالة المحبط أو العاشق الذي يبطل السحر الذي يربط بينه ومن يحب فيجد نفسه في الفراغ والوحشة والعتمة..

حالتك كانت تشبه حالة الساعة الرملية، التي كلما نضب الرمل في جانب منها، قلبت على الجانب الآخر لتستعيد حيويتها وديمومتها من جديد.. وهذا ما جعل إبداعاتك في تطور مستمر، تخاف عليها من الملل والرتابة، لذلك بقيت قريبة من القلب والعقل، وكان من الصعوبة أن ننتظر ماذا ستفعله في المستقبل وما هي المرحلة الجديدة التي ستدخلها، مع الحرص الشديد على عدم الفرق في موجة الحداثة

وتياراتها المختلفة.. لذلك لم تذهب كتاباتك في المتاهات والدهاليز والغابات المظلمة، بل بقيت تروي للأجيال العربية أشياء كثيرة وغنية عن واقع معاش، وحكايات غنية عن الانبعاث والاغتراب في آن معاً، وعن كينونة الذاكرة قبل أن تتشظى في عالم الضياع..

ممدوح عدوان كان في مجمل كتاباته الإبداعية، لا يستكين لموضوعاته إلا بعزف على وتر تنويعاتها.. كان دائم التوجيه نحو المطلق.. نحو فضاءات الحرية، إذ لا حدود ولا أبواب موصدة في فضاء الكتابة.. لذلك استطاع أن يمارس طقوس السفر في البعيد مع خيالاته التي كانت دائماً تنشد التغيير، وتحاول استباق الأزمنة، وفك القيود، والذهاب إلى عوالم متمردة ومفتوحة على فضاءات واسعة، لتبقى نبضاً حياً في ذاكرة الأجيال القادمة.



شاكر مصطفى، وشمولية المؤرخ

من يقرأ كتب ودراسات أديبنا ومؤرخنا شاكر مصطفى، يكتشف بسهولة أن هناك (ثلاثة في واحد) شاكر الأديب، وشاكر المؤرخ، وشاكر السياسي، ويحتار المرء من روعة ما كتب وأنجز من كتابات، كل جملة فيها تعرف موضعها، وتعي دورها وتدرك مراميها..

من يتطلع على مسيرة حياة هذا الإنسان المفكّر، يجد أنه عاش قضية الوطن العربي بكل أبعادها وتحولاتها السياسية والقومية، ويجد أن السياسة قد أغوته حتى الغرق، وأن التاريخ قد أخذ منه خير أشطر عمره، ونجد أولاً وأخيراً أن الحرف الجميل كان حياته، منحه شريانه.. ولحظات النزع قبل الموت.. لقد عاش القضية الجمالية، الكلمة، الشعر، الموسيقى، اللوحة الفنية، وكان عيشه في دنيا الأدب وعالم التاريخ الرحب..

كان شاكر مصطفى في كل ما كتب وأنجز من مبدعات الدراسات والأبحاث، يتوق إلى الحرية المسحوقة، بأشرعة تبحر مع كل سندباد مجنون إلى كل مكان وإلى اللامكان.. لقد حفيت قدماه وراء كل كلمة جميلة، وفي كل متحف، وعند كل وتر.. نعم يا سيدي، فمكتبته الموسيقية في دمشق كانت تضم روائع نادرة من عيون الموسيقى الكلاسيكية والحديثة، من شوبان وبيتهوفن إلى تشايكوفسكي ودفور جاك إلى روائع الرحابنه وصوت فيروز إلى تراث فريد من أعمال عبد الوهاب، والقصبجي والسنباطي.. لقد أغوته الألوان دراسة وممارسة، وحتى جاء يوم، صار

النقد الفني هوايته في المعارض الفنية، وصارت له لوحاته عند أصدقائه، وصارت المتاحف الكبرى مقصده عند كل سفر..



في بداية حياته الحافلة بالعطاء، حفظ أكثر من نصف القرآن الكريم، وأكثر من ألفي بيت للمعري ومثلها للمتنبي ومختارات من أبي تمام وجرير وابن أبي ربيعة وبشار والبحتري وأبي نواس، وحفظ ما حفظ للأخطل الصغير وشوقي وإيليا أبي ماضي وبدوي الجبل وميشيل طراد ونزار قباني.. وقرأ جيد ورامبو وفرلين ونيتشه وغوته ومالرو وبرانديللو ولورنس وجوليس وغوركي وهمنغواي ودوستويفسكي وموباسان وبلزاك وفاليري وآراغون.. وبين هذا وذاك التهم كتب التراث العربي وعاش مع الأغاني ونهاية الأرب والمستطرف في كل فن مستظرف ومع كتب الجاحظ والمبرد والتوحيدي، ومع «زهر الآداب» والعمدة والعقد الفريد، ومقامات الحريري والهمذاني وحي بن يقظان والمنقذ من الضلال، قبل أن ينتهي إلى المنفلوطي وجبران ومصطفى صادق الرافعي وطه حسين ودريني خشبة وتوفيق الحكيم..

عرفت راحلنا الكبير، عندما عاد إلى دمشق بعد غربة طويلة، فكنت ألتقيه في المعارض والندوات والمناسبات العديدة، وكثيراً ما كان يدور بيننا الحوار والنقاش حول مسائل الفكر والتاريخ والأدب وأعمال الفن التشكيلي في سورية والوطن العربي والعالم.. كان يدهشني كثيراً بأفكاره المتجددة دائماً وتواضعه الكبير الذي قلّ في أيامنا، وكان يدهشني أكثر توقد ذهنه، وطريقة ربطه الجميلة بين الإنتاج الأدبي وبين الجذور الاجتماعية والاقتصادية له، وإيمانه بالإنسان الحر، ورفضه المطلق لأقنعة الجص ولأعمدة الملح وللأعين المطليّة بالقار.

كان شاكر مصطفى في مراحل حياته ومحطاته العديدة، مثل ديوجين القديم، يحمل قدره الفخاري على كتفه، والمصباح في يده يبحث ويبحث ويبحث.. عن

«الإنسان العربي» بكل قيمه وأفكاره وإنجازاته وحيويته وألقه، إيماناً منه بقيمة الكلمة ومسؤولية الكلمة، ويرى أنه لولا هذا الإيمان لكانت الحياة الفكرية عبثاً من العبث، وأغنية شيطان، وكان التاريخ عنده ليس دفاتر الماضي، وليس قصة جنائزية وموميات من الأخبار والفكر، لأن هذا التصور المسكين للتاريخ هو الذي يسلبه كل قيمته وفاعليته ودوره الإنساني، يسلبه العنصر الحي الذي يجعله جزءاً من الحياة، يحوله إلى مجرد ثقوب في جلد الأرض.. التاريخ عملية فكرية محضة، هو جماع المعرفة الإنسانية.. التجربة التاريخية هي أخصب التجارب في المعرفة على الإطلاق، لأنها قصة ثورة الإنسان الدائمة على نفسه، قصة تجاوزه للذات وجوابه على التحدي الأرضي والكوني.. حفارو القبور لا مكان لهم في التاريخ، مكانهم في القبور التي يحفرون، أما العملية التاريخية فهي توغل في الغابة الإنسانية.. إدراك متزايد للملحمة البشرية الكبرى، التي تمسرحت على الأرض.. قراءة متجددة دوماً في خارطة الإنسان وأبعاده اللامتناهية، إنها ليست نبش القرون ولكن نبش الإنسان، إنها معرفة.. معرفة.. معرفة..

فاليري الشاعر الكبير، كان على حق، حين جعل التاريخ «أخطر مركب أنتجته كيمياء العقل» وهذا المخزن الأرضي الممدود كالرعب على عشرات الألوف من السنين، والمملوء بالركام، بحطام الآلهة، وبقايا الحكام والمحكومين، والأبطال والشحاذين وهسيس السيوف، ونزف الأفكار، وركض الرغيف، وعواء البؤس.. هذا المخزون حوله شاكر مصطفى في ذاته متحفاً حيّاً للإنسان، في حربه وأعراسه ووحشيته، وشعره، وصلاته، ومطره، وجوعه، وعواصفه.. وهذا الشيء الصغير الكبير الذي نسميه الحب.



يرى شاكر مصطفى أن معرفتنا بالتاريخ ليست معرفة مباشرة، ولكنها إثارة

من خلال الشهود، وليست بالصحيحة، لأن الماضي كان بالضرورة حركياً تطورياً، ومعرفتنا عنه هي بالضرورة سكونية تراكمية، وليست بالكاملة أو شبه الكاملة، فنحن لا نعرف إلا ما بقي، وإلا التاريخ المسجل لا التاريخ الواقع، وهذه أوَّل جوانب المأساة في هذا العلم.

ثم إن التأريخ علم متزمّن، هو الوحيد بين العلوم الذي يقوم الزمن في قاعدته، والزمن التاريخي ديمومة مستمرة، وتغير مستمر وتنوع مستمر في وقت واحد، والتاريخ مرتبط بهذه المقولات الثلاثة التي تمنحه التعقيد الشديد، وهو ثاني جوانب المأساة.

والتاريخ عملية يدخل العامل الشخصي في نخاعها الشوكي.. إنَّها ذاتية في شاهدها الأول الذي سجل، ثم صانعها الثاني الذي اطّلع واختار وحلل وركب، ثم في قارئها الأخير الذي يضيف إليها بدوره من تصوراته.. إن ميدانها الرحب ليس الطبيعة ولكن في الفكر وفيما وراء الجبين، وهذه هي ثالثة المآسي.. أو الأثافي!.

وهكذا تدخل الريبيّة، كما تدخل النسبية معاً إلى التاريخ ومن أعرض الأبواب، والتاريخ العلمي المحض على طريقة العلوم الفيزيائية والبيولوجية حلم نبيل تبدو الحقيقة التاريخية فيه، وكأنها الحسناء النائمة في الغابة التي تنتظر المؤرخ المنقذ الذي يقترب منها ونظارتاه على عينيه، فيضع على جبينها قبلة الحياة لتدب فيها الروح. ويحسب مؤرخنا الكبير، أن التاريخ سينتظر طويلاً جداً «غودو» هذا الذي يأتي ولا يأتي، وستظل الحقيقة التاريخية نسبية تقوم بينها وبين الواقع الذي كان، مسافة غير قابلة للاجتياز ما دام التاريخ لم يخلق المنهج الحي المعقد لمعرفة الواقع الحي المعقّد، ولم يخلق لغته العملية الخاصة بعد، ومن يدري لعله لن يستطيع خلقها، بعد زيادة فروع المعرفة التي دخلت على التاريخ، وصار يهتم بالشعوب لا الأفراد، والقواعد الشعبية الواسعة لا الملوك والقواد، وصار يهتم بالعوامل الخرساء

والتيارات الخفية الفاعلة في صنع الأحداث من اقتصادية ونفسّية واجتماعية وجنسية وبيولوجية.. وصار التاريخ مركباً كيمياوياً مرعب التعقيد.. حتى ليصاب القلم بالشلل، أليس هذا كله بالثورة الانقلابية..؟!



شاكر مصطفى في كل ما كتب في التاريخ لم يتبع مدرسة معينة من المدارس التاريخية، ولم يلتزم بواحدة منها، وكان يفضل على الدوام أن يكون له فهمه النابع من ذاته، وطريقته التي يقتنع بها، وكانت المعرفة التاريخية عنده لوناً من الثقافة ومن الإدراك الفكري الذي يرى أن التاريخ «حاضراً» دوماً.. هو باحث حقيقة، يلتقطها من كل شراع، ومن أي نبع، وما أكثر إغراء الينابيع، لذلك نستطيع أن نضعه في إطار المؤمنين بالمذهب الكلي في التاريخ الذي يحيط بكل أثر أو تيار معرفي.

كان يرى أن تاريخنا العربي لا يقوم بدوره القومي وليس له وجود حي ملموس في الميدان كالأجراس الخرساء، أخباره وكتبه.. ما يدرس منه كان سلبي الأثر لدرجة التشكيك.. ندرسه ميتاً ونحن في حاجة إلى النظرة الحيّة، وندرسه مُجزَّأً قطعة قطعة، ونحن في حاجة إلى النظرة التركيبية فيه، وندرسه أبتر ونلقي منه نصفه الذاهب قبل الإسلام، ونحن في حاجة إلى النظرة الكاملة، وندرسه عاطفياً ودينياً ولا يستقيم إلا من خلال النظرة الشاملة.. ننسى الأسس الكبرى المميزة لهذا التاريخ.. ننسى تميزه بالقدم الأقدم، وبالاستمرار الحركي الدائم إلى اليوم.. ننسى تميزه بالإيجابية الإنشائية والعمرانية، بينما تواريخ الكثير من الأقدام الباقية على الهدم والسلبية.. ننسى تميزه بالأصالة الخاصة والقدرة على المرونة والاقتباس السريع.. وننسى وحدة الأسس الحضارية التي تحكم مسيرته منذ عصور ما قبل التاريخ حتى اليوم.

شاكر مصطفى، كتب وحاضر وجادل وتحدث سنوات طويلة حتى يدخل التاريخ نسقاً حياً في تكوين الأجيال العربية، وقال كلمته كأصدق ما تنطق الكلمة، وحاول تصحيح الأحكام التقليدية الواردة في المصادر، وإعادة التوازن إلى بعض القيم والعصور والرجال في التاريخ العربي.. وبقي حتى آخر أيامه يحمل المصباح في يده، يواصل البحث في الآفاق، عن قيم الإنسان العربي وفاعليته في التاريخ.. رحل وبقيت أفكاره ونتاجات عقله المتفتح.. رحل وترك النافذة مفتوحة بيننا وبينه..



عيد الكتاب العالمي

بناءً على إعلان المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم «اليونسكو» أصبح العالم يحتفل في الثالث والعشرين من كل شهر نيسان، كلّ عام باليوم العالمي للكتاب، ونجدها مناسبة لطرح السؤال التالي:

هل ما زالت القراءة أهم وسيلة من وسائل المعرفة، في زمن ازدادت فيه أنماط التواصل السمعية والبصرية، وأصبحت أكثر إتقاناً وتطوراً وانتشاراً؟!

أقولها بصدق.. لقد ثبت علمياً وبناءً على دراسات علمية دقيقة، أنَّه لا يمكن لأيّ إنسان أن يطوّر قدراته العقلية، وأن يثقف نفسه دون القراءة، التي مازلنا بوساطتها نستطيع فهم أنفسنا، وفهم المجتمع من حولنا، وإدراك مشكلاته. والمساهمة بالنهوض بالإنسان والوطن.. والمطلوب ليس معرفة القراءة فقط، وإنَّما حبّها والميل نحوها. فالكثير من الناس في مجتمعنا العربي، يعرفون القراءة، ولكن لايحبّون التعامل معها وينفرون منها..

إنّ الميل نحو القراءة ليس عملية فطرية، بمعنى أنها تولد مع المرء. وإنَّما هي عادة يجب غرسها في النفوس، كما يجب أن تزرع في الطفل منذ سنواته الأولى، وعندما يشبّ وينمو، وتتأهل فيه هذه العادة النبيلة، تصبح واسطته نحو العلم والمعرفة والثقافة؟

المجتمعات الراقية المتعلمة تحاول الاستفادة من وقت فراغها بالقراءة، وتستغل ذلك الوقت، سواء كان في السفر، أو في المنزل، أو بالوقوف بانتظار إحدى وسائل

المواصلات، بالقراءة.. وبكل أسف هذه العادة معدومة عندنا، والسبب يعود إلى الأصل، فعادة حبّ القراءة، لم نعتد عليها، وغير موجودة أساساً في أولويات حياتنا اليومية، وقد ساعد على استفحال هذه العادة، ما طرأ على حياتنا في السنوات الماضية، من انتشار واسع لاحدود له، لوسائل الإعلام المرئية، فأصبح من سمات ثقافتنا العربية المعاصرة، أنها ثقافة تسلية، وإلهاء وتحذير، ثقافة عائمة، بعيدة عن الاهتمام بالقضايا الأساسية.. ثقافة ذات اتجاه واحد.. ثقافة النقل والتكرار الممل.. ثقافة «السوبر ستار» و«ستار أكاديمي» و«عالهوا سوا» وغيرها من البرامج المقيتة التي يتابعها السواد الأعظم من الناس بشكل مخيف..

المؤسسات الثقافية والتعليمية التقليدية (الأسرة- المدرسة- الجامعة) بشكل أو بآخر، تخلّت، بكل أسف- عن دورها التثقيفي لوسائل الإعلام بكل أشكالها ومسمياتها، وقد أخذت وبقوة، بكلّ ماتملك من انتشار وتقنيات وبرمجيات متطورة، تشكل عقل المواطن -كما تريد- لا كما يريد.. الجمهور، بكل فئاته ومشاربه، أصبح يأخذ ثقافته، من التلفاز والإنترنت والبرمجيات والأفلام التي لاحصر لأنواعها وموضوعاتها، وبدلاً من أن يجهد نفسه في قراءة كتاب، يدفع ثمنه، أصبح يستلقي على أريكته، ويرتاح في منزله، ليتلقى ما يُقَدّم له من خلال قنوات تلفزيونية لاحصر لها، أو يجلس إلى الحاسوب يستطلع كل ما هو جديد في عالم لاحدود لمعطياته. ومعارفه وتقنياته.. وكثيراً مايفرض عليه ما يشاهده، عن طريق وسائل ترغيب عديدة، ودعاية كبيرة لاتقاوم، وبهذا فإن الإنسان، بشكل عام، لم يعد يختار ثقافته، ولم يعد يساهم في تكوين عقله أو فنه أو هوايته، وإنَّما أصبحوا يختارون له ما يريدون.

ولأنّ الثقافة تحوّلت من الكتاب إلى الصورة المرئية الساحرة الألوان، فإنّ أعلام الأدب والثقافة والعلم، تراجعوا من الصف الأول إلى الصف العاشر إذا لم نقل أكثر، وتقدّم نجوم الصورة، من الممثلين والمطربين والفنَّانين، فصار أصغر

«نجم» تلفزيون، أهم وأشهر من أكبر كاتب، وأصبح أحدث لاعب كرة قدم، أغلى من أكبر مفكرّ، واهتم الناس بالمظاهر والشكليات الفارغة، فأهملوا الأعماق، وصارت الكتابات السطحية، والأعمال المتردية هي الرائجة والمنتشرة، ولعلَّ أخطر ما في الأمر أن مفاهيم المنفعة، وطلب العيش، قد انعكست على المفاهيم الأدبية والفنيّة، وهذا ما يمكن أن يطلق عليه اسم «ثقافة المتعة» والتسلية التي تجعل الجمهور ينسى نفسه ووطنه ومستقبله وآماله وأحلامه..

قضية الكتاب، هي قضية الثقافة المقروءة، والتي تتراجع يوماً وراء يوم، فالوطن العربي ينتج كتاباً واحداً، لكل سبعة مواطنين في السنة، في حين أن نصيب الفرد من الكتب في أوروبة والولايات المتحدة الأمريكية ثلاثون كتاباً في السنة.. لقد تركت التبدّلات والتحولات الكبرى والمتسارعة، انعكاساتها العميقة على المجتمع العربي، مما أدى إلى زهد الناس بالكتاب والمطالعة، وصارت أجيال الأيام الراهنة تنظر إلى الكتاب شزراً إن هي نظرت، أو تعدّه ترفاً لا حول لها على اقتنائه، ونخطئ كثيراً في تحميله أوزارنا وإخفاقاتنا، فهو في المحصلة، ليس سوى مرآة لواقعنا، وكذا لماضينا ولأفق مستقبلنا، فكيف يكون مختلفاً عنّا؟!.

في بيان خاص أصدره «فيدريكومايور» المدير العام السابق للمنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة. اليونسكو. بمناسبة اليوم العالمي للكتاب (٢٣ نيسان- أبريل ١٩٩٧) وصف الكتاب بأنَّه «مفتاح التنمية الشخصية الإنسانية، سواء أكان في شكله التقليدي أو بأشكال المركبة، التي أتت بها «التكنولوجيات» الحديثة، ويبقى وسيلة بقدر ما هو أداة لاغنى عنها في مجال محو الأمية والتعليم في البلدان الفقيرة والغنية على حد سواء».

في عيد الكتاب العالمي، لنعترف بقصورنا الثقافي، وتقاعسنا المعرفي، لأنَّنا بصراحة، لانربّي الجيل الصاعد، تربية قرائية، بل العكس صحيح، فبدلاً من أن

نحبّب إليهم المطالعة، فإننا نكوّن الرعب في أنفسهم منها، فكم من جيل نشأ وتخرج وحمل شهادة تلو شهادة حتى الجامعية منها، والدكتوراه، دون أن يكلّف نفسه عناء المطالعة، مكتفياً بالاطلاع على المقررات أو المنهاج المطلوب.. الوقت الذي يخصصه المواطن العربي للقراءة، لا يتجاوز عشر دقائق في العام، هذا ماقاله الدكتور روحي البعلبكي صاحب المؤلفات والمعاجم و«دار العلم للملايين» وأكد أن عدد العناوين الصادرة سنوياً في الوطن العربي لايتجاوز /٥٠٠٠/ كتاب، بينما تنتج أوروبة نحو /٥٠,٠٠٠/ كتاب سنوياً، وأمريكا وكندا نحو/١٥٠,٠٠٠/ كتاب.

أما الترجمة فحدّث ولاحرج، فهناك من يؤكد القول إن مجموع الكتب التي نقلت إلى العربية منذ عهد الخليفة العباسي المأمون وحتى اليوم، لا يتعدى /١٢,٠٠٠/ عنوان، أي ماترجمته البرازيل في أربع سنوات، أو ما ترجمته إسبانية في سنة واحدة على وجه التقريب، ومجمل القول إن «أمة اِقرأ أصبحت لاتقرأ» وكلما تفاقم الوضع المعاشي للناس في الوطن العربي، تدهور معه الكتاب، في إطار الصراع المرير بين الثقافي والاستهلاكي.. ثم تأتينا الحرب غير المتكافئة بين الصورة والحرف، حيث لا بد من أن تصرع الشاشة البرّاقة، الورق المسوّد بالحبر، فيميل الناس إلى «التلفاز والفيديو والكمبيوتر والإنترنت» وما إليها..

ومع كل هذا وذاك تبقى هذه الوسائل في حاجة إلى الكتاب، علاوة على كونها يمكن أن تكون هي نفسها داعمة له ومروّجة ومسوّقة، فيجب علينا أن نستفيد منها بدلاً من أن نكتفي برجم سلبياتها.. إن «الإنترنت» وسائر الشاشات قد تؤدي دور وسائل القراءة البديلة.. لقد اختلف الزمن والبشر، وأصبح «الإنترنت». يشكّل عالماً مستقلاً، من دون رؤساء، ومن الواضح أن الأجيال الشابة والمراهقة تمضي المزيد والمزيد من الوقت أمام «الإنترنت» للترفيه، مما جعل من السبل الأخرى للترفيه، موضة قديمة، وقد أثّر هذا سلباً في إقبال الشباب على قراءة الكتب..

تقول الدراسات المتخصصة إن «الإنترنت» أثَّر في مظاهر كثيرة في الحياة والثقافة والعلم، إضافة إلى تأثيره في القراءة، وقد شكّل «الإنترنت» قناة للتواصل ومصدراً للمعلومات، ويمكن عدّه نمطاً من الحياة يؤثر في كيفية جمع المعلومات والتعامل معها، وللوهلة الأولى، يبدو أنّ النشر الإلكتروني يحاكي النشر الورقي، لكن قاعدته أعرض وتظهر نصوصه بسرعة فائقة.. وقد ثبت من التجارب العلمية الكثيرة، أن «الإنترنت» ليس مناسباً للقراءة، لأن القراءة العلمية والأدبية تحتاج إلى تركيز من الصعب تطبيقه على الشبكة الدولية للكمبيوتر، وهناك من يتوقع حدوث تجانس بين القراءة والإنترنت. على مدى الأجيال الثلاثة المقبلة، وقد أكدت الأبحاث الحديثة أن الذين سجلوا أعلى معدلات استخدام «الكمبيوتر» هم أيضاً أكثر الشباب قراءة..

إذاً، فحتى في ظل تقانة «الإلكترونيات» وطفرة الاتصالات. وانفجار المعلومات وطوفان المعرفيات، سيصمد الكتاب، وما صموده إلا لأنه المرتكز الأساسي للمعرفة. والوجه الأمثل للتواصل، والأنموذج الأبقى للعمق المنهجي.. والعبرة ليست في نشر الكتاب وحده، حين يكون مصيره المخازن، بل في وصول هذا الكتاب لمن يجب أن يصل إليهم، والمسؤولية تتطلب منّا الاهتمام الكبير به، وتعزيز مكانته في المجتمع حتى يعود كما قال عنه شاعرنا الكبير المتنبي: «خير جليس في الزمان كتاب».



لا بدّ من صنعاء

المؤتمر الرابع عشر للوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية، الذي عقد في مدينة صنعاء، عاصمة الثقافة العربية عام ٢٠٠٤، في الأول والثاني من كانون الأول، وشاركت فيه سورية بوفد رسمي ترأسه السيد الدكتور محمود السيد، وزير الثقافة، كان مناسبة مهمة للإطلالة على بهاء هذه المدينة العريقة، الموغلة في القدم والاحتفال مع أهلها الكرام بعام تتويجها، وجلال عظمتها وجمال خصوصيتها وسحر عمارتها الذي لا يقاوم.

تعدّ صنعاء من أقدم المدن في العالم، وهذا ما يؤكده الحسن بن أحمد الهمداني بقوله: «صنعاء أقدم مدينة في الأرض، وأن أزال بن قحطان هو الذي بنى صنعاء وباسمه، وسُميت «أزال»، وكان زمن «أزال» في الألف الخامس قبل الميلاد، وفق نتائج أعمال التنقيب والكشف الأثري الذي قامت به بعثة أثرية إيطالية في موقع «وادي يناغم» وموقع، «بين حدين» بمحافظة صنعاء.. وكانت «أزال» ثاني مدينة رئيسية باليمن في الألف الثاني قبل الميلاد، حيث جاء ذكرها في أنباء خمسة ملوك وردت في كتب التراث، منهم: «الملك الضحاك سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ عبد شمس» حيث جاء في تاريخ ابن خلدون، وفي كتاب مروج الذهب للمسعودي، أن «البيت غُمدان بصنعاء بناه الملك الضحاك على اسم كوكب الزهرة» وكان غُمدان في ذلك الزمن معبداً ضخماً بمدينة أزال، ولم يكن قصراً، وقد تم العثور في صنعاء وغيرها على آثار تؤكد معالم الحضارة ووجود مدينة أزال في ذلك الزمن القديم.



كتب التاريخ القديم التي قامت وزارة الثقافة والسياحة في اليمن الشقيق بإصدارها بمناسبة (صنعاء عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٤م) تؤكد أن مدينة صنعاء بُنيت كمدينة اسمها صنعان في عهد «هَلَك أمر بن كرب ال وتار يُهنعم ملك سبأ وذي ريدان» وهو الذي بناها وسمّاها «صنعان» في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ومما يعزز أن الاسم «صنعاء» كان «صنعان» أن النسبة إلى صنعاء كانت وما تزال (صنعاني) وليس (صنعاوي).. وقد أصبحت هذه المدينة عاصمة اليمن الكبرى في العصر الذهبي للدولة الحميرية وملوكها التبابعة منذ أوائل القرن الرابع الميلادي حتى أواخر القرن السادس الميلادي، وكان قصر غمدان مقر الملوك الحميريين التبابعة، حيث بلغ هذا القصر ذروة العظمة والارتفاع، وكان الملك أسعد تُبّع الثاني ابن حسان آخر من قام بتعلية القصر في القرن الخامس الميلادي، حيث أصبحت صنعاء في عهده عاصمة اليمن والجزيرة العربية، واستمرت في عظمتها إلى عهد الملك سيف بن ذي يزن الحميري في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي.

وغني عن القول إن صنعاء وبعض مناطق اليمن كانت قد وقعت تحت الغزو والاحتلال الأكسومي الحبشي المدعوم من الرومان عام (٥٣٣)م، وكان الملك «كَرِب يعفر بن سميغ ذي يزن قد تصدى للأحباش حيث قال نشوان الحميري: «جمع النعمان بن عفير والد سيف بن ذي يزن جموعاً من أهل اليمن، ولحقهم الحبشة فقاتلوهم، فلم يكن بهم طاقة». وقد خضعت صنعاء وبعض مناطق اليمن لحكم أبرهة الأكسومي والأحباش وقد هلك أبرهة في عام (٥٧٠)م – عام الفيل – فحكم بعده ابنه «مسروق بن أبرهة» بينما تولى الحكم في «سرو حمير» والنصف الشرقي من اليمن سيف بن ذي يزن عام (٥٧١)م فجمع مئة ألف مقاتل من فرسان اليمن، وامدّه كسرى أنوشروان بستمئة رجل من الفرس، فزحف سيف إلى صنعاء، وهزم الأحباش وملكهم «مسروق» في موقعة «غيمان» –جنوب صنعاء– ودخل سيف صنعاء واستقر في عرش آبائه وأجداده بقصر غُمدان..

يقول الحافظ بن كثير: «لما ظهر سيف بن ذي يزن على الحبشة وذلك بعد مولد رسول اللّه (ص) بسنتين، أتته وفود العرب وشعراؤها تهنئه ولتمدحه وتذكر حسن بلائه. وأتاه فيمن أتاه وفد قريش، فيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس،، وعبد اللّه بن جدعان، وخويلد بن أسد، في أناس من وجوه قريش، فقاموا عليه صنعاء، فإذا هو في رأس غُمدان الذي ذكره أميّة بن أبي الصلت بقوله:

واشـرب هنيئاً عليك التـاج مرتفقاً

في رأسـ غُـمـدان داراً منـك محـلالاً

فدخل عليه الآذن، فأخبره بمكانهم، فأذن لهم».

ويتابع ابن كثير وصفه لهذا اللقاء: «فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام، فقال له سيف بن ذي يزن، قد أذنّا لك، فقال له عبد المطلب: إن اللّه قد أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً، صعباً منيعاً، شامخاً باذخاً، وأنبتك منبتا طابت أرومته، وعذبت جرثومته، وثبت أصله، وبَسَقَ فرعه، في أكرم موطن، وأطيب معدن، فأنت – أبيت اللعن- ملك العرب وربيعها الذي تخصب به البلاد، ورأس العرب الذي إليه تنقاد وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير منهم خير خلف، ونحن -أيها الملك- أهل حرم اللّه وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجك من كشف الكرب الذي فدحنا، وفد التهنئة لا وفد المرزئة، فقال سيف: وأيّهم أنت أيها المتكلم؟ فقال: أنا عبد المطلب بن هاشم، فقال: سيف: ابن أختنا؟ قال: نعم، قال: ادن، فأدناه».

وفي هذا اللقاء، بشّر سيف بن ذي يزن عبد المطلب بن هاشم بالنبي محمد (ص).



الموضوع الرئيس للمؤتمر كان حول «دور الثقافة العربية في الحفاظ على الهوية»، وأهمية الموضوع نابعة من الإيمان بأن الثقافة هي العنصر الأساس والحاسم في تعزيز الحياة الثقافية، وصون التراث العربي، والتكافل في العمل الثقافي العربي المشترك في زمن «العولمة» بكل ما تحمله من تحديات للذات الثقافية والحضارية في عصرنا الراهن..

الموضوعات التي قدمت، وجمعت في كتاب، كانت من الأهمية بمكان، لأن الثقافة العربية، كما تصفها تقارير التنمية الإنسانية، تجد نفسها -الآن- قبالة رياح الثقافة الكونية وأذرعها الإعلامية الجبارة، وقواها الاقتصادية والمالية العملاقة.. تجابه مشكلات الوحدة الثقافية، وتعدد الثقافات، ومشكلة الذات والآخر، ومشكلة الشخصية الحضارية، ومجموعة من المخاوف والهموم والمخاطر التي تتقلب في نفوس أبنائها.. فهواجس انقراض اللغة أو الثقافة، أو تضاؤل الهوية أو تبددها، باتت.. هواجس شاخصة تفرض نفسها على الفكر العربي والثقافة العربية، ولذلك كما يقول الدكتور سمير حسن، في بحثه عن «الاستراتيجيات والسياسات الثقافية والوطنية والقومية» تجدنا نضج بالشكوى من الغزو الثقافي، والتبعية الثقافية، والتغريب الثقافي، والثقافة الاستهلاكية، وتهميش الثقافة، وافتقاد الخصوصية والأصالة الثقافية، وتحديد الهوية..

وللخروج من هذا الواقع يؤكد الدكتور حسن، على ضرورة تجديد وتطوير قوانا الاقتصادية والسياسية بالدرجة الأولى، فالهيمنة الثقافية، والاستلاب الثقافي، ليس ثقافياً مجرّداً، بل هو نتيجة لتبعية وهيمنة واستلاب اقتصادي سياسي بالدرجة الأولى..

ومما لا شك فيه أن اللغة العربية الفصيحة، تلعب دورها الكبير في دعم الهوية الثقافية العربية، وهذا ما تؤكده الدراسة المهمة التي قدمها الأستاذ الدكتور محمود السيد، وزير الثقافة، التي يرى فيها أن اللغة والأمة أمران متلازمان، ولما كانت

الفصيحة أساساً موحداً بين أبناء الأمة العربية، كان الواجب القومي يفرض علينا الالتزام بهذه اللغة في جميع المواقف، لأن في ذلك حفاظاً على الذاتية الثقافية في ظل عولمة تجوب أنحاء الثقافات الأخرى غير عابئة بالتعدية اللغوية، والتنوع الثقافي.. وهذا يؤكد عليه أيضاً بحث الدكتور أحمد الطراونة من الأردن، حيث يرى أن لغتنا هي المظهر الأكبر لقوميتنا، ولولاها لتفرّقنا بدداً، ومن أجل هذا يحاربها أعداؤنا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لأنها إن ضاعت فقدنا بيننا كل رابطة، ولن تغني في الربط بيننا سواها، والعرب لا يمكن أن يكوّنوا وحدة بين الأمم إلا باللغة العربية، فهي رابطتنا الوثقى، وعماد قوميتنا، وعنوان حضارتنا، ومظهر حياتنا، وهي ترتقي وتتسع على قدر حظّنا من الحضارة، وتتجدد كما تتجدد مع الحياة.



قدم في المؤتمر دراسة دقيقة عن صورة الثقافة العربية، والحضارة الإسلامية على «الإنترنت»، وترى هذه الدراسة أن هذه الصورة لا يمكن أن تكون إلا انعكاساً أو -نتاجاً فرعياً- للمشهد الثقافي العام، ولا يمكن لحوارنا مع الآخرين عبر «الإنترنت» أن ينفصل عن أحوالنا الداخلية وأوضاعنا السياسية والاقتصادية، فشبكة «الإنترنت» ما هي إلا مرآة كاشفة لمدى حيوية المجتمعات وهمّة أفرادها، وواقع ظروفها، ونوعية الخطابات التي تتفاعل بداخلها.. وبعبارة أخرى، لا يمكن أن تنشأ الرسالة الثقافية من فراغ، بل لا بد من توفر البنى التحتية القادرة على إنتاجها ومداومة تحديثها، ورصد وتحليل ما يقوم به الآخر (المعادي والموالي، المتقدم والنامي، العالمي والإقليمي).

ويمكن تلخيص الملامح البارزة لصورة الثقافة العربية والحضارة الإسلامية على «الإنترنت» في النقاط الرئيسية التالية:

غياب عنصر التنسيق والمشاركة في الموارد.

المشهد الحزين لثقافتنا العربية، ناتج عن تقاعسنا واسترخائنا، أكثر من كونه نتاجاً لما يقوم به الآخرون من تشويه وطمس.

تساهم في تشكيل صورة الثقافة العربية الإسلامية على «الإنترنت» فرق متنوعة، تختلف طبيعة رسالتها وأهدافها بصورة كبيرة..

من حيث مدى التغطية لعناصر منظومة الثقافة، تطغى الأمور المتعلقة بالعقيدة ونظام القيم على كل النواحي الأخرى، وباستثناء فنون الزخرفة والعمارة، تظل غائبة، أو شبه غائبة، تلك النواحي المجهولة والمهملة من ثقافتنا وحضارتنا، كالموسيقا والأدب والشعر والسينما والمسرح واللغة والتراث الشعبي، ويتركز معظم الحديث في تناول إسهاماتنا الثقافية والحضارية في الماضي، وإغفال تام لحاضرنا الثقافي.

يعيب خطابنا الثقافي على «الإنترنت» انعزاليته المعرفية والتاريخية، فهو ينأى عن الدراسات التقابلية منطوياً على ذاته، لا يطرح قضاياه في سياقات ثقافية وحضارية وإنسانية أوسع، أما أساليب العرض فتتسم بالبدائية وعدم استغلال الإمكانات العديدة والمتطورة التي تتيحها ثقافة «الإنترنت».

يسود نشاطنا الثقافي عبر «الإنترنت» طابع رد الفعل والانفعالية، وتعوزه -بشكل واضح- مهارات الحوار، ومناورات التفاوض، ومعظمه يتجاهل نوعية المتلقي.

معظم المحاولات الجادة لتجديد وجه الثقافة العربية، ما زالت حبيسة اللغة العربية، لضعف الترجمة من العربية إلى اللغة الإنكليزية، ومما يزيد الموقف صعوبة، أن غالبية المفكرين والمبدعين العرب، ما زالت صلتهم «بالإنترنت» ووسائل الاتصال الحديثة شبه معدومة.

صنعاء 4 كانون الأول 2004م

محطات من عام مضى

كثيرة هي الأحداث والفعاليات والأنشطة، التي تركت آثارها على جدار الزمن في عام ٢٠٠٤.. علماء وأدباء ورجال فكر رحلوا، وندوات ومؤتمرات وتحولات كبيرة حدثت في عالم أصبحت فيه الثوابت قليلة، والأفكار والآراء تتحول وتتغير بفعل «عولمة» مغرضة لا قيمة للإنسان فيها إلا بقدر ما تستفيد منه وتسخره لخدمة أفكارها وأهدافها وغاياتها البغيضة.. أين منها قيم وأفكار ومبادئ الحضارات القديمة، التي نقلت البشرية من حقبة إلى حقبة أخرى جديدة، وكانت العبرة منها بما ينفع أكبر عدد من الناس وييسر لهم أسباب الأمن والاستقرار، بما لا يبهر العيون والعقول، ويرد الإنسان إلى الشعور بالقلق وانعدام الأمن والطمأنينة..

في ماضي الحضارات القديمة، ارتبط اسم الحضارة بمكارم الأخلاق.. تذكر كتب التاريخ والتراث العربي، أن النبي الكريم محمد (ص) لما جيء بسبايا قبيلة طيء، خرجت منهن واحدة جميلة، فقالت له: يا محمد! هلك الوالد (تقصد أباها حاتم)، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلّي عني فلا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيّد قومي.. كان أبي يفكّ العاني ويحمي الذِّمار، ويقري الضيف، ويشبع الجائع، ويفرّج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط. أنا بنت حاتم طيء، فقال لها رسول الله (ص): يا جارية! هذه صفة المؤمن.. خلّوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق.



في عام ٢٠٠٤، برزت مفارقات «العولمة» وتوضحت بشكل كبير معالم أهدافها وغاياتها، واللافت للنظر أنها جعلت بالفعل العالم صغيراً، ولكن في الوقت نفسه خطراً، فقد بات الإنسان يرى كلّ شيء، ويعلم كلّ شيء، لكنه بات يدرك أيضاً ما يفصله عن الآخرين، دون أن تتملكه الرغبة بالضرورة في التقرّب من «العولمة» ورفع الحدود معها، فالآخر ما زال مختلفاً وباق على اختلافه، لكنه قريب كل القرب، بل حاضر كل الحضور من خلال شاشة التلفاز، أو على خط الهاتف المحمول أو الإنترنت، وهذه «العولمة» الإعلامية ليست بالضرورة عامل تحرر وتقدم، فقد تكون أيضاً عامل عدم تفاهم، بل عامل كراهية وحقد، فالإعلام قد لا يكون خالقاً للتواصل، كما كانت تتوهم «العولمة» حتى الأمس القريب، هذا إن لم يكن خالقاً لما هو عكس التواصل، أي عدم التفاهم المطلق مع الآخر، ذلك أن كلية حضور الآخر، من خلال العولمة الإعلامية إذا كانت تلغي المسافات المادية، فإنها قد تخلق في المقابل مسافات وحدوداً ثقافية، وتضيف إلى النزاعات والمطالب السياسية التقليدية إضافات جديدة، وأبعاداً جديدة تتصل بالهوية الثقافية..

حتى الأمس القريب، كانت القوة السائدة اقتصادياً وتقنياً هي أيضاً القوة السائدة ثقافياً ! ولكن اليوم، ومع تعميم ثورة الإعلام والاتصال، لم يعد في مستطاع أية قوة أن تدّعي لنفسها الهيمنة الثقافية، والولايات المتحدة الأمريكية هي اليوم وبكل تأكيد، القوة الاقتصادية والعسكرية الأولى في العالم، لكنها ليست القوة الثقافية الأولى، كما لن تكون هناك «هويات ثقافية صغيرة» أو «أقليات ثقافية»، فسواء كانت الثقافة كبيرة أو صغيرة، فلا خيار لها بعد الآن، وتحت طائلة الانفجار، إلا في أن تكون متساوية.. وفي سياق ثورة الاتصالات والعولمة الثقافية، فإن كل متلق يتحول بصورة شبه آلية إلى مرسل، ولا بد من إرساء «عولمة» بديلة تقوم على أساس من التعايش بين الثقافات والهويات الثقافية من منطلق المساواة والاحترام المتبادل..

إن التعايش الثقافي هو مفهوم يرسم البناء بالتوسم بين مفهومين نقيضين: من

جهة أولى، الإمبريالية الثقافية التي تقول بوجود ثقافة عالمية موحدة، تكون الهيمنة فيها للقوة المهيمنة عالمياً من المنظور الاقتصادي والتقني والعسكري، وهي في هذه الحال حصراً «الثقافة الأمريكية». ومن الجهة الثانية، الأصولية الثقافية التي تفترض أن العالم مؤلف من جزر ثقافية مغلقة ينعدم التواصل فيما بينها، ولا تخضع لقانون التطور وتبادل التأثير والتأثر.. والتوسط بين هذين النقيضين يقتضي بناء مفهوم التعايش على أساس مزدوج، الاعتراف من جهة بالتنوع الثقافي للعالم، وبالتالي بتعدد القيم والمعايير وقواعد السلوك المحددة للحياة في المجتمعات المعاصرة، ومن جهة ثانية وجود ضد تنظيمي ديمقراطي لعناصر هذا التنوع الثقافي، بحيث تتحاور وتتدامج ويغني بعضها بعضاً، وهذا ما أطلقت عليه الكاتبة الفرنسية «دومينيك والتون» اسم «العولمة الأخرى» حيث إن التعايش الثقافي «مشروع سياسي ينطلق من الثقافة، ليخرج من الثقافة، ويؤكد على الضابط الديمقراطي للتنوع الثقافي، حتى لا تتحول الهويات الثقافية إلى هويات قاتلة».



في عام ٢٠٠٤، حلّت الذكرى العشرين لرحيل المفكر والفيلسوف العالمي «ميشيل فوكو» عن عالمنا، وكانت مناسبة لإقامة جملة من الأنشطة والمؤتمرات والندوات حوله وحول فكره وظهرت مقالات ودراسات عديدة حول هذا الرجل الذي أسس مفهوماً جديداً للحقيقة ولعلاقاتها بالخطاب. وخلق أسلوباً في التفكير بشكل مختلف وأحداث القطيعة مع المعارف السابقة والسائدة.

إنَّ «فوكو» يرفض مفهوم الحقيقة كتوافق مع الموضوع، ولا يعترف إلا بالخصوصيات بدلاً من «الحقائق الكبرى» التي تعودنا على تداولها، فالمعرفة ليست مرآة تعكس الموضوع، بل تداخل مستمر بين حقيقتين كبيرتين في عالمنا: الفرد ومحيطه، وهي بذلك تكون مساراً تجريبياً مستمراً، وهذا هو الدرس الكبير الذي

قدمه «ميشيل فوكو» للبشرية.. درس يتمحور حول نسبية الحقيقة وقدرة المفكرين على وضع تصورات عنها ،لكن دون امتلاكها ، ولعل هذا ما جعل مجمل أعماله تتميز بهندسة مختلفة عن هندسة المشروع الفكري المتكامل الذي يذهب في خط واحد.

ولعلَّ مجرد استعراض المواضيع التي بحث فيها «فوكو» يصيبنا بالدهشة، لشمولها حقولاً معرفية عديدة.. من تاريخ الجنون إلى تاريخ اللذة، ومن ولادة العلوم الإنسانية، إلى تاريخ السجون وصولاً إلى تطور الخطاب الطبي والجمالي والأدبي والسياسي، وغيرها، ويلاحظ أنه اختار لكل بحث ما يلائمه من أدوات منهجية ثم ترك بعضها إلى غيرها، حسب طبيعة الأهداف التي كان يتوخاها، وابتكر مفاهيم نقدية وفلسفية كثيرة خلال أبحاثه قبل أن يتجه نحو غيرها في إطار عمل فكري متجدد شديد الرغبة في تجاوز الخطابات السائدة، وتجاوز النتائج باستمرار.



في عام ٢٠٠٤، قام «فرنسيس فوكوياما» صاحب كتاب «نهاية التاريخ» بتصحيح مساره، وتعديل مواقفه، وتغيير أفكاره، حول نظريته الشهيرة وتصوراته التي أثارت ضجيجاً هائلاً حول «نهاية التاريخ» مستدلاً بتفكيك وانهيار الاتحاد السوفييتي، وزوال عصر الأيديولوجيات، والتغيرات التي يشهدها العالم والتي تنبئ ببلوغ النقطة الأخيرة في خط التطور «الأيديولوجي» للبشرية، وتوجه العالم نحو «نهاية التاريخ» بانتصار النموذج الأمريكي، باعتباره الأمثل سياسياً واقتصادياً وثقافياً وما يشمل ذلك من تعميم «الديمقراطية الليبرالية الغربية» بصفتها الشكل النهائي للحكم الإنساني، معتبراً انتصار الغرب يتجسد في انهيار أية بدائل قادرة على الحلول محل الليبرالية الغربية.

لقد أعلن «فوكوياما» فشل وهشاشة طروحات «نظريته» في مبناها ومسعاها، وأطلق تراجعه عبر صفحات كتابه الجديد «مستقبلنا بعد الرحلة البشرية» مؤكداً أن

التاريخ لم ينته، ولم يقف عند الولايات المتحدة الأمريكية، وأن أبحاث العلم ما تزال تقدم محاولات جادة، وتأخذ مساراً «حركياً» لحسم الكثير من القضايا والمشكلات الملّحة.. فما دام العلم مستمراً، فالتاريخ سيؤجل نهايته، وبناء على هذا فقد نادى «فوكوياما» بضرورة تقنين آلية سياسية دولية للتحكم في أبحاث «التكنولوجية» الحيوية، أو خطر الاستنساخ البشري.



رحيل المفكر والفيلسوف الفرنسي «جاك دريدا» عن عالمنا، في خريف العام الماضي، أطلق عاصفة من المقالات والدراسات في الصحافة العالمية، وحتى العربية، بهدف التعريف بصاحب النظرية «التفكيكية» وإجلاء الغموض في فكره وآرائه وأبحاثه وكتاباته،التي تتضمن تأويلات دقيقة ونظريات «استيطانية» لفلاسفة وكتّاب وفنانين ولاهوتيين كبار، وقيامه بقراءة الأعمال المألوفة لهم بطريقة تعاكس التيار، وتكشف المعاني المستورة التي تخلق إمكانات جديدة لتعبير يكون ذا خيال.

لقد اقترن اسم «جاك دريدا» الذي كان أحد أهم ثلاثة فلاسفة عرفهم القرن العشرين، بمصطلح «التفكيك» الذي غالباً ما استشهد به، ومفاده «إن أية بنية تنظم تجربتنا، أدبية أو سيكولوجية، أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو دينية، إنما تتألف وتستدام من خلال عمليات إقصاء، ففي عملية خلق شيء ما سيكون حتمياً إغفال شيء آخر، وهذه البنية الإقصائية قابلة أن تصبح قمعيّة، وهو قمع يترتب عليه آثار».. وبسلوك يذكرنا بـ«فرويد» يصر «دريدا» على أن ما يُقمع لا يختفي لكنه يعود، دائماً حتى يزلزل البناء القائم كله، مهما كانت درجة الاستقرار التي يبدو عليها..

لقد زحفت «التفكيكية» على الكليات الجامعية للعلوم الإنسانية عبر أوروبة وأمريكا في العقود الثلاثة الماضية، وتركت آثارها على الحداثة وما بعدها في الأدب

والـروايـة.. ويبدو أن «دريـدا» في أواخـر حياته بدأ يفهم القوة الرهيبة للشكوكية المتطرفة التي أطلقها في «نظريته»، فقلة قليلة من الناس هي التي تستطيع أن تتحمل كونها فعلياً، عدمية. وقلة قليلة هي التي تبشر برسالة مفادها الشلل واليأس.. وهذا ما دفع «دريدا»، في أوائل التسعينات من القرن الماضي، إلى الإعلان عن وجود بعض الأفكار غير القابلة للتقليص والتفكيك بالمطلق، ولا ينبغي المس بها وتفكيكها، لا سيما العدالة والصداقة.. ولكن هذا الإعلان جاء متأخراً جداً، فقد أتلف «دريدا»، كل الأدوات التي كان يمكن استخدامها في الدفاع عن العدالة، فإذا كان العقل لا قيمة له، والكلمات مجرد رموز في فراغ، فكيف يستطيع أن يدعو فجأة إلى كبح عملية «التفكيك» لدى وصولها إلى قيمة معينة صدف أنها تعجبه؟ وهل استخدامه كلمة «عدالة» تجعله يتمتع بحصانة من نوع ما حيال كل القواعد التي أنفق حياته على صياغتها؟!



شهد موضوع «حوار الحضارات» في عام ٢٠٠٤، مشاريع ملموسة ومتابعات جديدة على مستوى المنظمات الدولية، والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية، حيث برزت الحاجة إلى «استراتيجية» جديدة للتعامل مع قضية العلاقة بين الحضارات، بعيداً عن تبعات أحداث (١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١) وتأثيراتها في طرح هذا الموضوع الحيوي والمهم.

لقد طرحت مبادرات عديدة، ويمكن الإشارة إلى أهمها:

١- مشروع حوار حضارات العالم القديم، وقد بدأ بين أربع دول هي: مصر (الحضارة الفرعونية). إيران (الحضارة الفارسية). إيطاليا (الحضارة الرومانية) اليونان (الحضارة الإغريقية)، وقد حاول البحث عما هو مشترك بين حضارات العالم القديم.

٢- المشروع الألماني (الحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية الأوروبية).

٣- المبادرة اليابانية للحوار بين الحضارتين الإسلامية واليابانية، التي تميزت بالاهتمام بالأنشطة الثقافية والفكرية، وتنفيذ مشروعات تقنية بين اليابان والدول الإسلامية.

٤- المبادرة التي تبنّتها تركيا لحوار الحضارات، وهي ذات طابع مؤسسي بين الاتحاد الأوروبي ومنظمة المؤتمر الإسلامي.

٥- المبادرة الإسبانية التي دعا إليها رئيس وزراء إسبانيا «خوسيه ثاباتيرو» لإقامة حلف بين الغرب والإسلام، ودعوة وزير خارجيته «ميغيل أنخيل موراتينوس» لإقامة «بيت عربي» على غرار «البيت الأبيض» تعبيراً عن تحالف الحضارات وحوارها في إسبانيا وعبرها.. إنها دعوة للعرب ليكونوا عماد الحوار بين الثقافات والحضارات، وهي مناسبة لاستعادة شيء من ماضيهم على أرض الأندلس، والانطلاق منها للتأمل والتفكير فيها تحتاجه أمتهم ومنطقتهم.

وفي ضوء المعطيات لدعوة حوار الحضارات، يمكن القول بأن نجاح هذا الحوار مرهون بحسم عدد من الإشكاليات ذات الطابع الجدلي، فهناك أولاً: الحاجة إلى الوصول إلى توازن في الحوار بين حضارات مختلفة، وبين الحوار داخل الحضارة الواحدة بين أنساق فرعية حضارية وثقافية، وثانياً: تحقيق صيغة ما تتضمن التوازن بين الطابع المقيد في المشاركة في بعض المبادرات، وبين الحاجة إلى مظلة عالمية للحوار، وقد ثبت أنه لا توجد حضارة في العالم، أيا كانت درجة تفوقها، قادرة بمفردها على مواجهة وتقديم الحلول للمشكلات والتحديات التي تعاني منها البشرية في عالم اليوم.



مكسيم رودنسون «المستعرب»

رحل عن عالمنا. في أواخر شهر أيار / مايو ٢٠٠٤م، المفكر والمستشرق الموسوعي الفرنسي «مكسيم رودنسون»، هذا العملاق الكبير الذي أمضى الشطر الأكبر من حياته منشغلاً في التاريخ والفكر الإسلامي التأسيسي منه والمعاصر، وتكوّنت شخصياته الفكرية والفلسفية من منابع وروافد متداخلة، وكان يملك معرفة وثيقة بتاريخ وتطور الدراسات الإسلامية فضلاً عن تطور اللغة العربية ولهجاتها، التي اكتسبتها من إقامته في سورية ولبنان وفلسطين بين الأعوام ١٩٤٠ و١٩٤٧.

لم يكن «مكسيم رودنسون» مستشرقاً عادياً.. فمنذ بداياته فضّل أن يعرّف عن نفسه بكلمة «مستعرب» وكان من أوائل الباحثين الذين أخضعوا الاستشراق الكلاسيكي للتحليل النقدي والعلمي، وهو من القلة الذين لم تطالهم تهمة «الاستشراق الاستعماري» وكان شديد الحرص على تعريف نفسه في كتبه بصفة «المناضل ضد الاستعمار»، وقد كتب المئات من المقالات والدراسات في مواضيع عربية وإسلامية دقيقة في الطب والاقتصاد والفكر والفلسفة والدين، وكانت باكورة أعماله العلمية عام١٩٤٩م حول عدد من المخطوطات العربية. وكان أبرزها سيرة النبي محمد (ص)، و«الإسلام والرأسمالية». و«الماركسية والعالم الإسلامي» في «إسرائيل والرفض العربي» الذي كان المحاولة الأولى من مفكر فرنسي كبير لإيفاء العرب حقّهم في صراعهم مع إسرائيل، وشرح مواقفهم من الصهيونية منذ ظهورها، وكان أيضاً مناسبة جيدة ليتعرف فيها على فكر العرب، (وهو من أصل يهودي) يناهض إسرائيل، ولعلّ «رودنسون» قد يكون بذلك أكثر من ساعد على التمييز بين اليهودية

والصهيونية، ولاسيما أنه لم يتراجع يوماً عن موقفه النقدي من إسرائيل، وقد توَّج هذا الموقف في كتابات ودراسات جمعها في كتاب مهم صدر عام١٩٨١م بعنوان «شعب يهودي أم مشكلة يهودية».



أهم ما يميِّز كتابات «مكسيم رودنسون» تلك النزاهة الفكرية التي طبعت أعماله، فالرجل بقي على امتداد عمره يحفر الخط ويعمّق نفس الموضوعات والإشكاليات، ولم يتذبذب كثيراً، ولم ينتقل من هذا الموقع الفكري إلى ذاك على هوى الموضات الفكرية أو المصالح الانتهازية والشخصية، وكانت نقلاته السياسية (من ماركسي إلى شيوعي، إلى مفصول من الحزب إلى مستقل..) عبارة عن تطور طبيعي لمفكّر يعمق أسئلته وأجوبته، كلما نضج حياتياً، وتقدَّم في العلم والمعرفة، وكان في كل مراحل تطوره مخلصاً للفكر العقلاني الموروث عن عصر التنوير الأوروبي، وكان يرى أن الجنس البشري واحد على الرغم من اختلاف أعراقه وأديانه ولغاته، وهناك قوانين عامة تتحكم به، وينبغي أن نكتشفها من خلال المقارنة كي نفهم الطبيعة البشرية على حقيقتها، وكذلك الآليات الداخلية للمجتمعات البشرية.

كان لمكسيم رودنسون الفضل الأكبر في إخراج علم الاستشراق من الدائرة الضيقة والعقيمة لتاريخ الأفكار التقليدي ومنهجيته التي عفا عليها الزمن، وهي المنهجية التي تدرس الأفكار وكأنها معلّقة في السماء، أو منفصلة عن الحيثيات الواقعية التي تحيط بها، وأدخل إلى ساحة الاستشراق مناهج العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع، والتاريخ والأنتربولوجيا والاقتصاد، وقال بأنَّ المسلمين أناس، مثلهم مثل غيرهم، تتحكم بهم الظروف المادية والاجتماعية، وليس فقط العقلية اللاهونية أو الدينية، وانتقد بشدة بعض تيارات الاستشراق التي تحاول سجن العرب والمسلمين في عقلية معينة، أو خصوصية مطلقة لا فكاك منها، وهي نظرة عنصرية بشكل صريح

أو ضمني لأنها تحاول إثبات أن المسلمين لا يمكن أن يتقدموا لأنهم مسلمون، وكذلك العرب، وبرهن «رودنسون» على أن التقدم والتأخر عملية معقدة، ومرتبطة بعوامل عديدة كالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دون أن يهمل العامل الديني والأيديولوجي وبالتالي، فالتقدم ممكن إذا ما تغيّرت هذه الظروف أو تحسنت، وهو شيء حاصل، وإن بشكل بطيء وتدريجي وأحياناً غير ملموس أو غير محسوس به.



في بحثه عن المثقف ودوره في المجتمع عبر التاريخ، يرى «مكسيم رودنسون» أن المثقف له سلطة، هي سلطة الكلام والمعرفة والشهرة والمقدرة على هداية الناس نحو الكشف والحقيقة..

المثقفون كانوا فلاسفة في عصر فيثاغورث الذي عاش قبل ألفين وستمئة سنة تقريباً، ثم أصبحوا رجال دين بعد انتصار الأديان التوحيدية، ثم أصبحوا من جديد فلاسفة أو أدباء أو شعراء في العصور الحديثة، دون أن يعني ذلك انتفاء دور رجال الدين وخاصة خارج أوروبة.

والمثقفون: هم الذين يبلورون الأيديولوجيا بالمعنى الواسع للكلمة، والأيديولوجيا بالمعنى الواسع للكلمة، والأيديولوجيا حسب منظور «رودنسون» هي كل نظام فكري يشرح العالم ويفسِّره، أو يقدّم رؤية شمولية عن العالم، وبهذا المعنى، فإن فيثاغورث وغيره من فلاسفة اليونان قدّموا رؤية متماسكة عن العالم، ثم جاءت الأديان من بعدهم كي تقدم رؤية أخرى، وهكذا دواليك، وفي كل مرة كانت الأيديولوجيا تقنع الناس أو قسماً كبيراً منهم وذلك قبل أن تنهار كي تحل محلها أيديولوجيا جديدة..

من هذا المنطلق قام «رودنسون» بدراسة مقارنة لجميع الأنظمة الأيديولوجية

التي ظهرت في التاريخ، فلا يوجد مجتمع دون آيديولوجيا، وبهذا المعنى فإن الأيديولوجيا ظاهرة أنثربولوجية أي إنسانية، وكلمة أنثروبولوجيا، يونانية الأصل، ومؤلفة من كلمتين أنثريوس أي الإنسان، ولوجيا أي العلم، فيصبح معناها: علم الإنسان، وفائدة علم الأنثربولوجيا: هي أنه لا يحصرنا داخل مجتمع بشري واحد، أو خصوصية واحدة، وإنما يقارن بين كل المجتمعات والخصوصيات، كي يستخلص القوانين العامة المشتركة بين جميع البشر، فالجنس البشري واحد في نهاية المطاف على الرغم من اختلاف عادات العربي عن الفرنسي، أو الصيني عن الأفريقي.. لكن كل البشر بحاجة بعد الأكل والشرب والملبس والمسكن إلى أيديولوجيا، فالإنسان حيوان أيديولوجي أو ديني أو عقائدي.. إنه لا يستطيع أن يعيش دون أن يعتقد بشيء ما، بحقيقة تطمئنه وتهدئ من روعه وقلقه، ولا يوجد مجتمع على وجه الأرض، سواء أكان بدائياً أم متحضراً، إلا ويعرف ظاهرة للاعتقاد والتقديس.. قد يختلف شكل المقدَّس في هذا المجتمع عن ذاك، ولكن هناك دائماً مقدَّس.



لقد حلّل «رودنسون» في كتابه «إسرائيل، واقع استعماري» طبيعة الصهيونية الاستعمارية، وارتباطها بالامبريالية، وفي بحثه عن الحقوق المزعومة لليهود جميعاً على أرض فلسطين، يذكر أن آخر دولة يهودية مستقلة في فلسطين قضت عام ٦٣ قبل المسيح، عندما استولى بومبي على أورشليم، وآخر انتفاضات اليهود في فلسطين ترجع إلى تاريخ ثورة «باركوخبا» عام ١٣٥م، وقد تقلّص سكان فلسطين الرومانية اليهود إثر المنافي والرد إلى العبودية، وتقلّصوا بشكل خاص بسبب الهجرة، واعتناق الوثنية ثم المسيحيّة ثم الإسلام وقد أكّد في دراسات أخرى أبعاد نظرته التاريخية الثاقبة إلى الصراع العربي –الصهيوني، وتعاطفه مع القضية الفلسطينية، مما عرضه للشتائم والتهديدات من قبل ناشطين في التنظيمات الصهيونية في فرنسا..

الصهيونية وفق آراء «رودنسون» ليست في المحصلة، سوى استغلال عواطف شعب منكوب لخدمة مصالح الرأسماليين اليهود المرتبطين بأهداف الامبريالية في الشرق العربي.. لقد اتجره الصهاينة ببؤس شعبهم مقابل مشروع تجاري ومرتكز استعماري.. وكان له معارضات صريحة للنظرية الصهيونية، حيث يرى أن من المحتوم على إسرائيل أن تكون عدوانية، وأن يقودها هذا «القدر العدواني» أخيراً إلى الانتحار، لأنها تكوين مصطنع لا يملك مقوّمات البقاء، وسيكون مصيرهم مثل الفرنجة الذين استطاعوا البقاء بالقوة في هذا الوسط مدى سبعين عاماً، ثم اضطروا إلى الرحيل، وإنَّ الصهيونيين لن يكونوا أسعد حالاً، لاسيما متى استطاع العرب تحقيق وحدتهم.



شغف «رودنسون» بالإسلام يعود إلى سنوات دراسته الابتدائية، وهذا الشغف كان يندرج في إطار اهتمام شائع آنذاك بتاريخ الأديان، وقد قيّض له أن يلتقط نبض مناظرات عامة حول مشاكل المعرفة، ونبض تحولات حسّاسة شهدها حقل الاستشراق، بعد الحرب العالمية الأولى على يد «لويس ماسينيون» تحديداً، وكانت كتابات «رودنسون» في هذا المجال عديدة، وعلى مستوى كبير من الأهمية والغنى بالمعلومات والمقاربات التحليلية، وقد انطلق في كتابتها من خبرة واسعة في مجالات اللغة والاستشراق والتاريخ وعلم الاجتماع، على ضوء افتراضات بالغة الأهمية حول أوهام وآراء شائعة في العالم الغربي عن الإسلام وقضاياه الأساسية الكبرى.

يرى «رودنسون» في كتاباته أنَّ السماء والعدالة الاجتماعية المحقِّقة لآدميّة الإنسان، قادرتان على التعايش السلمي في الفكر والمجتمع المتحررين من الخرافات والطقوس الملصقة عسفاً بالشعور الديني، أيسر كثيراً مما تتعايش السماء مع الاستغلال والاضطهاد، ولعلَّ الخلاص التدريجي يبدأ من انتقال الإنسانية الفعلي

من (الضرورة) إلى (الحرية). لأن السبيل الوحيد إلى هذا الخلاص هو في الوقت نفسه سبيل الإيمان الحق بالإنسان، وبالعلم الذي يمنح هذا الإنسان القدرة على استكشاف قوانين تطور الطبيعة والمجتمع، ومنها القدرة على مزيد من التحكم في توجيه هذا التطور، ويرى في الإسلام «دين عبادة ومعاملات في وقت واحد، أي إنَّه لم يبشّر بملكوت السماء فحسب، بل اشترع أيضاً للحياة اليومية»، في هذا الازدواج تكمن مكانته الكبرى في تاريخ تحرر الإنسانية.. لقد كان ديناً ودولة معاً، ديناً للسماء، ونظاماً للأرض..

لقد بذل «رودنسون» في دراساته جهداً تأريخياً وتحليلياً ناجحاً في إثباته أنّ الإسلام لم يفرض على الناس، وعلى الحضارة، وعلى الدول التي أخذت به نهجاً اقتصادياً محدداً، فكان من أهم الكتّاب والمفكرين العقلانيِّين الفرنسيين الذين عايشوا العرب، ودافعوا عنهم وعن حضارتهم وتاريخهم، وناصروا قضاياهم دون تملّق أو تهاون أمام الحقيقة، فاستحقّ التقدير والاحترام والمحبة.



مملكة أوغاريت

٧٥ عاماً على بداية الاكتشاف العظيم

احتفلت الأوساط والهيئات والمؤسسات الثقافية والعلمية في مناطق شتى من العالم بذكرى مرور/٧٥/ عاماً على بداية التنقيب والكشف الأثري في موقع رأس الشمرة «أوغاريت» هذه المملكة التي لم يكن اسمها معروفاً قبل عام ١٩٢٩ إلا من خلال بعض الكتابات القديمة النادرة التي وردت في محفوظات ممالك ومدن بلاد الرافدين ومصر والأناضول، إلى أن حدثت المصادفة المباركة السعيدة، حين اصطدمت سكة محراث الفلاح العربي السوري محمود منلا الزير، في المنطقة المسمّاة اليوم بـ «مينة البيضا» بإحدى بلاطات القبور، فكانت الانطلاقة الأولى لأعمال منهجيّة علميّة في موقع من أغنى مواقع الآثار والتاريخ والحضارة في العالم القديم..

كشفت أعمال التنقيب في أوغاريت عن عطاءات مملكة كنعانية، كانت مساحتها نفس مساحة محافظة اللاذقية، وكانت الأمجد في ممالك العالم القديم في الألف الثاني قبل الميلاد، شعّت أنوارها الثقافية والحضارية والفكرية الباهرة، فكانت عظيمة في عطاءاتها ومبدعة في إنجازاتها وثورة في عالم أبجديتها ودساتيرها وملاحمها وأساطيرها وآدابها..

بدأت أوغاريت في الألف السابع قبل الميلاد، قرية صغيرة، استقر فيها الإنسان بعد أن عزف عن حياة الترحال، والاعتماد على ما تجود به الطبيعة من ثمار وأحياء بريّة وبحريّة، فانتقل إلى حياة الاستقرار واستنبات البذور البريّة، وممارسة الزراعة البدائية، وتدجين الحيوانات البريّة، ثم تطورت أوغاريت مستفيدة من غنى أراضيها وموقعها المتوسطي الجميل، ونشاط سكانها، حتى غدت حاضرة تجارية من أشهر الممالك الكنعانية قاطبة في المشرق القديم وخاصة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

وبفضل موقع أوغاريت الجغرافي، استطاعت أن تلعب دوراً مهماً كمحطة ربطت بين سورية الداخلية وساحل البحر المتوسط، وهذا ما جعلها تجتذب أقليات وممثليات أجنبية عديدة للإقامة فيها من أجل رعاية وتوطيد علاقاتهم التجارية والاقتصادية مع أوغاريت التي أصبحت بوابة مفتوحة على الشرق والغرب، ومرفأً تجارياً بارزاً على سواحل البحر المتوسط، ترد إليه، وتمرّ عبره المحاصيل الزراعية والمواد الخام، والسلع المصنّعة من جزر قبرص وكريت وبلاد اليونان، ومن ممالك الشرق في يمحاض (حلب) وماري (تل الحريري) وإيبلا (تل مرديخ) وبلاد ما بين النهرين، ومن مدن الجنوب في لبنان وفلسطين ووادي النيل، إلى جانب ممالك الحثيين في بلاد الأناضول في الشمال.

لقد اشتهرت مملكة أوغاريت التي امتدت حدودها من جبل صَفَن (صفّون =الأقرع حالياً) في الشمال، إلى نهر السن في الجنوب، ومن سواحل البحر المتوسط في الغرب، إلى سلسلة جبال الساحل السوري في الشرق.. اشتهرت بإنتاج المحاصيل الزراعية كالأخشاب والزيوت والخمور والحبوب، وبالمنتجات الحرفية كسباكة النحاس والرصاص والقصدير والبرونز، وصياغة الذهب والفضة، وصناعة المنحوتات الفنيّة، وتصنيع وإنتاج الصباغ الأرجواني والأصواف والمنسوجات المصبوغة بالأرجوان.

القيمة العظيمة لاكتشافات مملكة أوغاريت، تكمن في روائع عمرانية وقصور ومعابد وبقايا منشآت متطورة كانت في غاية الروعة والجمال، وفي روائع مدهشة وأدوات نفيسة وتماثيل فنيّة جميلة وحلي وجواهر وجداريات ورسوم متقنة نفّذت على الأواني والصحون النحاسية والفخارية والخزفية، وقد أعطتنا الرُّقم الطينية المكتشفة فيها، التي كتبت بثماني لغات، مادة قيّمة ومتنوعة وغنية لدراسة مختلف جوانب الحياة في سورية القديمة، مما جعل أوغاريت تبدو للعالم مملكة حضارة وفكر إنساني خلاّق.

وقد تجلّت خصائص الفكر الأوغاريتي بمظاهر عديدة أهمها:

- ارتباط الإنسان العربي السوري منذ القدم بالحياة الزراعية والاجتماعية والأخلاقية والدبلوماسية.
- معرفة المفكّر الأوغاريتي بتراث حضاري تناقلته الأجيال عبر العصور.
- الانفتاح الفكري والثقافي على حضارات الشعوب المختلفة.

والأهم من كل هذا وذاك، إنَّ الرُقم الطينية الكتابية كشفت في أوغاريت عن أوّل شعب في العالم، قام بنقل اللغة من الصورة إلى الأبجدية، ومن المقطع إلى الحرف، فكان من المؤسسين لأهم وأعظم انعطافه في تاريخ البشرية، حيث اللسان بيان، وبه تدوّن الأحكام والقرارات والمعاهدات والوثائق، والنصوص الاقتصادية والحقوقية وبه تصاغ قصائد الغزل وأناشيد الدين، وبه تسجّل أولى محاولات الموسوعات، وبه توضع القواميس والمعلومات الطبية، وبه تنقش النصائح والحكم، وحتى المعلومات عن السحر وعلم الغيب.

لقد كتب الأوغاريتيون النصوص الدينية وبعض الرسائل بالأبجدية، بينما سطّروا رسائلهم إلى بلاد ما بين النهرين ومصر وآسية الصغرى بالخط المسماري

الآكادي، الذي يعرفه الجميع في الألف الثاني قبل الميلاد وتعدّ الملاحم والأساطير الأوغاريتية تسجيلاً لتقليد كهنوتي مقدّس توارثته الأجيال من كهنة المعابد جيلاً بعد جيل، منها قصص الآلهة ومآثر الأبطال من الملوك،وغالباً ما تقوم القصص الملحميّة كليّاً على تدخل الآلهة، وتبقى الأسطورة دائماً في خلفية السرد الملحمي، وقد وجدت النصوص في مكتبة كبير الآلهة، وتشكل أهم مصدر من مصادر المعرفة عن الديانة الكنعانية العربية القديمة التي يمكن أن نحدد تصوراتها في مبدأين أساسيين:

- عملية الخلق الكوني من قبل إله خالق.

- عملية الإنجاب والخصب وما يرافقها من ظواهر طبيعية أخرى مثل: الرعد والمطر والعواصف.

ومن أشهر هذه الملاحم التي اكتشفت -حتى الآن- ملحمة دورة الإله بعل – ولادة الآلهة- أنشودة ننكال (أعراس القمر) -قصة دانيال- قصة كرت..

في كتابات أوغاريت وجدت ترجمات لقصائد أدبية تصلح للغناء والتمثيل، وقد ترافقت عمليات تقديم القرابين بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية نذكر منها: الناي والصنج والقصبة والطبل والمزمار، وقد اكتشفت في أوغاريت مجموعة من الآثار لتماثيل تتضمن بعض هذه الآلات الموسيقية.. كما اكتشف رقيم طيني دوّن على وجهه الأول كلمات شعرية مهداة لآلهة القمر «نيكال»، وعلى الوجه الثاني دُوّنت «النوطة» الموسيقية لهذه الأغنية «الأنشودة» ويعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وقد اتضح من خلال الدراسات الدقيقة التي تمت حولها، أنَّها مدونة بأسلوب السلم السباعي الموسيقي، وهي المقامات الصوتية نفسها المنسوبة إلى «فيثاغورث» اليوناني في سنة /٥٠٠/ قبل الميلاد، أي أنَّ أنشودة العبادة الأوغاريتية وسلمها الموسيقي أقدم من سلّم «فيثاغورث» بنحو /٩٠٠/ سنة، وربما أكثر.

لقد ثبت من خلال المكتشفات الأثرية التي تمت في أوغاريت أنه كان لها علاقات جيدة، وفعاليات اقتصادية وتجارية متميزة مع العديد من ممالك المدن العمورية والكنعانية، حيث استفادت هذه المدن من موقع أوغاريت الجغرافي على مسار المسالك والمواصلات الرئيسة، التي تربط بلدان آسية عبر الصحراء العربية، مع بلدان أوروبة وشمال أفريقية عبر البحر المتوسط، وهذا ما ساعد أوغاريت على التقدم الاقتصادي والحرفي والزراعي والتجاري والدبلوماسي، فأصبحت مركزاً كبيراً للتجارة الدولية، حيث شملت علاقاتها العالم المعروف كله في ذلك التاريخ، من كريت وآسية الصغرى واليونان ومصر حتى بلاد ما بين النهرين، وكان ضمن اكتشافات آثار أوغاريت ما يدلّ على أنّ جماعات مصرّية وحثيّة وآكادية ويونانية وقبرصية كانت تعمل في فعاليات عديدة إلى جانب الأوغاريتيين والعموريين، وسكان المدن الكنعانية الساحلية والمناطق السورية الداخلية، وهذا ما جعل أوغاريت ملتقى حضارات وثقافات ولغات عديدة ومتنوعة..

هذا التألق الحضاري والتجاري والاقتصادي والفكري لمملكة أوغاريت في العالم القديم، جلب لها الحسد والطمع من جحافل جيوش البحر في العقد الثاني من القرن الثاني عشر قبل الميلاد (١١٨٥ أو ١١٨٠ق.م) وقد تجمع هذا مع عدة أسباب أدّت إلى النهاية الأليمة والفاجعة الكبرى، منها ظهور مرض الطاعون، والمجاعة والاضطرابات السياسية الداخلية، والحروب المستمرة مع أعداء من جنسيات عديدة.. فكانت النهاية والسقوط المريع..

لقد حدثتنا النصوص الكتابية عن آخر الأحداث في مدينة أوغاريت، من خلال رسالة لم ترسل من قبل آخر ملوكها «حمورابي» حيث يذكر فيها بأن «سبع سفن عدوّة قد لاحت في الأفق.. وأنَّ المدن جميعها قد استسلمت، وأنَّ جيوشه بعيدة عنه، وهو في مواجهة الأعداء وحده..» وهكذا كانت نهاية هذه المدينة –المملكة– وطويت

بذلك صفحة مشرقة لعاصمة عربية كنعانية قدّمت للبشرية في الألف الثاني قبل الميلاد، أعظم وأهم المعارف والعلوم والآداب في تاريخ العالم القديم.

آثار أوغاريت العظيمة دمّرت، ولكن حضارتها وفنونها وآدابها وإسهاماتها في مختلف الميادين، بقيت شامخة، خالدة، شاهدة، حاملة كشوفاً رائعة من آثار الأجداد الأولين، الذين أبدعوا أعجوبة الكتابة الأبجدية على أرض أوغاريت، وقدّموها هدية للبشرية جمعاء، وما احتفال وزارة الثقافة بـ «يوبيلها الماسي» على بداية التنقيب الأثري العلمي فيها إلا عربون شكر وامتنان على عطاءاتها السامقة ومجدها الغابر وحضارتها الزاهية التي هي منّا ونحن منها، وتاريخها هو جزء من تاريخنا الطويل، وفي آثارها نجد الكثير من جذور حضارتنا العربية، ومن عاداتنا وتقاليدنا وموروثنا الثقافي والفكري والميثولوجي.



من حلب تبدأ الحكاية

من مدينة حلب، تبدأ الحكاية، ويرحل الخيال إلى عالم افتراضي، حكاية مدينة عبرت آلاف الأعوام، وتعاقبت عليها الأجيال من الشعوب ولغات وأعراق تتدفأ على نار الأساطير، وتحفظ في ذاكرتها مؤونة للآتين بعدها.. مع كل حقبة من الزمن كانت حلب تتطور وتزدهي وتزدهر بآثارها وإبداعات أهلها الذي نسجوا للزمن بشوق وحب حكاية المكان الذي كان منذ القديم موئل الفكر والثقافة والفن والفلسفة والأدب..

حلب من أعرق المدن القديمة في العالم، بل نستطيع القول إنها أقدم المدن التي ما زالت قائمة حتى اليوم،والسر يكمن في حجارتها الصلدة التي عرف الإنسان الحلبي كيف يستخدمها ويشذبها ويجعلها قادرة على مقاومة عاديات الزمان، والاحتفاظ بخطوطها ومعالمها الأولى منذ الألف الثالث قبل الميلاد، في حين اندثرت مراكز مدن وممالك وحواضر كثيرة كانت معروفة في العالم القديم.. وبقيت حلب شاهدة على تاريخ قديم، تمثل صلة الوصل بين حضارات وحقب عديدة قديمة، وعناصر الحضارة العربية الإسلامية الزاهية.

أول ذكر لحلب في التاريخ يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، فهي «حلبابو» و«أرمانو»، و«يمحاض» وقد ورد اسمها في نصوص مدينة ماري «تل الحريري» على الفرات الأوسط، وفي نصوص مملكة إيبلا «تل مرديخ» ونصوص مملكة آلالاخ «تل عطشانة» وفي نصوص مملكة أوغاريت «رأس الشمرة» على الساحل السوري..

وكانت حلب في الألف الثاني قبل الميلاد الدرع الواقي من زحف الحثيين على بلاد الشام ووادي النيل، ثم دخلت تحت السيطرة الآرامية، ثم الآشورية ثم الفارسية إلى أن جاء الاسكندر المقدوني فاهتم بها، وجعل منها أحفاده مدينة «بيرويه» وحرّف الاسم في زمن الإمبراطورية الرومانية إلى «بيرويا».. وكانت خلال هذه المراحل التاريخية تتمتع بمركز حضاري كبير، وعلاقات جيدة مع مدن وممالك عديدة في العالم القديم.



موقع مدينة حلب على طريق القوافل القادمة من أوروبة إلى الهند وبالعكس، أهّلها بقوة لأن تحتل مركزاً تجارياً مهماً بين الشرق والغرب أو ما يعرف بطريق الحرير الشمالي، وهذا ما ساعد على تطور صناعتها وازدهار الحياة والعمران فيها، فبنيت فيها الأسواق والخانات والقيساريات والحمامات والمدارس و«البيمارستانات» والقصور والأبنية العسكرية والمساجد، وكانت هذه العناصر بكل ما فيها من تطور وفنون وجمالية وحياة اجتماعية هي الخُلاصة التاريخية والحضارية لهذه المدينة العريقة التي تحمل نكهة خاصة تميّزها عن غيرها من مدن العالم القديمة..



مدينة حلب مستقر كبير شكّله حوض نهر قويق وما جاوره، ويستنتج من مجمل التعريفات والاستعمالات اللغوية والدينية والاشتقاقية أن المدينة عمران يبنى على أرض حصينة يديرها «ديّان»[1] يمثل العدالة والسلطان، وهذه المدينة تستوجب نوى كثيرة لتتحققّ، فهناك أولاً: النواة الاجتماعية، إذ إن الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من اجتماع هو المدينة، فالإنسان مضطر إلى الاجتماع بغيره حتى يحصّل الهيئة الاجتماعية التي يتوقف عليها المطعم والملبس، ثم اتخذ السور والخندق فحدثت المدن والأمصار.. وهناك النواة الدينية إذ إن الإنسان الأول ارتاد بعض الكهوف لمزاياها

الطبيعية، ومع الوقت تحولت إلى هياكل تؤدى فيها الطقوس والشعائر الدينية.. ويتصل بالنواة الدينية لنشأة المدينة، القداسة التي أحاط بها الإنسان الأول أمواته، فمنذ أن بدأ يفكّر في التجمّع في كهف أو مغارة، كان يبني لأمواته مدناً يستقرون بها، يرتادها الأحياء، إجلالاً وتقديساً وتبركاً، لذلك يمكن القول إن النواة الدينية ومدينة الأموات كانت بذوراً نمت فأنتجت المدينة بعد حين..

وترتبط نشأة المدينة بخصوبة التربة المحيطة بها، وهذا ما يفسّر الظهور المبكر لمدينة حلب منذ عصور ماقبل التاريخ، لأن خصوبة التربة هي التي تمد المدينة بالمؤن والموارد الطبيعية التي تيسر الأعمال التجارية والصناعية.. وهناك نوع العمل الذي يمتهنه سكان المدينة، وهذا يجب أن يتخطى إنتاج الطعام والرعي والزراعة إلى أنواع المهن والوظائف والتجارة والصناعة، تصبح المدينة مركزاً للمشاريع الإنمائية والمالية، فالنواة الاقتصادية كانت إلى جانب النوى الأخرى التي دفعت مدينة حلب إلى الوجود..

ويتصل بنشأة المدينة البيت والمعبد ومجمّع الماء والطريق العام وقواعد الآداب والسلوك والحكومة والقانون، ونمو الحاجات التي أوجدت الجندي والمعلم ورجل الدين، وأوجدت الآلة الصناعية، ومنها التطور في النظرة إلى الآلهة التي أضحت ذات بعد عميق تجسّد في آلهة السماء والشمس والقمر والماء والصحراء والخصب والعطاء.. ومنها أيضاً تحوّل زعيم القبيلة أو القرية إلى ملك خلع على نفسه صفات إلهيّة أو خُلعت عليه.. أما ازدياد عدد السكان، فالمهم فيه أن يكون مجتمعاً له طابع خاص تتشابك فيه وظائف أفراده وتتفاعل تفاعلاً حقيقياً.



كل هذه العوامل مجتمعة وجدت في منطقة حلب وساعدت على تشكيل المدينة الأولى التي ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا، وما كشف في «تل قرامل» في حوض نهر

قويق إلى الشمال من مدينة حلب من بيوت دائرية صغيرة مبنية من الطين والحجر تعود إلى الفترة الواقعة بين منتصف الألف التاسع قبل الميلاد، ومنتصف الألف الثامن قبل الميلاد، وبقايا المستوطنة الكبيرة التي كانت محصنة بسور حماية. بقايا البرج الدفاعي.. ذكّرنا ببرج أريحا الشهير في فلسطين، مما يدل على قيام المدن المسوّرة ذات البنى السياسية والاجتماعية المركبة منذ ذلك الزمن الباكر، حسب تعبير الزميل الدكتور سلطان محيسن.

مفهوم المدينة تطور في حلب في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، بسبب الازدهار الكبير الذي حصل في حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فقد نشأت فيها حضارة مدينة رفيعة المستوى، مستقلة في عمارتها ونظمها وتجارتها وعلاقاتها مع جيرانها، وقد حدثتنا عن ذلك التطور كتابات مدينة إيبلا «تل مرديخ» الواقعة إلى الجنوب منها بنحو / ٦٠/ كم، حيث تولت إيبلا في فترة الازدهار الأولى بين (٢٤٠٠ و٢٢٥٠) قبل الميلاد، وشكلت مع حلب، «أرمانو» الحضارة المدنيّة السورية الأصيلة، وكانت أمّ ما انتشر في بلاد الشام من حضارة المدن الكبيرة، وعندما هاجم الملك الأكادي (نارام سِن) إيبلا (وهناك من يقول صارغون الأكادي) في سنة ٢٢٥٠قبل الميلاد، قام بتدميرها، ومع أنها عادت وازدهرت بعد ذلك إلى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد، إلا أن حلب (يمحاض) قامت بتقلّد زعامة المدن الكبيرة في بلاد الشام.

في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، أصبحت سورية ممراً للدولة الحثّية الناشئة التي انطلقت من الأناضول لتخضع الإمبراطورية البابلية، وتقوم بإسقاط عاصمتها بابل، وهكذا خضع الشمال السوري ومنها حلب للسيطرة الحثّية، وعندما انهار صرح الإمبراطورية الحثّية نحو عام /١٢٠٠/ قبل الميلاد حدثت تطورات سياسية وحضارية أوجبت التغيير في أجزاء واسعة من البلاد، فعلى أنقاض الدولة المركزية القوية قامت دول مدن كثيرة بعضها أرامي وبعضها الآخر حاول

أن يحافظ على تراث الحضارة الحثّية ويجدد شبابها، ولم يكن في مقدور أي دولة من هذه الدول أو إمارة من هذه الإمارات التي قامت إلى جانب بعضها أن تملك القوة الكافية للهيمنة وتشيد دولة مركزية تخلف الدولة الحثّية في إرثها السياسي والحضاري الضخم.

لقد عاش الآراميون جنباً إلى جنب مع الحثيين الجدد وكانت أشهر ممالكهم في شمال حلب، مملكة بيت عديّني وعاصمتها تل برسيب (تل أحمر حالياً) ومملكة بيت بحياني وعاصمتها غوزانا (تل حلف حالياً) وإمارة بيت آغوشي التي تضم حلب وأرفاد (تل رفعت حالياً) المجاورة لبيت عديني، وبقيت كركميش (قرب جرابلس) الحثّية حتى سقطت بيد الآشوريين في عهد صرغون الثاني، كما استطاع الآراميون أن يؤسسوا مملكة شمال أي شمال في موقع (زنجرلي حالياً) عند سفوح جبال الأمانوس..

مفهوم المدينة في الحضارة اليونانية، اعتمد على مركز كبير تقام فيه الأبنية الدينية والمدنية، ويتجمع فيه الناس عند الحاجة، وهو الذي كان يسمى «الآغورا»

وكان لبعض المدن «اكروبوليس» وهو المكان المرتفع الذي تتكئ المدينة إليه كأنه القلعة..

هذه هي نواة المدينة اليونانية التي تطورت على أساسها جميع المدن التي أقيمت في العصر اليوناني والمستعمرات التابعة، وكانت فتوحات الإسكندر الأكبر لبلاد الشرق حدثاً هاماً في التاريخ القديم، حيث بنى الإسكندر مدناً كثيرة في بلاد الشام، أصبحت من معالم الحضارة في سورية وبلغت غاية النشاط والازدهار، وكان من أهم هذه المدن: أنطاكية والسويدية (سلوقية البحرية) واللاذقية وآفاميا، وهيرابوليس (منبج) ولاريسا (شيزر) وأرتوزا (الرستن) ودورا أوروبوس (صالحية الفرات) وبوروبا (حلب) التي أقيمت من جديد ووصلت إلى درجة مدينة مخططها يعتمد

نظام المستطيلات المتناسقة التي تحدّها الشوارع المتعامدة.. واهتم بها السلوقيون لقربها من عاصمتهم الجديدة أنطاكيه.

وعندما أصبحت سورية الشمالية، ومن ضمنها حلب في عام /٦٤/ قبل الميلاد مقاطعة رومانية، حافظت هذه المدينة على مكانتها، ثم أصبحت بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية شرقية، وأخرى غربية، كان من الطبيعي أن تصبح حلب تابعة للإمبراطورية الشرقية التي سميت الإمبراطورية البيزنطية، وتصبح مركزاً مهماً من المراكز المتقدمة، وفي فترات عديدة اتخذها الإمبراطوري البيزنطي مقرّ إقامة له، واستمرت هكذا حتى فتحها العرب المسلمون بعد أن طلب أهلها الصلح والأمان لأنفسهم وأولادهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، فكان لهم ما أرادوا، وأصبحت حلب جزءاً من الدولة العربية الإسلامية، فنعمت بسلام طويل وازدهار اقتصادي كبير..

لقد أعطى الإسلام مدينة حلب شخصية جديدة وطبعها بطابع خاص، وهذه الشخصية تكشف عن وجود (روح) عامة ثابتة ومستمرة خلال تاريخها العربي الإسلامي كله، كما أن هذه الروح هي التي ساعدت حلب على أن تؤكد ذاتيتها كقوة دافعة خلال التاريخ بفضل مجتمعها المتماسك الذي يؤلف وحدة متعاونة..

ويمكننا أن نحدد الملامح الأساسية التي نجدها في مدينة حلب الإسلامية بخمسة عناصر هي:

١- وجود القلعة الضخمة التي تقوم بطبيعة الحال على موقع له طبيعته الدفاعية، وقد كانت هذه القلعة في البدء تقع بالطرف الشرقي من مدينة حلب، إلا أن المدينة أخذت تتوسع تدريجياً نحو الشرق حتى أصبحت القلعة في وسطها تقريباً، وهي اليوم ترتفع في زهو وجلال محافظة على العهد الذي قطعته على نفسها عبر السنين الطويلة.

٢- وجود مدينة ملكية أوحي «ملكي» وقد نشأ هذا الحي في حلب، في مركز حضري كان موجوداً من قبل في العهود اليونانية والرومانية والبيزنطية.

٣- وجود مركز للمدينة يضم المسجد الجامع (المسجد الأموي الكبير) والمدارس الدينية والأسواق المركزية، بكل ما تضمّه وتلحق به من خانات وقيساريات وخانقانات، إلى جانب وجود مناطق خاصة للتجار والحرفيين، كما تقام فيه مساكن الطبقات الغنية الموسرة، وكبار وجال الدين.

٤- وجود منطقة تضم الأحياء السكنية التي تتميز بالاستقلال النسبي لكل حي من هذه الأحياء، أو لكل مجموعة من الأحياء معاً..

٥- وجود ما يمكن تسميته بالضواحي أو الأحياء الخارجية، حيث يقيم الوافدون الجدد الذين لم يستقروا بعد، وكثيراً ما كانت توجد في حلب مناطق للقوافل التجارية على أطرافها، وعلى طول الطرق التجارية الرئيسية، كما أن المدافن كانت تقام خارج أسوار المدينة..

لقد امتازت مدينة حلب في تاريخها العربي الإسلامي، بشكل عام بحياة اجتماعية وثقافية وفكرية ودينية واقتصادية متعددة الألوان، واسعة النشاط، ومتباينة المؤسسات والمنشآت، مما أضفى على حياتها وناسها قدراً كبيراً من الحيوية والحركة والازدهار والتقدم، مما لا نجد له مقاربة في بقية أنحاء العالم الإسلامي..

لذلك ليس غريباً أن يقول عنها المستشرق الفرنسي الكبير،« جان سوفاجيه» الذي عاش حلم حلب، وكتب عنها أطروحة الدكتوراه، التي بحث فيها عن تاريخها منذ القرن العشرين قبل الميلاد، وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وسجل فيها تطورها حقبة حقبة، منذ كانت تجمعاً سكانياً متواضعاً، حتى توسعها شرقاً

في العهدين السلوقي والروماني، ثم شرقاً وشمالاً وجنوباً وغرباً في العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية.. لقد قال: «قلّ أن تجد في الشرق مدينة تضارع حلب فيما تحتوي عليه من آثار إسلامية تعين على دراسة تاريخ العمارة الإسلامية».



هذه الأسباب والعوامل والخصوصيات الفريدة التي اجتمعت في مدينة حلب، كانت من الأمور التي دفعتني والوفد السوري المشارك في مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في العالم الإسلامي، (المؤتمر الثالث) الذي عقد في الدوحة، عاصمة دولة قطر، عام ٢٠٠٢م، عندما عرض مشروع العواصم الثقافية الإسلامية، في كتابة مذكرة لتكون حلب عاصمة الثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦م، ولقيت الفكرة الترحيب الكامل من أعضاء الوفود المشاركة، وتم إقرارها في المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة، الذي عقد في مدينة الجزائر في أواخر عام ٢٠٠٤م.

يرمي هذا المشروع الضخم إلى تمكين مدينة حلب من تنفيذ جملة من الأنشطة الثقافية والفنية المتميزة لدعم الإبداع والتحفيز على النتاج الفكري وبعث المؤسسات الثقافية المرجعية واعتماد برنامج احتفالي طيلة سنة كاملة، يتسم بشموليته مجالات العمل الثقافي كافة، ومشاركة مختلف الأطراف (قطاع عام- خاص- مؤسسات- شركات.. أفراد) في تصوره وصياغته وإنجازه والحرص على الارتقاء بمضامينه لتتجاوز السائد والمتعارف من أجل تعزيز الوعي بأهداف العقد الإسلامي للتنمية الثقافية، ولاسيما هدف الحوار بين الثقافات، كما يرمي هذا المشروع إلى إحياء ثقافة المدينة المختارة كعاصمة ثقافية إسلامية، وإبراز مساهمتها على المستوى العربي وفي إثراء الحضارة الإنسانية..

اختيار حلب عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦م، أكسبها جملة من الأبعاد نذكر أهمها:

– تنشيط المبادرات الخلاقة، وتثمين الرصيد الثقافي والمخزون الحضاري من خلال تنظيم تظاهرات ثقافية متنوعة حول محاور يتم اختيارها (مهرجانات- مسرح- سينما- معارض- فنون تشكيلية- صناعات تقليدية- ندوات- مؤتمرات..).

– التعريف بالدور الموكول بالثقافة، وبالبعد الثقافي للتنمية، وتأثير الثقافة في تطوير المجتمعات، وفي تحسين نوعية حياة السكان.

– الحرص على مساهمة الأنشطة المنظمة في تطوير التجارب الثقافية وتوسيع دائرة الانتفاع بها، إلى جانب تعبئة مختلف الأطراف بأهمية الترابط بين القطاع الثقافي وبقية القطاعات.

– السعي إلى إبراز الطاقات الإبداعية وقدرات التجديد وتنويع حقول وفضاءات العمل الثقافي، وتنفيذ مشاريع تخدم التنمية الثقافية بمختلف أبعادها.

– الانفتاح على ثقافات وحضارات الشعوب وخدمة قيم التفاهم والتآخي والسلم بين الشعوب ونبذ التطرف والانغلاق ودعم التعاون، وتعميق الحوار الثقافي، والاندماج في سياق العصر، من منطلق أن أحسن وسيلة لتحقيق مناعة الفرد، تتمثل في دفع قوى الإبداع لديه، وأن النجاح في تغيير الواقع يبقى رهين تحرير ملكة العقل والإبداع.



الهوامش

١- سئل بعض السلف عن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فقال: كان ديّان هذه الأمة بعد نبيّها، أي قاضيها وحاكمها، والمدينة هي المكان الذي يتوافر فيه العدل.

نحن أدرى بشعابها؟!

كنت مؤخراً طرفاً في ندوة ثقافية تلفزيونية، كان موضوعها حول «تهريب الآثار وتغريبها» وكان «معاكسي» في الطرف الآخر الصديق الباحث والمفكر المصري أحمد عثمان، الذي يعيش في بريطانيا منذ سنوات طويلة، ويساهم في الأبحاث والدراسات الأثرية والتراثية بدأب ونشاط وحيوية، أحسده عليها، ولكنني أخالفه الرأي في موضوع الحفاظ على آثارنا والتعريف بها، فهو يرى أننا لا نقدّر ما لدينا من كنوز رائعة، ولا نعرف قيمتها ولا نمتلك رؤية حقيقية ومنظّمة تجاه ما لدينا من مكتشفات لا تقدر بثمن، وأن الأجنبي هو الأقدر على حمايتها ودراستها وعرضها في متاحفه وقصوره وأوابده..

أعترف بأن بداية الاهتمام بآثارنا كانت عن طريق البعثات الآثرية الفرنسية، والألمانية والإنكليزية والإيطالية، ولكن مع مرور الزمن وانتشار الوعي وصدور قوانين الآثار وتنشيط الروح في النزعة القومية العربية بدأنا نعي أهمية ما لدينا، فكانت متاحف جديدة في أكثر المدن والمناطق، وأصبح لدينا مجموعة من الباحثين والمختصين المرموقين الذين أثبتوا قدرات، وقدموا كشوفات وأبحاث ونتائج ملموسة في عملهم –على الرغم- من الظروف الصعبة التي رافقت مراحل حياتهم العملية مثل: ضعف الكادر المرافق لهم، وقلّة الاعتمادات المالية، وبدائية التقنيات التي استخدموها في حفرياتهم وأبحاثهم..

الفرق بين الباحث الأجنبي والباحث العربي، شاسع وكبير فالباحث الأجنبي

يأتينا بثقة وعلم واعتمادات وتقنيات متطورة، تكون نتيجتها أبحاث ودراسات ومكتشفات ينشر عنها الكتب وتعبّر عنها الأفلام الوثائقية والمعارض العديدة، وعلماء الآثار عندنا يعملون بإمكانات متواضعة جداً، ويستخرجون الآثار التي يكون مصيرها المخازن ولا ينشر عنها إلا النزر اليسير وبشكل غير علمي.. صحيح أصبح لدينا عشرات بل مئات الأثريين والمساعدين المتخرجين من المعهد المتوسط للآثار أو قسم الآثار أو قسم التاريخ، ولكنهم –بكل أسف– دون عمل ودون خبرة ميدانية؟!.



نحن نتفاخر كثيراً بالتاريخ والحضارة والتراث، لكننا في الواقع ما زلنا نفتقد إلى الاهتمام والرعاية اللائقة بهذا الموروث الحضاري والثقافي الضخم.. لذلك ليس غريباً أن نسمع أصواتاً مثل الباحث أحمد عثمان وغيره تقول وبصراحة مؤلمة أن الآثار التي بين أيدينا لا نعرف قيمتها ولا أهميتها ولا صيانتها، وهي تراث إنساني عالمي لا يجب التفريط به أو التهاون في ترميمه وحفظه للأجيال القادمة، شواهد حيّة على حضارات رائعة أينعت وازدهرت على أرضنا العربية منذ آلاف السنين.

لاشك بأن تقدم البحث العلمي وتطور الدراسات والمناهج والأدوات التي رافقت علم الآثار في السنوات القليلة الماضية، ساعدت كثيراً في تغيير النظرة وتطور العمل الأثري، ولكن هذا لا يقلّل من أهمية طرح الموضوع وضرورة دعمه وإيلائه الاهتمام الكبير ليكون العمل على مستوى الطموح والآمال المعقودة، والأحلام المنشودة التي يجب أن تقودنا إلى ما نصبو إليه من رؤى وآفاق واسعة المدى، لوضع سورية على خارطة الدول السياحية الكبرى في حوض البحر المتوسط، وأعتقد أن هذه الرؤى مشروعة وواقعية إذا عرفنا جيداً قيمة وأهمية ما لدينا من تراث حضاري غني وآثار تشكّل سلسلة متواصلة الحلقات –دون انقطاع– لحضارة الإنسان منذ مليون سنة وحتى وقتنا الراهن.. صحيح أن الأجانب من علماء الآثار كان لهم فضل السبق

والتفوق، لكننا الآن، أصبح لدينا القدرة على الإضافة والتعديل وإعادة النظر وفق شمولية الباحث ورؤية من يمتلك الحقيقة والعلم والمعرفة.



إن الاكتشافات الأثرية التي تحققت في سورية خلال مسيرة عمل عمرها أكثر من /٧٥/ عاماً، بدءاً من اكتشافات أوغاريت (رأس الشمرا) وماري (تل الحريري) ومسكنة (إيمار) وتل ليلان وترقا وإبلا (تل مرديخ) ودمشق وحلب وعين دارا وبصرى وشهبا ومواقع عصور ما قبل التاريخ المدهشة والفريدة من نوعها في العالم التي دعت علماء الآثار والتاريخ القديم إلى إعادة كتابة تاريخ العالم القديم وإلى تصحيح الأخطاء المتوارثة الشائعة عن هذا التاريخ.

علماء الآثار في بحثهم عن منطقة الثورة الحضارية التي نقلت الإنسان من عبد للطبيعة إلى سيّد لها، تكهنوا بأن هذه الثورة قد حدثت وأخذت أبعادها ومناهج تطورها وازدهارها في مكان ما من بقاع المشرق القديم.. وكم كانت الدهشة عظيمة ورائعة عندما اكتشفوا أن ما تكهن به عالم عصور ما قبل التاريخ الشهير «تشايلد» ورسم صورته وأبعاده وآفاقه قد تحقق على أرض سورية منذ أكثر من مليون سنة، التي أينعت فوقها ابتكارات متنوعة كان لها الأثر الأكبر في مسيرة الحضارة والتطور البشري، وقد وفّرت هذه المنطقة من العالم كل مقومات عيش واستمرار الإنسان، وقد وجدت آثاره في كل مكان تقريباً، وخاصة في وديان الأنهار وعلى شواطئ البحار والبحيرات.

لقد قدم إلى سورية باحثون وعلماء من جامعات ومراكز بحث ومؤسسات علمية عديدة معروفة في العالم، ونقبوا في عشرات المواقع وجمعوا آلاف القطع الأثرية التي ملأت متاحف دمشق وحلب ودير الزور واللاذقية وحمص وحماه وغيرها، والتي

ساعدت دراستها على الإحاطة بالإطار العام الشامل لحياة الإنسان في سورية سواء من جوانبها المادية والروحية..

لقد شذب هذا الإنسان حجر الصوان وقام بصقله وتحديبه وتحويله إلى أداة نافعة قادرة على تقطيع طعامه والدفاع عنه، وقام بصناعة الحجر من التراب (الطين المدكوك والطوب المسكوب)، وهجر الكهوف والمغاور وأقام بيته في العراء لأول مرة، ونجح بتأهيل الدواب والحيوانات وجعلها داخل زرائب وحظائر، بعد أن كانت هائمة في الطبيعة والبراري..



في «تل المريبط» من الجزيرة السورية، أزاح علماء الآثار الستار عن المسرح الذي حدثت في أرجائه «الثورة الزراعية» الأولى في تاريخ حضارة الإنسان.. لقد كان ذلك في الألف التاسع قبل الميلاد، ففي هذا الموقع الذي غمرته مياه سد الفرات نشأت أول قرية، وشيّد الإنسان أول منزل، وكان إنسان هذا الموقع أوّل من نثر البذار، وأوّل من صنع من الطين للأم الحنون تمثالاً، وأوّل من احترم الآباء والأجداد وذلك بشهادة الجماجم المعروضة فوق المصاطب في قلب كل منزل من منازل «تل المريبط».. وتوالت المكتشفات المماثلة والمكمّلة للحدث في «تل الشيخ حسن» و«تل بقرص» و«تل أبو هريرة» و«تل أسود» و«الكوم» وغيرها..

كان الخطأ الشائع والاعتقاد السائد في الأوساط العالمية، وفي مختلف الأدبيات التاريخية والأثرية، أن سورية لم يكن لها تاريخ في الألف الثالث قبل الميلاد، وأن تاريخ الشرق القديم يدور في فلك قطبي الحضارة في وادي النيل ووادي الرافدين، فجاءت مكتشفات إبلا «تل مرديخ» لتضع العالم أمام قطب جديد لا يقل أهمية عن سابقيه جعلت العلماء يعيدون النظر في مجمل معلوماتهم القديمة عن «ممالك المدن» في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد.

وظهرت في مواقع كثيرة من الفرات الأوسط في الجزيرة السورية، بواكير خط المدن، وكان موقع ترقا (تل العشارة) بمثابة مدينة متكاملة نشأت وتطورت فوق هذا التل، مثلها في ذلك مثل مدينة أثينا التي قامت كمدينة متكاملة فوق جبل زيوس، وكانت مملكة ماري «تل الحريري» الواقعة على بعد /٦٠/كم إلى الجنوب من ترقا، تسيطر على منطقتي الفرات وحوض الخابور منذ نحو /٢٤٠٠/ ق.م حتى دمارها على يد الملك حمورابي البابلي سنة (١٧٦٠) ق.م، وما من شك أن ترقا كانت تحت سيطرة «ماري» خلال هذه الفترة، حيث كانت في منتصف الألف الثالث ق.م عاصمة لولاية من ولايات ماري، ومن الحقائق المعروفة أن «ترقا» ظلت مركزاً دينياً للإله «دجن» في منطقة الفرات الأوسط حتى أثناء الفترة التي كانت ماري في أوجها..

علم الآثار في سورية أثبت أن النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، هو الفترة التي نشأ فيها التفاعل بين سورية والعالم الإيجي، وقد بدأت هذه المرحلة في التطور والازدهار منذ العصر البرونزي الوسيط، ووصلت إلى الذروة في العصر البرونزي الحديث، ولعبت مملكة أوغاريت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد مركز الثقل في هذا التفاعل، وقد وصل النحاس القبرصي إلى مناطق الفرات حيث التقى بالنحاس المستورد من الخليج العربي، وظهرت مملكة يمحاض (حلب) لتلعب دورها المميز في هذا المجال، وازداد طلب مصر على المصنوعات المستوردة من سورية والعالم الإيجي، ولعبت أوغاريت دور الوسيط التجاري.

وفي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، ازداد استخدام الطريق الذي يقطع بادية الشام مروراً بمدينة تدمر، حيث اختصر هذا الطريق المسافة بين بلاد ما بين النهرين والساحل السوري اختصاراً كبيراً..



هذه المعلومات التي هي غيض من فيض، لم تكن معروفة قبل عقود قليلة من الزمن، وبفضل المكتشفات الأثرية التي قام بها علماء أجانب وعرب، استطاع المؤرخون تسجيل التجربة الإنسانية في سورية العربية بكل أبعادها ومضامينها وأهدافها وغاياتها النبيلة السامية.. لقد أعطت سورية، باعتراف علماء الآثار والتاريخ الأجانب للعالم معارف وعلوم وفنون وآداب عديدة، كانت بمثابة حجر أساس الحضارة الإنسانية منذ آلاف السنين.. في هذا المجال يقول «فيليب حتي»: تحتل سورية مكانة فريدة في تاريخ العالم، وقد كان فضلها على رقي البشرية من الناحيتين الفكرية والروحية أجلّ شأناً من فضل أي بلد آخر.

اليونانيون نقلوا موروثهم الفكري والثقافي والأدبي والفلسفي عن سكان سورية، ثم أعطوا هذا الإرث إلى الرومان وبالتالي إلى شعوب أوروبة الحديثة، لذلك ليس غريباً أن يقول الشاعر الروماني جوفينال (٦٠-١٣٠) ميلادي: «إن نهر العاصي أصبح يصبّ في نهر التيبر منذ أمد بعيد، حاملاً معه لغة سورية وتقاليدها وثقافتها».

مع كل ما ذكرت –بكل أسف- هناك أقلام عربية وأجنبية تحاول بكل السبل الإساءة إلى هذا الموروث الثقافي والعلمي والأدبي والفني، وتحاول التهوين من شأنه وإسقاطه من الهوية العربية، وقطعه عن ماضي الأمة، والتشكيك في المنجز الحضاري الذي صنعه وأبدعه الإنسان العربي عبر العصور والعهود القديمة الموغلة في القدم.

في سورية ومنذ سنوات عديدة، لا تأخذ بعين الاعتبار الكشف عن الآثار المهمة فقط، بل دراسة مجمل الواقع البيئوي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي للمجتمعات القديمة التي عاشت فوق أرضها بسلام ومحبة وتسامح وإخاء بعيداً عن التعصّب والعنصرية والتفرقة، وقد أدى قيام الهيئات العلمية إلى الحفاظ على

التراث العربي وصيانته، وتحقيق الفائدة العلمية والسياسية والثقافية والسياحية، مما قاد إلى رفع الأذى عن ثرواتنا الأثرية التي هي ملك أجيالنا كلها، وهي رصيدنا الثقافي والفني الكبير، وأعتقد جازماً أن هذا الفعل هو أفضل رد على من يحاول التشكيك في قدرتنا ومعرفتنا بأهمية آثارنا وكنوزنا المتحفية والتراثية، وما إسهامنا في الدراسة والبحث والتنقيب والترميم والصيانة إلا بداية تكوين حقيقية لعلم آثار عربي له مناهجه وأهدافه الواضحة، الذي من خلال تطويره يمكننا الرد بعلمية وموضوعية على العديد من الأسئلة المتعلقة بالإنسان العربي وحضارته وثقافته وتفكيره ودوره الكبير في تطور المعارف والعلوم والإبداعات البشرية.



تاريخ في رجل

كان المؤرخ العربي الكبير الدكتور نقولا زيادة، الذي رحل عن عالمنا يوم ٢٧ تموز ٢٠٠٦، يمنّي النفس أن يحتفل مع أصدقائه وأحبته بعيد ميلاده المئة في دمشق مسقط رأسه، ولكن ويلات الحرب المتوحشة، وهمجية إسرائيل في القتل والتدمير وتقطيع الأوصال، التي شاهدها في أواخر أيام حياته الحافلة بالعطاء والحب، جعلته يسقط قبل بلوغه، مثل أبطال الأساطير الإغريقية والأوغاريتية.. إنه تعب الأيام وتعب ما شاهد ورصد وكتب.. لقد رحل في لجّة الحقد الصهيوني الهمجي وفي قمة صمود المقاومة اللبنانية الباسلة..

ولد نقولا زيادة في الثاني من كانون الأول عام ١٩٠٢م، في حي باب المصّلى، أحد أحياء منطقة الميدان في دمشق، فهو والحال هذه دمشقي المولد، وكان والده يعمل في سكة حديد الحجاز، ولكنه رحل سنة ١٩١٥، أثناء الحرب العالمية الأولى، فاضطرت والدته الفلسطينية المولد إلى العودة به وبأخيه إلى فلسطين، ثم ذهب إلى بيروت للدراسة، وقد وسعت حياته كل هذه التقاطعات، ووسعتها أيضاً مؤلفاته وكتاباته التي توزعت على التاريخ القديم والحديث، وصار لاحقاً أحد أهم المؤرخين وأساتذة التاريخ في الوطن العربي، بعدما حاز «الدكتوراه» مع مرتبة الشرف من جامعة لندن سنة ١٩٥٠ على أطروحته التي حملت عنوان «تاريخ مدن سورية بين ١٢٠٠و ١٤٠٠م» وساهم مساهمة كبيرة وفعّالة في بلوّرة الفكرة القومية والوطنية،

وأنجز قائمة طويلة من المؤلفات التاريخية الرائعة التي حفلت بأخبار المدن القديمة والحديثة، ورجال الفكر والأدب والسياسة، وكان لمدينة دمشق فيها مكانة مميزة ومكان رحب، مع أنه لم يعش فيها إلا طفولته المبكرة، وكان حينما يتكلم عنها في كتاباته، يتكلم بسلطان الشعر والعاطفة لا بسلطان التاريخ وعين المؤرخ، فجاءت كتاباته –كما يقول –صخر أبو فخر– أنشودة حب وقصيدة وفاء لهذه المدينة العابقة بالتاريخ وسحر الماضي وشواهد السنين..



التقيت نقولا زيادة، مرات عديدة، في ندوات ومؤتمرات ثقافية وتاريخية، فقد كان (رحمه الله) يحرص على المشاركة والتواجد في المؤتمرات التي أقيمت في المحافظات عن تاريخها وآثارها ونتائج الدراسات والأبحاث عنها، وكنت في كل مرة ألتقيه أجده لا يقل خصوبة وحيوية وألقاً عن المرة السابقة..إنه نموذج للممانعة.. كان سعيداً بشيخوخته سعادته بشبابه، وكان حساساً لزمنه ولعصره مهما كان هذا العصر.. ذاكرته المدهشة بقيت حيّة بيومياتها وتفاصيلها على امتداد قرن عربي طويل، يعج بالأحداث الكبرى.. لقد كانت ذاكرته تعمل دون كلل ودون نسيان، ودون تفويت لأي تفصيل في الحياة اليومية، تسجل الأرقام والأيام والسنوات، وتستحضرها في أي لحظة من لحظات المجالس والكتابة، صوراً ومشاهد لا أحلى ولا أجمل..

نقولا زيادة كان من الرجال القلائل الذين يجيدون استحضار التاريخ ورجالاته سرداً وحكاية ومؤانسة، وهذا لم يأت من فراغ أو هواية، بل نتيجة لجهد واسع وكثيف ودائم في البحث التاريخي، قراءة وترجمة وتأليفاً.

يصفه تلميذه الدكتور وجيه كوثراني: «كان مؤرخاً موسوعياً لأزمنة وأمكنة متعددة ومتنوعة، ، بقدر ما كان صاحب ذاكرة حيّة غطت قرناً عربياً كاملاً من الأحداث والوقائع».

مؤلفاته التي تضم نحو اثنين وثلاثين كتاباً، تدل بقوة وعمق على اتساع ميادين المعرفة لديه، وكان يقول عنه الأديب عبده وازن: «عمله في حقل التاريخ، عمل أديب يهوى اللغة وجمالياتها، وعمل أكاديمي، ذي منهج علمي، متين وواضح، ولذلك كانت قراءة كتبه محفوفة بالمتعة الأدبية التي لم تؤثر سلباً على منهجيته ورصانته العلمية».

لم يكن نقولا زيادة، مجرد مؤرخ، بل كان واحداً من الذين صنعوا «علم التاريخ» مرتكزاً على منهجه الأكاديمي وثقافته الشاسعة، الضاربة في أديم المعرفة الشاملة.. لقد أعطاه الله عمراً مديداً، فأمضاه في العطاء والفرح وحب الناس واكتساب المعرفة.



في كتاباته وفي فكره ورؤاه، كان نقولا زيادة يدعو إلى القومية العربية، وقد سئل مرة: كيف تدعو إلى القومية العربية وإلى التاريخ العربي، وهو تاريخ إسلامي؟ فقال: الحل ليس بسيطاً، ولكنه ممكن، إذا تذكرت أن هؤلاء الذين قاموا بالفتوحات والأعمال العلمية الكبيرة في الحضارة العربية والتاريخ العربي، كانوا يتكلمون اللغة العربية.. لم يكتب أي عالم مسلم شيئاً إلا باللغة العربية.. في إيران، وفي سواها، كانت كتابات العلماء باللغة العربية، وكانت هناك كتابات أدبية باللغات الأخرى، لكن اللغة العربية هي التي سيطرت.. طالما أنهم استخدموا اللغة العربية فإن تفكيرهم عربي في جوهره وفي إطاره.. قد يكون إسلامياً في جوهره عندما كانوا يتحدثون عن الإسلام، لكن ابن سينا عندما كان يكتب في الطب والفلسفة، فإنه لم يكن يفكّر إسلامياً، كان يفكر باللغة التي يكتب بها..

في كتاباته وفي دراساته كان نقولا زيادة يبحث عن القمم في الفكر العربي الإسلامي على مدى عصور الازدهار في تاريخ العرب والإسلام، وهو تاريخ طويل، وفضلاً عن طوله فقد كان مليئاً بالعمل النافع والعلم الصحيح والبحث الدقيق

ولعله لم تتح لأمة من الأمم التي سبقت العرب في الوجود التاريخي ما أتيح للعرب والمسلمين من حيث عدد هذه القمم الشامخة.

لقد كتب عن أولئك العلماء الذين تأثر بهم شخصياً، إمّا لقوة الشخصية، أو لنفاذ التفكير، أو للإحاطة العجيبة بالقضايا المطروحة، فكانت دراساته ومقالاته العديدة عن هذه القمم مثل، الكندي الذي كان أثره كبيراً في حمل العرب على الاهتمام بالعلوم الفلسفية، حيث كان صاحب منهج تأثر به الذين جاؤوا بعده، وكان عظيم العناية بالمنطق، وكان الرازي من العلماء الذين ساعدوا على خلق العلم العربي الإسلامي وإعطائه شخصية مميزة، وكان ابن سينا فيلسوف الأطباء، والطبري كان قمة من قمم الفكر العربي الإسلامي الشوامخ، فهو مؤسس علم التاريخ، وواضع الكتاب الرئيسي في التفسير..



نقولا زيادة لم يكن من المؤرخين والأدباء «الكلاسيكيين» أتذكره، في ندوة عقدت في الإمارات العربية المتحدة سنة /٢٠٠٠/ كيف جلس في هدوء وتواضع وحسن استماع إلى باحث شاب يتحدث بانفعال عن حرب «داحس والغبراء» التي دامت أربعين سنة، وكان القتال فيها يتوقف ثم يعود، ويصف هذه الحرب بأنها «ملحمة كبرى» وعندما انتهى من حديثه، قال له بهدوء: هل صدقت نفسك أن هذه الحرب، مع أنها دامت أربعين سنة، على ما روى الرواة كانت ملحمة؟

غضب الباحث الشاب، واتهم أستاذنا الجليل بالعنصرية والجهل، وقال: أنت لا تفهم تاريخ العرب، ولا تفهم الأدب العربي والفكر العربي، وأنت بعيد عن العروبة..

وكان جواب راحلنا بهدوء وقوة: أنت كاذب في كل ما قلته.. أنا عربي، وأنا قومي عربي، وأنا أفهم التاريخ العربي والأدب العربي والفكر العربي على قدر يمكنني فيه أن أحكم على الأشياء.. وثمة من يتنطح فيقول إن قصة «الزير سالم» و «الملك سيف

ابن ذي يزن» وقصة عنترة، هي ملاحم أيضاً، وهذا كلام لا يثبت أمام البرهان، إذ إن في الحالات كلها التي ذكرت، والتي ثمة ما يشبهها مثل: تغريبة بني هلال وغير ذلك، ليست ملحمة هي قصة رجل يتجه اتجاهاً معيناً ليصل إلى غرض من أغراضه، ويتحدث واضع القصة عن هذا الرجل متابعاً إيَّاه في حربه وفي سلمه، في انتصاره وفي انكساره أحياناً حتى ينتهي الأمر به أنه بطل كبير..

الملحمة لا تنشأ إلا في جو كثير التقلّب. كثير التنوّع، كثير الحركة.. العرب عاشوا في الصحراء الواسعة، (أنا أتكلم عن عرب الجزيرة العربية الذين أنتجوا الأدب العربي الكلاسيكي شعراً وخطباً) وعاشوا في هذه الأرض الصحراوية الواسعة، فكيف يمكنهم أن يكتبوا مثل قصة «جلجامش» التي كتبت في بلاد الرافدين في الألف الثالث قبل الميلاد.. كل ما هناك كانت ثمة حرب هنا وهناك بين قبائل وعشائر، وكان ثمة في هذه الصحراء الواسعة، شيء كان الناس يحسبونه نوعاً من صوت السماء هو الجن، ولذلك كل ما أشار إليه العرب في أشعارهم كان نوعاً من قصص الجن، وحركات الجن واحتمالات مسيرة الجن، فالحرب والقتال والقوافل والجفاف وشح المطر والصحراء الواسعة لا يمكن أن تنتج ملحمة..

ولكنني أقول: ألم يكفينا ما أتيناه وجنيناه وقدمناه للعالم من حضارة، فكراً وفلسفة وأدباً وعلماً؟! هل من الضروري أن تكون عندنا ملاحم حتى تتم أمورنا؟! للعرب أفضال كافية كي تجعلهم بين الأقوام التي أنشأت جزءاً كبيراً من حضارة العالم بأكمله..

هكذا كان نقولا زيادة يعالج أمور الفكر والحضارة والأدب والتاريخ في كتاباته ودراساته التاريخية الممتعة.



نقولا زيادة كتب كثيراً عن سورية وتاريخها ومدنها وأعلامها وآثارها في مؤلفات: لمحات عن تاريخ العرب، الرحالة العرب، روّاد الشرق العربي في العصور

الوسطى، عالم العرب، أبعاد الثورة العربية الكبرى، العروبة في ميزان القومية، قصة الاستعمار في العالم العربي، دراسات في التاريخ (شاميات). دراسات في الحضارة والتاريخ -مشرقيات، المسيحية والعرب..

في كل ما كتب، كان يحرص أشد الحرص على التأكيد أن المدينة ظهرت، أول ما ظهرت في ربوع هذه المنطقة، فيها وضعت اللبنات الأولى للمدينة الإنسانية، من حيث تنظيم الدولة واستثمار الأرض وتنويع محصولاتها وتوزيع المياه فيها ووضع نظام للكتابة وبناء المدن، بما فيها من هياكل وقصور ومنازل ودور وصناعة الأشياء، وتبادل المتاجر والسلع، وتنظيم القوافل وما ينسى أو يستهان به عندما نأخذ بتعداد الشؤون المدنية والتمدنية.

وقد كان يحسب قبل ثلاثة عقود من الزمان، أن سورية لم تكن سوى قنطرة عبر عليها متمدنو أرض الرافدين، ومتحضرو وادي النيل -فاتحين وتجاراً ورحالة- فخلفوا فيها من آثار مدينتهم ما أحيا فيها الزرع والضرع، وحمل الناس على الصناعة وبناء المدن وتنظيم شؤون الدولة، واقتباس أنماط ونماذج الكتابة، ولكن الرفش والمعول اللذين نشطا نشاطاً يكاد يكون منقطع النظير في بلاد الشام، أظهرا أن هذه الرقعة كانت لها من الأصل مشاركات أصلية، وإسهامات أساسية في وضع أسس المدينة والحضارة في بواكيرها الأولى..

نقولا زيادة، من الصعب جداً أن نعتاد غيابك في مؤتمراتنا وندواتنا، وحسبك أنك أعطيت بكل قوة وحيوية حتى الرمق الأخير، وكنت دائماً متماسكاً مشرقاً توّاقاً إلى الجمال والمعرفة.. كنت في صميم ثقافتنا العربية، وستبقى المعلّم والمنارة التي نهتدي بها..



الإدارة العربية وتحديات التنمية

بدعوة من جامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتنمية الإدارية، عقد في مدينة الدار البيضاء (المملكة المغربية) بين ٢٧و٣١ آب ٢٠٠٦، المؤتمر العلمي السابع للإبداع والتجديد في الإدارة العربية وتحديات أهداف التنمية للألفية الثالثة، وكان لي شرف تمثيل سورية في هذا المؤتمر بتكليف من الأستاذ الدكتور رياض نعسان آغا، وزير الثقافة.

أهمية المؤتمر تكمن في المشاركة الفعالة والجيدة لنخبة من كبار الباحثين والمختصين الذين قدموا محاضرات ومداخلات في موضوع تحديات التنمية الإدارية التي تشكّل بعداً أساسياً من أبعاد التنمية الشاملة التي تنشدها أقطار وطننا العربي، وتسليط الضوء على مدى حاجة التنمية في بلداننا لإقامة وتحقيق النهضة وبلورة إرادة تغيير واضحة، ووضع رؤية عربية استراتيجية لطرح مشروع جدّي للتنمية الإنسانية..

دور الحكومات والدول في تنظيم الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية، كان من الموضوعات التي احتلت حيّزاً كبيراً من مناقشات المؤتمر، ففي ضوء التحولات والمتغيرات العالمية التي حدثت في السنوات القليلة الماضية، فإن الضرورة ملحّة لإبراز دور الحكومة، وتطوير وتأهيل قدراتها العملية والعلميّة، وإقامة البنية الأساسية وتنمية الموارد الاقتصادية وترشيد عمليات استخدامها، والانتقال من حكومة النخبة إلى حكومة المجتمع..

وتشكل التنمية الثقافية عملية جوهرية في المجتمع العربي، فهي تؤدي إلى تحديث لثقافة الأمة، وتضمن استدامة لمكونات تطورها واستيعابها لمتطلبات العصر، والتفاعل معها في حركة دائمة متجددة، وهذا لن يتم إلا من خلال الخطوات التالية:

- التخلّص من الازدواجية الثقافية، فهناك ثقافة الأغلبية الساحقة التي تتعرض لأشكال متنوعة من محاولات التفكيك والتشريد والتدمير، وثقافة مجتمع النخبة التي تقود عملية التحديث الغربية في المجال الثقافي.. والحسم في هذه القضية يجب أن يتم لصالح الثقافة التي تجسّد التواصل الحضاري، وتحافظ على الهوية العربية.

- تجديد مكونات التواصل الثقافي، وهذا لا يعني الانتقائية التوفيقية بين مكونات الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية على أساس أن التقدم الإنساني يتم خلال تمازج الحضارات وتلاقح الثقافات، بل عن طريق تطوير الواقع الثقافي العربي، بما يتأقلم مع متغيرات العصر والخصوصية الثقافية العربية، بغية الوصول إلى النموذج الثقافي البديل وليس النموذج الثقافي المختلط الهجين..



التجديد في الإدارة العربية، يعني أيضاً التجديد في المنظومة اللغوية، حيث تعد اللغة القاعدة الكبرى للإنتاج الثقافي، ولا نتوقع حدوث تطور ثقافي يقوم على تعميم استعمال اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية، ونحن نشهد أخطر عمليات الهيمنة الثقافية، انطلاقاً من توسيع مناطق استعمال لغات الدولة الغربية المتقدمة على حساب حصار مجالات استعمال وتطبيق لغة التواصل الحضاري في الوطن العربي، والمدخل المهم للتغيير الثقافي الإيجابي، هو إعادة الاعتبار للّغة العربية في ميادين الدراسة والبحث والعلم والثقافة والفنون، ويتوازى ذلك مع الانفتاح على اللغات العالمية الأخرى.

التجديد في الإدارة العربية، يتطلب أيضاً التجديد في منظومة الأفكار داخل المجتمع مما يعيد الاعتبار للقوانين والتشريعات والمؤسسات والسياسات التي تساهم في بناء منظومة مرتبطة بتطور المجتمع وتمايزه، والتخلّص من الصراع الناتج عن استهلاك المنتجات الفكرية الغربية بمصطلحاتها ومفاهيمها.

التجديد في الإدارة العربية، يعني أيضاً، التجديد في منظومة العلوم التي نجدها في المجتمع العربي، عاجزة عن القيام بدورها لأسباب عديدة، من بينها عدم القدرة على مواكبة التطورات المعرفية والاستفادة منها في معالجة المشكلات المجتمعية المتنامية، مما يترتب القيام بتغيرات كبرى في برامجها ومؤسساتها وهيكليتها، مع إعادة الاعتبار للطاقات البشرية المؤهلة لتقوم بدورها الفعال في عملية البناء والتطور، كخطوة كبيرة في طريق بناء الوطن وتحديث بنيانه.

المنطلق سيكون من التعلّم وتطوير الموارد البشرية وتهيئة الإنسان المطوّر والمعدل فكرياً وجسدياً.. لذلك جرى التركيز في المؤتمر على مفهوم التعلّم وليس التعليم، لأن التعليم يحدث عادة في المدارس والجامعات برغبة الطالب في الحصول على شهادة تؤهله للعمل، أما التعلّم المطلوب فهو الذي يحدث في واقع العمل من خلال ممارسات وتجارب، ويكون الدور هنا للمتعلم وليس للمعلّم، لأن المتعلّم هو الأهم وهو الذي يريد تطوير نفسه، ومكان العمل الذي يعمل فيه..

تبدأ المرحلة الأولى بالتعلّم الجماعي، الذي يهدف على الانتقال بالأفراد من حالة الجمود والعمل الروتيني، إلى مرحلة الانتباه إلى أهمية التعلّم، وأهمية انتقال المعلومة من فرد إلى آخر، ومن قسم إلى آخر، وذلك من خلال دفع هؤلاء الأفراد إلى العمل بطرق جماعية مثل: فرق حل المشكلات، وفرق التحسين المستمر، والتي تحدث فيها مسألة التعلّم بشكل شبه تلقائي.

هذه المرحلة لا بد لها من أساليب ووسائل متعددة تشجع الفرد على العمل ضمن

فريق، وذلك من أجل إخراج الفرد من العزلة التي يعيشها، وحتى تتم عملية تبادل المعلومات بطريقة منظّمة بدلاً من انتقالها عبر دهاليز العمل أو في أوقات الراحة.

المرحلة الثانية: هي مرحلة التعلّم الذاتي، وهنا يكون الفرد قد عرف أهمية التعلّم واكتسب مهارة نقل المعلومة إلى غيره، أو أخذ المعلومة من غيره، وبالتالي فهو مهيَّأ للقيام بالبحث عن المعلومة من مصادر أخرى كي يضيفها إلى حصيلته العلمية ويقوم بدوره بنقلها إلى غيره من الأفراد..

المرحلة الثالثة: هي مرحلة التعليم المستمر، كوسيلة للتطوير الذاتي، لأن التدريب وحده ليس مهماً، وإنما نتائج التدريب، التي تعني تفعيل التعلّم باستخدام المعلومات الجديدة ونقلها إلى الغير وتدوينها وحفظها في مواقع يسهل الرجوع إليها..



مع تطور ثورة المعلومات والاتصالات الحديثة، كان لا بد في مؤتمر عن الإبداع والتجديد في الإدارة، من طرح موضوع «الحكومة الإلكترونية» التي تمثل تجاهاً جديداً في الإدارة المعاصرة، حيث أصبحت تسود العالم الآن حركة نشطة لاستثمار كل التقنيات الحديثة لنظم المعلومات والاتصالات المستحدثة في تطوير أعمال المؤسسات والهيئات العلمية والإدارية، وتحويلها إلى منظمات إلكترونية تستخدم الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) في إنجاز جميع أعمالها ومعاملاتها الإدارية، من تخطيط وتنظيم وتوجيه ورقابة، وهكذا أصبحت الحكومة الإلكترونية جزءاً أساسياً من واقع معاملات الحياة المعاصرة.

لقد تبلورت الثورة التكنولوجية في بدايات القرن الحادي والعشرين في ثلاثة مجالات رئيسية هي: تكنولوجيا المعلومات، وزيادة قدرة الإنسان على تخزين المعلومات وسرعة استعادتها وتحليلها واستخدامها في صناعة القرارات.. وتكنولوجيا خلق المواد الجديدة من الموارد الطبيعية أو المحدودة، التي ساعدت الإنسان على إجراء

توليفات مبتكرة تزيد من جودة نواتجها وتقلل من كلفتها.. والتكنولوجيا الحيوية التي يستخدمها العلماء لإحداث تغيرات محفزة على الشيفرة الجينية الحاملة للخصائص الوراثية بهدف الحصول على نواتج جديدة.

ومما لا شك فيه أن الثورة التقنية سوف تتعاظم إسقاطاتها الفكرية والثقافية والاجتماعية،وسوف تزداد تأثيراتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية على مختلف أرجاء العالم، وقد أصبحت المعلوماتية شريان الحياة الدافق الذي يزود القادة والإداريين ومتخذي القرارات ما يساعدهم على التشخيص والتحليل والتقويم والمتابعة، وصارت أنشطة المؤسسات والإدارات المعاصرة تعتمد على المعرفة والمعلوماتية، مما أدى إلى تغيّر العمليات والإجراءات والبنى التنظيمية والمهارات ومعايير الأداء وإلى ظهور مصطلحات حديثة مثل الإدارة الإلكترونية والحكومة الذكية والحكومة الإلكترونية، استجابة لتطور تقنية المعلومات والاتصالات، واستخدام الحاسب الآلي والشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت) وبدأت حكومات العالم تفكر في إحداث بيئة إلكترونية لتشغيل وإنجاز عملياتها المختلفة، وأصبحت الحكومة الإلكترونية تمثل تجاهاً جديداً في الإدارة المعاصرة.. هذا الاتجاه الذي يعيد تشكيل حكومة الدولة من جديد باستخدام أساليب مبتكرة لأداء الأعمال عن طريق تطويع التقنية وتسخيرها لتنفيذ مهام الأجهزة الحكومية بجودة عالية وتكلفة أقل ووقت أسرع..

الحكومة الإلكترونية ليست مجرد أتمتة المكاتب، وإنما هي تحوّل حقيقي في أسلوب عمل الإدارة العامة، وسلوكياتها تتطلب تعديلات أساسية في البناء الهيكلي لمؤسسات الدولة، ونظم عملها والتقنيات والأساليب المستخدمة والتشريعات اللازمة لضبط أدائها، وفي التفاعلات العامة في البيئة بين الحكومة والجمهور.

مشروع الحكومة الإلكترونية ضرورة حتمية ينبغي الشروع في تطبيقه، لأن

إدخال التقنية الرقمية في الأجهزة الحكومية أصبح خياراً استراتيجياً من أجل تطوير الحصول على الخدمات والمعلومات الحكومية، وتعامل المواطن مع الحكومة بشفافية، والتقليل من الوساطة والمحسوبية والفساد.



التجارب الناجحة في تطبيقات بعض الحكومات العربية، كانت محور نقاش في محاور المؤتمر، وقد أكدت على استنتاجات وتوصيات مهمة نذكر منها:

- مشاريع الحكومة الإلكترونية ليست عملية تكنولوجية بل عملية واسعة، وتعتمد في نجاحها على العنصر البشري وتكامله مع العناصر والمتطلبات الأخرى.

- تطبيقات الحكومة الإلكترونية لا تمثل الطريق المختصر للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي لا ينبغي النظر إليها كهدف نهائي، وإنما وسيلة مساعدة لتحقيق الأهداف التنموية.

- تتطلب تطبيقات الحكومة الإلكترونية إعادة هندسة العمليات وتحسينها وتبسيط إجراءات العمل ومراجعة الهياكل التنظيمية للإدارات مع التركيز على الأهداف والنتائج.

- عملية التأهيل والتدريب تحتاج إلى أساليب وآليات مختلفة أساسها سياسة تدريبية تعتمد على برامج الموظف الشامل، وتنمية الموارد البشرية، وبرنامج التعليم المستمر، ومراقبة نتائج الأداء.

- رؤية المدير أو المسؤول تحتاج إلى الرغبة الصادقة للتغيير وتحسين ظروف وحياة العاملين.

- لم تعد نظم وأساليب التعليم الحالية التي تنتهي بمرحلة أو شهادة صالحة لبناء نماذج للعملية التدريبية المستعملة في إطار التنمية والتحديث والتطور.

- الفجوة بين الطموح والأداء تظل دائماً دافعاً إلى التحسين المستمر، والتغيير أصبح الثابت الوحيد في خضم الحاضر والمستقبل.

- أصبح التدريب وتنمية الموارد البشرية، الشغل الشاغل في القرن الحالي، الذي وصف بـ «قرن الموارد البشرية».

- تحديات الألفية الثالثة تتمثل بثلاثة تحديات:

أ - التحدي الأول: الإنتاجية أو القدرة على خلق الثروة.

ب- التحدي الثاني: تحدي الجودة أو التطلع إلى إدارة الجودة.

ج- التحدي الثالث: تحدي الشراكة واعتماد ثقافة العمل المشترك.

- التنمية البشرية هي مقياس النجاح، فمن دون موارد بشرية مدربة لن تستطيع أي جهة تحقيق النجاح.

- أقصر طريق إلى إعادة إيقاد نار الخيال العربي الخامدة، وإطلاق القدرات العربية لصنع نهضة تضاهي ما صنعناه في الماضي، أن نعمل للمستقبل.. التحسّر طاقة سلبية يجب أن نحولها إلى طاقة إيجابية بالعمل واكتساب المهارات.

الدار البيضاء (27- 31 آب 2006)

موزارت طفل المعجزات

في السابع والعشرين من كانون الثاني / يناير ٢٠٠٦، أطفأ الموسيقار العالمي الخالد موزارت (١٧٥٦- ١٧٩١)م شمعاته الـ /٢٥٠/ وبدأت منذ ذلك اليوم الاحتفالات الأوروبية والعالمية، الضخمة التي سوف تستمر طيلة عام٢٠٠٦، وتوجت بكتب ودراسات وندوات ومؤتمرات وأسطوانات شاملة، عرّفت بموسيقاه ومكامن الإبداع والفرادة والروعة فيها..

الحديث عن موزارت يعني الحديث عن الحياة، نعم ياسيدي!! عندما سئل الفيلسوف الألماني الكبير «نيتشه» عنه قال: الموسيقا هي الحياة.. موزارت هو الحياة..»

وكان صادقاً ومعبرّاً أحد النقاد حين كتب عن هذا العبقري فقال: «كلما ازدادت عظام هذا العبقري تآكلاً وتفتتاً في مقبرة القديس ماركس في ڤيينا، ازدادت موسيقاه حياة وانتشاراً، وازداد تقدير البشرية لها، وازدادت هي جمالاً.. إنها معادلة علمية تخضع لقوانين الطبيعة وعلم الأحياء»..

الاحتفال بموزارت، يعني الاحتفال بروعة وعظمة أعماله الخالدة مثل: «الخطف من السرايا» و«زواج الفيجارو» و«دون جوان» و«الناي المسحور» و«سيمفونية براغ» والسيمفونيات الثلاث الأخيرة و«كونشرتوا لتتويج» وروعة افتتاحياته وغيرها من الأعمال التي يمكن من خلالها تحديد خصائص هذا العملاق العالمي، ويمكن القول

عنها بكل ثقة إنها تمتنع على أي تعريف، وتبين قدرته المصنوعة من رشاقة وطلاقة وأناقة لا حدود لها..

الدراسات التي رصدت أعمال موزارت الخالدة تقول: كان موزارت يلحّن كما يغنّي العصفور، والسرعة التي كتب بها في عمره القصير دون جهد، قدّاساته الخمسة عشر، وأعماله المئة من موسيقا الحجرة، وأعماله المسرحية العشرين، وسيمفونياته الثلاث والأربعين، وكونشرهاته الخمسين.. تثبت تماماً سهولة النطق المعجز الذي حبته الطبيعة به..

في ميدان التعبير الموسيقي قام موزارت بعمل مجدد وفاتح بصورة بالغة الجلاء.. لقد كانت أذنه الفائقة الإحساس تلذ الرعشات المدرجة والمنوعة إلى ما لا نهاية التي يحصلها قوس من وتر، أو يبعثها نفخ الإنسان في أنبوب صائت، كما أن الشعور الكبير باللون مكّنه من أن يُعنى بتأثيرات جديدة في كتابة أعماله من موسيقا الحجرة أو كتابته السيمفونية، ففتح بذلك آفاقاً جديدة في ميدان التعبير الغنائي.. ففي «عرس الفيجارو» و«دون جوان» و«الناي المسحور» تشارك «الأوركسترا» بجرأة وحيوية ورشاقة في الأحداث، حيث يقوم موزارت بإدخال قوة وعظمة هذه الآلة أو تلك.. إنها جسارة لها أهميتها التاريخية في تاريخ الموسيقا العالمية، لدرجة أن الموسيقار الكبير «فاغنر» قال: «إن للآلات في أوركسترا موزارت صوتاً إنسانياً».



في السنة الخامسة وضع الطفل موزارت، على آلة البيانو مقطوعة موسيقية تامة النضج من فن «الروندو» فأدهشت والده الموسيقي، وصار منذ تلك اللحظة، يترقب صغيره المعجزة، وأصبحت «الروندو» عمل موزارت الأول في سلسلة مصنّفاته الطويلة، وراح الأب يخفّ بابنه الصغير إلى الأوساط الحاكمة في النمسا، وفي بلدان أوروبية شتى، يعرض عليهم بضاعته الرائعة.. وفي زيارة إلى لندن وموزارت في الثامنة من

عمره، كان الأب «ليوبولد» في حالة رشح حاد، ففرض على الطفل المعجزة، ودفعاً للضجر أن يخربش على الورق سيمفونية كاملة، أصبحت في سجل أعماله السيمفونية الأولى.. وظل موزارت يعمل بأسلوب طفولي في الخمسة والثلاثين سنة التي عاشها، وكانت معجزة هذه الطفولة أنها جيّرت لصالحها كل فضائل النضج التي تتمتع بها العبقريات المسّنه: سعة المعرفة، الحكمة، الرؤية الفلسفية للحياة والإنسان، الدراية الفائقة للتقنية والبناء.. كل هذه الفضائل أخذت لون طفولته، فصارت تطلع للناس بهيئة موسيقا رائعة.. موسيقا مقبلة على الحياة بفرح وسرور دافق.. موسيقا لا تبدي لنا إلا قوة الجمال.. موسيقا لا يمكننا إلا ونفرح ونحتفل بها، سعداء كنا أو محزونين، كباراً أو صغاراً، أذكياء أو بسطاء، موسيقيين أو غير موسيقيين، عشاقاً أو مجرمين.. حتى الحيوانات والنباتات ثبت أنها تتأثر بها مثلما يفعل البشر..

لقد ترددت أصداء حياة موزارت العاطفية القصيرة، بما فيها من تقلبات جمة، شديدة التعقيد في موسيقاه، في صورة تميزت بالدماثة وبلطف يكاد يكون أنثوياً في طابعه، وبالرشاقة والأسى، كما تميزت بها «مونيتها الكروماتية» الحافلة بالألوان، التي تختلف اختلافاً بيناً عن أسلوب معاصره «هايدن» بعنفوانه وجدّيته العميقة، وروحه الأكثر انشراحاً..

لقد بلغ قالب «السوناتا» بفضل موزارت مرحلة الكمال الكلاسيكي، ويرجع هذا إلى ما في هذا القالب الموسيقي من إدراك بارع للتناسق المتآلف، وإلى ما حققه من انسجام كامل بين الشكل والمضمون، وإلى اكتماله بحيث لا يسمح بإجراء أية تجارب جديدة، ويقف موزارت من الناحية التاريخية والفنية، وفي صلته بالماضي والمستقبل كذلك في وسط الطريق بين «هايدن» و«بيتهوفن»، وتتجلى في بعض مؤلفاته الأخيرة، في صورة بينة واضحة، صرخات الشاب «بيتهوفن» الشديدة، وأشجانه المثيرة، ومع هذا فلا يمكن الزعم بأن فن «بيتهوفن» فن مكمّل لموزارت، كما كان موزارت مكمّلاً «لهايدن»، وقد تجلى في «سوناتات» موزارت و«كونشرهاته» وسيمفونيات الاكتمال

الكلاسيكي الذي لا يدع مجالاً لأي صقل، أو لأي تطور أو تغيّر، ولو أن موزارت اكتفى بأنه كان صدى لعصره، لما تعدّت أهميته وإثارته للاهتمام الناحية التاريخية، مثل الكثيرين من معاصريه وأقرانه في الفن.. أما مجده العظيم، فيستند على قدراته على فرض خلود الإفصاح الصادق على ما هو مؤقت وزائل، وهو ما يبهر الناس في كل العصور..



إن الموسيقا لا تحتفظ من شؤون الحياة إلا بجوهرها، وتتجاهل غالباً أغراضها الثانوية، وهذه الشمولية المقرونة بدقة متناهية هي من خصائصها وحدها، وهي تمنحها قيمة عالية جداً، وتجعل منها دواء ناجعاً لجميع أمراضنا.. وموزارت قدّم أعماله الخالدة، بطريقة تبعث الفرح على الرغم من فاجعيّة بعض أعمال «الأوبرا» التي ألفّها ونخص بالذكر «أوبرا» (دون جوان) التي تبدأ بفاجعة مرحة، وتنتهي بكرنفال مقنّع، واحتفال «باخوسي»..

وفي «أوبرا» الناي المسحور، نجد تجسيد انتصار النور والخير وأقانيم الفرح الثلاثة: الإيمان، الرجاء، المحبة.. على الظلام والشر ومقومات الحزن الثلاثة: الشك واليأس والبغض، إنها غلبة النزعة الروحية، ومناخات السماء، وقلب الطفل الرائع في الأبدية، على الناحية المادية، وأجواء الأرض..

نسمع في افتتاحية «الناي المسحور» ما يشبه أن يكون ريحاً تلجم خيول المسرح وتسرجها لرحلة شائقة، ناياً حنوناً ينفخ بنعومة وهدوء، أبواقاً على مدخل معبد مقدس تدق النفير ثلاث مرات إيذاناً بأن المحراب سيفتح أبوابه، عصافير تشرئب على الأغصان، تتنادى، ثم تسبح في الفضاء حيث تعقد حلقات الطرب أفواجاً أفواجاً، ورقرقة ماء في نبعة صافية.

وثمة أسطورة تروي أن «أمفيون» بنى أسوار طيبة بأنغام القيثارة، التي كان فيثاغورس يطلب الاستماع إليها قبل أن ينام ليتطّهر من كل الهموم وأدران هذه

الأرض، كما أن اتباعه كانوا يرتاحون من عناء العمل اليومي بألحان معينة تجعل الرقاد يداعب أجفانهم، وكانوا بالمثل عند يقظتهم يتخلصون من خمول الليل واضطرابه بألحان أخرى.. هكذا هي حال الموسيقا عند موزارت في «الناي المسحور» لها في كثير من الأحيان فعل السحر، تمحو ما سبق، وتستهل عهداً جديداً من الفرح، تنفتح عليه العيون بهدوء محببه، معلنة بأن الشمس ستشرق، وأن النور سينتصر على الظلام، والحق على الباطل..



في البدء، كانت الموسيقا، بحسب أساطير الهندوس فناً إلهياً، يمارسه في فرووس «أندرا» العباقرة الذين سحبهم «براهما» من «الفيدا» والذين يكشفهم للبشر القديسون والنّساك.. والموسيقار يحمل قيساً من الروح الإلهية في نظر «ديموقراطيس» الذي كان يؤمن مع الفيثاغوريين، بأن الفنان الملهم يحتل موقعاً وسطاً بين الآلهة والبشر، وإن رسالته تحتم عليه أن يساعد الإنسان على بعث التوافق بين ذاته وبين الذات الكلّية عن طريق الإيقاعات الرشيقة، وهذا ما فعله موزارت وما صنعت موسيقاه، الذي كان حجر الانطلاق لمشاعر القلب، وكان دائماً يبحث عن الكمال الغني.. وكان الناقد «هيرمان هيسه» صادقاً ومعبراً عندما قال: «يمثّل موزارت طلاوة إنسان اكتمل في سن مبكرة، يوحي لنا بحب مؤثر غريب».

في السنة الأخيرة من حياته، تلقى موزارت رسالة من مجهول يسأله فيها إن كان يقبل بتأليف «قداس للموتى» وقد اكتنف العرض جملة من الألغاز مما أثار حماسه وأيقظ هواجسه، وحرّك كوامن نفسه، لأنه كان مسكوناً في ذلك الصيف من عام ١٧٩١م بفكرة الموت المعشش في جسده المنهار، الذي حطمه البؤس والقلق والإرهاق، فاعتبر هذا الساعي الغامض بحزنه وهذاله وثيابه السوداء، نذير العناية الإلهية القادم إليه من العالم الآخر، وكان استغراقه الكلي في هذا العمل الديني، رغم انهياره الجسدي المريع، فقد كان يريد أن يضع حدّاً لقلق العالم المادي باللجوء

إلى جو آخر من خلق روحه، وقد أراد من هذا القدّاس أن يرثي نفسه، حيث تناشد «الجوقة» اللّه تعالى أن يمنح الأموات الراحة الأبدية، ويرتفع الابتهال وكأن حاملوا الاضحيات في تراتيلهم المسحورة يحجّون إلى منطقة الضباب، التي صار فيها غائبون، ويختفون فيها لكن استعطافهم لا ينطوي على أي وضاعة، بل يدل على السمو الأخلاقي، لأنهم لا يطلبون شيئاً لأنفسهم، بل لأولئك الغالين على قلوبهم، الراقدين تحت التراب، ولا ينصرفون إلى مسرّاتهم وشؤونهم الدنيوية، بل يفكرّون بخلاّنهم، الذين غادروا الأرض..



لقد أجمعت الدراسات والأبحاث الكثيرة جداً، التي قامت بتحليل أعمال موزارت، والكتابة عن مميزاتها الغنية، وتوضيح أساليبها الموسيقية، ومدى خدمتها وعظمتها في العصر الموسيقي الكلاسيكي المتقدم، والتي قارب عددها /٦٠٠/ عمل موسيقي وغنائي رائع.. أجمعت أن موسيقا موزارت، بديعة ورائعة ومدهشة، وخاصة «أوبراته» ذات الابتكار المنسجم، و«سيمفونياته» التي تتصف بالسمو والعمق التي بلغ فيها المكانة الإبداعية الرفيعة، و«كونسرهاته» التي جاءت في قسمين عظيمين، يحمل أولهما روح القرن الثامن عشر، وتشمل «موسيقا الحجرة» –السوناتا- الموسيقا الكنائسية (الجنائزية) –السرناد- وقسم من «أوبراته» المبكرة.. أما القسم الثاني فيحتوي على «سيمفونياته» الضخمة المعروفة، وأجملها «سيمفونياته» الثلاث، (رقم ٣٩- ٤٠-٤١).



لقد شبه بعض النقاد «سيمفونيات» موزارت، بأعمال «يوهان كريستيان باخ الابن» لأنه أبدع منها موسيقا تدفقت منها مياه ناعمة مشبعة بالحرارة وحب الحياة، هدفت إلى إشاعة الطمأنينة في النفس وبعث الروح الإنسانية الجديدة، فيها ثراء في الحب والتضحية، حافلة بالأمل والوفاء، ففي كل من أعماله نلمس بشكل جيد

وواضح أن ألحانها امتازت بالجزالة القوية ومتانة التعبير عن الأحاسيس والعواطف النفسية، وتتسم بطابع السهولة والمفاجأة.

لقد ارتقى موزارت بموسيقاه إلى ذروة المجد الموسيقي الكلاسيكي العالمي، وكان بحق باني صرح «الأوبرا» الألمانية.. فنان كبير طوّر فن النظام الآلي، وبذل العطاء الفني المثمر للآلات الموسيقية (الكلارينت –الترومبون- الأوبوا- الباسون- الغلوت) وعمل على إظهار قابلية العازف المنفرد وتقنيته وخاصة في قالب «الكونشرو» حيث التزام موزارت طابعاً مرحاً مميزاً كشف مهارة العزف من خلال إعطاء حق الآلة الموسيقية، في ذوق هندسي رائع، وعدّ موزارت أمهر مؤلفي «الكونشرتات» لآلة البيانو وخاصة (قسم الصولو) ولهذه الآلة ألّف خمس وعشرين «كونشرتو» انطلاقاً من مبدأ الإبداع منها..

الحديث عن موزارت، طفل المعجزات، بمناسبة الاحتفالات العالمية الضخمة التي أقيمت بذكرى مرور (٢٥٠) سنة على ولادته، يحتاج إلى وقت وإلى مجال أوسع، وحسبنا أننا قدَّمنا إضاءات، أو لمحات لتكون مدخلاً لشخصية وموسيقا وأعمال هذا الموسيقار الخالد، وتقول لمن لم يسمع موسيقا موزارت بعد، فليبدأ فوراً، فقد جمعت في قرابة (١٨٠) أسطوانة (سي دي) ولك أن تختار ما تشاء من أعمال عصيّة على الاختيار، لأنها من إبداع عبقري ألغى من حياتنا احتمال أن تكون الحياة «غلطة» وجعل الموسيقا هي الحياة..



واقع الصناعات الثقافية في سورية

في البداية لا بد من الإشارة إلى التداخل الحاصل في مفهوم الصناعات الثقافية، حيث إن هناك نوعاً من التداخل بين الثقافة من حيث كونها صناعة، أي إنتاجاً يبدعه الإنسان، ويصنعه في ميادين الأدب والفن والبحث الاجتماعي والعلمي.. وبين المواد التي يحتاج إليها منتج الثقافة ليعبّر بوساطتها عن إبداعه وإنتاجه..

بتعبير آخر، المثقف والأديب والباحث والعالم يستخدم الكلمة ليعبّر عن مشاعره وأفكاره وعما يريد أن ينقله للآخرين، إلا أنه في الوقت ذاته يحتاج إلى العلم وإلى الحبر وإلى الورق ليسجّل بوساطتها هذا الإبداع الذي أنتجه، وليحفظه من النسيان، ومما قد يصيبه من تشوه.. بكلمة أخرى الأديب والمثقف يحتاج إلى مواد مصنوعة تساعد الإنتاج الثقافي على تثبيته ونشره وتداوله، والحال كذلك بالنسبة إلى الفنان الذي يسجّل ما تعتلج به نفسه من انفعالات في لوحة فنيّة أو في قطعة موسيقية، فهو بحاجة إلى وسائل يعبّر بها عمّا يريد أن يبثّه للآخرين.. هذه المواد المصنوعة لخدمة الثقافة هي ما اتفق على تسميتها بالصناعات الثقافية.

وعليه فإن الصناعات الثقافية التي تستخدم في إنتاج الثقافة تشمل قطاعات واسعة من المواد والوسائل والمنتوجات مثل: صناعة الورق - الأجهزة السمعية والبصرية – الإلكترونية - التصوير - الأفلام الخام - المخابر- الآلات الموسيقية – مواد الرسم والتلوين - أجهزة ومواد الطباعة – الألعاب – الأسطوانات المدمجة

(.. MP4- MP3- D.V.D- CD) صناعة الفيديو وما يتصل بالحاسوب والإنترنت والتقانة وتطور المعارف والعلوم وغيرها، ولا يخفى على أحد مجالات التطور والتقدم الحاصلة في عالم اليوم مع نمو المعرفة الإنسانية ونمو الثقافة بمختلف ميادينها، مما يوسع مجال الصناعات الثقافية إلى آفاق لا حدود لها..

موضوع الصناعات الثقافية وتطورها طرح في مؤتمرات وندوات عديدة أقامتها المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة «اليونسكو» والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وفي حلقات بحث وورشات عمل، ونستطيع القول باختصار شديد أن المحور الأهم الذي شغل هذه اللقاءات والمؤتمرات الهامة كانت حول:

- حماية الثقافة مما يتهددها من أخطار العولمة، وثقافة الهيمنة، والاستلاب الثقافي.

- دعم الثقافة وسبل إقامة الصناعات الداعمة لها لتأخذ دورها في حياة الناس والمجتمع وتوفير أسباب نموها وازدهارها وتطورها.

- ربط موضوع الصناعات الثقافية، بما يدعى «الأمن الثقافي القومي أو الوطني»..

- تطور الثقافة (كماً وكيفاً) يحتاج إلى نمو متسارع وإلى التجهيزات والصناعات الثقافية.



لقد نبهّت هذه المؤتمرات والندوات إلى خطورة موضوع الصناعات الثقافية، وحاجة دول العالم العربي والإسلامي ودول العالم الثالث إلى النهوض بإنتاجها محلياً تحقيقاً للتطور الشامل بشكل عام، والثقافي بشكل خاص، وقد وضعت دراسات مفصّلة حول هذا الموضوع، ولكن بكل أسف، لم تتخذ أكثر دولنا التدابير المناسبة

والضرورية لقيام هذه الصناعات بما يتناسب مع الأهمية والحاجة والأمن الثقافي وأكثر دول العالم العربي والإسلامي، تفضّل المستورد من الصناعات الثقافية بدل القيام بتصنيعها بكلفة عالية إذا تمت على مستوى محلي صغير، كما حدث في تجربة سورية في معمل صناعة الورق في منطقة دير الزور، حيث تتوافر المواد الأولية، ولكن سوء التخطيط والإدارة جعل صناعة الورق المنتج فيه أغلى بكثير من المستورد، وكان المنتج المحلي من نوعية رديئة، مما جعل الحكومة تعيد النظر فيه ليتوافق مع التكنولوجيا المستخدمة في الإنتاج، ومع ملاءمة المشروع للمواد الأولية المتوفرة في المنطقة..

في عالمنا الإسلامي نحن في وقتنا الراهن نحتاج إلى مؤسسات لا تحتكر الثقافة بل تؤازرها وتقدم لها الدعم حتى تقوم بإدارة صناعة ثقافيّة بأسلوب يختلف عن إدارة المصانع والمتاجر.. وفي البداية يجب على الدولة دعم هذه المؤسسات والمصانع التي انبرت لعملية التصنيع الثقافي، ويجب دعم المنتجات والمواد التي تنتجها وحمايتها من المنافسة الأجنبية، ورعاية المؤسسات التي تتطلب مستويات تقنية عالية واستثمارات مالية كبيرة لتوفير مستلزماتها الأساسية، ووضع القواعد والأسس الملائمة التي تعمل على تشجيع العناصر الجديدة والشابة لدخول حقل الاستثمار الثقافي، مع توفير الضمانات اللازمة وتوفير المعلومات والمواصفات حول كل المنتجات الثقافية حتى يمكنها القيام بدور فاعل في هذا المجال.

ويقتضي الأمر وضع استراتيجية ترتكز على تحديد أهم عوامل الإنتاج والمواد الأولية للصناعات الثقافية وتحديد أشكال المنتجات الثقافية النهائية التي تسعى إلى إنتاجها سواء كانت مقروءة أو مسموعة أو مرئية، وهناك عامل يجب مراعاته والتركيز عليه وهو تقليل الاعتماد على الاستيراد من الخارج، وإنشاء وتنمية الصناعات الثقافية الوطنية لتحل منتجاتها تدريجياً كبديل للمنتجات الأجنبية كورق الطباعة والاسطوانات المدمجة والفيديو والأدوات المكتبية والبرمجيات،

ويكتسب الاهتمام بالصناعات الثقافية دوراً كبيراً في التواصل الروحي والوجداني بين بلدان الوطن العربي والعالم الإسلامي.



الصناعات الثقافية في سورية باستثناء صناعة الكتاب والحرف التقليدية وبعض البرمجيات والآلات الموسيقية، ما زالت في بدايتها، وهناك دراسات عديدة ورؤى واعدة للقيام بهذا الدور من منطلق الإيمان بمفهوم جديد للتنمية وخاصة الثقافية منها، فلم يعد يكفي دور الدولة برعاية مؤسسات الثقافة الرسمية أو التشجيع الحكومي للآداب والفكر، بل تعدى الأمر إلى ضرورة العناية بالصناعات الثقافية التي لا تقل شأناً، إن لم تكن أكثر إثـرّاء من الوسائل التقليدية، في صنع الثقافة ونشرها وتشجيعها وإن شأنها ينجم عن أنها الأدوات الأولية والأساسية للعمل الثقافي، وللنشر الثقافي، كما أنها الوسائل الجماهيرية للتعليم والترويج وتوسيع المعرفة..

إن الصناعات الثقافية بوصفها الوسائل التي تعتمد عليها التنمية الثقافية قد تعقّدت وتعددت مع تعدد الحياة الحديثة، وتعدد الجوانب التقنية والاتصال فيها، ومع الزحام الثقافي الكثيف، وتطور وسائله وطرقه، ويحتاج الوطن العربي والعالم الإسلامي إلى إجراءات ومبادرات عديدة لسد هذه الثغرة في احتياجاته، ومع ذلك ما زلنا بشكل عام لا نمتلك أبسط الصناعات الثقافية، ومن المعروف إن الأمن الثقافي كالأمن الغذائي لا يمكن ضمانه إلا بامتلاك الأدوات والأجهزة المتحكمة في إنتاج الثقافة ونشرها، أي بامتلاك الصناعات الثقافية الرئيسية.

وإذا كانت كل الصناعات الثقافية أساسية وهامة، فإن التركيز على الإلكتروني المتطور منها، يبدو أكثر شأناً وخطراً بالنسبة إلى مستقبل العالم العربي والإسلامي، وهنا يجب تركيز اهتمام أصحاب رؤوس الأموال بجدوى هذه الصناعات والتحرك

باتجاه تحقيقها مع الأخذ بعين الاعتبار الاستفادة من الدول الإسلامية التي قطعت خطوات متقدمة في مجال الصناعات الثقافية مثل:

ماليزيا وأندونيسيا وإيران والإمارات العربية المتحدة ومصر وباكستان..

إن مقومات التصنيع الثقافي في سورية متوافرة في مجالات كثيرة نذكر منها:

١- صناعة الكتاب والنشر الثقافي سواء من حيث التكلفة والسعر والجودة والتوزيع.

٢- وجود العقول والخبرات العلمية القادرة على قيام صناعات ثقافية متنوعة.

٣- المناخ الاستثماري ومجموعة القوانين والسياسات الثقافية الموجودة في سورية تساعد على خلق فرص عمل جيدة في مجال الصناعات الثقافية، وتشجيع رؤوس الأموال للدخول في هذا المجال التنموي والثقافي الهام لمواجهة تحديات العولمة، وثقافة القطب الواحد..

لقد دخل العالم في وقتنا الراهن في حالة جديدة من العلاقات والتبادلات التجارية والثقافية غير مسبوقة على الإطلاق، مما جعل مفهوم النمط الذاتي للثقافة في حالة تراجع مستمر، ومن اللافت للنظر أن ثورة المعلومات والاتصالات ذات العلاقة المباشرة بالثقافة تمت وستتواصل في ظل ظروف سياسية واقتصادية جديدة مختلفة عن الظروف التي تكونت في ظلها الثقافات الوطنية والإقليمية عبر العصور والقرون والعقود الماضية..

صحيح أن الكلمة والصورة والفكرة كانت أساس الثقافة ولكن هذا الأساس أخذ يتوسع ويتعقد إلى الدرجة التي أصبح معها صنع الثقافة ليس فقط إنتاجاً للمثقفين بالمفهوم التقليدي بل هو عمليات إنتاجية صناعية معقدة..

في عصرنا الحاضر تنوعت مصادر المادة الثقافية وتنوعت صناعتها بسبب عولمة الاقتصاد وعولمة الإنتاج وعولمة النشر والتوزيع وعولمة الاتصالات بل وعولمة الأشكال والألوان والتصاميم والمواد بحيث أصبح ما يصل إلى الناس والمجتمع ليس ما يكتبه الكاتب، بل كل ما يمكن أن يصل عبر وسائل الاتصال المعاصرة.



هكذا انتقلت أركان الثقافة من أن تكون من صنع المثقفين إلى أن تكون من صنع آخرين كثر، ولم يعد المثقفون بالمفهوم التقليدي قادرين على التأثير في الثقافة، وفي صنع الثقافة إلا في القدر والعمق الذي يكونون فيه قادرين على الانغماس والتغلغل والتفاعل مع وفي القطاعات الإنسانية، من اقتصادية واجتماعية وعلمية وسياسية وصناعية وفنية..

من هنا أصبح الدور الثقافي أكثر تعقيداً وأكثر تشعباً، ويتطلب خلفيات ومؤهلات وخبرات وتطلعات جد مختلفة عما كان في الماضي، ويتطلب الكثير من الحركة والارتحال إلى أعماق العملية الحضارية المعاصرة.

إن الثقافة المعاصرة والمستقبلية تتطلب بنية تحتية متقدمة جداً، وقد بدأت الدول الكبرى في إعداد هذه البنية التحتية منذ زمن طويل، حتى أصبحت هذه البنية بكل أبعادها ومفرداتها هي «مصانع تنتج السلع الثقافية» والتي قفزت منها الدول المتقدمة إلى ثقافة العولمة، بحيث أصبحت هي السائدة في عالم اليوم، ومواجهتها لا يتحقق من خلال إنكارها، ولا من خلال منعها وتقييدها، وإنما من خلال تنمية الثقافة الوطنية، وإعطاء مرافق الثقافة وصناعاتها أولوية واضحة في سلم الأولويات.

في سورية شكلت مؤخراً لجان عديدة لدراسة موضوع تطوير ودعم الصناعات الثقافية، وقد أقرّت الجهات العليا إنشاء صندوق لدعم الصناعات الثقافية، وأحدثت

معاهد ومراكز في أكثر المحافظات السورية لتدريب الطلاب وإعدادهم للعمل في الصناعات الثقافية، مثل: المعهد المتوسط للفنون التطبيقية، والمعاهد المتوسطة الهندسية والإلكترونية والطباعيّة والسياحيّة والمسرحية والتشكيلية والموسيقية، وقامت الدولة بدعم وتطوير العمل في الحرف اليدوية التقليدية باعتبارها من الصناعات الثقافية التي يجب أن تواكب التحولات الحاصلة في تطور آلية العمل، وضرورة العمل على رعاية هذه الحرف ومساعدتها على النمو والتطور لتكون شاهدة على صناعات وتقاليد حرفية عريقة استمدت عراقتها وأصالتها من تاريخ قديم، وحضارة عربية إسلامية رائعة، مثل صناعة الأرابيسك والأغباني والدامسكو، والحفر على الخشب والقاشاني والأواني النحاسية والفضّية والخزفية والفخارية والزجاج المعشق والسجاد التقليدي اليدوي وغيرها.

على الصعيد الثقافي تشكل الصناعات الحرفية شاهداً قوياً على الهوية الثقافية، فالمادة الأولية، والتقنيات المستخدمة، والأشكال والألوان المنتقاة، والزخارف المختارة، تعكس الثقافة الخاصة المتوارثة منذ قرون عديدة، وهذه الصناعات يمكن أن تكون منطلق للصناعات الثقافية في سورية لما لها من سمعة عربية وإسلامية وعالمية قديمة، والإنتاج الحرفي الضخم والمعتمد أساساً على هذه الأشغال اليدوية، يمكن أن يحقق انطلاقاً كبيراً في هذا المجال الحيوي الهام..

(أصفهان 5- 7 تشرين الثاني 2006)



• ألقيت في افتتاح جلسات الملتقى الدولي للصناعات الثقافية في العالم الإسلامي بمناسبة الاحتفال بأصفهان عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٦م.

التكافـــل الثقـــافي

بدعوة من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإيسيسكو»، ووزارة الثقافة في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، عقد المجلس الاستشاري المكلّف بتنفيذ الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، دورته السادسة في مدينة الجزائر، يومي١٨و١٩ تشرين الثاني٢٠٠٦، وحضرها ممثلو تسع دول عربية وإسلامية، من بينها سورية، وكان لي شرف التمثيل والمشاركة في هذه الدورة المهمة التي ناقشت جملة من المواضيع والمحاور والدراسات التي تتعلق بسبل تطوير العمل الثقافي الإسلامي المشترك، وتحديد أولوياته بما يساعد الإدارة العامة في «الإيسيسكو» على التصّور الأمثل للتوجهات العامة لمشروع خطة عمل المنظمة للأعوام (٢٠٠٧-٢٠٠٩) والتحضير لمشروع خطتها متوسطة المدى (٢٠١٠-٢٠١٩) في جوانبها الثقافيّة المتنّوعة..

الموضوع الأساس الذي أخذ وقتاً طويلاً في جلسات هذه الدورة كان حول «استراتيجية التكافل الثقافي لخدمة قضايا المسلمين التنموية والحضارية» الذي وضع مشروعه بين يدي المجلس الاستشاري لدراسته وتفعيل طاقاته الفاعلة في مجتمعات العالم الإسلامي، عبر تكافل متنوع الأداء لخدمة تنوع ثقافي متعدد البرامج والأشكال، يسمح بتقوية وتحصين الذات، وترسيخ حسن التفاعل والتعامل والحوار، إلى جانب توطيد التعايش وتلاقح الأفكار والثقافات العالمية..

لقد أكد هذا المشروع على وحدة الثقافة الإسلامية وتنّوع مظاهر التعبير عنها، وضرورة وضع استراتيجية للتكافل الثقافي، لأنها حاجة تفرضها المخاطر الكبرى التي أصبحت اليوم أكثر من أي وقت مضى، تهدد الأمة الإسلامية كلها في هويتها الثقافية والحضارية، وأصبحت هذه المخاطر والتحديات أضخم وأعظم من الإمكانات الضئيلة التي يملكها كل قطر إسلامي بمفرده.. كما أن هذه المخاطر تأتي من جهات كبيرة تمتلك الإمكانات الضخمة، وتعمل وفق خطط وأبعاد لا يمكن مواجهتها إلا بالتكافل العملي، والتخطيط المستقبلي المبرمج، وجمع الطاقات والإمكانات..

لقد تمّ اختيار صيغة «التكافل» في هذه الاستراتيجية دلالة على المشاركة في الفعل بين طرفين، والهدف من هذا، توجيه الاهتمام إلى أن «التكافل» في مجال العمل الثقافي، في عصرنا الحالي، يكتسي أهمية قصوى، لا تقل عن أهميته في مجال التكافل الاجتماعي.. الهدف أن يتحمّل كلّ قادر نصيبه من المسؤولية في دعم العمل الثقافي في العالم الإسلامي.. القادر بماله يسهم بالمال، والقادر بعقله وعلمه يسهم بعلمه، والقادر بخبرته يسهم بخبرته، بحيث يساهم الجميع في حماية ثوابت الثقافة العربية والإسلامية من المخاطر التي تواجهه، وفي رعاية تنوعها وتعزيز أنشطتها..



لقد انطلقت الاستراتيجية من أن التكافل هو تلك المساهمة المتبادلة بين الناس والمؤسسات والدول في إنجاز مشروعهم الحضاري الكلي، والتعاون المشترك بينهم أفراداً وجماعات وهيئات ومؤسسات، بحيث يكون من يملك كفيلاً بتمكين من لايملك لتحقيق مشاريع جماعية ترقى بالمجموعة المتكافلة إلى مستويات من الفعل والأداء، وسقف من الوعي والإدراك، يمكّن من بلوغ المقاصد والأهداف المتوخاة ضمن منظور للكون والإنسان والحياة، مما يثري جوانب الحوار والتفاعل والتعايش بين مختلف الثقافات والحضارات في الجوانب الإنسانية والاجتماعية كافة..

هذا المنظور الشمولي، يحفّز الفرد الفاعل على ترتيب أولويات شأنه بحيث يقدم العام على الخاص، في إطار برنامج عملي هادف دون ضغوط قسريّة، يحرّكه الوعي الجماعي بالواقع وتحدياته، وإدراك عقباته، وسبل معالجته، والطموح بالغد المشرق..

وينعت هذا التكافل بالثقافي حين يصبح هو ذاته ثقافة ، أي حين يتشكّل لوناً من ألوان التعبير عن الحضارة والرؤية للإنسان والمجتمع، وسمة من السمات الشخصية لهذا المجتمع، وعنصراً رئيساً من عناصر الحركة فيه، فكما يتشكل العلم ثقافة ليصبح تنمية، كذلك التكافل حين يمسي ثقافة تحافظ على الخصوصيات، وتحترم التنوّع، وتثري الحوار، وتقوي التعايش، وتدفع بالتنمية إلى مستويات عليا من الإنجاز والأداء، يكون قد تجسّد كلياً فيما تطلق عليه هذه الاستراتيجية بـ«التكافل الثقافي».

في الأهداف العامة لهذه الاستراتيجية، نجد أن ترسيخ الوحدة الثقافية في العالم الإسلامي في مقدمة هذه الأهداف التي تحتاج إلى استمرار التأكيد على الهوية الثقافية وتعزيزها والحفاظ عليها، عبر الاستثمار الجاد والمتواصل في المجال الثقافي، والحرص على سيادة المرجعية للقيم الثقافية المشتركة، وإحياء وإثراء الذاكرة الجماعية الثقافية، فالوحدة الثقافية لها رسوخ وحضور قوي في الذاكرة الثقافية للأمة.. تلك الذاكرة التي تعد الضامن والمحفزّ لتوطيد عرى الاتحاد، ودوام يقظتها وتنميتها وتقويتها هو ما يستدعي المزيد من الجهود لإحلال «التكافل الثقافي» المكانة اللازمة له نظراً لأهميته في تكثيف تلك الجهود وتوطيدها وتطويرها.

لقد أضحى حفظ الثوابت الثقافية والفكرية والاجتماعية والدينية في نقائها وصفاتها ويسرها في عصرنا الحالي، من المسؤوليات الكبرى التي تستدعي تعبئة طاقات الأمة وتجنيدها، وتضافر الجهود وتنسيقها، وهذا يتطلب تكافلاً قوياً ومستمراً، تشكّل الثقافة بمنظورها الشمولي، ساحته الأوسع تعبيراً، والأشد تأثيراً

في العالم الإسلامي ومحيطه، ولن يستطيع أي بلد إسلامي بمفرده وبإمكاناته - مهما بلغت- أن يصمد في معركة محسومة المصير لصالح سيادة «الأقوى» وسياسة الاستلاب الثقافي التي تعد الهدف الأول للعولمة في وقتنا الحاضر..

ضمان البقاء والنماء إذا جندت الوسائل المادية والمعرفية من خلال «تكافل فاعل» بين دول العالم الإسلامي، وهذا ما يعزز وجوب الإسراع بتفعيل التكافل الثقافي على أعلى المستويات، في مجالات حماية العقل والفكر والوقوف في وجه تيارات الثقافات المغرضة..



لقد سبق القول بأن الذات الثقافية تحتاج إلى قوة ووحدة ومناعة، وحرص على القضاء على نقاط الضعف التي قد يلج منها ما يهدد التنمية والبقاء والهوية.. وهذا أمر لا سبيل إليه إلا بمحاربة التهميش الثقافي، وتمكين جميع الأفراد والشعوب والمؤسسات من الإشباع الثقافي الضروري لحفظ هويتهم، وضمان مشاركتهم في الركب الحضاري، والتعبير في مجالاته بكل ثقة وحرية. بإبداعاتهم الفكرية والعلمية وأنشطتهم الثقافية.. وهذا لن يتم إلا عن طريق تمكين الثقافة من أخذ دورها الفاعل والحيوي الذي يسمح بتوسيع دائرة الممكن، وتيسير العمل وتجنيد الطاقات والقدرات بشكل متكافل ومتضامن ومتطور.

شعوب اليوم- بحكم اتصالها اليومي- بسلطان معرفي دولي، لا حدود له، عبر قنوات الإعلام والاتصال، أضحت لا شعورياً تتفكر لسلطان السيادة الجغرافية، وتستعلي عليه، إذ أصبح من الصعب جداً امتلاك ناصية حركتها في مجال التوجيه الإعلامي والنهل من مواقعه الجذابة وفق ما يخدم المصالح المشتركة للشعوب ويضمن الحفاظ على خصوصيتها الثقافية دون تغذية ثقافية متواصلة، وتكافل ثقافي منظم، مما ينذر بمخاطر وتحولات كبيرة مدمّرة، إذا لم تتخذ الإجراءات

الضرورية والفعّالة لحماية ثقافتنا وهويتنا، وهذا يتطلب السعي المتواصل لإقامة مؤسسات للحوار والتواصل مع الآخر، والعمل على الحفاظ على الذاكرة الجماعية، وحماية مخزونها الثقافي من خلال التعليم والبحث العلمي الجاد، وتعميم المعارف، وتشجيع الإبداع، ومحو الأمية، والعناية بالتراث المادي واللامادي، والتعريف بالرموز الفكرية والثقافية والعلمية العربية والإسلامية، وتنميّة الصناعات الثقافية في العالم الإسلامي، التي تعاني من إقصاء وتهميش في البرامج والأنشطة الثقافية، ومنافسة شرسة من الصناعات المستوردة.

وتشكّل السياحة الثقافية الميدان الأمثل لتوطيد الترابط بين الثقافة والتنميّة، والمجال الأفضل لتكريس المفهوم الإنساني للتعارف والتعايش بين الشعوب، والمجال الأرحب للتبادل الاقتصادي والازدهار التنموي، وهذه السياحة بحاجة كبيرة إلى التكافل والتشجيع والاستثمار في مجالاتها..

ويحتاج القطاع الثقافي عموماً إلى موارد بشرية راسخة التأهيل، قوية الخبرة، واسعة المعرفة، للإشراف الأمثل على تحضير وإنجاز الأنشطة الثقافية بوعي استراتيجي، وإدراك لحاجيات الواقع ومعطياته ومتغيراته، وحسن الاستفادة من آفاق المستقبل وتطوراته..

تشخيص الواقع الثقافي في الوطن العربي والعالم الإسلامي تشير إلى أن هناك مجموعة من التحديات والمقومات التي تواجه قطاع الثقافة عامة، وما يرتبط به من صناعات ثقافية، وسياحة ثقافية، ترتكز أساساً على ضعف الموارد المالية، وافتقار الموارد البشرية إلى المهارات، إضافة إلى تدني معدلات المشاركة الاقتصادية للأفراد والمؤسسات في سوق العمل الثقافي.. فنادراً ما نلمس في بلداننا العربية والإسلامية إشراكاً للقطاع الخاص المعني بالثقافة في برامج التدريب والتأهيل، رغم أن التطورات في الحقول الثقافية -اليوم- كبيرة وبسرعة فائقة تستدعي التحديث

والتغيير والتطوير باستمرار، وهو أمر يحتاج أساساً إلى الدعم المادي والمعنوي المتواصل، وموارد بشرية كافية ومؤهلة، وبرامج تدريب وتأهيل جيدة تفي بشروط تحويل الأنشطة الثقافية إلى زاد معرفي بنّاء، وإلى صناعة ثقافية متطورة.



استراتيجية «التكافل الثقافي» التي وضعتها «الإيسيسكو» وناقشنا بنودها وأفكارها ومضمونها في المجلس الاستشاري المكلّف بتنفيذ الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، كانت واعية ومدركة جيداً إلى ضرورة تجديد وتوطيد إسهام الثقافة الإسلامية في الحضارة الإنسانية، وسد الفجوة الحضارية بينها وبين العالم المتقدم، ومد جسور التعاون والتواصل مع المؤسسات الجادة ذات الإسهام في تنشيط وتوليد الحضارة الإنسانية، وتصحيح الكثير من المفاهيم المغلوطة حول الإسلام ديناً وتاريخاً وثقافة، وتبديد سوء الفهم الذي يلاحظ عند بعض من يتهجمون عليه، وذلك من خلال التعريف به وبتاريخه ورجالاته، ونشر الموسوعات الكبرى بشتى اللغات لتيسير الاطلاع على حضارته وثقافته..

هذا الموضوع المهم يحتاج إلى جهود كثيفة، ودراسات جادة وموسعة، وإلى موازنة مالية جيدة، لا سبيل إلى النهوض بها دون تكافل متواصل بين دول العالم الإسلامي، والفرص المتاحة للقيام بذلك متاحة بقوة في الرأسمال البشري والمادي، فيما لو أحسن استغلال توظيف الطاقات عن طريق التكافل الثقافي، الذي يجب أن يستجيب لتطلعات الأمة الإسلامية وآمالها في تحقيق التعاون والتضامن والتقدم والازدهار في ظل مبادئ الإسلام السمحة..

النظام العالمي الجديد فرض هيمنته بقوة على العلاقات الدولية في المجالات الاقتصادية والتجارية، ويصّر بإلحاح وبشتى الوسائل على فرض سيطرته- لضمان بقاء سيطرته- في الحقول الفكرية والثقافية، وبدأت تظهر بوضوح بوادر

هذه السيطرة التي تهدف إلى فرض نموذج عالمي واحد، دون اعتبار للخصوصيات الثقافية والحضارية والدينية وللشعوب والأقليات.. والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة أمام هذا الواقع: كيف يتسنّى لكل بلد أن يحافظ على هويته الثقافية والحضارية أمام هذا الزحف؟!

هذا الأمر لن يتم إلا من خلال المزيد من التنسيق والتكامل في العمل الثقافي، والوقوف في وجه عوامل التفرقة والتشتت، وإكراهات العولمة الثقافية، والسعي لتشجيع طاقات البذل والعطاء في إطار تكافلي.. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن النشاط العلمي والثقافي في الحضارة العربية الإسلامية ارتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا الأسلوب من العمل الذي حضّ عليه الدين وطالب بضرورة وجوده وإذكائه واستمراره..

بفضل التكافل انتشرت المكتبات الوقفية ومراكز التعليم والمؤسسات التي تحفظ الهوية الثقافية وذاكرتها الجماعية في شتى أرجاء العالم الإسلامي، لدرجة أننا لا نجد مدينة عربية أو إسلامية تخلو من مكتبة أو مجموعة مكتبات ومؤسسات ومراكز ومعاهد علم وثقافة، يجد فيها طلاب العلم وجمهور المثقفين ما يروي ظمأهم للمعرفة دون تحمّل نفقات البحث عن الكتب والبحوث والآليات والأدوات واقتنائها.

لقد اهتم العرب في فتوحاتهم بتثقيف شعوب البلدان التي فتحوها، فكانوا في كل أعمالهم دعاة حضارة وعلم وثقافة وفكر وبناء مراكز علمية كبرى.. لذلك وصلوا إلى الصين شرقاً وإلى جبال البيرينيه غرباً واستمروا ونشروا العلم وأنقذوا أوروبة من غياهب العصور المظلمة.

في عالم اليوم، مازال العمل الثقافي، الأساس في نشر الفكر والوعي والعلم، والسبيل السوي لتصحيح المفاهيم، وترشيد التصورات، وإشاعة الأفكار السليمة وحلقة وصل مهمة بين الناس.. لذلك فإن واجب دعمه وتنشيطه وتفعيله، ضرورة

ملّحة لا بد منها من أجل عودة الألق والحيوية إلى الرسالة الثقافية العربية والإسلامية امتداداً لما كانت عليه في العصور الزاهرة من تاريخ الأمة الإسلامية.

(الجزائر 18- 19 تشرين الثاني 2006)



- ألقيت في افتتاح جلسات الملتقى الدولي للصناعات الثقافية في العالم الإسلامي بمناسبة الاحتفال بأصفهان عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٦م.

جـلال الدين الرّومــــي

المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» أعلنت سنة ٢٠٠٧، سنة دولية للاحتفال بذكرى مرور (٨٠٠) عام على ميلاد العالم والشاعر والمتصوّف الفقيه، جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين البلخي القونوي، المعروف بالرومي (٦٠٤-٦٧٢هـ/١٢٠٧-١٢٧٣م)، وتقام بهذه المناسبة ندوات وملتقيات ومؤتمرات عالمية عديدة، محورها عطاءات ونتاجات ودراسات هذا العالم المسلم الذي أحرز مكانة علمية كبيرة، وكان معلّماً وفيلسوفاً مميزاً استعان بثقافته ومعرفته أهل زمانه، وما زالت كتبه وآثاره الشعرية والأدبية مراجع عظيمة يستفاد منها في الفكر والتأمل والفقه والإنشاد والموسيقا..

الدراسات والأبحاث التي قدّمت لحياة جلال الدين الرومي، تشير إلى أنه ولد في مدينة بلخ في الجمهورية الإيرانية الإسلامية، وكان والده عالماً دينياً، أحرز مكانة علمية مرموقة، ولكنه اضطر أن يترك بلخ لخلافهِ مع حاكم البلاد، وانتقل بابنه سنة (٦٠٩هـ) إلى مدينة نيسابور، وهناك التقت أسرة جلال الدين، بالشاعر المتصوّف فريد الدين العطار، وتذكر الروايات أنه تنبأ لجلال الدين بمستقبل عظيم، وأعطاه مؤلفه «أسرار نامه» المعروف باسم كتاب «الأسرار»..

لم يلبث الأب أن رحل بأسرته إلى بغداد ومكة المكرمة وملطية وأرزنجان ولارنده، واستقر أخيراً في مدينة قونية سنة (٦٢٣هـ)، وبعد وفاة والده، بقي جلال الدين في

قونيه لا يفارقها إلا ليعود إليها، وفيها التقى الصوفي المتجول شمس الدين التبريزي الذي كان له الأثر العميق في نفس جلال الدين وحياته وشعره، فأهداه ديوانه «شمس تبريز».

لقد أخذ جلال الدين عن شمس الدين تعاليم الصوفية وأسرارها، وقد تألم الرومي من رحيل صديقه التبريزي، وقرر تخليداً لذكراه أن يرتدي وأتباعه «الزي المولوي» نسبة إلى «مولانا جلال» المؤلّف من القلنسوة الطويلة المصنوعة من اللّباد البنّي، ومن عباءة واسعة تستر إزاراً أبيضاً فضفاضاً، وهو الزي الذي ما زال دراويش المولوية يرتدونه في مناسباتهم، والذين غدوا يتقنون هذا الفن الدوراني الروحي أمام إمامهم ومعلمهم كما تدور السيّارات الفلكية حول ذاتها وحول مركز الشمس التي تجري في مستقر لها رهينة الدوران حول الذات أيضاً.

ترك جلال الدين آثاراً نثرية وشعرية.. آثاره النثرية تنحصر في ثلاثة مؤلفات هي: « المجالس السبعة» وهي عبارة عن مواعظ وخطب، كتبها قبل أن يعتنق الصوفية، وكتاب «فيه ما فيه» ويتضمن مجموعة من الأحاديث والمحاضرات التي ألقاها على مريديه وتلاميذه.. وكتاب يضم مجموعة من الرسائل التي كتبها في فترات متباعدة إلى أصدقائه ومعارفه وأقاربه..



أما آثار جلال الدين الرومي الشعرية، فتمثل الجانب الأكبر والهام من إنتاجه، وله قصائد وغزليات صوفية كتبت بالعربية واليونانية والفارسية والتركية، وأهم هذه الآثار على الإطلاق كتاب «المثنوي» الذي جُمع في ستة أجزاء ويضم نحواً من /٢٥/ ألف بيت شعر باللغة الفارسية، يتخللها بعض الأشعار التي كتبت باللغة العربية..

يقول جلال الدين الرومي في مقدمة كتابه: هذا كتاب «المثنوي» وهو أصل أصول الدين في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله

الأزهر وبرهان الله الأظهر، «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح» يشرق إشراقاً أنور من الإصباح، وهو جنان الجنان ذو العيون والأغصان، منها عين تسمى عند أبناء السبيل سلسبيلاً وعند أصحاب المقامات والكرامات خير مقاماً وأحسن مقيلاً.. الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار فيه يمرحون ويطربون، وهو كنيل مصر شراب للصابرين وحسرة على آل فرعون والكافرين.. إنه شفاء الصدور وجلاء الأحزان وكشاف القرآن وسعة الأرزاق وتطبيب الأخلاق..

لقد وضع جلال الدين الرومي في «المثنوي» كل عبقريته الشعرية في خدمة حماسه الصوفي، وهو إذ يستعمل الحكايات والأساطير شبه التاريخية والتأملات والمجازات والأمثال، فإنه يلتزم دائماً بالموضوع الوحيد الذي يدور حوله كل الديوان، وهو محبة الله تعالى والسعي إلى ذلك الحب، وهذا هو الشيء الوحيد الذي له قيمة، ويعتقد جلال الدين الرومي أنه لا بد للإنسان من أن ينسى نفسه حتى يفنى في الله.. والحكايات الواردة في «المثنوي» يتلو بعضها بعضاً ومتداخلة، كما يقدم أكثر التشبيهات إيحاءً للقارئ، ورموزه وأوصافه تفيض بالوحي الشاعري، وكل ذلك غارق في حكمة الشرق كثيراً ما تصاحبها في فارس نغمة شوق وحنين مريرة أحياناً، ومفعمة بالمرح أحياناً أخرى، نغمة يبدو أنها تلقي على الناس والأشياء ظلاً خفيفاً من روح الشك، لكن النغمة السائدة في «المثنوي» تظل دائماً نغمة السعي الأليم حيناً، الغامر حيناً آخر نحو لقاء الواحد المحبوب (الله تعالى).

لقد بُني «المثنوي» على مجموعة من القصص لبيان مقاصد صوفية وفلسفية وتعليمية، وقد جعلها جلال الدين محوراً لمناقشات وألوان من الحوار.. فهو يورد القصة أو قسماً منها، ثم يستطرد للتحدث في الحكمة التي يريدها من وراء القصة، وينتقل من موضوع إلى آخر بصورة فنية مترابطة.



لقد قدّم جلال الدين الرومي، في كل قصة أو حكاية أوردها في «المثنوي» دلالات فكرية وتربوية وفلسفية وأخلاقية، وصاغها بأسلوب فني رائع والأمثلة كثيرة:

كان في سالف الزمن بقّال، وكان له ببغاء حسن الصوت، أخضر اللون، فصيح، كان على الدكان يقف حارساً له، ويحدّث التّجار جميعاً بلطيف المقال، فقد كان ناطقاً في خطاب الآدميين، كما كان حاذقاً في غناء الببغاوات.. وذات يوم قفز من ناحية الدكّان إلى الناحية الأخرى، فأراق زجاجات زيت الورد وجاء صاحبه من ناحية المنزل، وجلس على الدكّان فارغ البال، كأنه من السادة، فرأى الدكّان قد غمره الزيت، وثيابه لزجة، فضرب الببغاء على رأسه، فصار أقرع من الضرب.

وامتنع الببغاء عن الكلام بضعة أيام، فأصبح الرجل البقّال يتأوه من الندم، فكان يقتلع شعر لحيته ويقول: واأسفاه! إن شمس نعمتي أصبحت تحت السحاب.. ليت يدي كانت قد كُسرت في تلك اللحظة.. كيف ضربت هذا الحلو اللسان على رأسه؟ وجعل يعطي الهدايا لكل درويش، لعله يسترد نطق طائره.. وبعد ثلاثة أيام من الحيرة والألم، كان يجلس على الدكّان، كأنه بائس، وكان يظهر للطائر كل لون من العجائب، لعله يبدأ النطق من جديد، وفي تلك اللحظة، كان درويش عاري الرأس يمّر أمامه، وكان رأسه خالياً من الشعر كأنه ظهر طاس أو طشت، فنطق الببغاء في ذلك الوقت وصاح بالدرويش: يا فلان لماذا اختلطت أيها الأقرع بغيرك من القُرع؟ لعلك أرقت الزيت من الزجاجة!.

قال البُلهاء للمجنون جهلاً، إن حسن ليلى ليس طاغياً، إنه أمر سهل يسير، فأجمل منها مئات الآلاف من الفاتنات، كأنهن الأقمار في مدينتنا.. هناك الآلاف أكثر رقّة منها وكأنهن الحور فاختر من بينهن رفيقة جميلة، وخلّص نفسك وخلّصنا أيضاً من هذا الهوس القبيح المريب.

قال المجنون: إن الصورة كالوعاء والحسن خمر، والله تعالى يسقيني الخمر

من صورتها هي، وربما أعطاكم الله الخل من وعائها حتى لا يكون عشقها جاراً لكم من الآذان، فمن وعاء واحد، يعطي الله تعالى السمّ والعسل لكل إنسان، وإنك لترى الوعاء، لكن الشراب لا يبدي وجهه لعين من ليس على صواب.



يعدّ جلال الدين الرومي المؤسس الأول لحلقات الذكر المعروفة باسم «المولوية» فهو ناظم معظم الأشعار التي كانت تنشد في المساجد العديدة التي أنشئت خصيصاً لهذه الطريقة، التي تبدأ بتلاوة من القرآن الكريم من أحد المنشدين الجالسين في السّدة، ثم يؤدي رئيس الزاوية بعض الأدعية والابتهالات، ثم ينشد أحد الدراويش شعراً يقول فيه:

إذا رمت المنى يا نفس رومي

لمولانا جلال الدين الرومي

وعند كلمة «مولانا» تضرب ثلاث ضربات ويبدأ العزف بالنايات، ثم ينهض الدراويش ويبدؤون بالدوران بطريقة فنية خاصة، تعشقها الأذن قبل العين، وتتحرك عند سماعها ومشاهدة حركاتها، خلجات القلوب وتفكّر في مغزاها العقول..

في معرض حديثه عن هذه الطريقة الصوفية في الإنشاد الغنائي الراقص، يقول الشيخ جلال الدين الرومي: «ثمة طرق كثيرة توصل إلى الله، أما أنا فقد اخترت طريق الرقص والموسيقا، لأن هنالك سرّاً من الأسرار مستتر في إيقاعات الموسيقا، لو كشفته لزلزل العالم!!».. إذن جلال الدين اختار الرقص والموسيقا، التي بإمكان مريديها أن يتواصلوا فيها مع الله تعالى (بالحركة) كما بالسكون، ومن هذا المنطلق يمكن القول إن «المولوية» هي رقصة لكنها ليست ككل الرقصات، فلباسها الثوب الأبيض، الذي يعني الكفن والمعطف الأسود، يرمز إلى القبر، والقبّعة العالية ذات الشكل المخروطي، والتي تصنع من مادة اللباد الصوفي، تعني شاهدة القبر.

تبدأ حلقة «المولوية» بدخول الشيخ على الدراويش، وهم في حالة الاستعداد، فيحييهم ويردون عليه التحية، بإيماءة، ثم يجلس أمام البساط الأحمر، الذي يعيدنا لونه إلى الأذهان ذكرى لون الشمس الغاربة عندما توفي جلال الدين الرومي عام (٦٧٢هـ/١٢٧٣م).. بعد ذلك يبدأ ذلك التحليق في الفضاء حيث الروح تبحث عن حريتها.. عن لحظة تسترد فيها شجاعتها، حيث لا إله إلا ذاك في السماء.. حيث تتماهى الروح به، وتذوق طعم اللذة والفرح، ويستمر صوت المغنّي المنشد، يترنّم بالغناء الصوفي على عزف الناي، وإيقاع الدف.. الشيخ يتقدم دراويشه ببطء.. ثم يدورون معه ثلاث دورات في ساحة الرقص.. دورات يطلبون فيها التقرّب من الله تعالى.. بعد ذلك يرمي الشيخ معطفه ويجلس على البساط الأحمر، ويتبعه الدراويش برمي معاطفهم ذات اللون الأسود، متخلصين من القبر، فنرى الثوب الأبيض، ويطلبون من شيخهم أن يأذن لهم بالرقص..

يبدأ الدراويش الدوران ببطء رافعين سواعدهم كأنها أجنحة نسر، بينما راحة يدهم اليمنى تنبسط متوجهة إلى أعلى.. لجمع الرحمة الإلهية.. أما راحة اليد اليسرى فتأخذ الرحمة من اليد اليمنى، وترمي بها إلى الأرض، حيث تتبخّر (الرحمة) ويستمر الدراويش في حالة استنفار ودوران وجرأة شديدة لا يخشون فيها أي انهيار أو سقوط، وكأن أرواحهم هي التي تحلّق.. تعيش في نار متقدّة، أسكرها حب الحبيب الذي لا يشبعون من النظر إليه..

يقول جلال الدين الرومي في إحدى رباعياته: سألت الناي: ما شكواك، وأنى لك أن تنوح من دون لسان، فأجابني: فصلت عن القصباء، ولا أستطيع البقاء من دون نواح ونحيب.. أنا الناي أريد صدراً مزّقه الفراق حتى أشرح له ألم الاشتياق. ولأن المولوي يرقص.. يتحرك على صوت الناي، فالموسيقا، موسيقاها- حسب الرومي- (نار) وليس (هواء) منفوخاً فلا كان من ليس لديه هذه النار، لأن نار العشق هي التي حلّت في الناي، مثلما أن جَيَشان العشق هو الذي يجعل الحمّرة تغلي، بل إن

الناي هو صفي كل من أُبعد عن حبيب، وأنغامه تمزّق ما أُسدل عن أبصارنا من حُجب..

على صوت الناي يندفع الدراويش في الدوران، الذي يفسّره جلال الدين الرومي بأنه يمثّل المسارات الدائرية للكواكب وحركة الكون، ذلك أن الكواكب تدور حول الشمس وحول مركزها.. وإلى جانب الناي نسمع أصوات الدفوف التي تذكرنا بالصور يوم القيامة.. ويتعانق المشهد بكل أبعاده الروحية والجسدية والفكرية والسمعية، لنصل إلى حالة وجد لا أحلى ولا أجمل..



السياحة الدولية (الآفاق والتحديات)

اجتماعات الدورة الثلاثين للجنة الإسلامية للشؤون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي عقدت في مدينة جدة- المملكة العربية السعودية- بين ٣و٥آذار ٢٠٠٧م، بدعوة من منظمة المؤتمر الإسلامي، كانت فرصة مناسبة ومهمة للتركيز على قضايا تكتسي أهمية بالغة في العالم الإسلامي، وكان لي شرف رئاسة وفد الجمهورية العربية السورية في هذه الاجتماعات..

لقد حملت التقارير التي قدمت سمات التجديد والابتكار، من حيث الشكل والجوهر وتنوع النشاطات والمبادرات التي تغطّيها، انطلاقاً من القناعة بأن الأفعال أبلغ من الأقوال، فجاءت شاملة لمواضيع ثقافية عامة مثل: «الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي» و«الجوانب الثقافية للعولمة» و«الإعلان العالمي للحوار بين الحضارات» و«وضع تقويم هجري موحد للشهور القمرية والأعياد الإسلامية» و«رعاية الأوقاف وتفعيل دورها في المجتمعات الإسلامية» و«العمل على حماية التراث الإسلامي في العالم» و«المساجد والأماكن المقدسة».

كما تناولت التقارير والمناقشات التي دارت في اجتماعات الدورة مواضيع اجتماعية حول «دور المرأة في تنمية المجتمع الإسلامي» و«إيجاد آلية تعنى بشؤون المرأة والأسرة في منظمة المؤتمر الإسلامي» و«وضع الطفولة وحمايتها في العالم الإسلامي» و«التعاون في مجال النشاطات الشبابية ومكافحة المخدرات» و«الأمور المتعلقة بالصحة ومكافحة الأوبئة والحفاظ على البيئة».

وتمت مناقشة الأمور المتعلقة بالجامعات الإسلامية، والمراكز والمعاهد الثقافية الإسلامية، إضافة إلى محور خاص للشؤون الثقافية الفلسطينية يتضمن موضوعات مثل: الوضع التعليمي في الأراضي المحتلة، والمحافظة على التراث الحضاري في مدينة القدس الشريف، وتدريس مادة تاريخ فلسطين وجغرافيتها في الدول الأعضاء البالغ عددها /٥٧/ دولة.



بحكم العمل والمتابعة، كان لنا مداخلة ومناقشات عديدة حول موضوع «السياحة الدولية في البلدان الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي: الآفاق والتحديات» وأهمية الموضوع تكمن في النمو الكبير الذي شهده النشاط السياحي العالمي في السنوات الماضية.. فحسب بيانات منظمة السياحة العالمية: «ارتفع عدد السياح الدوليين من /٢٥/ مليون سائح في عام ١٩٥٠ إلى /٧٦٠/ مليون سائح في عام ٢٠٠٤ أي بمعدل نمو سنوي بنسبة ٦,٦٪، كما شهدت العوائد التي ولّدها ذلك النشاط نمواً سنوياً بنسبة ١١٪ خلال الفترة نفسها، ويفوق هذا المعدل بكثير معدل نمو الاقتصاد العالمي ككل، مما يجعل السياحة الدولية إحدى أهم فئات التجارة الدولية.

من مميزات النشاط السياحي الدولي، انتشاره الجغرافي المستمر، وتنوعه من حيث الوجهات السياحية، وعلى الرغم من استمرار تركز ذلك النشاط في الأقاليم المتقدمة (أوروبة والأمريكيتين) فإنه يلاحظ حدوث زيادة كبيرة أيضاً في الأسواق المستقبلة للسياح في الأقاليم النامية التي أصبحت السياحة الدولية في كثير منها أحد أهم النشاطات الاقتصادية، ومصدراً رئيسياً من مصادر عوائدها من العملات الأجنبية وفرص العمل.. لذلك أصبحت السياحة تحظى باهتمام كبير في استراتيجيات التنمية لدى العديد من البلدان النامية، كما أدرجت ضمن جدول أعمال العديد من المؤتمرات الدولية التي عقدت مؤخراً حول التنمية المستدامة.

وبالنظر إلى ما تنعم به بلدان منظمة المؤتمر الإسلامي، من تراث غني ومتنّوع (جغرافياً وتاريخياً وثقافياً) فإنها مطالبة بإرساء قطاع سياحي دولي مستدام، إلا أنه بالنظر إلى الحصة المتواضعة التي تحظى بها تلك البلدان في السوق السياحية العالمية، وتركز النشاط السياحي في عدد محدود منها، فإنه من الواضح أن جزءاً كبيراً من تلك الإمكانيات لم يستغل بعد على النحو المطلوب.

مما لا شك فيه أن قطاع السياحة يمكنه أن يلعب دوراً مهماً في التنمية الاقتصادية والاجتماعية لدى بلدان العالم الإسلامي، بفضل ما تتمتع به من موارد سياحية يمكن استغلالها، وبناء عليه تركزت الأبحاث والحوارات حول تقييم أداء قطاع السياحة الدولية ودوره الاقتصادي لدى البلدان الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، وتم إلقاء الضوء على عدد من القضايا والمشاكل التي تعترض التنمية السياحية وقيام تعاون بين بلدان المنظمة في هذا المجال، وتم طرح مجموعة من التوصيات الإرشادية التي يراد منها لفت انتباه البلدان الأعضاء فيها.



بالنظر إلى ما تتمتع به بلدان العالم الإسلامي من مزايا طبيعية وجغرافية وتاريخية وثقافية كبيرة ومتنوعة، فيمكن القول إن تلك البلدان لديها إمكانيات هائلة لإرساء قطاع سياحي دولي مستدام، إلا أنه عند الأخذ بعين الاعتبار مدى انخفاض حصة تلك البلدان في السوق السياحية العالمية، وتركزّ النشاط السياحي في عدد محدود منها، يصبح من الواضح أن تلك الإمكانيات السياحية الكامنة لم تستغل بعد على النحو المطلوب، وأن تلك البلدان، لم تنجح بعد في بلوغ المستويات المطلوبة من التنمية السياحية، لذلك فإن الموارد السياحية الطبيعية، على أهميتها، لا تكفي في حد ذاتها لقيام صناعة سياحية ناجحة، لم يتم التخطيط لها وإدارتها بصورة جيدة..

وتتباين المشاكل التي تعترض تنمية وتطوير قطاع السياحة من بلد إلى آخر، ومع ذلك يمكن تلخيص بعض تلك المشاكل في ضوء البيانات على النحو التالي:

- نقص المعرفة الفنيّة، وضعف النشاط الترويجي، على الرغم من توفر الوعي والدراية بالأهمية الاقتصادية التي تكتسبها السياحة كصناعة، ومالها من أثر إيجابي كمصدر من مصادر الدخل وفرص الاستخدام.

- نقص البنى الأساسية السياحية، حيث تفتقر بلدان المنطقة إلى البنى اللازمة لإرساء وتطوير قطاع سياحي مستدام، والتي من أهمها: الفنادق وخدمات الإيواء والنقل والاتصالات والاستعلامات، مما يصعب معه استيفاء المعايير الدولية للمنشآت والخدمات التي يحتاجها السائح.

- نقص الاستثمارات السياحية: بينما يعتبر الاستثمار في الخدمات أحد النشاطات الاقتصادية الراسخة في البلدان المتقدمة، فهو لا يزال متأخراً في البلدان النامية، فالاستثمار في المشاريع الخدمية، وخاصة السياحية منها، كثيراً ما يُنظر إليه في بلداننا على أنه نشاط محفوف بالمخاطر.

- غياب السياسات والاستراتيجيات السياحية المتناسقة، ويعود ذلك عموماً إلى تضارب السياسات بين الإدارات الحكومية المعنية والوكالات والمؤسسات السياحية الخاصة وتناقض مصالحهما، وكثيراً ما يكون هذا الوضع مصحوباً بنقص في مستوى الإدارة والتنظيم السياحيين.

- نقص التنوع السياحي، حيث يشهد النشاط السياحي العالمي الحديث اتجاهاً متزايداً نحو التنوع والتغيير، مما يصعب على الكثير من الدول النامية، بما فيها تلك التي لديها قطاع سياحي متقدم نسبياً، أن تواكب التغيرات السريعة والمعقدة في متطلبات السياح، ومما لا شك فيه أنه في ظل المنافسة الحادة التي

تعيشها السوق السياحية العالمية، وظهور مراكز سياحية جديدة، فإن تهيئة الظروف من أجل قيام قطاع سياحي حديث ليست بالأمر الهيّن.

- نقص السلامة، وتأتي سلامة السياح في مقدمة الأسس التي ترتكز عليها أي صناعة سياسية ناجحة، لذلك فإن السلامة تشكل أحد الأهداف الأساسية للتخطيط والإدارة السياحيين..



لقد تم تحديد السياحة كأحد مجالات التعاون العشرة ذات الأولوية ضمن خطة عمل منظمة المؤتمر الإسلامي لتعزيز التعاون الاقتصادي والتجاري (كومسيك) في دورتها العاشرة التي عقدت في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٤، ثم من قبل القمة الإسلامية السابعة التي عقدت في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٤ بالدار البيضاء، كما أقرّت القمة نفسها آلية المتابعة والتنفيذ كجزء مكمل لخطة العمل.

وتتمثل أهم أهداف الخطة من حيث التعاون السياحي بين البلدان الأعضاء، في النهوض بالنشاط السياحي وتطويره في تلك البلدان من حيث دعم وتطوير العمل المشترك على المستويين الثنائي ومتعدد الأطراف، وإرساء منشآت ونشاطات جديدة، مما يمكّن من استيفاء معايير المنافسة الدولية من حيث جودة الخدمات وتنوع النشاطات السياحية، كما تشجع الخطة على مشاركة القطاع الخاص في السياحة من خلال إقامة المشاريع المشتركة في مجال الارتقاء بالقدرات المادية ونوعية الخدمات.

ولتحقيق هذه الأهداف الطموحة تشير الدراسات وورقات العمل التي قدمت في الاجتماعات إلى بعض النشاطات التي أدرجت تحت عنوان «برامج العمل» وتمثل مصدراً لمجموعة متنوعة من الأساليب والآليات لتعزيز التعاون السياحي بين البلدان الأعضاء، نذكر منها:

- زيادة الوعي العام بالموارد والمنشآت السياحية الموجودة في العالم الإسلامي.

- إجراء اتصالات مباشرة بين الجهات والمؤسسات والهيئات ذات العلاقة بالسياحة في البلدان الأعضاء.

- تشجيع ودعم النشاطات المتعلقة برأس المال البشري اللازم في مجال السياحة للتأكد من استيفاء المعايير الدولية.

- خدمة التعاون الفني لتحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية على نحو مفيد لتطوير المشاريع السياحية، ويتم في هذا الإطار الاستعانة بأهم الخبراء والشركات في العالم لتنفيذ مهام التعاون الفني في البلدان الأعضاء.

- التعاون مع مؤسسة السياحة المستدامة من أجل محو الفقر، في إطار المبادرة التي أطلقتها منظمة السياحة العالمية بالتعاون مع مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية أثناء القمة العالمية حول التنمية المستدامة التي عقدت في «جوها نسبرغ- عام ٢٠٠٢» بهدف العمل على تحقيق التنمية السياحية المستدامة كقوة مساعدة على تخفيف حدة الفقر.

- تطوير التعليم الموجه نحو السياحة، لأن ذلك سيساعد على تغيير المفاهيم المترسخة في الأذهان فيما يتعلق بالسياحة وعلى رفع الوعي بالفرص والتحديات التي ينطوي عليها هذا القطاع، وينبغي أن يصاحب ذلك استغلال فعال لوسائل الإعلام ولسائر التسهيلات الترويجية من أجل الدعاية والترويج لنقاط الجذب وللموارد المتوفرة.



جدة- المملكة العربية السعودية- آذار 2007

التراث الثقافي غير المادي

بدعوة كريمة من «هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث» في دولة الإمارات العربية المتحدة، عقدت بين (١و٤نيسان ٢٠٠٧) أعمال الملتقى الإقليمي الأول للمنطقة العربية حول صون التراث الثقافي غير المادي، والتنفيذ وإعداد قوائم الحصر، وقد شاركت في هذا الملتقى جميع الدول العربية، وبعض المراقبين الدوليين، وممثلين عن منظمات «اليونسكو» و«أليكسو» و«الاسيسكو»، وكانت فرصة جيدة لاستعراض تجارب عربية وعالمية، والعمل على دراسة إنجاز جماعي، باعتبارنا ننتمي إلى أمة واحدة، لها موروثها المادي والشفهي، في عصر «العولمة» الذي يتعارض مع القيم والموروث الثقافي والهوية الوطنية..

لقد وقعت على اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي التي أقرّتها «اليونسكو» في باريس يوم ١٧ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٣، وصدّقت عليها نحو /٧٥/ دولة- حتى الآن، ودخلت حيّز التنفيذ رسميّاً في ٢٠ أبريل/نيسان ٢٠٠٦، وكانت سورية الدولة رقم /١٣/ من بين هذه الدول، التي اهتمت وأكدت على ضرورة حماية هذا التراث، بالنظر للتهديدات التي تحدق به، بسبب أنماط الحياة المعاصرة.

بمقتضى هذه الاتفاقية، تقوم كل دولة من الدول الموقعة عليها، وبصورة ملائمة لأوضاعها، بوضع قائمة أو أكثر لحصر التراث الثقافي غير المادي الموجود لديها، ومن شأن هذه الصياغة غير الصارمة أن تتيح للدول الأطراف هامشاً واسعاً للتصرف

في وضع قوائم الجرد الوطنية، وغني عن الذكر بأن الغاية من ذلك «ضمان تحديد التراث غير المادي بقصد صونه»وبداهة فإن القصد بالصون «التدابير الرامية إلى ضمان استدامته» وبالتالي يترتب على ذلك بأن قوائم الحصر ينبغي أن تشمل كل الممارسات والتعابير الحيّة، وتوفير كل المعلومات عن استدامتها..

إن مشاركة الحكومات والمؤسسات والهيئات والجامعات، في تحديد وصون التراث الثقافي غير المادي، قد وردت في الاتفاقية كضرورة ملحّة، يجب القيام بها، كما أن المادة /١١/ منها تحثّ الدول الأطراف على تحديد وتعريف مختلف عناصر التراث الثقافي غير المادي الموجود في أراضيها، بمشاركة الجماعات والمجموعات، وقوائم الحصر، وبيانات الجرد الوطنية، التي أعدّتها مؤسسات البحث، أو هيئات وزارية، تتفاوت كثيراً في مضامينها، ومقارباتها، فبعضها اعتمد التقسيم الإداري، بينما اعتمد بعضها الآخر، منهج ترتيب التراث بحسب الجماعات أو المجال (من قبيل الموسيقى والرقص أو التقاليد الإثنية المتعلّقة بالمعارف النباتية) وبما أن الاتفاقية لاتحدد مؤشرات تتعلق بقواعد التصنيف، فإن للدول الأطراف كامل الحرية في هيكلة قوائم الحصر بالصورة التي تراها أكثر ملاءمة لها، ومن خلال هذا، فإن الخبراء الذين قدموا مداخلات ودراسات في الملتقى الثقافي أقرّوا بصعوبة وضع حصر للتراث، وخاصة في البلدان ذات الثراء الكبير في تنوعها الثقافي واللغوي، وهنا لا بد من الإشارة إلى تجربة «فنزويلا» التي تجري فيها تجربة مثيرة جداً، حيث إن مشروع الجرد، الذي انطلق في عام ٢٠٠٣، قد تمكّن فعلاً من جرد أكثر من /٦٠/ ألف عنصرٍ من التراث الثقافي غير المادي، والمادي في مجموع البلاد، ومن المتوقع أن يحتوي الجرد، عند نهايته القريبة أكثر من مئة ألف عنصرٍ، وستنشر المعطيات المتجمّعة في سلسلة تتألف من /٣٢٠/ مجلداً..



لقد أجمعت الدراسات التي قدمت في الملتقى العربي الأول للتراث الثقافي غير المادي، بشكل عام، على ضرورة وضع معايير محددة ومرنة تستوعب التنوع الثقافي للتراث غير المادي في الوطن العربي والعالم، كما أكد الأعضاء أيضاً على ضرورة تطوير المعايير مع تزايد الخبرة ونمو المفاهيم بمرور الوقت، وهذا كان واضحاً بصورة جيدة في ورقة عمل «ساتوريو هيوكي» كبير الباحثين في قسم التراث غير المادي- معهد الأبحاث الوطني –طوكيو- اليابان، حيث تحدث فيها عن جهود اليابان للحفاظ على هذا التراث من خلال مجموعة القوانين والتشريعات التي أقرّتها الحكومة اليابانية منذ عام ١٩٥٠، ذلك لتعرّض التراث غير المادي الياباني للكثير من التحديات المحليّة التي تتمثّل في عدم اهتمام الشباب الياباني بالمورثات الشعبية، والتطلع نحو ثقافة «العولمة الحديثة» التي تركت أو تحاول أن تترك آثارها على المجتمعات الشرقية ذات التقاليد الثقافية الرائعة، وتحدث عن أهم الفنون الشعبية في اليابان التي تعبّر عن هوية وخصوصية الشعب، وقد تم في عام ١٩٧٥، تعديلات للمفهوم الثقافي حيث أصبحت هناك مجتمعات ثقافية متنوعة تشتمل على النواحي الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

هذا يعني أن هناك تحولات في المفهوم الاقتصادي والاجتماعي للتراث الثقافي، وقد انعكس ذلك على «اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي» التي أقرّتها «اليونسكو» في عام ٢٠٠٣، حيث عرّفت هذه الاتفاقية «التراث الثقافي غير المادي» بأنه: «الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات المتطلبة لإتقان المعرفة التقليدية، وما يرتبط بها من الأدوات والقطع والمنتجات اليدوية والفضاءات الثقافية المتصلة بها، والتي تعتبرها الجماعة البشرية والمجموعات والأفراد في بعض الحالات الخاصة، جزءاً من تراثها الثقافي، وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلاً عن جيل، تبدعه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة، بما يتفق مع بيئاتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها، وهو ينمّي لديها الإحساس بهويتها

والشعور باستمراريتها، ويعزز احترام التنَّوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية».

وعلى ضوء التعريف الوارد أعلاه يتجلى «التراث الثقافي غير المادي» بصفة خاصة في المجالات التالية:

١- التقاليد وأشكال التعبير الشفهي، بما في ذلك اللغة كواسطة للتعبير عن التراث الثقافي غير المادي.

٢- فنون وتقاليد أداء العروض.

٣- الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات.

٤- المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون.

٥- المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية.



التجارب العربية قدمت في الملتقى ورقات عمل عنها، تميزت بالغنى والتنوع والشمولية، نذكر منها؛ ورقة العمل التي قدمتها تونس حول «اللقاءات الدولية الأولى حول التراث الثقافي اللامادي» التي شارك فيها أكثر من /١٠٠/ باحث من شتى أرجاء المعمورة، وتمّت بين ١٩و٢٥ شباط الماضي، والتي ركزت على ضرورة التركيز على الجوانب التطبيقية، واستقراء التراث من أجل إدراك آليات الحاضر وبناء المستقبل على أساس جعل التراث الثقافي غير المادي، في الوقت نفسه، رافداً أساسياً للتنمية المستدامة، وقواماً مركزياً للهوية، وموطناً للتعدد الثقافي المتحاور.

- ورقة العمل الإماراتية التي قدّمها الباحث عبد العزيز المسلم، كانت غنية بالمعلومات عن التجمّعات الإنسانية القديمة التي ظهرت مكتشفاتها من خلال أعمال الكشف الأثري والجمع الميداني، سواء في السواحل أو في الواحات أو البادية، مما

كان له الأثر الكبير في إيجاد تنوع ثري في التراث الثقافي، كما أن الإمارات الحديثة بها تجمّعات سكانية مميزة اختلطت فيها قبائل شبه الجزيرة العربية من الشرق والغرب والشمال والجنوب لتشكل بالتقائها تراث ثقافي فريد، وكان أول تحرّك عملي للاهتمام بالتراث الثقافي في الإمارات، في عام ١٩٧٣، بتأسيس لجنة التراث والتاريخ، التي افتتحت لها مكاتب في مدن (أبو ظبي- دبي- الشارقة- الفجيرة..) وأنجزت عدة مشاريع لتوثيق التراث الثقافي من خلال مسوحات ميدانية، نذكر منها: الشعر الشعبي، تراث النخيل، الطب الشعبي، الإبل، الأمثال والحكم، وجانب كبير من العادات والتقاليد..

- ورقة العمل البحرانية، التي قدمها الباحث إبراهيم سند، ركزت على الاهتمام الواضح بالتراث الثقافي غير المادي، الذي بدا عن طريق بعض الجهود الفردية، مما كان له الأثر الكبير في دفع بعض الهيئات والمؤسسات للولوج في مسارات الثقافة الشعبية، والسير نحو المسار العلمي في جمع وتوثيق وأرشفة المواد التراثية وقد استطاعت إدارة المتاحف والتراث، من تغطية العديد من المواضيع والبحوث الخاصة بالعادات والتقاليد والمعتقدات الشعبية، وتمّ جمع عدد كبير من الحكايات الشعبية من مختلف مناطق البحرين، إضافة إلى جمع الأمثال والأغاني الشعبية والصناعات التقليدية..

- ورقة العمل الأردنية، قدّمها الدكتور هاني العمد، الذي عرض تجارب رسمية تعنى بالتراث غير المادي مثل: وزارة الثقافة التي جمعت مادة جيدة وحفظتها، وزارة الإعلام التي قدّمت التراث الثقافي غير المادي من خلال برامج إذاعية وتلفزيونية، ووزارة التعليم العالي، التي تدعم المشاريع العلمية في هذا المجال، ومؤسسات المجتمع الأهلي والنشاطات الفردية.



المشاركة السورية في الملتقى الثقافي، كانت من خلال ورقة العمل التي قدّمها كاتب هذه السطور، حول «السياحة الثقافية والتراث غير المادي» حيث أكد على ضرورة الاستفادة من هذا التراث الفني والمتنوع والشامل، لدعم مواقف بلداننا العربية على الخريطة السياحية العالمية، وجذب شرائح مختلفة من السياح من شتى أصقاع العالم.. وتتمثل عناصرها في إعداد مسالك سياحية نموذجية «مادية وغير مادية» تتمحور حول تجارب ثقافية حضارية معينة، قطبها المواقع والمعالم الأثرية، ومدارها ما تحتويه بلداننا العربية من تنوع كبير في العادات والتقاليد والمهرجانات والأعياد، و«الفلكلور» الفني المتنوع، ومواقع طبيعية وبيئية وصحية ودينية مقدسة.. وهذه العناصر التراثية كلها قابلة للتوظيف في حركة السياحة الواعدة في الوطن العربي.

وأكدت من خلال هذه الورقة على ضرورة الاستفادة من العناصر المكوّنة للتراث الثقافي غير المادي، في عمليات الجذب السياحي، واستقطاب السياح من فئات وجنسيات مختلفة، وأشرت إلى فكرة «المنتج السياحي المتكامل» المعروف جيداً في كثير من الدول، لتأخذ طريقها إلى حيّز التنفيذ، وهذه الفكرة في حال تسويقها جيداً للسياح، تساهم مساهمة فعّالة في دعم مشروع السياحة الثقافية، بحيث يتحول شكل الجولة التقليدي للسياح إلى منتج سياحي متكامل، كأن تشكل فكرة استعادة التاريخ، وأشكال الحياة القديمة في المواقع الأثرية، وزيارة المحميّات الطبيعية، وتنظيم فعاليات فنية واجتماعية وثقافية و«فولكلورية» وهذا يمكن أن يتم بصورة جيدة وفعّالة في مدن عربية قديمة مثل: دمشق وحلب وبغداد والقاهرة وفاس وسوسة وقرطاج وصنعاء وبصرى الشام وتدمر وغيرها..

- المشاركة السورية الثانية، كانت من خلال ورقة العمل التي قدّمها الأستاذ كامل اسماعيل حول «التجربة السورية في جمع وحفظ التراث الشعبي بعد اتفاقية ٢٠٠٣ والآفاق المستقبلية» التي أشار فيها إلى «النوايا الحسنة» التي سبقت الاتفاقية،

والتي تمثّلت في تسجيل بعض مظاهر الفنون الشعبية من فنون حركية وقولية وفنية آخذة في الاندثار، تحت تأثير مظاهر الاتصال والتواصل وتأثير وسائل الإعلام المختلفة، وقام بهذه الأعمال بعض الهواة والباحثين المحليين، وقد تطور العمل الجمعي والميداني مع تأسيس وزارة الثقافة في أواخر خمسينيات القرن الماضي..

أما الآن فقد تضافرت عدة عوامل دولية ووطنية، أعطت دوافع للارتقاء بالاهتمام بالتراث غير المادي، نوعاً وكمّاً، وبعد إقرار اتفاقية ٢٠٠٣، تمَّ تفعيل دور مديرية التراث الشعبي، وإنشاء لجنة وطنية مهمتها، دراسة الاتفاقية، سواء على الصعيد الوطني أو على صعيد التعاون العربي والإقليمي، وتحت عمليات جادة لتشجيع الدراسات والأبحاث وأعمال الجمع الميداني لمكونات وعناصر التراث الثقافي غير المادي.



الملتقى الإقليمي العربي الأول حول «صون التراث الثقافي غير المادي» ختم أعماله بإصدار توصيات مهمة، نرجو أن يكون لها أثرها في توجيه الاهتمام نحو تراث ثقافي غير مادي رائع «تزخر به بلداننا العربية» نذكر من هذه التوصيات:

– تكوين هيئة من كبار المأثورات الشعبية والقانونيين العرب، مهمتها متابعة تنفيذ القرارات والاتفاقات الدولية في مجال حماية الملكية الفكرية.

– ضرورة انعقاد هذا الملتقى العربي بصفة دورية (كل عامين)، على أن تتبادل الدول العربية استضافة فعاليات الملتقى.

– تثمين التجربة المصرية في إنشاء أطلس«الفولكلور» العربي، وضرورة تنمية الحرف والصناعات التقليدية اليدوية ضمن أنشطة المدارس الفنية، وإقامة المسابقات بين الطلاب لتشجيعهم على الإقبال عليها، وتخصيص الأسواق المهنية بعرض منتجاتهم.

- أوصى الملتقى بضرورة تفعيل اتفاقية «اليونسكو لعام ٢٠٠٣» المتعلقة بحفظ وحماية التراث الثقافي غير المادي، وحثّ الدول العربية على الاستفادة، والتزود بآلية العمل من أجل حماية التراث، والقيام بدراسات، في كل دولة على مستوى الوطن العربي، حول الرموز ودلالاتها في التراث الشعبي العربي.

- دعا الملتقى هيئة (أبو ظبي) للثقافة والتراث إلى تخصيص جائزة للمبدعين في مجال التراث، ومنظمة «الاليكسو» إلى تقديم مشروع لوزراء الثقافة العرب، لإنشاء مركز عربي يعنى بالتراث الثقافي غير المادي، يضم جميع الخبرات العربية.

- وجه المشاركون في الملتقى، الدعوة إلى اعتماد كتاب «المكنز المصري» للدكتور مصطفى جاد، ليكون قاعدة أساسية لآلية العمل في مجال جمع التراث الثقافي غير المادي.

- إصدار مجلة متخصصة بالتراث الثقافي غير المادي، والطلب من الهيئات الثقافية المعنية في دولة الإمارات العربية المتحدة القيام بتنفيذ هذا المشروع نظراً للإمكانات المتوافرة لديها.

- وضع آليات عمل قابلة للتنفيذ على أرض الواقع، حيث تنتهي عمليات الحصر في عام ٢٠٠٧م، ويتم التسجيل خلال عام ٢٠٠٨م.

- ضرورة عقد اجتماع خاص بصون التراث الثقافي غير المادي لممثلي الدول العربية، قبل تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧م، من أجل صياغة ورقة مشتركة، تتضمن مقترحات وبرامج عمل، تقدم إلى المؤتمر العام لمنظمة «اليونسكو» الذي يعقد في تشرين الأول /أكتوبر ٢٠٠٧م.



عرض الكتـــاب

الملتقى العربي الإقليمي للثقافة والتراث غير المادي، الذي استضافته هيئة التراث والثقافة في مدينة (أبو ظبي)- دولة الإمارات العربي المتحدة بين ١و٤ نيسان ٢٠٠٧، وكان لي شرف تمثيل سورية فيه، تزامن مع افتتاح معرض (أبو ظبي) الدولي السابع عشر للكتاب، وكانت فرصة جيدة لمواكبة فعالياته ونشاطاته وضيوفه والاطلاع على أهم الكتب الجديدة التي عرضت فيه.

لقد دشّن هذا المعرض نقلة نوعية في مسيرته، في إطار الاستراتيجية الجديدة التي تنتهجها هيئة (أبو ظبي) للثقافة والتراث، المستندة إلى رؤية تطويرية استقدمت من أجلها إدارة معرض «فرانكفورت» الدولي للكتاب، وتجلى هذا الأمر في الدورات التدريبية الدقيقة التي خضع لها الفريق العامل في إدارة المعرض، والانتقال من المكان القديم في المجمّع الثقافي إلى المكان الجديد على أرض المعارض الرائعة، ورافق هذا الانتقال زيادة كبيرة في المساحة، وفي نوعية النشاطات المرصودة لهذا المعرض، التي كان أهمها المعرض التشكيلي العالمي «تحية إلى الشرق»، وحدث توزيع جائزة الشيخ زايد للكتاب التي تعدّ من أهم الجوائز العربية على الإطلاق، من حيث عنايتها بالكتاب والتأليف ورفد حركة النشر في الوطن العربي.

لقد شارك في معرض (أبو ظبي) للكتاب /٤١/ دولة عربية وأجنبية، يمثّلها أكثر من /٤٠٠/ ناشر، على مساحة إجمالية قدرها /١٣٤٦٤/ متراً مربعاً، وهذا

يؤشر على إقبال دور النشر المحليّة والعربية والعالمية، في محاولة جادة لتوجيه المعرض بالطاقة القصوى نحو تفعيل صناعة الكتاب على المستويات كافة، وتحقيق أهداف طموحة تتجاوز مجرد توفير الكتاب للقارئ بسعر مناسب.

لقد أكد هذا المعرض على القيمة الاعتبارية للكتاب، وفتحت قلبها وعقلها لأكثر من /١٠٠٠/ ضيف بين كاتب ومؤلف ومترجم وأديب وإعلامي من الأسماء اللامعة في الوطن العربي والعالم، الذين ناقشوا العديد من القضايا المهمة في ندوات وورشات عمل بحثت في عملية صناعة الكتاب وإيصاله إلى القراء، ودعم المؤلفين والباحثين والمترجمين، والنتائج الاقتصادية والاجتماعية والفكرية للتوزيع الناجح للكتاب، ودراسة الوضع الراهن لسوق النشر والتوزيع العربي، وأهمية الترويج لتفعيل القراءة واقتناء الكتب في الوطن العربي..

المطلع والمتابع لحركة الكتاب العربي وتاريخ الأدب والتراث العربي يشعر بالغبطة والفخر والسرور، عندما يشاهد وكأن الجاحظ وأبا الفرج الأصفهاني وابن المقفع وعنترة بن شداد والمتنبي وابن عربي، قد استفاقوا على نحو مفاجئ في معرض (أبو ظبي)، ليقدموا لنا عصارة فكرهم المصبوبة في كتب ثمينة ذات أغلفة أنيقة وخطوط تراثية رائعة.. هؤلاء وغيرهم يحضرون على رفوف العديد من دور النشر التي تشارك في المعرض، وتجد إقبالاً واسعاً من الجمهور، الذي وجد فيها موضوعات امتزجت باللوحات التراثية والتنسيقات الرائعة..

اللافت في المعرض أيضاً أن الكتاب الإلكتروني قد أخذ طريقة في النشر العربي، وأصبح يلبي حاجة القرّاء بطريقة مختلفة عن الكتاب الورقي، بدمج الوسائط السمعية والبصرية في إعداده وفتح مواقع للهوامش أثناء القراءة، والتزود بالمعلومات الإضافية، مثل إيجاد معنى كلمة ما من القاموس الإلكتروني المرتبط بالكتاب، أو تقديم شروح عن المؤلف، والتحكم بحجم الحروف، وغير ذلك من المميزات التي

تجعل القراءة مختلفة عن القراءة التقليدية التي اعتدنا عليها من الكتاب الورقي..

أثناء جولاتي في معرض (أبو ظبي) للكتاب، ومن خلال السؤال والمتابعة، وجدت أن الرواية احتلت المرتبة الأولى في المبيعات، وكانت مبيعات الشعر في المؤخرة، وأن هناك تخوف من سطوة التقنيات الحديثة، حيث لم تعد الأجيال الحديثة ترى في الكتاب خير جليس، بل استبدلت المقولة بـ «الإنترنت خير جليس» وهذا ما دفع عدداً من دور النشر العربية أن تحذو حذو العصرنة وتتجه للصناعة الإلكترونية.

ولعلَّ أطرف وأهم ما شاهدته في المعرض، ابتداع الكتاب الذي يقرأ نفسه، الذي أصدرته إحدى دور النشر الاسترالية للأطفال، ويتضمن تقنية ذكية تسمح للكتاب بقراءة نفسه، ويحدث ذلك عند فتح أي صفحة، حيث يؤدي فتحها إلى تشغيل قارئ صوتي بصوت فتاة تتوالى قراءة سطور الصفحة بلغة إنكليزية راقية، وتعد هذه التقنية مثالية لتعليم الأطفال النطق الصحيح للغة الإنكليزية، ومما يزيد أهمية الكتاب أنه مدّعم بالرسوم الملونة الجميلة التي تعبّر عن المضمون الكتابي للمادة المقروءة بطريقة إلكترونية.



معرض (أبو ظبي) للكتاب، كان فرصة كبيرة لدراسة واقع وحال الكتاب العربي، حيث لم تنتج دولنا العربية في سنة واحدة سوى خمسة آلاف وستمئة كتاب فقط، مقابل أكثر من مئة ألف كتاب في أمريكا الشمالية، وأكثر من أربعين ألف كتاب في أمريكا الشمالية، ودول البحر الكاريبي، وفقاً لتقرير التنمية الإنسانية لعام ٢٠٠٣، وأشارت الورقات والدراسات إلى تقرير المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» لعام ٢٠٠٥، الذي أشار إلى أن معدل القراءة لدى المواطن العربي لا تتجاوز دقيقتين فقط في العام بأكمله، بينما في أوروبة ست ساعات.

وكانت هناك شكوى مريرة من اتحاد الناشرين العرب الذي يتعامل نظرياً مع /٢٢/ سوقاً عربية للكتاب، بقوانين وأنظمة ورؤى وتقاليد مختلفة، وبالتالي فإن الكتاب يخضع لمزاج /٢٢/ رقيباً يمثلون أنظمتهم.. بعضها صارم، وبعضها أقل صرامة، وعموماً فإن الرقابة تفرض على الكتاب قبل الطباعة وبعدها، وتحول ما بين القارئ العربي وبين المعلومات التي يجب أن يحصل عليها دون رقيب، وبالتالي عندما يصدر الكتاب لا ينتقل بشكل عادي وطبيعي، كما يحصل للكتاب الغربي، وأحياناً نجد على سبيل المثال كتاباً صادراً عام ٢٠٠٧، يدخل الأسواق العربية عام ٢٠١٠م..

إذاً هناك مؤثرات أو مقومات حقيقية لعملية انتشار الكتاب هي الرقابة والقوانين المختلفة والجمارك والتخليص، وهناك من أشار إلى ارتفاع كلفة الاشتراك في المعارض، وتضارب وتداخل مواعيدها، وأن معظم إدارات المعارض العربية- حتى الحكومية منها- أصبحت تتعامل مع معرض الكتاب ليس كنشاط ثقافي، وإنّما كمناسبة تنتهي بالافتتاح، وتترك المسألة بعدها للجوانب التجارية، وهذا انعكس سلباً على أسعار الكتب، وبالتالي على اقتناء المواطن العربي للكتاب، وزيادة عزوفه عن الشراء وزيادة المعارض.

واتجهت الأنظار إلى ما تنشره دور النشر العربية، وما نشاهده أن الكتاب الأصولي والفكر الأصولي صار يطغى، حتى إنّ بعض دور النشر العلمانية أصبحت تتخذ من الكتب الأصولية سبباً لجر رجل المشتري — كما يقال- وهنا لا بد من القول: إن انتشار الكتاب الأصولي ليس جديداً، فهذا الكتاب يتعلق بعقيدة الإنسان، وفي كل الدنيا يقبل الناس على الكتب ذات العلاقة بعقيدتهم، وهذا ليس مستغرباً، ويمكن القول إن تراجع الكتاب التنويري في الوطن العربي، بسبب انهيار المشاريع الفكرية الكبرى.. هناك أزمة في هذا المجال، حتى عند التحدث عن المشروع الإسلامي، أصبح المواطن يسأل نفسه، عن أي إسلام يتحدثون؟ ما هي المرجعيات؟ أو هذه خلافات كبيرة، وبالتالي يرتد الإنسان العربي للقراءة بما يحقق نوعاً من أنواع

الاكتفاء غير المعمَّق بينما في حالة الحياة السياسية النشطة كان الإنسان يبحث ويجتهد ويقرأ..

هناك عزوف هائل عن القراءة بسبب مجموعة من العوائق منها: نظام التعليم التقني- تدني مستوى الدخل- الصراعات على كل المستويات في حياة المواطن العربي اليومية، وإحساس الإنسان الجاد أن هناك من يحول بينه وبين الحصول على ما يريد..



«الوصول إلى قرّائك» كان عنوان ندوة مهمة شهدها المنتدى الثقافي في معرض (أبو ظبي) للكتاب، قدّمت فيها الألمانية «غابرييل روبنز» من فرانكفورت بألمانيا، المبادئ الأساسية للتسويق الفعّال للكتاب في ألمانيا، من خلال حديثها عن شبكة المعلومات، وتجارتها الثقافية، فأشارت إلى نمو هذه الشبكة خلال السنوات الأخيرة بشكل ملحوظ، وكان حاصل أرباحها /١٣/ مليون يورو في عام ٢٠٠٤، ووصلت فيما بعد إلى /٥١٠/ملايين يورو، ولا شك أن ذلك قد وصل إلى الدرجة العليا في موضوع توصيل الكتاب من غير تكاليف، وفي أي وقت يريده المستهلك، وهناك قنوات أخرى لبيع الكتب مثل محطات البترول وغيرها، وفي أغلب الأحيان يكون البحث من خلال الشركات القائمة على البحث للمستهلكين، والتركيز على موضوعات معينة، وهناك الكثير من دور النشر التي تركزّ على كتب معينة، ولا شك أن الكتب الأكثر مبيعاً تكون في المعرضين الدوليين اللذين يقامان في ألمانيا، ومنهما معرض «فرانكفورت» وفيهما يعج المكان ببائعي الكتب، وهذا ما يتم التركيز عليه أكثر من التركيز على بيع المستهلك..

وطرحت المتحدثة الألمانية مجموعة من الأسئلة، تعد من أهم الأمور التي يجب أن يراعيها الناشر وهي: من هو المستهلك؟ وما هي المنتجات التي يحتاجها، وما هو

الهدف من شراء الكتب.. هل الهدف للتسلية، أم التعليم، أو تقديم الكتاب كهدية، ومن يقرر شراء الكتاب، الأب، الأم، الجد أو الجدة. فالأطفال كما نعلم لا يقررون مواضيع كتبهم.. وهل هو شراء عابر، أم مجرد التقاط كتاب، أم بناء على نصيحة من بائع، وهناك مناسبات للشراء، متى يرغب المستهلك بالشراء، وإنفاق المال على الكتب، ونجد هذا في بداية العام الدراسي، والأعياد، وأخيراً نقطة البيع، من أين يشتري المستهلك الكتاب من الإنترنت، ومن هو الزبون، وإلى من نريد أن نبيع..

معرض (أبو ظبي) للكتاب، كان أيضاً فرصة لخلق أواصر بين المبدعين وجمهور القرّاء أو المهتمين بالإبداع والشأن الثقافي والفكري، ولتبادل الرأي والحوار في عملية النشر، وتفعيل الأنشطة والفعاليات، ومعارف الإنسان بما فيها «الثورة التكنولوجية» والنشر الإلكتروني والبحوث القائمة على المعارف الجديدة.. وكان مناسبة جيدة لردم الهوة بين القارئ والمنتج الثقافي.. في الدول المتقدمة توجد سياسات ترويجية للكتاب، لذلك فإن القارئ الذي يدخل معرض الكتاب يعرف مسبقاً ماذا يريد، وهذا يخلق مستوى عالٍ من التلقي الثقافي، عدا عن التسهيلات التي تقدم لروّاد المعرض..

إن واقع الحياة وما يجري من أمور على مستوى الواقع، وعلاقة المثقف بالمتلقي، تبقى علاقة هامشية مبتورة، إذا لم تقم مثل هذه المعارض والمناسبات بدورها الحيوي والفعال بتنشيط الحياة الثقافية، وردم الفجوة بين الناشر وجمهور القرّاء.

ومع كل ما قيل ويقال عن الكتاب ومواسمه الثقافية، ويومه العالمي الذي تحتفي به «اليونسكو» والعالم في كل عام، وعن تراجع دوره في حياة الناس، يبقى ذاكرتنا التي لا ينبغي أن تشيخ أو يعلوها الغبار.. إنه الكتاب الذي يختزن كل أشيائنا الجميلة، وتفاصيلنا الحميمة، ويعبر بنا إلى عوالم لا حدود لها، ومعارف لا نهاية لها..

أبو ظبي- نيسان 2007

المتنبي الحاضر أبداً

فتح الناقد والأديب اللبناني «عبده وازن» أبواب النقد والرأي مشرعة لشعراء الحداثة في الوطن العربي ليحاكموا شاعر العرب الأكبر «أبو الطيب المتنبي» هذا العملاق الرائد في الشعر والأدب العربي الذي ما زال حاضراً بشدة وقوة في حياتنا الثقافية والفلسفية والفكرية على الرغم من مرور أكثر من عشرة قرون على رحيله.. لقد تمت المحاكمة على صفحات جريدة الحياة اللبنانية- اللندنية، في ٢٥أيار/ مايو ٢٠٠٦، وانتهت في ٣٠ منه، وكانت فرصة جيدة لاستعادة روح الشاعر وحياته وما يكتنفها من أسرار ومتناقضات..

العودة إلى المتنبي، هي استعادة لشاعر كبير استطاع أن يخرق جدار الزمن، وأن يتخطّى القرون المتوالية، فارضاً نفسه على المعترك الشعري الراهن، المعاصر والحداثي، مرسّخاً شعريته التي لم تتأثر بما تعرضت له من حملات عدائية، وبما واجهت من مواقف نقدية فهو كما قال عنه عبده وازن في مقدمة هذه الجملة: «ظاهرة حيّة، سرّاً من أسرار العبقرية الشعرية، شخصية إشكالية حافلة بالألغاز التي يستعصي سبرها أو إدراكها كاملة».

«المتنبي» الحاضر أبداً بأسراره ومتناقضاته، حاكمه أكثر من ثلاثين شاعراً من شعراء الحداثة العربية على اختلاف أهوائهم ومشاربهم وأجيالهم واتجاهاتهم(*)، ومن المفيد التوقف باختصار شديد عند أهم الآراء والطروحات التي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة محاور:

- المحور الأول: شاعر أجير.. كان يتنقّل بين مختلف أصحاب العمل، حاول أن يكون شاعراً ملكاً، ولم ينجح، وحاول أن يكون شاعراً فارساً ولم يوفق.. جرّب وظيفة في بلاط سيف الدولة إلا أنه ما لبث أن ملّها.. كانت النقمة المتأججة هي الدافع التي قادت حياة شاعرنا الصاخبة إلى نهايتها الدامية.. لقد عبّر عن ظمأ النفس إلى الأمجاد، وسخر من قيادات زمانه.. ثمة اعتراض واضح على مسلكية «المتنبي» السياسية، حيث يمدح ثم يهجو قبل جفاف مداد المديح.. لقد وقف ذليلاً أمام «كافور الإخشيدي»، ومارس النفاق أمام سيف الدولة، إلا أن حركته السياسية كانت تحمل مبدأ (الشطب)، أي النفاق، والنرجسية الداخلية، أمام كافور، ومبدأ (المديح، والعشق السرّي لخولة) أمام سيف الدولة، وبما أنه كان يقول الشيء ونقيضه، فقد أثارت هذه التناقضات، جدلاً واسعاً، وضعه تحت أضواء تلك الزمان، وهكذا لعبت (الإثارة السياسية) دوراً في شهرته، وهو أيضاً (شاعر ملخصاتي) لشعراء آخرين، أي (شاعر سارق) مما أثار الجدل حول أصالة شعره أو عدمها، وفي المقابل هو شاعر ذكي موهوب، مصقول الصيغة الشعرية، هذا التناقض، جعل النقاد يهتمون بشعره..

أسطورة (النبوَّة) في حداثته، أثارت جدلاً في عصره أيضاً، كان ملتبساً بغموض، وساهمت في أسطرة صورة المتنبي مع أسطرة قصصه مع سيف الدولة وكافور، وحتى موته قتيلاً في سن الخمسين، وبالتالي كسب المتنبي شهرته في حالة التطابق مع السلطة، وفي حالة التناقض معها.. لقد كان «المتنبي» شاعراً انتهازياً، عرف كيف يدبّر شهرته، وكانت شهوته للسلطة واضحة.



المحور الثاني: يعتقد أنه من المبالغة في عصر «المتنبي» محاسبته على أماديحه وأهاجيه، فهذه سنة الشعر في أيامه.. الشاعر آنذاك كفنان عصر النهضة يعمل لملك

أو أمير أو وال، لا يجد غضاضة في أن يرتزق من شعره، العصر كان عصر المغامرة، وأتيح فيه لأناس بلا أصل وفصل أن يسودوا وأن يحكموا، أما أن يحلم «المتنبي» بإمارة أو ولاية فهذا يعني أنه لم يكتفِ بأن لا يكون تابعاً، وإنما تطلّع إلى أعلى من ذلك، إلى أن يكون سيداً، في زمن كان الشعراء فيه أتباعاً، ولا حرية فيه إلا لمن كان سيّد نفسه، أي لمن كانت له سلطة وسيادة على غيره، ومن المبالغة في إعلاء الشعر أو أن نفصله عن السلطة أو السياسة ونقيّمه نقيضاً لهما، أما «الأنا» المتضخمة لدى «المتنبي» فلا ننسى أنها فتنتنا دائماً، وكانت بالتأكيد من جوانب شعره..

لقد كان «المتنبي» شاعراً متناقضاً من دون شك، وكان تناقضه مع نفسه، أكثر من تناقضه مع عصره، تشهد بذلك مطالع قصائده، والسبب راجع إلى تناقضات عصره، وإلى بداية أفول الدول العربية، وطموحه اللا محدود إلى استعادة بعض أمجاد الأمة الغاربة، وكم أوجعه أن لا يحكم العرب أنفسهم بأنفسهم، وكأنه بهذا المفهوم شاعر معاصر بكل ما في الكلمة من معنى، لقد حاول أن يقف في خندق المقاومة، لكنه فشل، وكان الحاسدون ضحايا الغيرة تجاه موهبته الكبيرة، وما أحرزه من شهرة واسعة، كانوا وراء ذلك الفشل، إضافة إلى الظروف العامة وما رافقها من انكسارات أدت إلى تخبطه السياسي ومن ثم إلى نهايته «التراجيدية».

لقد استطاع «المتنبي» من خلال قصائده أن يثبت عمّا في النفس البشرية (وهي نفسه بالذات) من قلق وغربة وحكمة واستخفاف وعبث واستعلاء وشغف بالمجد.. مشروعه ليس سياسياً، السياسة لديه جزء وتفصيل، مشروعه وجودي قائم على أنه هو «السوبر مان»المتحدّر من قوم وأعراق ونفوس، كأنها تأنف من سكنى اللحم والعظم.. لم يمدح «المتنبي» سوى «المتنبي» كل ممدوح آخر مستعار لأناه، حاول أن يكون نبيّاً فلم يستطع لأن ذلك لا ينبغي له أو لسواه بعد الرسول الأعظم (ص) فكان شاعراً، ولا ينبغي للنبي أن يكون شاعراً.. التناقضات جزء من عبقرية «المتنبي» يضاف إلى ذلك إحساسه المتفرد والحاد بالعظمة والغربة معاً.. داخل غربته عاش

وكتب وقُتل.. مدح أشخاصاً كثيرين، ليس ليمجدهم بل ليملأ فراغ الغربة والرغبة، كان يتماهى مع الآخر كي يصبح نفسه الآخر –السيد- كان يعارض نفسه كي يثبتها فيما يعارضها، كان يخلق فوضاه الخاصة، فيما يخلق نظامه الخاص، وفيما كانت السلطة آنذاك، رهان العرب الأول، وفيما كان يمتدح بعض ممثليها، كان يعلن رهانه الخاص.. في كل هذا، كان «المتنبي» يهدم الأنا القبلية، والأنا المذهبية، لا ينتمي إلا إلى ما يتسع لتناقضاته ويحتضنه، ويتيح له أن يقيم فيه.. شعره كان قطيعة وانشقاق، فهو مليء بالتمزق والانتهاك، والمخالفة والحيرة والمرارة، والتصدّع والترحل.. مسكون في الوقت نفسه بالعظمة التي يسميها بعضهم «فحولة» فيما هي نقض كامل وجذري للفحولة..



- المحور الثالث: يرى أن «المتنبي» ملأ الدنيا وشغل الناس، فهو أكبر شاعر عربي ليس في الماضي فحسب، بل في الماضي والحاضر والمستقبل أيضاً، والظروف التي ساعدت على ظهوره لن يتكرر، والأسطورة تكتمل بهذا الاسم الفريد الذي رضي الجميع أن يحمله المتنبي.. إنه الشاعر العظيم الذي اخترق اللغات والأزمنة والأمكنة، «المتنبي» متناقض لأنه حقيقي، ومن لا يتناقض هو الزائف الذي يظن أنه يملك الحقيقة أو يموه لذلك، لأن الحقيقة ليست في متناول إنسان قط، لقد قرر «المتنبي» أن يبحث عن حقيقته الإنسانية عبر شعريته المتّقده، والتي أرهقت طموحاته المستحيلة في السياسة والحياة في خضم واقع سياسي تاريخي مرير عاش تفاصيله المتناقضة مرغماً في كثير من الأحيان..

إنه الشاعر الأكثر خلوداً في تاريخ الأمة العربية التي تباهي الأمم ببلاغتها الشعرية، وكأنها لا تملك سواها مادة وحسب، بل أيضاً كان الشاعر الأكثر احتفاء بتلك الشعرية والأقدر على ترسيخها في الوجدان العام سلوكاً وقصيداً.. لقد كان

شاهداً على ملامح الساسة الخفيّة وهم يتداولون حيواتهم على كراسي الحكم متقلبين في المواقف ومنقلبين على الأعراف والموروثات..

لقد كان «المتنبي» النموذج الأول للمثقف المعتز بنفسه أمام الحاكم، والذي رأى في الموهبة الإبداعية مؤهلاً للحكم وامتلاك السلطة.. لقد كسر «التابو» الاجتماعي الذي يحرّم على الشاعر أن يتجاوز منزلة المهرج..

غريب أمرنا – نحن العرب- فما من أمة إلا واحتفظت بعظيم من عظمائها، تعيد اكتشافه وقراءته مرة بعد مرة، شكسبير عند الإنكليز، باشو عند اليابانيين، الشيرازي عند الفرس، طاغور عند الهند وغيرهم كثير، والعرب ليسوا استثناء من ذلك، فلماذا ننظر بعجب إلى ما يمكن تسميته بحالة الانشغال العربي بالمتنبي، والغريب أن البعض يعتبر الاهتمام بشاعر عظيم هو عودة غير مقبولة إلى الماضي، وكأن كل عودة إلى الماضي هي تخلف، كما أن البعض يجد في الاختلاف حول شاعر أو مبدع عظيم مبرراً لرفض الانشغال به، الاهتمام بالمتنبي لا يعني أن نتّفق معه في كل ما جاء به، وعندما نعيد قراءته ودراسته نقوم بذلك لنتعرف على الطبيعة التي حركته في إطارها الزمني، وسيظل حياً بشعره مهما اختلفنا معه أو حوله.

ثمة في شعر «المتنبي» ما يخترق المناسبات، وتظهر أبياته بمثابة كرات من نار تجتاز الآفاق والأزمنة، وعلى الرغم من موت بعض أدواته بفعل تطور التاريخ ومعه المفردات فإن الرمز يبقى سارياً ولا ينتكس، وقطفه البلاغي العبقري للحكمة، وتلاعبه بالمعاني بطريقة فريدة، جعلت قارئه دائم التأهب للمفاجآت والتوليد..



«المتنبي» الحاضر أبداً بأسراره وعبقريته وتناقضاته، والذي ما زال عصيّاً على الحكم الفصل، وما برحت قصائده تثير حفيظة قرائه، تفتنهم وتسحرهم بجمالها

وروعتها النـادرة.. لقد حملته الأجيـال منذ أكثر من عشرة قرون في ذاكرتها، وتعاطفت معه بقوة وحب وعنفوان، وهذا التعاطف التاريخي جعله شخصية شعبية في معنى المماهاة بين البطل الشعبي، والشاعر الشعبي، وبقي قادراً بقوة على إثارة المخيلة العربية، شعره ما يزال يغري بالمزيد من البحث والتعمّق..

لقد كتب عن المتنبي الكثير من الدراسات والأبحـاث، وسوف يكتب عنه في القادم من السنوات الكثير، وحسبه أن شعره من أجمل الشعر العربي كله وأروعه وأحقّه بالبقاء، فيه شعر الحرب والمديح والرثاء والحكمة والقيمة الفلسفية والفكرية التي لا نجدها عند غيره من شعراء العربية قديماً وحديثاً.. هو الشعر الذي بلغ فيه المتنبي الغاية التي ليس بعدها غاية.. يقول عبد الوهاب عزام «في ذكرى أبي الطيب»: الشعر الحماسي البليغ في ديوان هذا الشاعر العربي الذي لا نظير له في الإلياذة ولا الشاهنامة ولعله منقطع النظير في الانيادا الرومانية، والمهابهارتا والراميانا الهنديتين.. إنه أروع شعر حماسي في اللغة العربية..

شعر «المتنبي» في «السيفيات» من أروع ما قيل في الحرب والجهاد، ولولا هذا الشعر العظيم لما عرفنا عن بطولات ومعارك وأمجاد سيف الدولة الحمداني إلا النزر اليسير.. لقد كان المتنبي على مستوى المعجزة القومية التي حققها هذا القائد العربي الكبير الذي وقف لسنوات طويلة بقوة وعزم ونضال لا يلين أمام أقوى إمبراطورية في العصور الوسطى، وكان شعره الملحمي الرائع بكل صوره وأبعاده ومضامينه وشموخه عنوان مرحلة عظيمة في تاريخنا العربي المجيد، أليس هو القائل:

على قـدر أهـل العـزم تـأتـي العزائم

وتـأتـي علـى قــدر الـكـرام المــكارم

وتـعـظـم في عـين الـصـغـار صغـارها

وتـصـغـر في عـين الـعـظـيـم العظائم

ومــن طـلـب الـفـتــح الجـلـيـل فـإنمـا

مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

«المتنبي» تجرأ على المألوف، وكان كالقابض على الجمر.. كان المبدع الكبير الذي بعث كينونة جمالية لا حدود لها في الشعر العربي، وسيبقى رغم كل ما قيل وسيقال يجتاز الآفاق والأزمنة، وهو القائل:

الخيــل والـلـيـل والـبـيـداء تعرفني

والسيف والـرمح والقرطاس والقلم

(*) ساهم في شهادات «المحاكمة»: أدونيس- سليم بركات- غازي القصيبي- عبد المنعم رمضان- عناية جابر- سميح القاسم- شوقي أبي شقرا- محمد أحمد السويدي- كمال أبو ديب- شوقي بغدادي- كاظم جهاد- بول شاؤول- أحمد عبد المعطي حجازي- أمجد ناصر- شوقي عبد الأمير- سعدية مفرح- كريم عبد السلام- عباس بيضون- عبد العزيز المقالح- عز الدين المناصرة- جودت فخر الدين- ما هر شرف الدين- فاضل العزاوي- محمد بنيس- محمد علي شمس الدين- صلاح ستيتيه- سعد الحميدين- سيف الرحبي- حاتم الصكر- إبراهيم نصر الله.

تجربـــة فاس القديمـــة

بدعوة من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإسيسكو» وفي إطار الاحتفاء بفاس عاصمة الثقافة الإسلامية لسنة ٢٠٠٧م، عقدت الحلقة الدراسية الإقليمية حول «إسهام المجتمع المدني في تفعيل التنوع الثقافي في التنمية المستدامة» بين (١٢-١٤) حزيران- يونيو- ٢٠٠٧، وقد مثّلت سورية في هذه الحلقة وقدّمت ورق عمل بعنوان «المجتمع الأهلي والمشهد الثقافي في سورية» وكانت فرصة جيدة لتبادل الرأي والحوار والاستفادة من آراء كثيرة طرحت حول هذا الموضوع الحيوي والمهم والهادف إلى تفعيل مقومات الثقافة العربية الإسلامية، والتعددية الثقافية في المجتمعات الإسلامية ودورها في التنمية المستدامة..

وقد أتاحت لنا هذه الحلقة فرصة جيدة للاطلاع على معالم مدينة فاس، وتجربتها الرائدة في الترميم والصيانة وطرق الحفاظ عليها من عاديات الزمان..

يمكن القول بأن هذه المدينة العريقة، من خلال ما شاهدته من آثارها ومعالمها وإرثها الحضاري والعمراني، تجسّد النموذج المثالي للمدينة العربية الإسلامية، وتعدُّ استثنائية فيما يتعلق بالمدن العربية والإسلامية الأخرى، وبفضل تنظيمها الخاص، واستغلال البيئة، ومؤسساتها وإرثها الثقافي والمعماري، استطاعت أن تفرض نفسها كمدينة فريدة على امتداد قرون زمنية متواصلة، وهذا التفرّد استمدته من معطى تاريخي يتجلى في وصفها من المدن التاريخية القليلة التي أفلتت لمدة تزيد

عن ألف سنة من عمليات الهدم والزلازل والحروب والغزوات التي عرفتها مدن العالم الإسلامي الأخرى، ولذلك فإن مدينة فاس تشكل النسيج العمراني التقليدي الأكثر اكتمالاً، والأكثر تعبيراً عن الحضارة العربية الإسلامية، وهي بحق أكبر مجمّع معماري تراثي محاط بأسوار، والذي يضم بين ثناياه مجموعة فريدة من المعالم والمنشآت والبنى والحرف والصناعات والتنظيمات الاجتماعية التي شكلت خلاصة وجوهر التطور والازدهار المعماري التقليدي السائد في المغرب، وهذا ما جعل منظمة «اليونسكو» العالمية تسجل هذه المدينة بقوة وامتياز في عداد الممتلكات الثقافية العالمية، واعتبارها من تراث الإنسانية..



لقد انطلق العمل في ترميم وصيانة معالم مدينة فاس القديمة، منذ سنوات عديدة، من معرفة جيدة بأن تغييرات كبيرة على المستوى الاجتماعي والسكاني والثقافي والعمراني، قد حدثت، وأصبح المسؤولون الوطنيون والمنظمات الدولية المهتمة بالتراث يدركون أنه أصبح من الضروري العمل على صيانة مدينة فاس، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراثها، ولتحقيق ذلك على الوجه الأمثل، تمّ إنجاز العديد من الدراسات والأبحاث التاريخية والأثرية والوثائقية، وتمَّ الأخذ بعين الاهتمام أن الحفاظ على مدينة فاس القديمة، يتطلب دراية بتاريخها، وأخذ احتياجات العصر في الاعتبار، بمعنى أن الحفاظ على الماضي يتضمن إدراك المسؤولية نحو المستقبل، وأن شروط العمل في الحفاظ ومعاملة ما تطور عبر القرون، يستند إلى إيمان القائمين على هذه العميلة بجدارة الطرز والمفاهيم القديمة واستحقاقها للبقاء، وأنها تمثل حلقة من حلقات الاتصال بالتطور الذي نعيشه..



في مدينة فاس، ما ينبغي الحفاظ عليه، ودائرته واسعة جداً، والحفاظ لا

يقتصر على المبنى ذي القيمة الأثرية أو الفنية وحده، وإنَّما يشمل الكيان المعماري والبيئة من حوله، أي العناصر المختلفة التي تشكل النسيج العمراني، وقد تمّ اكتساب خبرات كثيرة فيما يختص بالصيانة والحفاظ، وأصبح من الممكن التدخل في المباني الأثرية الباقية بأقل حدّ من الإضافة التي لا تزيد إلى الحد الذي نخسر معه ملامح الأثر القديم، ولا تقل إلى الحد الذي يمكن معه أن تتدهور حالة الأثر بحيث يستبدل به مبنى جديد، وهذه الأهداف تتعارض مع السرعة في الترميم، واتخاذ القرار على عجل، وتتطلب التفكير والروية والمهارة والمثابرة والتدريب..وإن إعادة توظيف البيوت والمباني من أنجح طرق المحافظة، ولا سيما مع تلك التي يعد لوظيفتها الأساسية استخدام في الزمن المعاصر، مثال: القيساريات والوكالات والخانات وغيرها، وإن هناك فرقاً كبيراً بين مبنى أثري يعاد إلى وظيفته الأصلية، وآخر يستغل في وظيفة لغرض جديد إذ إن جهود الترميم في الحالة الأولى تكون جهوداً تقليدية، أما في الحالة الثانية فإن أسلوب الترميم وتهيئة المبنى للاستخدام الجديد يستلزم تقنيات حديثة تتدخل في هذه العملية، وإن الحلول المختلفة لإعادة توظيف المباني ليست متشابهة، فلكل حالة لها قرارها الخاص، وعلى المرمم أن يختار الحل المناسب لكل مبنى، وهذا ما توحي به عادة حالته.



لقد ارتكزت خطة الحفاظ على مدينة فاس القديمة على عدة ملامح أساسية، من أهمها:

- فصل مدينة فاس القديمة عن فاس الحديثة، وذلك بإحاطتها بمساحة كبيرة من الحدائق العامة، والقيام بأعمال ترميم لسورها.

- المحافظة على التخطيط المعماري القديم، وشكل الشوارع والطرقات والمباني، وعدم السماح ببناء أي مبنى داخل المدينة يشذ عن تشريعات الحماية.

وكما هو الحال في المدن العربية القديمة، يتوسط المسجد الكبير- مسجد القرويين- الميدان الرئيس لمدينة فاس القديمة، وقد بني هذا المسجد الشهير في عام (٢٤٥هـ٨٥٩م) وتمَّ توسيعه في سنة (٣٤٥هـ- ٩٥٦م) في عهد الخليفة الأموي الناصر، ثم وسّعه علي بن يوسف بن تاشفين سنة (٥٣٠هـ ١١٣٥م)، ثم جرت التوسعة الأخيرة في عهد السعديين (١٠٣٤هـ- ١٦٢٤م) حيث أصبح الصحن- كما هو اليوم- مزوداً بقبتين شبيهتين بتلك القائمتين في باحة الأسود في قصر الحمراء، وبموضئ يتوسط الصحن، أما الحرم فيقوم في الأصل على أساس البلاطات الموازية للقبلة، وظلَّ كذلك بعد التوسعة، ولكن أضيف إليه أربعة صفوف من القناطر تتعامد معها، يؤلف اثنان منها بلاطة عمورية على المحراب أو ما نسميّه بالمجاز القاطع، وهو أجمل أعمال المرابطين، حيث تغطيه القباب والأقباء الغنية بالمقرنصات والزخارف الجصيّة، ومئذنة الجامع مربعة الشكل تحتل مكاناً في الرواق الغربي من الصحن..

من هذا المسجد الرائع تخرج الشوارع الرئيسة المنكسرة والمسقوفة في بعض أجزائها ليؤدي معظمها إلى أبواب المدينة، وحول هذا المسجد الجامع (أقدم الجامعات الإسلامية) تتركز المباني الرئيسة وسكن الطلبة والمكتبة العامة والساحات، وعلى جانبي الشوارع تصطف المباني التقليدية ومن أسفلها المحال ذات الأبواب الخشبية المتشابهة، ويقوم النشاط التجاري في المدينة على خدمة الجامعة والأنشطة الحرفية والصناعات التقليدية السياحية..

لقد شهدت مدينة فاس في السنوات الماضية حركة ترميم واسعة للآثار القديمة مثل: المسجد وزاوية سيدي أحمد التيجاني والأسوار وباب الفتوح، وترميم الشوارع والطرقات والأزقة (الزنقات) لتبقى على أصولها التاريخية والعمرانية.



ترميم وصيانة آثار مدينة فاس القديمة، مرّ بمراحل تصنيف وتسجيل للمباني والمشيدات العمرانية الموجودة فيها، وفق الركائز القانونية المعترف بها بشأن حماية التراث التاريخي، وهذا ما سمح لأصحاب العقارات المسجلة الاستفادة من مساعدات (بهدف الترميم والحفاظ عليها) من الدولة وعدّة فعاليات ثقافية وإدارية وتجارية، وحتى بعض الأجانب (ملكة الدانمارك) وقد ساعد هذا على إنقاذ وصيانة وإعادة الاعتبار لبعض أهم المعالم التاريخية في فاس مثل: (المدرسة المصباحية- البوعنانية- العطارين- باب محروق- سوق وفندق النجارين- واسطرلاب جامع القرويين وبعض السقايات الأثرية).

هذا النجاح الكبير في عمليات الترميم والحماية لم يمنع من توجيه النقد، لأن هذه التجربة وإن كانت قد حافظت على الشكل التقليدي للمدينة القديمة بصورة صارمة، إلا أنها افتقرت إلى عنصر التفاعل بين السكان والنشاط الشكلي المفروض عليهم التعايش معه.. كثير من المتاجر اضطر أصحابها إلى إغلاقها لقلة حركة البيع والشراء، كما أن المحافظة على وسائل النقل- داخل المدينة القديمة- التي ما زالت تجرّها البغال والحمير، أمر لم يخل من بعض المآخذ، وعدم الأخذ بأساليب العصرنة في حياة الناس وأنشطتهم، جعل مدينة فاس القديمة في وضع متدنٍ عن فاس الحديثة، مما أدى إلى نزوح كثير من السكان القادرين على الإسهام في أعمال التطوير والترميم والصيانة إلى خارج المدينة القديمة، وبقاء السكان الفقراء أو المستأجرين ويشبه هذا ما حصل في مدينة دمشق القديمة..

إن تحويل مدينة فاس القديمة إلى محميّة تاريخية من الأمور الرائعة من الناحية الشكلية، وهذا ما يعجب الزائر والسائح كثيراً، ولكن فقدان النسيج الحيوي للمدينة التاريخية يثير الشكوك حول النجاح الكامل للتجربة..

في عام ١٩٩٢، تمَّ إحداث «الوكالة الحضرية لإنقاذ مدينة فاس» ومن بين مهامها القيام بكل الدراسات المتعلقة بإنقاذ المدينة، ووضع الوسائل والمبادرات اللازمة لتحقيق هذا الهدف، وقد اتضح فيما بعد أن هناك تعددية مؤسساتية، قد يكون انعدام أو صعوبة التنسيق بينها، من بين عوامل شللها وترددها، وانعدام روح المبادرة الخلاّقة عند أطرافها، وهذا الواقع لا يمكن تفسيره بكثرة الاهتمام فقط، وإنما أيضاً بضبابية الرؤية، وربما تنازع الحصول بنصيب المساهمة في الإنقاذ، وهنا لا بد من أن هناك هيئة واحدة مسؤولة عن هذه العمليات الإنقاذية والترميمية، وعندما أتحدث عن فاس وتجربتها كأنني أتحدث عن دمشق القديمة وما حصل ويحصل فيها في هذه الأيام!

إن الباحثين الذين اهتموا بدراسة فاس القديمة يرون أنها كانت وما تزال تمثل التعبير الأكثر غنى عن التراث الحضاري العربي والإسلامي، الذي امتد لأجيال عديدة متعاقبة، وغالباً ما يعدّ السكن والعيش في المدينة القديمة الوسيلة المثالية لاكتساب الثقافة المدينية الأصلية من قبل المطالبين بالحفاظ على التراث والصناعات والحرف التقليدية، ويرون أن مشاعر المحبة والتقدير والإجلال تزداد كلما اتجهنا نحو المركز التاريخي للمدينة (الأكروبول - الكابيتول - السنتر) المتمثل في الحرم الإدريسي وفي مسجد القرويين..

وفي المقابل هناك من يرغب بالسكن في الأطراف والأسوار وذلك للاقتراب أكثر ما يمكن من الطرق الحديثة ومن المدينة الجديدة، وقد قام الباحث الدكتور عبد الرحمن المالكي (الذي جمعتني معه لقاءات مطولة حول هذا الموضوع) بإعداد دراسة حول مدى معرفة السكان بأهمية التراث، فوجد أن هناك ثلاث «نظرات» للتراث يمكن تصنيفها على النحو التالي:

- نظرة حنينية: وأكثر الفئات الاجتماعية تعبيراً عنها، السكان المنحدرين من أصول مدينية والقاطنين خارج الأسوار، وفئة المتعلمين والعاملين في قطاعي السياحة والثقافة، وهذه الشريحة تعارض معارضة شديدة عمليات التغيير، وتطالب بالحفاظ على المدينة القديمة وعدم المساس بنسيجها العمراني التقليدي، وترى أن فتح «الطريق الجديدة» كان خطيئة كبرى، لأنها «بقرت» المدينة القديمة، وشوهت حي «سيد العواد» وأتلفت إلى الأبد العديد من الأبواب والقناطر والمعالم الأثرية التقليدية..

- نظرة حسّية «تعودّيه»: وهي النظرة التي تعبّر عن فئة السكان الحديثي العهد بالاستقرار في المدينة القديمة، والمنحدرين من أصول غير مدينية، وهذه الفئة تشكل الأغلبية من سكان المدينة، وأهم ما يميزها، ضعف المستوى الاقتصادي والثقافي، والسكن بكثافة في الدور التقليدية المفتتة، والتراث بالنسبة لهذه الفئة لا يعني شيئاً، والمدينة القديمة أصبحت ملجأ سهّل عليهم الإقامة بعد الهجرة، لذلك فإن تواجدهم في قلب مدينة تاريخية عريقة لم يساهم في تكوين نظرة تقديرية لتراثها الحضاري، ويثبت ذلك عدم الاهتمام بترميم وصيانة المساكن التي يقطنوها.

- النظرة النفعية الإنقاذية: وهي التي تسعى لرد الاعتبار للتراث، وهي نظرة داخلية لأن الفئة التي تتبناها تتكون من أغلبية المدنيين القاطنين في المدينة القديمة، وتتميز بإدراك عميق لمعنى التراث وأهميته وقيمته وضرورة الحفاظ عليه، وأن يكون قابلاً للاستعمال النافع والمفيد.. لذلك ينبغي إعادة الاعتبار إليه، من خلال المعطيات الاقتصادية والتطورات الاجتماعية والتقنية، وإعادة التوظيف دون المساس بالقيمة العمرانية والجمالية والنسيج العمراني، وترى هذه الفئة أن الإنقاذ الحقيقي والفعلي والمستمر لمدينة فاس القديمة، لا يمكن أن يتم إلا إذا تمَّ اعتبار السكان

القاطنين والمتواجدين فيها هم محور العمل ومحركه، وأخذت بآرائهم وتطلعاتهم ومبادراتهم ومشاريعهم عند التخطيط لكل عملية إنقاذ أو ترميم أو صيانة، ولا يمكن تصوّر إنقاذ مدينة كبرى بحجم فاس دون مساهمة سكانها، لذلك لا بد من العناية بالسكان ورفع مستواهم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، والعناية بالمجال الذي يعيشون أو يعملون فيه، تعد الخطوة الأولى في الاتجاه الفعلي لإنقاذ المدينة القديمة.

فاس - المملكة المغربية (10-15 حزيران- يونيو 2007م)

تجديد السياسات الثقافية

في إطار الاحتفاء بداكار- جمهورية السنغال- عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة ٢٠٠٧م، عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في (٢٣و٢٤) تموز / يوليو ٢٠٠٧ الاجتماع السابع للمجلس الاستشاري المكلّف بتنفيذ الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، والذي يتألف من /١٢/ دولة عربية وإسلامية، من بينها سورية، وأقوم بشرف تمثيلها في المجلس منذ ثلاث سنوات..

لقد طرحت أمام المجلس جملة من المشاريع وخطط العمل المشتركة التي ستقوم «الإسيسكو» بتنفيذها بعد عرضها وأخذ الموافقة عليها من قبل مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في العالم الإسلامي، والذي عقد في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) في مدينة طرابلس الغرب، العاصمة الليبية، وأستطيع القول، كمتابع عتيق لعمل «الإسيسكو» أن هذا المؤتمر سيكون له دوره المهم في مسيرة عمل هذه المنظمة، التي تسعى إلى التعاون في مجالات اختصاصاتها، ودعم الثقافة الإسلامية، باعتبارها المجال الأرحب والأشمل للثقافة العربية، وجعلها محور مناهج التعليم في جميع مراحله ومستوياته..

لقد تبلور المشروع الثقافي الإسلامي في صيغة «الاستراتيجية» الثقافية للعالم الإسلامي» التي تستوعب في عناصرها وأصولها وأهدافها وغاياتها، الطموح الكبير الذي كان يحدد الروَّاد البناة الأوائل الذين وضعوا اللبنات الأولى للمشروع الثقافي

العربي الإسلامي، وهذه الاستراتيجية، هي ثمرة للتعاون والتنسيق بين «الإيسيسكو» ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وهي أيضاً تستوعب التجارب السابقة، وتفيد من الاجتهادات السائدة وتستخلص منها الرؤى والأفكار ووجهات النظر التي تحقق النفع والفائدة، والتي تعبّر تعبيراً حقيقياً عن تطلعات الأمة العربية الإسلامية، وعن أحلامها وتصوراتها للعمل الثقافي في مدلولاته الشاملة.

بهذه الاستراتيجية انتقل المشروع الثقافي الإسلامي من طور التنظير والتخطيط والتجريب والاجتهاد في البحث عن الصيغ المناسبة والملائمة، وهي مرحلة طويلة استغرقت تجاربها نحو قرن من الزمن، إلى طور التنفيذ المشترك وهي مرحلة جديدة، جاءت استكمالاً لمرحلة سابقة انطلقت مع تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي في عام ١٩٦٩م، وتبلورت بصورة واضحة مع إنشاء منظمة «الإيسيسكو» التي كانت وما زالت الإطار المتطور والمعاصر والملائم للمشروع الثقافي العربي الإسلامي، الذي طالما حلم به، وتطلع إليه، وعمل من أجله، كل من نبض قلبه بتغيير حال الأمة العربية الإسلامية من الضعف إلى القوة، ومن التشتت إلى التجمع، ومن التفرقة إلى الوحدة، في إطار حضارة جامعة، وثقافة متجانسة.



مشروع استراتيجية التكافل الثقافي لخدمة قضايا المسلمين التنموية والحضارية، كان من المواضيع المهمة والحيوية التي ناقشتها اللجنة ورفعتها إلى مؤتمر وزراء الثقافة الإسلامي القادم لإقرارها، وقد أعدَّ هذا المشروع ضمن رؤية كليّة، وآفاق علمية تحتوي على كل ما هو تكافل لخدمة الثقافة الإسلامية..

الرؤية المستقبلية نحو الغد الزاهر للعالم الإسلامي كانت حاضرة بقوة في هذه الاستراتيجية، فالتكافل واجب ديني بمقتضى تعاليم القرآن الكريم والتوجيهات النبوية، والتكافل يجب أن يستند في صياغته إلى قواعد ضابطة، ويعتمد في تنفيذه

على آليات محددة، تمليها شروط إنجاز الغد المنشود الطامح لتحقيق الرقي والتطور والازدهار والرفاهية لشعوب الأمة، وتحديث نظم تربيتها وتطور علومها وتقانتها، وازدهار ثقافتها وفنونها ومحو الأمية فيها بكل أنواعها، والقضاء على الفقر بكل أشكاله، وترشيد العمل العام في الميادين الاجتماعية والتنموية كافة..

التكافل الثقافي في هذه الاستراتيجية، هو أن يتحمل كل قادر نصيبه من المسؤولية في دعم العمل الثقافي الإسلامي في سائر الأقطار الإسلامية، القادر بماله يسهم بالمال، والقادر بعقله وعلمه يسهم بعلمه، والقادر بخبرته يسهم بخبرته، بحيث يساهم الجميع في حماية ثوابت الثقافة العربية الإسلامية من المخاطر التي تواجهها، وفي رعاية تنوعها وتعزيز أنشطتها..

لقد ساهم التكافل عبر تاريخ الإنسانية كله في تحقيق العديد من الإنجازات والمشاريع الثقافية، واستمرار النفع بها بين المجتمعات والشعوب على اختلاف مشاربهم الثقافية كما يسجّل لنا التاريخ بأن أكثرهم إسهاماً هو أقواهم إيماناً بضرورة التكافل والتآزر والتعاون مع الآخر..

وبناء على ما ذهبنا من قول فالتكافل، هو المساهمة المتبادلة بين الناس والمؤسسات والدول في إنجاز مشروعهم الحضاري الكلي، والتعاون المشترك بينهم أفراداً وجماعات وهيئات ومؤسسات، بحيث يكون ذو القدرة كفيلاً بتمكين من دونه لتحقيق مشاريع جماعية ترقى بالمجموعة المتكافلة إلى مستويات راقية من الفعل والأداء، وسقف من الوعي والإدراك، يمكن من بلوغ المقاصد والأهداف المتوخاة ضمن منظور للكون والإنسان والحياة، ويثري جوانب الحوار والتفاعل والتعايش بين مختلف الثقافات والحضارات، في الجوانب الإنسانية والاجتماعية كافة.

وهو بهذا المنظور، يحفّز الفرد الفاعل على ترتيب أولويات شأنه، بحيث يقدّم العام على الخاص، والمقاصد الكليّة على المصالح الفرعية، واستباق الخير، بحيث

يكفل الغني الفقير، والقوي الضعيف، والقادر العاجز، والحاضر الغائب، ذو اليسرة ذا العسرة.

وينعت هذا التكافل بالثقافي حين يصبح هو ذاته ثقافة، أي حين يتشكل لوناً من ألوان التعبير عن الحضارة والرؤية للإنسان والمجتمع، وسمة من السمات الشخصية لهذا المجتمع، وعنصراً رئيساً من عناصر الحركة فيه، وكما يتشكل العلم ثقافة ليصبح تنمية، كذلك التكافل حين يمسي ثقافة تحافظ على الخصوصيات، وتحترم التنوع، وتثري الحوار، وتقوي التعايش، وتدفع بالتنمية إلى مستويات عليا من الإنجاز والأداء، وهذا كله يتجسد فيما نقتصد به «استراتيجية التكافل الثقافي».



إن أهداف التكافل الثقافي، سواء منها العامة أو الخاصة كثيرة ومتعددة، ويمكن تحديد الأهداف العامة في:

- ترسيخ الوحدة الثقافية في العالم الإسلامي، فالوحدة الثقافية تحتاج إلى استمرار التأكيد على الهوية الثقافية وتعزيزها والحفاظ عليها، عبر الاستثمار الجاد والتواصل في المجال الثقافي، والحرص على سيادة المرجعية للقيم الثقافية المشتركة، وإحياء وإثراء الذاكرة الجماعية الثقافية، والوحدة الثقافية لها رسوخ وحضور قوي في الذاكرة الثقافية للأمة، تلك الذاكرة التي هي الضامن والمحفّز لتوطيد عرى الاتحاد والتضامن والتكامل بين الأمة الإسلامية، ودوام يقظتها وتنميتها وتقويتها يستدعي المزيد من الجهود لإحلال «التكافل الثقافي» المكانة اللائقة به نظراً لأهميته في تكثيف تلك الجهود وتوطيدها وتطويرها..

- حفظ الثوابت الدينية في صفائها ويسرها، فمواجهة التيارات التي تحاول المس بتلك الثوابت ونقائها وصفائها تتطلب تكافلاً قوياً ومستمراً، وتشكل الثقافة

بمنظورها الشمولي ساحته الأوسع والأشد تأثيراً في العالم الإسلامي.

- تأصيل التنوّع الثقافي الإسلامي، وتنشيط مكونات الثقافة الإسلامية، وتثمين قيمها الحضارية المتنوعة والاعتزاز بها ضمن الهوية الذاتية، فالتنوع الثقافي حقيقة اجتماعية، وركن أساس من أركان التعبير الثقافي الإسلامي، ولذلك فهو يحتاج إلى برامج إثراء ومشاريع تخصيب دائمة ومتطورة، من خلال تعاون كثيف، وتكافل متين، ومساندة متبادلة بين مختلف الجهات المسؤولة عن العمل الثقافي في الأمة الإسلامية.

- تعزيز روح التضامن على أسس التعايش والتعاون والتكافل والتآخي.

- تكثيف وتطوير الحوار والتبادل الثقافي بين المسلمين.

- تمكين الثقافة للجميع ومحاربة التهميش الثقافي.

- الحفاظ على الذاكرة الجماعية والاعتزاز بالمخزون الثقافي.

- التعريف بالرموز الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي، وهذا يؤدي إلى ترسيخ ثقافة الوحدة والتكافل والتلاحم لدى الناشئة والاعتزاز بالهوية الثقافية الحضارية الإسلامية، والدفاع عنها، والعمل على تحصينها.

- تنمية الصناعات الثقافية في العالم الإسلامي، وهذا يحتاج إلى برامج ضخمة وموارد مالية كبيرة، انطلاقاً من تعبئة الكفاءات وتوظيفها وتوجيهها وتوزيع المسؤوليات عليها..

- تطوير وتنمية السياحة الثقافية، التي تعد الميدان الأمثل لتوحيد الترابط بين الثقافة والتنمية، والساحة الأنسب لتكريس المفهوم الإنساني للتعارف والتعايش بين الشعوب والمجال الأرحب للتبادل الاقتصادي والازدهار التنموي.

- تأهيل الموارد البشرية العاملة في المجال الثقافي فنياً ومهنياً.

- تشجيع الابتكار والإبداع في البلدان الإسلامية.

- تجديد وتوطيد إسهام الثقافة العربية الإسلامية في الحضارة الإنسانية.



تجديد السياسات الثقافية بما يتوافق مع المتغيرات الدولية، كان المشروع الثاني الذي تمَّ رفعه إلى مؤتمر وزراء الثقافة الإسلامي، والهدف منه تعزيز الدراسات الاستراتيجية المعرفية وما يرافعها من خطط وبرامج وإعداد وتأهيل، وهذا يستوجب سياسة معرفية محكمة تتخطى المفهوم التقليدي للتربية والعلوم والثقافة إلى المفهوم العالمي الحديث الذي يجعل من التربية أداة نمو، ومن العلوم مفتاحاً للتقدم والرخاء، ومن الثقافة سبيلاً إلى الرقي والازدهار الحضاري.

السياسة الثقافية، تقتضي وجود رؤية توجهها، ورسالة تؤطرها، ومنهجية تقودها، ومرجعيات تؤسسها، وأهداف تجسّدها وبرامج تبرزها، لذلك فهي تهدف إلى النهوض الثقافي، وتطوير النسيج التنموي، وتعدد المصادر، ونماء القدرة على التجديد والابتكار والإبداع، واستيعاب المستجدات في شتى حقول العلم والمعرفة، وتقوية الحضور الثقافي في المجالات العالمية، وتعزيز المشاركة في التقدم الحضاري والمعرفي..

الدراسات المستقبلية، تؤكد أن المستقبل سيكون للتربية الوظيفية، وللتعليم المنتج، وللعلم النافع الذي يذلّل الصعاب، ويحلّ المشكلات، ويفتح أمام الإنسان آفاق التقدم الاجتماعي والرخاء الاقتصادي، وازدهار الحياة، وللثقافة البانية للإنسان، والمؤسسة للحضارة، والجامعة بين الشعوب على أساس التعايش والتفاهم والحوار الحضاري المتقدم، وهنا يبرز دور رجال الثقافة، فلم يعد مقبولاً أن يقوموا كلما

اشتدت الأزمات، بتوجيه النقد، وتضخيم مواطن الخلل، دون الالتفات إلى ما تمَّ إنجازه وتحقيقه في الماضي الغابر، وضرورة العناية به وصيانته وتفعيله من أجل خدمة المستقبل وبناء الإنسان..

تجديد السياسات الثقافية، حافز للإبداع، فهي بضمانها وحمايتها لحرية تداول الأفكار والأعمال، وتهيئتها للظروف المواتية لإنتاج وتوزيع السلع الثقافية، وتمكين الثقافات المحلية من امتلاك الوسائل لغرض وجودها، ودعم تطورها، تجعل من المبدعين من أهل الثقافة يتمتعون بمناخ يشجع على الإنتاج والتميز والمساهمة في إقامة صناعات ثقافية قادرة على البقاء والتطور..

وقد ترافق هذا المشروع، مع مشروع آخر لا يقل أهمية، حول استراتيجية تنمية تقانة المعلومات والاتصال في العالم الإسلامي ويهدف هذا المشروع إلى أربعة أهداف:

- الهدف الأول: تأهيل البنى التحتية لتمكين الناس من الحصول على خدمات تقانة المعلومات والاتصال.

- الهدف الثاني: مساهمة قطاع التقانة والاتصال في التنمية الوطنية.

- الهدف الثالث: تعزيز إنتاج محتويات معرفية متعددة الثقافات.

- الهدف الرابع: التفكير من وجهة نظر أخلاقية في مكانة تقانة المعلومات والاتصال في مجتمعاتنا، وشروط الاستفادة منها على المستوى الثقافي والعلمي..

ويعد تعزيز البنى الأساسية من شبكات وبرامج ومعدات هدفاً أساسياً في عملية تنمية التقانة والاتصال في العالم الإسلامي، فوضع بنية تحتية في مجال تقانة المعلومات والاتصال تستجيب لضرورات التقدم في الميدان الاقتصادي والاجتماعي وفي هذا الصدد يعد المشروع التنموي الماليزي في الربط الإلكتروني

لقرية «لباربو» مثالياً، فهو يقوم على استعمال الحواسيب وأجهزة الهاتف وأنظمة الربط عبر الهوائيات المقعّرة الطرفية، بهدف ربط القرية بالإنترنت، وبفضل هذا المشروع، تمكنت هذه القرية المعزولة التي يبلغ عدد سكانها نحو /١٠٠٠/ نسمة من الخروج من عزلتها والاستفادة من وسائل تقانة المعلومات والاتصال لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لسكانها.

داكار- جمهورية السنغال (22-26 تموز 2007م)

المهدي المنجرة والمستقبل

زياراتي العديدة، إلى المملكة المغربية للحضور والمشاركة في اجتماعات ومؤتمرات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإسيسكو» وفي بعض الندوات وورشات العمل الثقافية والتراثية.. عرفتني عن قرب على نتاج ومؤلفات المفكر والفيلسوف المغربي الكبير المهدي المنجرة، «رجل المستقبليات» الذي يكتب لزمن يعتقد أنه لن يكون حيّاً فيه، ويساعد في دراساته، التي لا نعلم عنها في المشرق العربي إلا النزر اليسير، على تحديد الملامح لرؤية تنموية تخرجنا من التخلّف، في عالم «العولمة» المشحون بالتنافس والاستلاب الحضاري.. علم المستقبليات الذي يعمل في مجالاته، المهدي المنجرة، هو محاولة للرؤية البعيدة، ونوع من الخيال الذي يرتكز على التمنيّات، وكيفيّة تطبيعها في المستقبل.. الرؤية التي يتحدث عنها، ليست ذات مرجعية ميتافيزيقية، كما هو الحال بالنسبة للحلم الذي يحدث أثناء النوم، ويرغب صاحبه في تطبيقه صبيحة يومه، بل هي، على خلاف ذلك، منظور أو تصور ناتج عن إجماع المواطنين لهذا البلد أو ذاك..

المهدي المنجرة، يرى أن المدرسة الحقيقية هي الحياة، حيث إن الحضارة الإنسانية خلقت معها المدرسة، وأن نحو ٢٠٪ من معرفة التلاميذ، تأتي من المدرسة، و٨٠٪ تأتي من التلفزة ووسائل الإعلام المختلفة، وهاتين النسبتين كانتا معكوستين قبل ٣٠ سنة، حيث كانت المدرسة في السابق، تشكل المصدر الأساس للمعرفة، إذ كانت

نحو ٨٠٪ من المعرفة تأتي من الكتاب المدرسي والمناهج التعليمية ومن المدرسين.. مقابل نحو ٢٠٪ فقط التي كانت تأتي من البيت ومن الشارع ووسائل الإعلام.. ومع هذا كله، فإن هذه النسبة القليلة، التي أصبحت تمثلها –اليوم- المدرسة، تشكّل أهمية قصوى تتجاوز أهميتها النسبة السابقة (٨٠٪) التي كانت تشغلها المدرسة من حيث مصدرها المعرفي، لأن النسبة الحالية (٢٠٪) أصبحت منظمّة ومركزة وهادفة وخاضعة لبرمجة وعقلنة، تسعى إلى تكوين وتأهيل المتعلمين عن طريق إمكانات واستعدادات وميولات المتعلمين، حتى يصبحوا قادرين على توظيف إمكاناتهم الذهنية والمعرفية بالشكل الجيد والناجع.. إذاً التربية لم تعد مرتبطة بالجانب الكمي للمعارف، بقدر ما أصبحت مرتكزة على تربية كيفية، نوعية هادفة، أي تهتم بأسلوب التفكير، وليس بالمحتويات، وهنا يظهر الفرق الكبير، بين مدرسة الأمس ومدرسة اليوم.. مدرسة الأمس كانت شكليّة، تهتم بالمحتويات والمضامين بمختلف أنماطها وأشكالها.. أما مدرسة اليوم، فهي وظيفية بنيوية، تساهم في برمجة عقول المتعلمين وأساليب تعلمهم.



المهدي المنجرة، يرى في تجربة اليابان، المثال الرائد في التنمية وعلم المستقبليات، وهذه التجربة تأسست على ثلاث ركائز:

- الركيزة الأولى: تشكّلت في ثورة الميجي سنة ١٨٦٨م، وفيها محيت الأمية في اليابان.

- الركيزة الثانية: تمثلت في اللغة، كوسيلة مهمة جداً للتواصل الفكري والحضاري والعلمي، مع إقامة مؤسسات للترجمة بهدف إغناء اللغة وإثرائها، وبالتالي تيسير مسألة التواصل.

- الركيزة الثالثة: ربط التنمية بالبحث العلمي.

تجربة المهدي المنجرة الطويلة في الغرب، علمته شيئاً أساسياً، مفاده أن القوي، وفق ما لاحظه «طاغور» لا يتكلم لغتنا، بل هو يريد بإصرار أن نتكلم لغته، وهذه ظاهرة، سبق وصفها من قبل العلاّمة عبد الرحمن بن خلدون، في تشبّه الصغير بالكبير، والضعيف بالقوي.. وهنا يبرز دور القيم، التي هي ليست من الأمور الجامدة.. القيم في حدّ ذاتها مستقلة في وجودها وكينونتها، فلو انطلقنا من مجال الرياضيات، فإنه لحل مسألة في الجبر، فإن قيمة K، كقيمة ثابتة لا تتغيّر، وإنما الذي يتغيّر هو القيمة التي نعطيها لها، كما أنه دون هذه القيمة الثابتة K في الجبر، لا يمكن التوصل إلى حل المسألة الجبرية، وهذا ما يعنيه بالقيم.. إنها تلك الثوابت أو المرتكزات، التي تشكّل مرجعية أو منطلقاً نستعين به في حياتنا اليومية والمستقبلية، وهي النبراس الذي نهتدي به، إلا أن القيمة التي نعطيها لهذه القيم هي التي تتغير وتتطور إيجاباً أو سلباً..

أما القيمة التي تعطيها العولمة للقيم، فهي الهدف الذي تسعى إليه العولمة، من خلال التشكيك في قيمنا، والهيمنة الكاملة والمطلقة على شعوب العالم الثالث، التي أضحت لا تؤمن بقيمها، وتفتقد على مرجعيتها ولذاكرتها.. ويرتبط هذا الواقع بغياب أو تغييب للرؤية المستقبلية..

يقول المهدي المنجرة: إننا نواجه صراعاً حقيقياً بين القيم.. هناك تسامح، ولكن لا وجود لقبول صادق لقيم الجنوب، وذلك بسبب انعدام الجهود الصادقة لفهمها.. فالحضارة المسيحية اليهودية تقترف خطأً جسيماً عندما تعتبر أن التحديث لا يمكنه أن يكون إلا غربيّاً..

ويستشهد «المنجرة» -كما ذكرنا- بالنموذج الياباني، الذي على إمكانية رائعة لتحقيق التنمية من خلال ركائز خاصة، تميزت بتفاعل ذكي بين الحفاظ على ثوابت

النسق الثقافي، وبين «فهم وهضم» العلم والتكنولوجيا، عبر تفعيل العوامل غير الاقتصادية، ومنها بالأساس الموارد البشرية، وهذه تجربة حطمت نهائياً احتكار الغرب للحداثة، وأثبتت أن الحداثة لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال مجهود ذاتي، وأنَّ التخلّف ليس إلا العجز عن التعبئة الرشيدة للموارد البشرية وللكفاءات..



في بحثه عن «الإعـلام كأحد معالم الهوة بين الشمال والجنوب» يرى المهدي المنجرة، أنَّ الإعلام هو ثروة الثروات، بل هو الثروة التي ترتبط بها كل الثروات الأخرى، لأنه الذي يمكّن من تحديد نوعها وتقييمها واستغلالها.. إن الإعلام هو التباين الذي يصنع التباين.. هو الذي غيّر الحياة كلها وبدّلها في كوكبنا..فإلى أين يتجه الإعلام؟!..

إنـه يتجه -حالياً- نحو تحويل مجتمع الإنتاج الصناعي إلى مجتمع إعلام ومعرفة، وقد أخذ جزء من العالم يقطع هذه المرحلة الجديدة من تطور الجنس البشري، وهي مرحلة أطلق عليها اسم «الموجة الثالثة» أو «الجيل الجديد الثالث» بينما ما تزال الأغلبية الساحقة من الناس تتخبط في المرحلة الثانية أو الجيل الثاني، جيل التصنيع..

إن الإعلام، يمثّل في الفترة الراهنة، السبب الرئيس في التفاوت المتزايد القائم بين الشمال والجنوب، والملاحظ أن التباينات لم تبلغ في أي قطاع آخر ما بلغته من عمق في هذا القطاع بالذات، وجميع المؤشرات والدراسات، تلتقي حول كون العالم في كليّته بصدد التحوّل من مجتمع للإنتاج، سواء كان زراعياً أو صناعياً، إلى مجتمع إعلام ومعرفة، أي مجتمع ما بعد الصناعي، الذي أفرزته «الموجة الثالثة»، وعلى هذا الأساس أصبح الإعلام، مصدر تفاوت وتسلّط سياسي، وتفوّق عسكري، وهيمنته اقتصادية وثقافية.

ويرى «المنجرة» أن الحوار أو التواصل السليم بين مختلف الحضارات والثقافات، يرتكز بالأساس على تقبّل التنوّع والاختلاف، وخاصة بما هو قيمي وثقافي وعقائدي، وتتجلى هذه الرؤية في دراسته المستقبلية المهمة «أصوات متعددة في عالم واحد».

هذا يحيلنا إلى الإشكال الحيوي للقيم، ودورها الاستراتيجي في الحفاظ على التنوع الحضاري، في الوقت الذي نرى فيه «السلطة الناعمة» تعمل على فرض نمط واحد للقيم والقواعد الأخلاقية.. لقد أصبحت القيم —اليوم- أهم مكمن للصراعات الحالية والمستقبلية، وأصبح التواصل أهم سلاح في الحروب الجديدة..

ويوجد «سيناريوهان» ممكنان بالنسبة لمستقبل التنوع الثقافي:

- الأول: يكمن في تعزيز النظام الدولي ذي القطب الواحد، الذي بدأ العالم يعيشه منذ بداية القرن الحالي، مع ظهور الهيمنة السياسية الأمريكية، وسيادة الثقافة الغربية.. إنه «سيناريو» النظام الدولي الجديد، ويشكّل الدفاع عن القيم الثقافية، أحد الأهداف الأكثر أهمية بالنسبة لسكان العالم، ودون هذا المحفّز ما كان لعصر «ما بعد الاستعمار»الذي يمشي جنباً إلى جنب مع السيناريو الأول.

- أما الثاني: يرى أنه لم يعد ملائماً النظر إلى العالم من زاوية التقاطب العسكري، إذ أصبح من الضروري رؤية العالم بشكل مخالف، وفق عصر الحضارات المختلفة، القائم على عصر تعايش حضارات متعددة..

ويعتقد «المنجرة» أن هذا «السيناريو» يمكن أن يرى النور إلا أنه ما زال سابقاً لأوانه بعض الشيء، شأنه شأن جميع التنبؤات الجديدة.



لقد طرحت فكرة الحوار والتواصل بين مختلف الحضارات والديانات في السنوات القليلة الماضية في دراسات ومؤتمرات وندوات عالمية، أكدت على ضرورة

الانفتاح والتسامح والإصغاء والحوار مع الآخر.. ومن يدرس كتب المهدي المنجرة، تراه يخالف هذه الرؤى التبسيطية للفكرة، ذلك أن هذه الغاية الإنسانية قد اعترض سبيل تحقيقها العديد من العقبات والعوائق أهمها:

المشروع الأمريكي، الإمبريالي، ومحورية إسرائيل، داخل هذا المشروع،وغير ذلك من الآليات والأهداف الموظفة لهذا الغرض، كأمركة أوروبة واستهداف العرب والمسلمين والإسلام بشتى أنواع الترهيب والتدمير والإذلال والإهانة، من خلال تسخير أمريكا لمختلف أشكال الاستراتيجيات الحربية المدمرة والفتّاكة، والتجسس، وتغيب مبادئ الديمقراطية على المستوى الواقعي..

إزاء هذه الإشكاليات أو العوائق التي تقف حاجزاً أمام إمكانية بناء حوار حضاري حقيقي بين مختلف الحضارات والثقافات، يرى «المنجرة» أن التواصل بين الأمم يتطلب قدراً كافياً من المعرفة، وأنه من العسير جداً لأي منتم للحضارة الغربية، أن يتكيّف مع أية حضارة أخرى من غير حضارته، ولكن الإشكال أننا نتعامل معها، بينما هي لا تتعامل معنا، بل تحاول إخضاعنا لقوانينها وقيمها، وعلى الرغم من هذا كله، فإنه لا بد أن نكون منفتحين على الآخر، حتى لو لم ينفتح علينا، حتى ندرك الثقة في أنفسنا.. وأساس هذه الثقافة التي تعطينا القدرة على المقاومة، والتكيّف والتطور، وبالتالي تحول بيننا وبين الاستلاب الثقافي، وبالتالي الانتقال إلى مجتمع المعرفة.

وقد ثبت بما لا يقبل الشك، أنه لا يمكن لأي خطة تنموية أن تنجح في الظرف الراهن، وفي المستقبل، دون سياسة طويلة المدى في مجالات «التكنولوجيا» والإعلام والاتصال، والانتقال نحو مجتمع المعرفة يتوقف على وجود إرادة سياسية قادرة على وضع حدّ لنماذج التنمية القائمة على التقليد الأعمى، وذلك بإعطاء الأولوية للموارد البشرية والبحث العلمي، وتطوير وسائل الإعلام والاتصال، ونهج التركيز على الدخل.

وفي هذا المجال يرى «المنجرة» الثقافة معطى ديناميكي، وكل ثقافة لا تتعامل على نحو فاعل وحيوي مع التغيير، سيكون مصيرها الانقراض، وأفضل طريقة لحماية الهوية الثقافية، جعل الثقافة أحد المحركات الأساسية في عملية التنمية، وتشجيع استخدام ذاتي وخلّاق للتكنولوجيا الإعلامية الجديدة..

إن العلم والتقنية، لا يمكن نقلها، لأنها نتاج نسق ثقافي، فالقيم الثقافية هي التي تحدد الفكر العلمي والإبداع والابتكار، والعلم والتقنية، ليسا المحركين الأولين للتغيير الاجتماعي، بل القيم الثقافية هي المحرك الأساس، وهي التي تجعل التغيير ميسوراً، من خلال تمكين الأفراد من استيعاب العلم والتكنولوجيا، وهذا ما يمكن تسميته بانصهار العلم بالثقافة..

إن أبرز ما في علم المستقبليات الذي ينادي به المهدي المنجرة في دراساته، هو إذكاء روح الأمل على المدى المستقبلي، على الرغم من نتائج الحاضر التشاؤمية، فالتغييرات ستعاني بعد خمسين أو ستين سنة، وهذا العمر في الحضارة الإنسانية لا يساوي شيئاً، والتطور لا يأتي بالقنابل، ولا بالطيران، ولا بالخيانة، بل بالشفافية وتكاثف الجهود.. فالمسألة مسألة وقت، وفي الدراسات المستقبلية، عندما نتحدث عن التغيير، نتحدث بمفهوم الأجيال على الأقل ٢٠ أو ٣٠ سنة.



دمشـــق ولامـــارتين

تعد الرحلة التي قام بها الشاعر الفرنسي ألفونس دي لامارتين (١٧٩٠-١٨٦٩م) عام ١٨٣٢ إلى المشرق العربي، والتي دوّن مذكراتها ويومياتها في كتابه الشهير «رحلة إلى الشرق» من أهم كتب الرحلات الاستشراقية العالمية، ويغطي هذا الكتاب الضخم أحداث /١٦/ شهراً تجوّل فيها لامارتين في مختلف بقاع البلدان الواقعة في الضفة الشرقية من البحر المتوسط، وفيه روى تفاصيل رحلته بكثير من الدقة والرومانسيّة، فوصف انطباعاته عن الشرق وسكانه وعاداته وأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية..

لقد عشق «لامارتين» الشرق، فرأى أنه أرض المعجزات والرسالات السماوية، ولم ينظر إلى الشرق من خلال «ألف ليلة وليلة» وإنما من خلال تاريخه العريق وحضاراته المتعاقبة التي شكلت الحضارة العربية فيها منعطفاً رئيسيّاً، وكثيراً ما ربط في كتاباته رموز الحضارة الأوروبية بمنابعها الشرقية والعربية، وقد أسس بذلك لتقاليد عريقة لنوع أدبي أكمله من بعده كبار أدباء القرن التاسع عشر، منوعين نبراتهم، ومفتتحين الطريق إلى الرؤية المعاصرة لأدب الرحلات.

لقد أراد «لامارتين» في رحلته أن يخلق آفاقاً جديدة للإلهام الأدبي والفني، فهو يرى في الشرق موطن الجمال والخيال الأول، لذلك نرى «لامارتين» الرسّام يتبارى مع «لامارتين» الأديب والشاعر في داخله.. ريشته العاشقة للجمال تلتقط الألوان

وفوارقها الدقيقة وترسم الآثار والمناظر والصروح جاعلة منها لوحات فنيّة بديعة، وهو المصور لعادات الناس الذين التقى بهم تصويراً دقيقاً.. ويسترسل في وصفه المناظر والناس منقّباً في أماكن الشرق عن الجمال ليخرجه في قالب لغة شعرية.. إنه أيضاً الوصف المقرون بالتأمل الفلسفي والديني والسياسي والميتافيزيقي، واستشفاف مستقبل الشرق والإنسانية والحلم بغد أفضل..

لقد أحسنت مؤسسة البابطين للإبداع الشعري عندما قدمت لقراء العربية مختارات قارب عدد صفحاتها /٧٠٠/ صفحة من هذه الرحلة، ونشرتها ضمن إصدارات دورة «شوقي ولامارتين»التي عقدت في باريس (تشرين الأول ٢٠٠٦) وترجمها: د. جمال شحيّد وماري طوق.



ذكريات وانطباعات «لامارتين» عن دمشق التي زارها في شهر نيسان ١٨٣٣، تقدم وصفاً رائعاً لهذه المدينة الخالدة التي سحرت فؤاده وحركت شاعريته فكتب عن حياة مدينة مفعمة بالتأمل والجمال والفلسفة والحيوية والإشراق..

مرتدياً الزي العربي جال شاعرنا في ذاك الصباح في أحياء دمشق الرئيسية، طاف بادئ الأمر، بشوارع الحي الأرمني القاتمة والمتعرجة.. المنازل من طين تشرف واجهاتها على الشارع عبر نوافذ قليلة العدد، مشبّكة بالحديد ومصاريعها مطليّة باللون الأحمر.. المساكن والأبواب بسيطة قليلة الارتفاع.. إلا أنه ولدى الدخول إلى بعض هذه البيوت، دهش من غناها من الداخل وترفها.. اجتاز عتبة الباب وولج رواقاً قاتماً فوجد نفسه في باحة مزدانة بنوافير رخامية ينبجس منها الماء، وتظلّلها شجرة جميز أو شجرتان وصفصاف فارسي، كانت هذه الباحة مرصوفة ببلاط عريض من الحجر المصقول أو الرخام، وكانت العرائش تفترش الجدران المكسّوة بالرخام الأبيض والأسود، ثم أفضت به خمسة أو ستة أبواب دعائمها رخامية أيضاً

ومنحوتة بزخارف عربية إلى الدور التي يقيم فيها رجال العائلة ونساؤها: دور فسيحة ذات عقود يخترقها عدد كبير من النوافذ الضيّقة المرتفعة جداً التي تسمح للهواء النقي بالتسّرب إلى الداخل باستمرار، وجميع هذه الدور مؤلفة من قسمين: قسم أكثر انخفاضاً يقيم فيه الخدم، وقسم آخر يرتفع عن الأول بضع درجات ويفصله عنه «درابزون» من أعمدة الرخام أو خشب الأرز مقطع بشكل رائع، وهناك في وسط الدار أو في إحدى زواياها نافورة ماء أو نافورتان مزينة حافاتها بزهور مغروسة في أوعية فاخرة تحوم حولها رفوف من السنونو والحمائم لتشرب من مائها ساعة يحلو لها.. يكسو الرخام جدران الغرفة حتى ارتفاع متوسط حيث توجد تماثيل من الجص، وتزينها الزخارف العربية ذات الألوان التي لا تحصى، وأحياناً نواتئ كثيرة الزخرفة تنبسط فوق أرضية مفروشة بالرخام الأبيض أو مغطاة بخشب الأرز في كل مكان، وعدد كبير من الوسائد والحشايا الحريرية المبعثرة وسط الدار، وهي أشبه بمقاعد أو مساند لأفراد العائلة، وفي عمق القاعة ديوان مغلّف بالأقمشة الفاخرة والبسط الثمينة التي تزين جوانبه كافة، وهناك يتربع الأطفال والنساء أو يستلقون بعد الفراغ من الأعمال المنزلية ووسط هذه السجاجيد والوسائد، أسرّة الأطفال الصغار، وثمة جهة من الدار تخص رب العائلة، وحده يستقبل فيها الأجانب حيث يجلس صاحب الدار عادة فوق ديوانه وبالقرب منه مقلمته ذات المقبض الذهبي، مطروحة على الأرض، يضع الورقة فوق ركبته أو في راحة يده اليسرى، وينصرف إلى الكتابة أو الحساب طيلة النهار، فأعمال التجارة هي الشاغل الوحيد لسكان دمشق وصنعتهم الوحيدة.



في حديثه عن دمشق وأهلها وعاداتها يبدي «لامارتين» إعجابه بكياسة أهل دمشق وكرمهم والانسجام بين الناس، حيث تتحدث النسوة بظرف واحتشام متواضع، يقول: في كل المنازل التي استقبلت فيها رأيت الأم والابنة متساويتين جمالاً

على الرغم من أن الفتيات لا يزلن في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة.. وملابس النساء السوريات هي أفخر الملابس التي رأيتها في الشرق وأكثرها أناقة..

ويتابع ذكرياته: «دمشق بلاد لا علاقة لها بأوروبة، ومع ذلك فإن رجالها على إلمام بشتى الأمور من خلال الخرائط الجغرافية وبعض الوقائع التاريخية والسياسية الكبيرة التي وصلت أصداؤها إلى دمشق.. طفنا بأسواق دمشق، يبلغ طول البازار الكبير، نصف فرسخ، وأسواق دمشق شوارع طويلة مسقوفة بصقالات مرتفعة جداً وفيها الحوانيت والدكاكين والمخازن والمقاهي وهي مقاهٍ ضيقة وقليلة الاتساع، يجلس التجار القرفصاء، أمام محلاّتهم، الغلايين في أفواههم وإلى جانبهم النارجيلة بأنبوبها الطويل، المخازن مليئة بالسلع من كل نوع وخاصة بالأقمشة الهندية التي تصل إلى دمشق بوساطة القوافل الوافدة من بغداد.. يدعو الحلاقون المارة لقص شعورهم، ومحلاتهم مزدحمة بالناس دائماً، والزحمة في السوق عموماً شديدة طيلة النهار..

لكل نوع من التجارة في دمشق حيّه الخاص به.. ها هنا السّراجون الذين لا يبدون إطلاقاً أنهم يعرضون للبيع الأسلحة الرائعة الشهيرة التي كانت تزود بها دمشق تجار المشرق، فهذه المشاغل حيث تصنع السيوف البديعة قد طواها النسيان، ثمة عدد قليل من هذه السيوف قيد التداول يعرضها أصحابها للبيع وكأنها ذخائر ثمينة وأسعارها لا تقدر بثمن، ويعتبرها الأهالي أثمن وأنفس من الماس، ويبذلون الغالي والنفيس من مالهم لقاء الحصول عليها..

أما صانعو الحلي فلا يتمتعون بأي موهبة ولا تحدوهم أي رغبة في نظم حجارتهم الكريمة أو لآلئهم، لكنهم يملكون منها المجموعات الهائلة، فثروة الشرقيين منقولة كلها سواء طمرت في التراب أو حُملت، ورجال الصاغة كُثر، لايعرضون إلا القليل من الحلي ويضعون الباقي في أدراج صغيرة لا يفتحونها إلا إذا حضر الزبون

المناسب وطلب منهم رؤية الحلي.. والسّراجون يفوقونهم عدداً، وهم الأمهر في هذه الأسواق، لا شيء يضاهي ولا في أوروبة الذوق والظرف والفخامة التي تتمتع بها الرحال المزركشة المعدّة لخيول القادة العرب أو «أغاوات» البلاد.. الأسرجة مكسوّة بالمخمل والحرير المطرز بالذهب واللآلئ، وعقود الجلد الأحمر المتدلية كالأهداب على الجياد، مزينة أيضاً بشرّابات من فضة وذهب وباقات من اللآلئ.. أما الألجمة فهي أكثر أناقة من الألجمة المصنوعة في أوروبة..



ونتابع جولتنا في دمشق من خلال رحلة «لامارتين» إلى الشرق في عام ١٨٣٣ ونقف عند وصفه مخازن الباعة، حيث يقول: تتميز مخازن باعة المواد الغذائية بتنظيمها وأناقتها ونظافتها واجتذابها للأنظار.. تزدان واجهات هذه الحوانيت بعدد من السلال المملوءة بالخضار والفواكه المجففة والبقول التي لا أعرف أسماءها، ولكنها تتحلى بأشكال وألوان لماعة بديعة متلألئة كحصيّات صغيرة خارجة من الماء.. كذلك عرضت أرغفة الخبز من مختلف الأحجام والأشكال لمختلف الأوقات ومآدب النهار.. أرغفة ساخنة أشبه بالرقاقات المقليّة، لكن لم يسبق لي أن رأيت في حياتي هذا الإتقان الشديد للخبز الذي رأيته في دمشق، وثمنه زهيد للغاية..

حين كنت أجول في السوق، وصلت إلى حي صانعي الصناديق والأدراج.. إنها الصناعة الأكثر رواجاً لأن كل الأثاث الذي تقتنيه العائلة العربية يقتصر على صندوق أو صندوقين توضع فيها الأمتعة التليدة والحلي، ومعظم هذه الصناديق مصنوعة من خشب الأرز ومطلي باللون الأحمر، تزينه زخارف رُسمت بمسامير ذهبية، وبعضها نحت بشكل بديع ومزدان بزخارف عربية أنيقة للغاية.. لقد فاحت رائحة خشب الأرز من كل مكان في السوق، وهذا الجو العابق بألف رائحة مختلفة، متصاعدة من دكاكين النجارين ومخازن السمانة والعطارين وصناديق العنبر أو الصموغ المعطرة والمقاهي ودخان الغلايين المنبعث بلا توقف..

في وسط سوق دمشق، عثرت على أجمل خان في الشرق، «خان أسعد باشا» الذي بني على شكل قبة ضخمة تذكّرنا بقبة القديس بطرس في روما، وقد شيدت فوق أعمدة من الغرانيت، وخلف الأعمدة مخازن وسلالم تفضي إلى الطوابق العليا حيث غُرف التجار، ويستأجر كل تاجر نوافذ إحدى هذه الغرف ويعرض فيها سُلعه الغالية وكتبه، حيث يتناوب الحراس على سلامة الخان، وبالقرب من الخان حظائر كبيرة لأحصنة المسافرين والقوافل، ونوافير جميلة تنثر رذاذ الماء بشكل منتظم فتضفي على جو الخان انتعاشاً، وهو أشبه ببورصة تجارية في دمشق، ويشكل باب الخان المطل على السوق، إحدى القطع المغربية الهندسية التي تتميز بغنى تفاصيلها وجلالها، وتؤلف تحفة فريدة في هذا العالم، والهندسة العربية تعبّر عن نفسها أصدق تعبير في الخان الذي لم يشيّد إلا منذ أربعين سنة..إن شعباً يستطيع مهندسوه المعماريون أن يصمموا مبنى مماثلاً لخان أسعد باشا، ويستطيع عماله تنفيذه، فهو شعب فنان خالد على مّر الزمان.. لقد بنى هذه الخانات إجمالاً باشاوات أثرياء يورثونها لعائلاتهم أو للمدينة التي أرادوا إعمارها، وهي تدر عليهم مالاً وفيراً.

يتابع «لامارتين» جولته في دمشق وأسواقها فيقول في جانب منها: لا تزال ذكرى القديس بولس ماثلة في أذهان مسيحيي دمشق، لا تزال آثار المنزل الذي هرب منه ليلاً بعد أن تدلى بسلّة من أعلى البناء ونجا بنفسه.. لقد كانت دمشق من أولى المدن التي بشّر فيها بكلمة المسيح التي غيّرت العالم.. تلك الكلمة التي أعطت ثمارها سريعاً، فالشرق هو أرض العبادات والعجائب، والفكرة الكبيرة التي استحوذت على الأذهان في الأزمنة كلها هي فكرة الدين.. إن هذه الشعوب كلها بعاداتها وقوانينها مبنية على أسس دينية صلبة، لم يقم الغرب على الدين قط.. لماذا؟! لأن عرقه أقل نبلاً، فهم أحفاد البرابرة ومايزالون متمسكين بجذورهم، إن الأمور لم توضع في نصابها في بلدان الغرب.. إن أنبل الأفكار الإنسانية فيه لم تأتِ إلا بعد الأفكار الأخرى.. الغرب بلاد الذهب والمادة والحركة والصخب، أما الشرق فبلاد التأمل

العميق والحدس والعبادة، لكن الغرب يتقدم بخطى عملاقة، وعندما يلتقي الدين بالعقل على أسس من الحق والنور والحب بعد أن فرّقت بينهما القرون الوسطى والعصور المظلمة، عندئذٍ، يعود الفكر الديني والنفحة الدينية فيشهد العالم ولادة جيل من أبناء الفضيلة والحضارة والنبوغ.

ويستمر «لامارتين» في وصف المشاهد وتدوين المذكرات عن دمشق وأسواقها وعاداتها ليصل إلى يوم المغادرة حيث خرج من المدينة من باب جديد وولج بساتين بديعة في طريق يحّف به شلال تظللّه الأشجار البديعة وتسلق الجبل وشاهد منه منظر دمشق البهي وتوقف ليتأملها مرة أخرى لترسخ في ذاكرته صورتها الأبدية، ليدرك حينذاك لماذا يضع التقليد العربي دمشق في مصاف الجنة المفقودة؟!

يقول: ليس هناك مكان في الأرض يشبه عدن كما تشبهها دمشق، سهلها الواسع الخصيب، التفرعات السبعة للنهر الأزرق الذي يرويها، الجبال الجليلة التي تكللها، البحيرات الباهرة حيث تنعكس السماء على صفحتها، موقعها الجغرافي بين البحيرين، اعتدال المناخ.. كل شيء يشير إلى أن دمشق كانت إحدى أولى المدن التي بناها أبناء البشر، وإحدى المحطات الطبيعية للبشرية الهائمة في أزمنة التاريخ الأولى.. إنها إحدى تلك المدن التي رسمتها يد الله على وجه الأرض وعاصمة أُعدت مسبقاً لقدرها..



لجنــة التـــراث العالمـــي

مشاركتي بتمثيل سورية في اجتماعات الدورة السادسة عشرة للجمعية العامة للدول الأطراف في الاتفاقية الخاصة بحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، التي عقدت في باريس –مقر اليونسكو- بين ٢٤و٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٧، كانت فرصة جيدة للاطلاع على الأداء الإداري لمركز التراث العالمي، وعلى البرامج العالمية التي ينفذها في كثير من دول العالم، والمشاركة في صياغة أهم القرارات التي اتخذتها لجنة التراث العالمي، والتي تهدف إلى تعزيز مصداقية التراث العالمي، وكفالة الصون الفعّال لهذه الممتلكات، والتشجيع على تنمية البناء الفعال للقدرات في الدول التي لديها مواقع في قائمة التراث العالمي، والقيام بزيادة وعي الجمهور بالتراث العالمي، ومشاركته فيه ودعمه، وقد قررت لجنة التراث العالمي، أن تضيف إلى هذه الأهداف الاستراتيجية المشار إليها، هدفاً يخص المجتمعات المحليّة وينص على «تعزيز دور المجتمعات المحليّة في تنفيذ اتفاقية التراث العالمي».

لقد بلغ عدد الدول الأطراف في اتفاقية التراث العالمي حتى أيار/ مايو ٢٠٠٧ (١٨٤) دولة، وفي تموز/ يوليو ٢٠٠٧ بلغ العدد الكلي للممتلكات المدرجة في قائمة التراث العالمي (٨٥١) ممتلكاً (٦٦٠ ممتلكاً ثقافياً و١٦٦ ممتلكاً طبيعياً، و٢٥ ممتلكاً مختلطاً) وتقع هذه الممتلكات في ١٤١ دولة طرفاً (أي أن ٤٣ دولة طرفاً ليس لديها ممتلكات مدرجة في قائمة التراث العالمي)، وقدّمت ١٥٧ دولة طرفاً، قوائم

مؤقتة بممتلكات ترغب في ترشيحها كي تُدرج في القائمة في السنوات المقبلة، وفي تموز/ يوليو ٢٠٠٧ بلغ العدد الكلي للممتلكات المدرجة في قائمة التراث العالمي المعرّض للخطر ٣٠ ممتلكاً (١٧ ممتلكاً ثقافياً و١٣ ممتلكاً طبيعياً) وتقع هذه الممتلكات في ٢٤ دولة طرفاً، وللمرة الأولى في تاريخ اتفاقية «اليونسكو» الخاصة بحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، قررت لجنة التراث شطب أحد الممتلكات المدرجة في قائمة التراث العالمي، وهو محميّة «المها العربية في عُمان» بعد أن أخلّت الدولة الطرف بالتزاماتها المحددة بموجب الاتفاقية، ولا سيما الالتزام بحماية وصون محميّة المها العربية، وبالتالي تدهور الممتلك إلى حد فقدان قيمته العالمية الاستثنائية.

هنا لا بد من الإشارة إلى أن الدول الأطراف، عند ترشيحها للمواقع بغية إدراجها في قائمة التراث العالمي، بصون ممتلكاتها التي تدرج في المستقبل في قائمة التراث العالمي، وبتزويد اللجنة بتقارير منتظمة عن حالة صون هذه الممتلكات، وبموجب المبادئ التوجيهية لتنفيذ اتفاقية التراث العالمي لعام ٢٠٠٥ «يجب أن تحظى جميع الممتلكات المدرجة في قائمة التراث العالمي بالحماية والإدارة الملائمتين على المستوى التشريعي والتنظيمي والمؤسسي والتقليدي لضمان صونها على المدى الطويل». وتذكرّ هذه المبادئ بضرورة أن توضع لكل ممتلك مرشح خطة إدارية تحدد فيها كيفية المحافظة على القيمة العالمية الاستثنائية للمتلك المعني، ويستحسن أن يكون ذلك بوساطة تشاركيّة، وهذا شرط مسبق أساسي لا بد من توافره في جميع ملفات الترشيحات الجديدة.



لقد وضعت لجنة التراث العالمي الثقافي والطبيعي جملة من الأهداف والمبادئ التي تضمن الحماية الفعّالة للممتلك المرشح أو المسجل لصالح الأجيال الحاضرة والمقبلة، نذكر منها:

- إحداث نظام إداري من أجل ضمان فعالية إدارة ممتلك التراث العالمي، وصون قيمته العالمية الاستثنائية بما في ذلك سلامته وأصالته ويستند هذا النظام إلى الإقرار الكامل بالقيمة العالمية الاستثنائية للممتلك وبسائر قيمه التي تم تحديدها في عملية الترشيح، كما يستند إلى تحديد الخصائص المادية التي تعبّر عن هذه القيم وتجسّدها، علاوة على الجوانب غير المادية الأخرى التي تسهم في إضفاء هذه القيم.

- حماية القيم التراثية للممتلك، ولا سيما قيمته العالمية الاستثنائية، يجب ألا يتعارض مع الاهتمامات الإنمائية والاحتياجات المشروعة للمجتمعات المحلية، وذلك لضمان استدامته بوجه عام.

- ينبغي لنظام إدارة ممتلكات التراث العالمي أن يتيح وضع الاستجابات اللازمة لشتى الصعوبات التي تعترض عملية المحافظة على القيمة العالمية الاستثنائية للممتلك، وينبغي للنظام الإداري أن يتيح أيضاً إطاراً لاتخاذ قرارات مستنيرة وذلك عن طريق عمليات تشاركية كاملة بما يسمح بقيام عملية متواصلة ومفتوحة لاستعراض السياسات والإجراءات وتطويعها، كما ينبغي أن يتيح إجراء عمليات للتقييم المتواصل لكي يكون النظام واقعياً وفعّالاً.

- فضلاً عن دور النظام الإداري في ضمان البقاء المادي للممتلك، فإنه ينبغي أن ييسّر تحسين فهم سكان الموقع وعامة الجمهور، وأن يذّكي وعيهم بضرورة حماية وتعزيز القيم التثقيفيّة للممتلك وقدرته على الإسهام في التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

- إدراكاً للعناصر المذكورة آنفاً. ينبغي تضمين المبادئ المشتركة عناصر عديدة:

١ -فهم عميق للممتلك تتشاطره جميع الأطراف المعنية.

٢ -دورة تخطيط وتنفيذ ورصد وتقييم واستخلاص الدروس.

٣ -مشاركة الشركاء والأطراف المعنية.

٤ -تخصيص الموارد اللازمة.

٥ -بناء القدرات.

٦ -وصف كيفية عمل النظام الإداري على نحو شفاف وخاضع للمساءلة.

وتشتمل الإدارة الفعّالة على دورة طويلة الأجل، وأنشطة يومية لحماية الممتلك المرشح وصونه وعرضه، وينبغي لنظام إدارة التراث أن يرتكز إلى المكونات الثلاثة التالية: بيان ومهام وصلاحيات (قانونية أو غيرها)، وقاعدة مؤسسية أو إطار مؤسسي لصنع القرارات، وموارد بشرية ومالية لتيسير عمليات التنفيذ.

ونظراً للتنوع الواسع لممتلكات التراث العالمي ولسياقاتها الثقافية، يمكن أيضاً إدارة الممتلك بوساطة نظام إداري تقليدي يستند إلى مشاركة المجتمع المحلي ونظم المعارف والممارسات التقليدية أو بوساطة «خطة إدارية» في شكل وثيقة تتفق بشأنها شتى الأطراف المعنية.

ولا يمكن للنظام الإداري أن يقتصر على مجرد خطة للصون أو للصيانة، ولا ينحصر في التراث الثقافي أو المشروعات الجارية أو في المشروعات التي ستجري في المستقبل للقيام بأعمال الترميم المعماري.. فهذه الأنشطة، وإن كانت أنشطة هامة يستغرق تنفيذها وقتاً طويلاً، وشديدة الاتساع أحياناً، فإنها لا تشكّل إلا عنصراً واحداً من عناصر الخطة الإدارية..



لقد صدر عن المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة «اليونسكو»، ومركز التراث العالمي في العقود الماضية مجموعة من الوثائق والمواثيق والتوصيات ذات الصلة بالمدن التاريخية وبيئاتها الأوسع نطاقاً، نذكر منها بصفة خاصة «الميثاق الدولي لصون الآثار والمواقع وترميمها» أو ما يعرف باسم «ميثاق البندقية» لعام ١٩٦٤، وتوصية اليونسكو بشأن صون الممتلكات الثقافية التي تهددها الأشغال العامة أو الخاصة لعام ١٩٦٨، وتوصية اليونسكو بشأن صون المناطق التاريخية ودورها في الحياة المعاصر لعام ١٩٧٦ وميثاق صون المدن التاريخية والمناطق الحضرية لعام ١٩٨٧، وميثاق واشنطن الصادر عن المجلس الدولي للآثار والمواقع، ووثيقة نارا لعام ١٩٩٤ بشأن الأصالة..

لقد كانت هذه الوثائق مرجعاً مفيداً لتوجيه السياسات والممارسات على الصعيد العالمي، وتحقيق نتائج طيبة، ولكن مع تغيّر الظروف، أخذت المدن التاريخية تتعرض لضغوط التنمية وتحدياتها، وهي ضغوط لم يكن هناك إدراك كامل لأبعادها إبان اعتماد آخر توصية لليونسكو بشأن المواقع الحضرية في عام ١٩٧٦، ومع الحجم الراهن لسكان العالم الذين يعيشون في المناطق الحضرية والزيادة المتوقعة في عددهم، إلى جانب عدم وجود سياسات كافية لتحديد وتيسير سبل الاستخدام المستدام لأصول التراث، وهذا سيؤدي إلى تصاعد الضغوط الواقعة على المدن الأثرية، الأمر الذي سيجعل من صون المناظر الحضرية التاريخية واحدة من أشد مهام عصرنا صعوبة، وهنا لا بد من إدراك مدى خطورة المشاريع الحديثة على المدن التاريخية والأثرية المدرجة في عداد مواقع التراث العالمي أو على المناطق المتاخمة لها وخاصة الضغط الناجم عن حركة المرور والسياحة، وتشييد المباني المرتفعة والتغييرات الوظيفية داخل المدن التاريخية والأثرية..

لقد دعت لجنة التراث العالمي في دورتها السابعة والعشرين (اليونسكو ٢٠٠٣) إلى تنظيم ندوة لمناقشة الأسلوب المناسب لتنظيم الاحتياجات فيما يخص تحديث البيئات الحضرية التاريخية، مع المحافظة في الوقت نفسه على القيم المتأصلة في المناظر الحضرية التراثية، لا سيما في المدن المدرجة في قائمة التراث العالمي، واستجابة لذلك، نظّم مركز التراث العالمي، بالتعاون مع المجلس الدولي للآثار والمواقع، ومدينة فيينا، مؤتمراً دولياً بشأن « التراث العالمي والعمارة المعاصرة» سنة (٢٠٠٥- أيار/ مايو) واعتمد في ذلك المؤتمر أول مخطط للمبادئ والتوجيهات التي تعرف باسم «مذكرة فيينا» والتي حفّزت على وضع نهج متكامل يتبع فيما يخص العمارة المعاصرة والتنمية الحضرية وسلامة المناظر التراثية.

لقد رحبت لجنة التراث العالمي في دورتها التاسعة والعشرين (دوربان ٢٠٠٥) بهذه المذكرة بوصفها وسيلة جديدة أخرى لمناقشة وتقييم التدخلات المعمارية المعاصرة المنفذة في المدن المسجّلة في قائمة التراث العالمي، وفي بيئاتها الأوسع نطاقاً، بما في ذلك تشييد المباني المرتفعة، كما أوصت لجنة التراث العالمي بأن «يعتمد المؤتمر العام توصية جديدة لتكملة وتحديث التوصيات القائمة بشأن موضوع صون المناظر الحضرية التاريخية، مع الإشارة إلى ضرورة وجود صلة بين العمارة المعاصرة والسياق الحضري التاريخي.

«مذكرة فيينا» أصبحت الأساس الذي استند إليه في وضع «الإعلان بشأن صون المناظر الحضرية التاريخية» الذي اعتمدته الجمعية العامة الخامسة عشرة للدول الأطراف في اتفاقية التراث العالمي في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٥ في مقر اليونسكو.. وبناء عليه وضعت الخطط والأبحاث والدراسة التي يجب أن يكون لها أثر عميق في تغيير المعارف والممارسات المتصلة بصون التراث العالمي، واقتصاديات

المدن التاريخية ودورها المتغيّر، مع التركيز على العمليات غير المحليّة مثل: السياحة والتنمية الحضرية، وعوامل التغيير الخارجية.



في كتاب شمولي رائع صدر عن منظمة اليونسكو بعنوان «مفاتيح القرن الحادي والعشرين» يقول المفكر «مارتن رمون غويو» عن استشراف مفهوم التراث: «لما كان التراث لا يستهلك ولا يثمر فإنه مندثر لا محالة، مما يجعل الحفاظ عليه أمراً جوهرياً وعاجلاً» وهنا يأتي دور الحفاظ عليه وحفظه وترميمه وصيانته وإعداد الدراسات والأبحاث عنه حتى يكون مثمراً وحيوياً وشاهداً على الحضارات والفنون والعلوم والمعارف والآداب التي مرت على الإنسانية..

لقد كانت سورية واعية لدور اليونسكو ومجالسها ومراكزها ولجانها الدولية في مجالات حفظ ودراسة وأبحاث واسترجاع التراث والممتلكات الثقافية، فهي من أوائل الدول في العالم التي انضمت إلى اليونسكو منذ عام ١٩٤٦، وعندما أحدثت المؤسسات والهيئات والمنظمات التراثية كانت من مؤسسيها أو أوائل المنتمين إليها ونخصّ بالذكر: المجلس الدولي للمتاحف، الذي يعمل على تشجيع ودعم وتأسيس وتطوير المتاحف على اختلاف مستوياتها، وتطوير المعرفة والفهم بطبيعة ووظيفة ودور المتاحف في خدمة المجتمع وتنميته، ويحتفل العالم باليوم العالمي للمتاحف في (١٨ مايو/ أيار) من كل عام.

- المجلس الدولي للآثار والمواقع (ايكوموس ICOMOS) الذي أنشئ في عام ١٩٦٥، ويعد من الهيئات الاستشارية للجنة التراث العالمي، ويقدم المشورات الفنية، وكان حاضراً بقوة في اجتماع لجنة التراث في باريس.

- المجلس الدولي لدراسة صون الممتلكات الثقافية وترميمها المعروف باسم (ايكروم ICCROM)، وقد أنشئ هذا المجلس في عام ١٩٥٦ ويتخصص بتحقيق الأهداف التالية: التدريب- تقديم المعلومات وتدريب الجمهور- الأبحاث والتوثيق والمساعدات التقنية- التعاون الدولي- الدعم والتأييد للدول الأعضاء بهدف تعزيز صون التراث الثقافي. وهذا ما أكدته القرارات والتوصيات التي صدرت عن الدورة السادسة عشرة للجمعية العامة للدول الأطراف في الاتفاقية الخاصة بحماية التراث العالمي، وتقرير اللجنة الثقافية لمنظمة اليونسكو.



نصف قرن مع «العربي»

المؤتمر العام لمنظمة التربية والثقافة والعلوم «اليونسكو»، أقرّ في دورته الرابعة والثلاثين عام ٢٠٠٥، اعتماد مرور /٥٠/ سنة على صدور العدد الأول من مجلة «العربي» الكويتية. ليكون ضمن احتفالات «اليونسكو» العالمية لعامي ٢٠٠٨-٢٠٠٩، وكان لي شرف المشاركة في إقرار هذا الاعتماد، والمشاركة في الاحتفالية التي أقامتها وزارة الإعلام الكويتية بين ١٤ و١٦ كانون الثاني ٢٠٠٨، هذه الاحتفالية الضخمة التي شارك فيها أكثر من /١٠٠/ باحث ومفكر وأديب وإعلامي، من شتى أرجاء الوطن العربي والعالم الإسلامي، لقد اجتمعوا في إطار ندوة كبيرة حملت عنوان «نصف قرن من المعرفة والاستنارة» وليقولوا: «إن الاحتفال باليوبيل الذهبي لمجلة العربي لا يعني فقط الاحتفال بمرور نصف قرن على تاريخ صدور أول عدد من هذه المجلة، بل يعني أيضاً الاحتفال بخمسين عاماً من المساهمة في بناء أجيال من المثقفين والعلماء والفنانين والأدباء العرب، الذين تفتحت مداركهم الثقافية والعلمية والفنية والأدبية على صفحاتها».

لم تكن «العربي» مجرد مجلة، بل منبعاً للثقافة والمعرفة، نهل منه ملايين العرب، من المحيط إلى الخليج العربي وشكّلت دوراً رئيسياً في صياغة أفكار ومعارف عربية عديدة.. لقد تمكنت هذه المجلة، وبشكل فريد ورائع من جمع كل أطراف الثقافة، وأن تتناول القضايا الكبرى في الوطن العربي والعالم، دون أن تتجاوز حدود

المعقول من حيث مراعاتها للذوق العربي والإسلامي والإنساني، ويتجلى ذلك في العلوم والآداب والفنون والتحقيقات المصورة، وهنا يكمن سرّ نجاحها واستمرارها وانتشارها، وسرّ اهتمام القراء بها، حتى وصل عدد النسخ التي تطبع من كل عدد إلى /٢٥٠/ ألف نسخة، وهذا رقم لم تصل إليه إلا مجلات معدودة ومشهورة جدّاً في العالم..

أهمية «العربي» تكمن أيضاً في انفتاحها على عالم اللغة العربية، ففي نشرها لمختلف الدراسات والأبحاث العربية والعالمية، في جوانبها العلمية والتقنية، قامت بإغناء الموسوعة العربية المعجمية والتعبيرية والمصطلحية في الوقت نفسه، وبهذا الفعل الحيوي المنفتح والمتجدد على اللهجات العربية المحليّة، والمنفتح على اللغات العالمية بفضل الترجمة إلى اللغة العربية، تكون المجلّة قد ساهمت في إثراء اللغة العربية في مختلف المجالات، وأثبتت مدى قوة اللغة العربية، ومدى قدرتها على التطور واستيعاب مختلف فنون وآداب وعلوم العصر الحديث.

لقد شكّلت «العربي» لأجيال من الشباب العربي المتعطش إلى العلم والثقافة والانفتاح على الآخر، وسيلة أساسية من وسائل المعرفة العربية، وظلّت وفيّة لمبادئها وتوجهاتها العربية، التي يمكن أن تختزل في مراهنتها على إشاعة ثقافة تنويرية، وما جعلها تنجح في مهمتها أنها حرصت على تغليب كفّة الثقافي على كفّة السياسي على الرغم من صعوبة المعادلة.



قضايا اللغة العربية، كانت حاضرة بقوة في احتفالية مجلة العربي، في وقت تعيش فيه لغتنا حالات حرجة بين التحدي، والتحدي المضاد، وقد كان المفكر الجزائري عبد الملك مرتاض، واعياً ومدركاً جيداً للدور الحضاري والإنساني الذي قامت به هذه اللغة في مسيرة الحضارة الإنسانية، فقد تزعمت مسارها بروعة قلّ نظيرها،

وذلك طوال ثمانية قرون، إذ لا يشبهها في التاريخ إلا اللغة الإنكليزية، التي هي لغة البحث في عالم اليوم، ولكن هل سيستمر دور اللغة الإنكليزية في العالم لمدة ثمانية قرون، كما كان حال اللغة العربية؟!

لقد كانت اللغة العربية خلال القرون الوسطى، لغة الناس يتفاهمون بها من بُخارى شرقاً إلى بلاد الأندلس غرباً وإلى وسط أفريقيا جنوباً، كما كان المتعلمون من الأوروبيين يقصدون قرطبة وبجاية وفاس من مدن الغرب العربي الإسلامي، من أجل أن يتعلموا فيها، ويأخذوا عن العلماء العرب، وقام أحد الطلاب الأذكياء من إيطاليا بأخذ الأرقام العربية من بجاية الجزائرية إلى فلورنسا الإيطالية، فأشاعها في الاستعمال الأوروبي، لأول مرّة، وحلّت هذه الأرقام مكان الأرقام الرومانية، التي كان من المستحيل بها تعليم الحساب والرياضيات.

ومن خلال اللغة العربية طوّر العلماء العرب العلوم التي كانت معروفة عند اليونان والهند والفرس، وقاموا ببلورتها، كما ابتدعوا بها علوماً أخرى، وكان الفارابي، وابن سينا، وابن رشد وغيرهم، يفكّرون ويكتبون في قضايا المعرفة واللاهوت والفكر باللغة العربية، في حين كان الخوارزمي يبحث في جداول اللوغاريتم ويؤلف في الجبر، والمقابلة، كما كان الزهراوي، وهو من أكبر الجراحين في العصور الوسطى يؤلف كتاب «المقالة في عمل اليد على الحراجة» بلغة الضاد.

الدكتور عبد السلام المسدّي من تونس، يرى أن المسألة اللغوية في وقتنا الراهن ليست في معزل عن السياق السياسي، والمشهد الإعلامي يدفعنا إلى التسليم بأن اللغة العربية قد كان لها عند أهلها من الوزن والاعتبار أيام الاستعمار أكثر مما لها منهما عندهم الآن، بعد نصف قرن من الاستقلال، وهذا ما يتفرد به العرب دون سائر الشعوب الذين عرفوا الاستعمار وتحرروا منه ومن آثاره، بل من كان يصدّق أن أهل الضاد سيفعلون بلغتهم زهداً واستخفافاً وهم مستقلون مالم يستطع أعداؤها وأعداؤهم أن يفعلوا بها حين كانوا قابضين على الأنفاس؟

اللغة العربية من منظور استشراف مستقبلها، واستقراء ما قد تؤول إليه، قضية حضارية كبرى ترتد إلى إشكال سياسي بالغ الخطورة والتعقيد، وبها يرتبط الجوهر الثقافي الذي يتأسس عليه معمار الهوية في بعديه التاريخي الماضي، والمصيري القادم..

إن اللغة العربية -لو أنصفها التاريخ وأهلها- لكان من المفروض أن تكون هي أداة التداول المطلقة عبر وسائل الإعلام الخطيّة والسمعيّة والبصرية،وأن تكون أداة التداول في كل ما يتصل بمجالات الفكر والثقافة والمعارف، وبكل حقول التسيير والتوجيه، وكل دوائر الإبداع والفنون.. ولكن بكل أسف فإن وضع اللغة العربية في هذه المرحلة التاريخية وضع حرج جداً، فهناك حملة واسعة تصاحب حملة الكونية الثقافية تتقصّد النيل من كل الثقافات الإنسانية ذات الجذور الحضارية المتأصلة وفي مقدمتها الثقافية العربية، وكثيراً ما تتعلل بأن العربية الفصحى لغة مفارقة للواقع الحي والمعاش، فتحاول أن تبثّ الوهم بأن لغة الواقع هي التي يجب أن تصبح اللغة الرسميّة، وهذا معناه تحويلها إلى لغة تعليمية، ثم إلى لغة إبداعية حتى يُكتب بها الفكر، ومن هنا تتسلل المعاول الناسفة.. أما المرمى البعيد المنشود فهو أن تلقى العربية نفس المصير الذي صادفته اللغة اللاتينية بأن تنحل إلى لهجات تتطور إلى لغات قائمة الذات، وحيث إن الإعلام بمختلف وسائله هو أكثر المنظومات التصاقاً بالواقع فإن كل التركيز يقع على قنواته ووسائطه.



لقد أجمعت الآراء والأفكار التي ساقها الدكتور المسّدي وغيره من العلماء والباحثين الذين جمعتهم ندوة «مجلة العربي ولغتها العربية» على أن تكريس العاميّة حاملاً للرسالة الثقافية وبديلاً عن اللغة القومية لهو الانتحار الجماعي على عتبات قلعة التاريخ، وإن قضيتنا الكأداء —نحن العرب اليوم- هي أن الوعي اللغوي لدينا

ينبري حاضراً ما دام الأمر متعلقاً بمستوى المعرفة التي مَحْمِلَها الحرف المكتوب، فإذا غاب النص والمتن والخط، غاب بغيابها وعينا بوزن اللغة، ووعينا بخطر اللغة، ووعينا بأن اللغة سلاح حضاري بأيدينا، فإذا زهدنا فيه انقلب علينا، وغدا الرامي مرميّا، وأمسى القناص فريسة.

ربما يكون الخطر التاريخي آتياً من أهل القرار الإجرائي في مجتمعنا العربي، عندما لا يولون المسألة اللغوية حجمها الحضاري التي هي متسعة له، قادرة عليه، وعندما يغفلون عن بقاء الأمة متوقف على بقاء الهوية، وأن بقاء الهوية مرصود ببقاء اللغة العربية الجامعة، ولكن الخطر الأعظم أن المثقف العربي بسلوكه اللغوي التلقائي- ما انفك في كثير من الأحيان يتحوّل إلى متواطئ على الثقافة بل على الهوية الثقافية التي بها قوام وجوده الحضاري وعليها مدار صيرورته التاريخية..

إن المثقف الذي يدير شأنه الفكري والأدبي والإبداعي بلغته القومية، وهو يخط ويكتب ويدوّن وينشر ويساجل، ثم إذا حاور أو ارتجل أو تحدث عبر أمواج الأثير أو على شاشات الفضائيات، توسل بالعامية، لهو مثقف متواطئ على ذاته الثقافية.. إنه يحيك المشهد الأول من «تراجيديا» الانتحار اللغوي..

فيما مضى كانت اللغات الأجنبية عدواً «أيديولوجياً» يوم كان الصراع الحضاري معتمداً على الاكتساح العسكري، أما اليوم في صراع الكونية الثقافية المحتمية بعباءة الأممية السياسية، والعولمة الاقتصادية، فإن العاميات التي تهدد بقاء اللغة القومية الفصحى هي العدو الثقافي الأشرس لأنها تنتصب حليفاً موضوعياً للكونية الغازية.

إن اللغة العربية بما هي حامل للهوية الثقافية، وضامن لسيرورة الذات الحضارية لا يتهددها شيء مثلما يتهددها صمت المثقف، وهو ينظر إلى الزحف اللّهجي يكتسح مجالاتها الحيوية ولا سيما في الإبداع الثقافي، وفي الحديث عن كل شأن ثقافي مهما تقلّصت أبعاده أو انقبضت أحجامه، وليس من حظ للعرب في أن

يواجهوا مخاطر الكونية الزاحفة المستشرية إلا بجبهة داخلية متينة تستمد قوتها من التماسك اللغوي، المطرد في أنساقه، والمنسجم بين أطرافه، فالثقافة معرفة وفن وفكر وإبداع..

إن معركة اللغة العربية تجري –الآن– على ساحات ثلاث:

– الأولى: هي ساحة الثقافة من حيث هي خلاصة الفكر وعصارة الفن وفضاء كل إبداع.

– الثانية: هي ساحة الإعلام، وما من شك في أن التطور العملاق الذي عرفته قد دفع التواصل الإعلامي ليصبح مدرسة كبرى تسّوق المعلومة، وتروّج الثقافة، وتلقّن ملكات اللغة، فبأي لسان كثفت التواصل الإعلامي حصلت منه على فائض أدائي لدى الجمهور.

– الدائرة الثالثة: هي الساحة التعليمية، هي المدرسة بكل مستوياتها ومراتبها من رياض الأطفال إلى أرقى المراكز الجامعية والمؤسسات الأكاديمية.



الصديق العزيز جابر عصفور يرى في دراسته المتقنة عن «أزمة اللغة العربية» أن مواجهة ظواهر أزمة (أزمات) اللغة العربية، سواء في انتشار الخلل الأدائي بها، وتجذر الازدواج اللغوي، وما يترتب عليه، واستمرار غزو المفردات الأجنبية الخطاب اليومي، وتخلّف طرق التعليم، لا يمكن أن يتم بمعالجة كل ظاهرة على حدة، فهي ظواهر مترابطة، متفاعلة، تتبادل كل منها التأثر والتأثير مع غيرها، الأمر الذي يفرض ضرورة المواجهة الشاملة لها معاً، في خطوات متجانسة، تتواصل كل منها مع غيرها، مهما اختلف مجالها أو شكلها تماماً كما يحدث في الأواني المستطرقة.

– الخطوة الأولى: هي تعميق الوعي باللغة العربية نفسها، ليس بوصفها لغة

جميلة، أو لغة شاعرة، وإنما بوصفها لغة الإبداع العربي الذي لا يزال باقياً من العصر الجاهلي ومستمراً إلى ما يشاء الله من عصور، وهي -فضلاً عن ذلك- كائن حي قابل للنماء والتطور الفعلي، أو الهزل والمرض المفضي إلى الموت، وذلك بسبب المتحدثين بها الذين يمكن أن يمضوا بها قدماً في طريق النماء والتقدم، أو ينحدروا بها إلى الدرك الأسفل من الضعف الذي يغدو بداية الموت، وتعليم اللغة الفاعل هو العملية التي لا يتوقف فاعلها عن النظر إليها بكونها عملية قابلة للإضافة في كل وقت وبرامج التعليم العربي لا تزال متخلفة بالقياس إلى برامج التعليم في العالم كله.

- الخطوة الثانية: تكمن في ضرورة المرونة في قبول المفردات والتراكيب الجديدة، لقد كان القدماء يتحدثون عن «المعرب» والدخيل وغيرهما، وعن الكلمات التي ترد إلى اللغة العربية من لغات أجنبية، وقبول هذا الدخيل -أو المعرب- علامة ثراء تبدأ من القرآن الكريم الذي ضم عدداً من المفردات الأجنبية، ووضعها في سياق لغوي، وكان بذلك يؤسس لمبدأ ينبغي أن نمضي عليه، فنتقبل المفردات والتراكيب الأجنبية التي دخلت وفرضت نفسها، ولا أدل على ذلك من أن المعاجم الأجنبية في الإنكليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات المتقدمة والحيّة، تتغير باستمرار، ومن يراجع أية طبعة من طبعات المعاجم العالمية الشهيرة في اللغة الإنكليزية مثلاً، كما يحدث في معجم «اكسفورد» أو «وبستر» سوف يجد أن المعاجم يعاد النظر فيها كل فترة زمنية، وتدخل فيها مفردات لم تكن موجودة من قبل، لأن اللغة الإنكليزية قد تقبّلتها وأخذتها واستوعبتها بمرونة وليس بجمود أو رفض عصبي على نحو مطلق.

- الخطوة الثالثة: تتصل بما قبلها، وتعني التحديث المستمر للمعاجم العربية الحديثة، والحرص على تطويرها ، بما يجعلها سهلة الاستخدام، وميسّرة بالنسبة إلى من يحتاج إليها، مضيفة الجديد إلى القديم، والوافد أو الدخيل إلى الأصيل.

- الخطوة الرابعة: وهي بالغة الحيوية، وتتصل بتوسيع أفق الترجمة، في مجالاتها المتعددة، والارتقاء بها في كل مجال، وخاصة في المجالات العلمية الحديثة والمعاصرة التي لا تكف عن التقدم أو التطور، ويمكن للترجمة، في هذا المجال أو ذاك، أن تكون مصدراً من المصادر الثرية في إغناء اللغة العربية، وفي مدّها بتراكيب جديدة هي من نتاج العصر الذي يتغيّر، والذي لا يتوقف تطوره عند مرحلة بعينها، ولا سبيل للحاق بعلوم العصر إلا من خلال الترجمة.

- الخطوة الخامسة: ضرورة إشاعة الموروث الأدبي، وتأكيد حضوره الإبداعي في الأذهان، واستغلال وسائل الإعلام في ذلك، وما أكثر التقصير الذي تبديه وسائل الإعلام في مسألة اللغة العربية وإشاعة تذوقها.

- الخطوة السادسة: وتوازي الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام وتتداخل معه، وهي ضرورة الحرص على السلامة اللغوية في خطاب الإعلاميين والقيادات السياسية والفكرية والثقافية، والغريب أن أغلب المسؤولين لا يحرصون على سلامة اللغة التي ينطقونها، فلغتهم محطّمة مكسّرة لا تعرف السلامة ولا الفصاحة إلا فيما ندر، وهي لغة تشيعها، وتعمل على تطبيقها اللغوي غير المباشر، أجهزة الإعلام، وتجعل فيها نموذجاً قابلاً للاحتذاء والاقتداء.

- الخطوة الأخيرة: العمل على تقليل من بعد المسافة ما بين اللغة المنطوقة والمكتوبة، وهذا أمر شائع في كل لغات العالم، ولكن المسافة في لغتنا بالغة الاتساع ولا نستطيع أن نواجهها مواجهة جسورة إلا بتقريب المسافة بين (العامية والفصحى) عن طريق توسيع آفاق التعليم، والحرص على وجود لغة فصحى سليمة سلسة وسهلة في كل أجهزة الإعلام العربي.

الكويت 14-16 كانون الثاني 2006

ربيع الشعر العربي في الكويت

بدعوة كريمة من مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، واحتفالاً بدمشق عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٨م، وبمناسبة يوم الشعر العالمي الذي أقرته المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» منذ أكثر من عشر سنوات، ليكون يوماً للإبداع والجمال يضيء عتمة التردي الثقافي، ويعود بنا إلى منابع الروح، وإلى عظمة الإنسان.. بهذه المناسبة، كان اللقاء على أرض الكويت الشقيق بين ٢٤ و٢٦ آذار /مارس، في مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي، وكانت وقفة وفاء لأقدم عواصم التاريخ في العالم، من خلال معرض ضخم يعرّف بإصدارات الشعر العربي في سورية، شاركت فيه وزارة الثقافة واتحاد الكتّاب العرب ومجموعة من دور النشر الخاصة، بالإضافة إلى ما تحتويه مكتبة البابطين من إصدارات الشعر العربي السوري منذ عقود زمنية عديدة، وكانت مناسبة جيدة تحوّلت من خلالها المناسبة إلى مهرجان «ربيع الشعر العربي» ألقيت فيه قصائد شعرية تحمل الهمّ العربي لأكثر من /١٥/ شاعراً من سورية والكويت ومصر والسودان والعراق والجزائر والسعودية والإمارات العربية المتحدة.

لقد شكّل هذا المهرجان وما رافقه من أنشطة وفعاليات لبنة جديدة تضاف إلى ما قدّمته مؤسسة البابطين منذ أكثر من عشرين عاماً لدعم الشعر العربي وتكريم أصحابه والاحتفاء بنقّاده ومناسباته العديدة، وغني عن القول إن ما تقوم

به المؤسسة ليس بعيداً عن ماضي الكويت التي كانت ولم تزل حضناً دافئاً للشعر العربي، فقد استقبلت ذات يوم عدداً من كبار شعراء العربية، نذكر منهم: بدر شاكر السياب، نازك الملائكة، نزار قباني، عمر أبو ريشة، محمود درويش، صلاح عبد الصبور، لميعة عباس عمارة وغيرهم، وقد وجد هؤلاء الشعراء جمهوراً ذوّاقاً للشعر، ومتلقين رائعين أحاطوا الشعر وأصحابه بكل رعاية ومحبة وتشجيع.

ثلاث أمسيات شعرية، امتدت على أيام مهرجان ربيع الشعر العربي، حملت في مضامينها هموم الشعر، بقصائد شيمتها الحب والوطن، والخيبة والغزل والفراق والحنين والوفاء، فكانت مناسبة جيدة لصحف ومجلات كويتية وعربية لأن تتحدث عن هذه التظاهرة «الفكرة» التي تبنتّها مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، تزامناً مع اليوم العالمي للشعر، واحتفال دول عديدة بفكرة «ربيع الشعر» أو «ربيع الثقافة» في الأيام الأخيرة من شهر آذار/ مارس من كل عام، وتعد هذه (الفكرة- المهرجان) نقلة نوعية ومهمة في تحريك الساحة الأدبية والإعلامية في الكويت الشقيق، وربما تكون بداية لأن تقوم مؤسسات وهيئات وربما وزارات للثقافة بالاهتمام بهذا اليوم العالمي للشعر الذي أقرّته منظمة «اليونسكو» في الدورة الثلاثين لمؤتمرها العام قبل /١٢/ سنة من اليوم.



عندما أتذكر «اليوم العالمي للشعر» لعلي أشير إلى يوم مهم في تاريخ الأدب والفكر العالمي، الهدف منه استنهاض الأحاسيس والأفكار والإبداع لدى الشعراء والنقاد على المستويات المحلية والفكرية والقومية والعالمية، مما يجب أن يدفع تجمعاتهم والمؤسسات الثقافية والجامعية والشعبية والمدنية ببلادهم للاهتمام بالشعر وأهميته في واقعها الراهن والمستقبلي، وهي أهمية لا يجوز الانتقاص منها حتى لو قصّرت المؤسسات والتجمعّات والشعراء بالاحتفال باليوم العالمي للشعر،

حسب تعبير الصديق الشاعر خالد أبو خالد الذي يرى أن الشاعر إضافة لكونه نمط حياة بالسلوك أو النظر إلى المشكلات، يبقى ذلك الإبداع المكتوب أو الشفهي، والذي يعبّر عنه وبه بالفنون كافة، التي أصبحت –الآن- متداخلة من القصيدة إلى القصة القصيرة والرواية وصولاً إلى السينما والمسرح والتلفزيون في نتاجاتها الأرقى التي تفيض منها القصيدة والقصة والرواية، كما تتبادل كل هذه الإبداعات الإفادة عبر علاقات جذرية تسهم في تطويرها إلى حد بعيد.

عندما أقرّت منظمة «اليونسكو» الاحتفال بهذا اليوم العالمي للشعر، وكنت ممثلاً لبلادي وللمجموعة العربية التي كلفتني بالتحدث عنها في اجتماع اللجنة الرابعة (لجنة الثقافة)؛ قامت «اليونسكو» بإجراء استقصاء دولي بمساعدة البروفسور «الكسندر بلوخ» الأمين العام الدولي السابق لرابطة القلم الدولية، والمستشار الفخري لدى «اليونسكو»، شمل خمسين منظمة وطنية ودولية وإقليمية متخصصة في مجال الشعر، وتم –على ما أذكر- استلام ثلاثين رداً (وصل عن طريق الاستبيان) أخذ فيه رأي أوساط الشعراء، في مختلف المناطق الجغرافية الثقافية، عن الطريقة التي يمكن أن يعلن بها عن هذا اليوم، وقد اقترحت الخيارات الثلاثة:

- الخيار الأول: إعلان يوم عالمي للشعر، في تاريخ ثابت كل سنة.

- الخيار الثاني: الاحتفال باليوم الدولي للشعر في تواريخ تتطابق مع تاريخ اليوم الوطني للشعر المعتمد أصلاً في كل بلد.

- الخيار الثالث: تنظيم مناسبة عالمية للاحتفاء بالشعر كل سنة في دولة عضو في منظمة «اليونسكو».

وفي اجتماع خاص ضم مجموعة من كبار الشعراء في العالم، تم فيه تحليل أوضاع الشعر في نهاية القرن الماضي على نحو مفصّل، وطرحت فيه الاعتبارات التالية:

١- يوجد في عالم اليوم تعطّش لبعض الاحتياجات الجمالية ويمكن للشعر أن يلبي هذه الاحتياجات إذا اعترف بدوره الاجتماعي في مجال التواصل بين البشر حيث يشكّل أداة لإيقاظ الوعي والتعبير عنه.

٢- يشهد العالم منذ ثلاثين عاماً حركة حقيقية لصالح الشعر وصارت الأنشطة الشعرية تتكاثر في مختلف الدول الأعضاء في «اليونسكو» ويزداد الشعراء عدداً.

٣- كل هذا يعبّر عن حاجة اجتماعية تدفع الشباب –على الأخص- إلى العودة إلى المنابع، وتشكّل وسيلة يمكنهم بها مواجهة الذات، بينما يشدهم العالم الخارجي إليه بقوة بعيداً عن ذواتهم.

٤- تمثّل هذه الحركة الاجتماعية عودة إلى اكتشاف القيم المتوارثة، والتقاليد الشفوية، وقبول الكلمة المنطوقة كعنصر يعزز البعد الاجتماعي لدى الإنسان، ويجعله أكثر انسجاماً مع نفسه.

إن جميع من استشيروا بهذا المشروع الأدبي المهم، أبدوا اهتماماً بالغاً بقيام «اليونسكو» بمبادرة عالمية لدعم الشعر، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى الاعتراف بالحركات الشعرية الوطنية والإقليمية والدولية، وإعطائها دفعة جديدة، وينبغي لهذه المبادرة أن تستهدف أساساً دعم التنوع اللغوي من خلال التعبير الشعري.. وبعد تحليل مختلف الأشكال التي يمكن أن تتخذها هذه المبادرة، تم الاتفاق على إعلان الحادي والعشرين من شهر آذار/ مارس، يوماً عالمياً للشعر، وهو تاريخ يتفق مع بداية فصل الربيع في نصف الكرة الشمالي، وتم الاحتفال في العالم بهذا اليوم اعتباراً من بداية عام (٢٠٠٠) واستهل به افتتاح «الأولمبياد» الثقافي في مدينة «دلفي» في عام (٢٠٠١م).



لقد شكّل اليوم العالمي للشعر إطاراً للأنشطة والفعاليات والمؤتمرات والمهرجانات والجهود المضطلع بها على مختلف الأصعدة من أجل دعم الشعر، ولا سيما عن طريق تشجيع ما يلي:

– الجهود التي يبذلها صغار الناشرين في سوق الكتاب، عن طريق نشر عدد متزايد من الدواوين بقلم وإبداع شعراء من الشباب.

– العودة إلى أسلوب الإلقاء الشعري، أو ما يعرف بالعروض الحيّة، نظراً لأن أمسيات إلقاء الشعر تلقى –اليوم- إقبالاً متزايداً.

– إقامة حوار من جديد بين الشعر وغيره من الفنون مثل: المسرح والرقص والموسيقا والفنون التشكيلية.. وبين موضوعات راهنة في عالم اليوم.

– القيام بمناسبة اليوم العالمي للشعر، بالربط بين أنواع الفنون كافة، وبين الفلسفة التي تقترب من الفن كثيراً، لتسليط الضوء من جديد على عبارة «ديلاكروا» الذي قال في يومياته: «لا يوجد فن بلا شعر».

– تحسين نظرة وسائل الإعلام المختلفة إلى الشعر بحيث لا يعتبر فن القصيدة فناً ولّى عهده، بل فناً يتيح للمجتمع بأكمله العودة على اكتشاف هويته والتأكيد عليها.

لقد وضع المشاركون في أمسيات «ربيع الشعر العربي» أيديهم على علل ومشاكل كثيرة نذكر منها «جماهيرية الشعر» والنخبوية التي يعاني منها، وتخلّف الشعراء والأدباء عن المشاركة والحضور، وسرد حكايات عن واقع الثقافة ودورها في حياة الناس، وعمليات الشد بين مجموع المثقفين والأدباء من طرف، والمؤسسات الرسمية والمجتمعية من طرف آخر، هل هي إشكالية «مؤسسة لا تخدم المثقف»؟! أم «مثقف لا يخدم المؤسسة» وكان الجواب: إن راهن اليوم، ربما يمثّل بداية جديدة تتلخّص من فكرة الريادة، وتعمل على عناصر أولية منها مهرجان ربيع الشعر العربي، التي ربما تحقق صداها في المستقبل..

سؤال المعرفة والفكر والفلسفة والإبداع، كان عبر قرون طويلة يمر عبر الشعر، الذي حضن الثقافة العربية وصانها وقدَّمها للأجيال حتى يومنا هذا، لذلك ليس غريباً أن تتواصل التحضيرات للدورة الثامنة لمهرجان المتنبي الشعري العالمي الذي يقيمه سنوياً، ومنذ مطلع الألفية الثالثة، المركز الثقافي العربي- السويسري في خمس مدن سويسرية هي: زيورخ، بازل، بيرن، جنيف، لوكارنو، وأربع لغات رسمية هي: العربية والألمانية والفرنسية والإيطالية، وسوف يكون موعد المهرجان هذا العام من (٢٣ إلى ٢٩) أيار/ مايو، وسيكون موضوعه دراسات حول «الشعر والمسرح» إضافة إلى قراءات شعرية من نحو أربعين شاعراً عربياً وعالمياً.

الشعر العربي، كان خلال تاريخنا العربي، ناطقاً رسمياً إبداعياً بلسان أمتنا العربية، وكان هذا -بشكل عام- انسجاماً مع الدور الطبيعي والطليعي للشاعر الحق الذي يجب أن يبقى صامداً صمود الطود الأشم في وجه تيارات الرياح وعواصفها العاتية ومتغيرات الزمان والمكان..

من حق الشاعر المبدع أن يزعل ويتدلل، ويصرخ في وجه من تآمروا على القصيدة واغتصبوا «آلهة النعيم» ومارسوا الشعر بطريقة غير شرعية.. من حق الشاعر أن يشعر بالأسى والإحباط لحال أمتنا العربية، ولكن هذا لا يعني أن شعرنا العربي انتهى، بل ما زالت الكلمة الفصل وما زال الشعر ضمير الأمة ووجدانها وحاملها الثقافي الكبير.. وما زال الاحتفال بالشعر هو احتفال بالجمال والحب والحنين، وحلم بالأمل المشرق، وربيع الشعر العربي الذي انطلق من الكويت واحتفى بالشعر العربي السوري، سوف يتواصل ألقه وحيويته، وتستمر مسيرته ما استمرت لغة الضاد زاهية ومشرقة على لسان كل عربي ومسلم في العالم أجمع..

الكويت 24-26 آذار/ مارس 2008



الثقافة وتحرير العقل العربي

كثيرة هي الدراسات والأبحاث والندوات والمؤتمرات، التي تناولت، في السنوات الأخيرة موضوع التحديات التي تواجه الوطن العربي، في ضوء المتغيرات و«العولمة» والنظام العالي الجديد، وإعادة تشكيل وعي الجماهير، في ظل ثقافة الصورة، واستشراف آفاق المستقبل، في ظروف بالغة التعقيد عربياً ودولياً، وطبول الحرب التي ما زالت تقرع بقوة منذ الاحتلال الأمريكي للعراق الشقيق..

لقد اصطلح المعنيون بهذا الموضوع المتعدد الجوانب، على أن الوطن العربي، لم يشهد من قبل مثل هذه الدرجة من الانقسام، وعدم وضوح الرؤية، فيما يتعلق بعلاقته بالنظام العالمي وبمستقبله عموماً، وتبين أن أسس النظام العربي ومقوماته الجوهرية تتعرض لتحديات جدّية، ينصبّ بعضها على عقيدة النظام القومية، ومصادر الشرعية فيها، وبعضها يتصل بالعلاقات العربية- العربية، والعلاقات العربية الدولية.

لقد دخل العرب القرن الحادي والعشرين، والأرض تميد تحت أقدامهم من كل حدب وصوب، نتيجة لمجموعة التغيرات الجذرية العالمية والإقليمية والعربية، التي جاءت متوافقة تماماً مع أهداف الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، في الهيمنة على مقدرات الشعوب، ومنها الشعب العربي، وأصبح هناك حقيقة لا تقبل الجدال، ألا وهي وجود «منظومة رأسمالية عالمية» قامت بقلب النظام العالمي كله، وقبضت

بإحكام على الدفة الموجّهة لمساره، ولهذه «المنظومة» مكونات ثلاثة: أولها، الدول الرأسمالية السبع المتقدمة، وثانيها، الشركات متعددة الجنسية، وثالثها: المؤسسات الاقتصادية العالمية (صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي للإنشاء والتعمير، ومنظمة التجارة العالمية)، وقد أصبحت «دبلوماسية» هذه المؤسسات، بديلاً لمنطق «دبلوماسية البوارج» التي عرفت في مطلع القرن التاسع عشر، ومن المعروف أن مكونات هذه المنظومة الرأسمالية العالمية تعمل معاً، وفي تناغم تام من أجل تحويل العالم إلى سوق موحدة تعمل وفقاً لآليات النظام الاقتصادي الرأسمالي، وقيمه ومفاهيمه، وإن كانت المنافسة تشتد بين أقطابه أحياناً حول نصيب كل منهم من هذه السوق..

أما بالنسبة إلى النظام العربي –بشكل عام– فإن الترجمة المباشرة لهذا التوجه الرأسمالي العالمي، تنصرف عملياً، ومن الناحيتين الاقتصادية والسياسية، إلى تصفية «الصراع العربي- الغربي» باعتباره «الصراع الأساسي» وفي سياق ذلك تجري عمليات تصفية الصراع العربي- الإسرائيلي، بحيث تتحقق الهيمنة المباشرة للمركب الإمبريالي- الصهيوني، وتسقط القومية العربية وتتلاشى وتندثر.. مرة واحدة وإلى الأبد، وفي إطار هذا التوجه الأساسي للمنظومة الرأسمالية العالمية، تتعرض الدول العربية لضغوط مكثّفة ومتصاعدة لإتمام عملية إعادة دمج اقتصاداتها في إطار الاقتصاد الرأسمالي العالمي، ولإسقاط كل الحواجز التي تحول دون تحقيق هذا الهدف بصرف النظر عن التكلفة السياسية والاجتماعية والثقافية لهذه العملية، ومعنى ذلك أن الدول العربية قد انخرطت مكرهة في خضم عملية تحول كبرى في هياكلها الاقتصادية والاجتماعية مدفوعة بضرورات المواءمة مع هذا النظام العالمي الجديد وليس بالاعتبارات الخاصة بالمصالح الوطنية والقومية.



فضلاً عما تقدم، هناك تحديات أخرى تفرضها «المنظومة الرأسمالية العالمية» أولها: برامج التصحيح الكلي، وثانيها: المشروع الأوسطي، وثالثها: المشروع المتوسطي، ورابعها: مشروع منطقة التجارة الحرة العربية- الأمريكية.. وتشترك هذه المشروعات الأربعة في محاولاتها فرض نظام اقتصادي على الوطن العربي، يتصف بالمزيد من الخصخصة، وبدرجة عالية من حرية الأسواق الداخلية، وحرية التجارة، وحركة رؤوس الأموال الخارجية، وكل ذلك يتضمن انحسار دور الدولة في إدارة الاقتصاد وتوجيهه..

لقد تمت مناقشة آثار النظام العالمي الجديد، في التنمية العربية في العديد من الدراسات المتخصصة، وكان أهمها ندوة مهرجان القرين الثقافي العاشر التي عقدت بين ٥ و٧ كانون الثاني ٢٠٠٤ في دولة الكويت، وقامت بتلخيص هذه الآثار في أربعة بنود أساسية، أولها: سوء توزيع الثروات والدخول وتفاقمه باستمرار، وثانيها: انتشار البطالة، وثالثها: الفشل في إشباع الحاجات الأساسية للناس، ورابعها: تعميق التخلّف والتبعية.

كما تهدف هذه المشروعات –كما أثبتت الأيام- إلى تفكك النظام العربي، وإلى الحيلولة دون قيام درجة يعتد بها من التكامل الاقتصادي العربي، مما أثّر سلباً في الأمن القومي العربي، وفي مستقبل التنمية العربية، كما سيحول دون تمكّن الدول العربية النفطية من استعادة السيطرة على نفطها، التي فقدتها منذ عام ١٩٨٥، ومن المستغرب أن هناك من يدعو وبقوة إلى تطبيق هذا النظام بعد كل ما ظهر من آفاته ومخاطره وانحرافاته الاقتصادية والاجتماعية، في زمن لا مكان فيه لدولة أو لدول ضعيفة أو مستضعفة في عصر الهيمنة الأحادية.

لقد سقط العقل العربي أسيراً لهذه المشروعات، وإذا كنّا جادين في البحث عن دور جديد في إعادة تشكيل الوعي العربي، فإن هذا الدور لن يكون شيئاً آخر

غير تحرير (العقل العربي) من الأوهام التي حكمته، وقعدت بالعرب أمام مجاراة أمم العالم في السير نحو المستقبل وما يعد به من تقدم وأمل، وهذه الأوهام كثيرة ومتنوعة ولها علاقة بكثير من الأمور والقضايا التي تتعلق بغلبة الفكر الغيبي على الفكر العلمي التجريبي، والخوف من الديمقراطية والحداثة، والإحساس المفرط بالاضطهاد العالمي للعرب، والخوف الذي لا يحتمل من «العولمة»..

نحن نعيش مرحلة الاستلاب الحضاري بكل أبعاده ومعانيه، لدرجة أننا أصبحنا أمة «ماضوية» ووقعنا في أسر التاريخ، وأصبحنا نعيش الماضي قبل الحاضر، ولاشك أنه ليس عيباً أن تنتسب الأمم إلى تواريخها، ولكن العيب في أن يغدو التاريخ بديلاً عن الحاضر، والعيب الأكبر أن تظل الهوية تستعار من التاريخ، وليس من إبداعات الأحياء أنفسهم في مواجهة مشاكلهم والتماس الحلول لها، ومن هذا المنطلق يكون الوقت قد حان لاستبدال مفهوم الهوية التاريخي بمفهوم وظيفي عن الذات ومخاطبة العالم به، وهذا المفهوم الوظيفي هو «صورة الذات» الراهنة، وهذا يوجب التحول من المقاربة التاريخية، إلى بناء صورة إيجابية عن الذات عند العرب.. ويرى الدكتور المفكر محمد جواد رضا أن هذه الذات الجديدة «يمكن تأطيرها بالتاريخ على أن يكون مضمونها أو محتواها من وعي الأزمات المحيقة بالعرب المعاصرين، ومن مشروطات اقتحام تلك الأزمات، بما يتوافق والتقدم الهائل الذي حققته البشرية في القرون الثلاثة الأخيرة علماً واقتصاداً وأخلاقاً».



يتميز العصر الحاضر بأنه عصر التنافس على المستوى العالمي في مجالات الاقتصاد والسيطرة السياسية والاستراتيجية، وحسب الأدبيات المعاصرة، فإن هذا التنافس يمثل جوهر «عصر العولمة» ويقتضي هذا التنافس أن تكون الأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية في كل دولة مؤهلة لحضانة القدرة على التنافس،

فالقيم الثقافية والاجتماعية المقيّدة للمبادرات والتفكير الحر والتشكك والاختلاف، لا يمكن أن تؤدي إلى جيل قادر على الإبداع والتعلم الذاتي والتكيّف وقبول التحدي والتعايش مع الآخر المختلف، وثقافة الانغلاق والنفور لا تؤدي إلى التعايش والتكيف مع المتغيرات المجتمعية في الداخل، والمتغيرات العالمية في الخارج، كما أن ثقافة الاستلاب والاغتراب وتقليد السلوكيات غير الحميدة في الاستهلاك واللامبالاة وعدم احترام النظم والقوانين وتحدي القيم الاجتماعية بشكل استفزازي لا يؤدي إلى مجتمع متناغم قادر على العطاء والتماسك والتضامن بما يحفظ الهوية الثقافية والاعتزاز بالذات من غير تعالٍ على الآخر المختلف في الداخل والخارج..

ليس غريباً في تاريخ الثقافات أن تنشأ صراعات نسقية بين ثقافة الهيمنة وثقافة الهامش، والتاريخ الثقافي البشري كله سجل حافل لهذه الصراعات، ونادراً ما تؤدي هذه الصراعات إلى نتائج إيجابية إذ يظل المهيمن مهيمناً، وربما تتبدل الأدوار والوجوه والمواقع، لكن ثقافة الهيمنة هي هي بتجدد مستمر، حتى إن المهمّش والمعارض إذا ما تمكن من قلب الأمور، تحوّل هو ذاته إلى متن وسعى إلى فرض هيمنته والانتقام من السالفين ونفي المخالفين، وهذا تاريخ نسقي متكرر يعيد استنساخ ذاته بلغات ووجوه مختلفة، وهذا ما أطلق عليه الدكتور عبد الله الغذامي في كتابه «النقد الثقافي، قراءة في الأنساق العربية» اسم «نسقية المعارضة».

هذا هو الديدن الطويل للتاريخ الثقافي، غير أننا نشهد اليوم تغيراً جذرياً في علاقات الأنساق، وهذا التغيير مرده إلى تغيير في وسائل الثقافة وإن أخطر تغيّر في وسائل الثقافة هو تحوّل الاستقبال من اللغة المكتوبة إلى الصورة المتلفزة، ثم في ظهور الفضائيات، وسرعة انتشار المعلومة المصوّرة، وهذا جعل فعل الاستقبال سريعاً من جهة، وفردياً من جهة ثانية، فلقد صار الإنسان اليوم في مواجهة مباشرة وفردية وتلقائية مع العالم عبر الشاشة الصغيرة، وفي مقابل هذه الفردية فإن الصور لا تستقر على حال، وهي سريعة ومتجددة، على عكس ما كانت عليه الثقافات

التقليدية المعتمدة على الكلمة المكتوبة، حيث ثبتت الفكرة ربما لقرون وليس لسنوات فحسب، بينما نحن مع ثقافة الصورة فقدنا أول مافقدنا عنصر الثبات، وفقدان هذا العنصر يهدد الصورة دائماً بالنسخ والإلغاء..

لقد سقطت النخبة الثقافية التقليدية، تلك النخب التي تعودنا عليها فكرياً واجتماعياً وسياسياً، وكانت تقود الناس وتؤثر عليهم وتشكل رموزاً حية لهم، لقد سقطت هذه وزال دورها، وحلّت الصورة محلها، ولكن الصورة -كما يقول- الغذامي «لم تخلق ثقافة ديمقراطية.. بل ظلّت تخدم ثقافة الهيمنة، وصرنا أمام ثقافة فحولية جديدة، لا يقودها ويرمز إليها أشخاص بأعيانهم -كما كانت في السالف- وإنما هي تركيب معقد من تحالف شيطاني لعناصر قوى متعددة، وطبقية غير ثابتة، وهي الجنس والعنف والمال، إضافة إلى هيمنة الرأي الواحد ونفي المعارض، وهذه قيم أزلية لا تتبدل وإن غيّرت وجوهها ولغاتها»..

أمام هذا الواقع باتت النخب الثقافية في وضع لاتحسد عليه، إذ هي تنصب الأفخاخ لنفسها وتنتج عزلتها وهشاشتها، مما أفقدها المصداقية والفاعلية، سواء من حيث أدوات فهمها للعالم، أو من حيث قدرتها على التأثير في مجرياته.. ربما أسهم عصر الاتصال والإعلام والصورة في زعزعة مكانة المثقف، الذي قوّض دوره بنفسه.. لقد ولّى زمن النخبة التي تحتكر القيم وتمارس الوصاية على قضايا الأمة ومصالح الجماهير.. هذا واقع تكتبه الأحداث والتطورات، كما تجسد ذلك في فشل المشاريع وسقوط الشعارات وانكسار الأحلام، عربياً وعالمياً..

لنعترف بالحقيقة كي نعيد النظر في صورتنا ومكانتنا، وفي مفاهيمنا وأدوارنا.. نحن ندخل في عصر جديد نتجاوز مجتمع الخاصة والعامة نحو المجتمع التداولي الذي هو مجتمع الاختصاص، وفي المجتمع التداولي كل فرد يملك خبرة ومعرفة بقدر ما هو صاحب اختصاص في مجاله، وكل فرد هو فاعل ومؤثر بقدر ما هو منتج

أو مبدع، وهكذا فإنه بحسب المنظور التداولي يُبنى المجتمع ويتغيّر، وهذا يدعونا إلى ضرورة النظر على «تكنولوجيا» المعلومات من منظور ثقافي تنموي، والإلمام بهذه الحقائق لكسب سباق التطور الرقمي، وفي هذا السياق يندرج أيضاً موضوع ردم الفجوة الرقمية التي تظهر معالمها بين الشعوب وداخل المجتمعات، ولن يستقيم مضمون هذه الثقافة دون إدراك مدى علاقة التكنولوجيا الحديثة للمعلومات بالفن التشكيلي وبالآداب وبخصائص اللغة العربية، وبقابلية تفاعلها مع باقي اللغات العالمية الكبرى، ويمثل هذا الوعي الجماعي في المستويين الوطني والقومي، يمكننا أن نتفاعل مع ثورة المعلومات مثل غيرنا من الشعوب المتقدمة..

نحن في حاجة ماسة إلى ثقافة من شأنها أن تساعدنا على التفكير في الأمور العالمية، والأمور المحلية، أي إلى ثقافة شمولية، التي ليست «ثقافة الإنترنت» إلا صورة أولية لها، والتجدد الحضاري يستوجب الانخراط في مجتمع المعلومات، الذي تحتل فيه تكنولوجيا الاتصال موقعاً محورياً، وتوظيف المناهج والآليات الإعلامية الجديدة أصبحت من مقومات العمل السياسي الثقافي في عالم اليوم..



تجديد الفكر القومي والمصير العربي

بدعوة كريمة من الدكتورة نجاح العطار، نائب رئيس الجمهورية العربية السورية، عقد في دمشق بين ١٥ و١٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٨ «مؤتمر تجديد الفكر القومي والمصير العربي» شارك فيه نخبة كبيرة من المفكرين والأدباء والمثقفين العرب، الذين عرفوا بدورهم الريادي والتنويري في قيادة الفكر القومي العربي، وهدف هذا المؤتمر إلى تعميق التضامن والتلاحم العربي في زمن التردي العربي، من خلال السعي إلى حشد الطاقات والقدرات، وتوجيه الأنظار إلى الأخطار التي تحيق بالأمة العربية، والعمل على تعزيز دور المفكرين في إطار عمل ثقافي متعاون وفعّال يسمح لهم أن يمارسوه في تعزيز الانتماء العربي بشكل أقوى وأعمق..

لقد أتت الدعوة إلى هذا المؤتمر في إطار احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٨، وفي وقت نحن في حاجة ماسة إلى تعزيز التضامن العربي، في ظل مخططات أمريكية بغيضة تهدف إلى تغييب كل ما هو عربي الهوية والانتماء، وإخراج الدول العربية من المصير المشترك، ومحو الوعي الجمعي للأمة من خلال تكريس الاحتلال، وبث بذور الفرقة بين أبناء الأمة العربية الواحدة..

لقد شمل المؤتمر /١٥/ جلسة علمية، كانت محاور لموضوعات غاية في الأهمية حول تجديد الفكر القومي والوحدة العربية، ومسألة الهوية، والقطر والطريق إلى السيادة، والديمقراطية والمواطنة في الوعي القومي، وحركات المقاومة وتهمة

الإرهاب، والثقافة العربية والرابطة القومية، وبؤس «الأيديولوجيا» في الصراع العربي الإسرائيلي، والمسؤولية القومية وعروبة فلسطين، ودور الاقتصاد العربي في التخلّف القومي والقطري، والوطن العربي في «الأيديولوجيا» الصهيونية، والقومية ومسألة الدين بين الظلامية والتنوير، والعرب في الاستراتيجية الأمريكية- من الهيمنة إلى التفكيك، والعولمة والمسألة القومية، والفكر القومي في مواجهة الطائفية، وفي غياب الوعي القومي، المصير العربي إلى أين؟!

لقد وجدت الدكتورة نجاح العطار في المؤتمر فرصة ثمينة تتيح لنا أن نتدارس الوضع العربي بعامة، وهمّنا المشترك المترابط بالمصير العربي والضرورة الملحّة لتجديد الفكر القومي كخيار أساس في تحقيق نقلة واعية تنويرية عبر هذا التجديد في ظل مستجدات كبيرة، ومتغيّرات لم يكن بعضها في حسباننا، وكان من شأنها أن تضع أمتنا في دائرة الخطر بعد أن وضعت العروبة والإسلام في قفص الاتهام وطالت كل من ينتمي إليهما في أرجاء العالم..

وقالت الدكتورة العطار في حفل افتتاح المؤتمر: إن الأمة العربية لم تعرف وضعاً مشابهاً لوضعنا الراهن –اليوم- بالرغم مما يتوفر لها من أسباب النهوض، إلا في بعض مراحل تاريخها، والتي وسمناها أو وصمناها بحق بمراحل الانحطاط والتخلّف والضياع والتراجع والتفكك والانقسامات والانحلال والصراع البيني والاستسلام التعيس والجبن الذليل تحت سياط الخوف وعدم الثقة بالذات والإحساس المنكسر بالعجز عن أي معالجة.. وإن اللعبة الأمريكية- الإسرائيلية التي تؤدي دوراً رئيساً في هذا الانهيار المتحقق على أرضنا، تزداد عتوّاً باتجاه الهيمنة والاستلاب وبسط النفوذ والتحكم بمصائر شعبنا، مصادرة للأرض والحياة، واستغلالاً للثروات في وضع دولي مختل التوازن عسكرياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، منطلقة من استراتيجية ضيقة تريد بها أن تحسم الصراع العربي- الإسرائيلي في منطقتنا لصالح إسرائيل في فلسطين، وأن ترسم لها خرائط جديدة تلغي وتحدث وتقسّم

وتستلب، وكأنها هي الجهة المخولة بالتشريع لقضايا الإنسانية وتوجهات العالم، وأوضاع الأمم والشعوب، ومن حقها إلغاء المواثيق الدولية التي لا تطابق منطقها، واستبدالها بما يرون أنه يستجيب لمصالح بلادهم ورغباتها في رسم حدود الدول أو تحديد عواصمها، ومن هو إرهابي أو غير إرهابي، ومن لا حق له بالمقاومة مهما كانت مشروعة، ومن ينبغي أن تشن الحرب المدمّرة عليه، وليس على العالم –بما فيه أوروبة– إلا أن يقبل ويتعاون ويتحالف، وإلا فهو الترهيب حتى بالحرمان من موارد الطاقة لدول كبرى في آسيا وأوروبة إن استطاعوا، فالقضية –كما يدّعون– قضية أمنهم وهو غير مهدد بالتأكيد، أما أمن العالم، فليس مهماً في منظورهم، أن ينهار في أربع جهات الأرض..



لقد عقد المؤتمر على اسم «تجديد الفكر القومي والمصير العربي» وهذا يعني – كما قالت الدكتورة العطار– أن إرادة المقاومة والصمود تستعلي مهما اشتدت المحن، وأن عزائمنا ستبقى منضفرة متجاوزة لا تقبل الهزيمة أو الانكفاء أو الاستسلام، وأن هذا المؤتمر سيشكل خطوة بناءة، تتبعها خطوات، تصحح ما انقلب من مفاهيم، وترسم ما ينبغي أن يستجد من رؤى، وتنهي حال التعثّر والجمود، وتضعنا بالرأي الجميع على الطريق الصحيح انطلاقاً من أن الفكر سلاح ونحن نريده لصالح أمتنا..

الدكتور سليم الحص الذي شارك في الجلسة الأولى من المؤتمر، رأى أن الحديث عن القومية عموماً، والقومية العربية لا يستقيم في كنف واقع يتنامى فيه مدّ العولمة، مع التمسك بمفهوم ضيّق للقومية، يشي بالقوقعة أو الانفراد أو العزلة، موضحاً، أنه في عصر العولمة، عصر التداخل والتفاعل وتجاوز الحدود المرسومة بين الكيانات والدول، تتسم القومية العربية بالحركية والانفتاح والتفاعل البنّاء مع

سائر الكيانات الوطنية والقومية في العالم، فالتلاحم العربي المنشود لا يعني في حال من الأحوال، طلاقاً مع الغير أو نأياً عن صديق أو حليف أو شريك على المستوى الإقليمي أو الدولي.. وأشار إلى أنه كثيراً ما تلتبس فكرة العروبة مع فكرة الرابط الإسلامي في ظل تعاظم شأن التيارات الإسلامية الجيّاشة في العالم، هذه الأيام، والإسلام هو من صلب الثقافة والتراث العربيين، وتداخل التاريخ العربي، والتاريخ الإسلامي ظاهرة لا مراء فيها، وأن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، ومن ركائز الدعوة، فالرابط العربي لا يمكن أن يتعارض مع الرابط الإسلامي، فهما متداخلان إلى أبعد الحدود، لا بل متكاملان، ولكن الإسلام دين سماوي، لا حدود جغرافية له، فهو من أبرز حركات العولمة، ولعله أسرع تيارات العولمة نمواً، أما العروبة فقومية تتلازم، وحدوداً جغرافية يرسمها امتداد اللغة والتراث المشترك والمصالح المتبادلة، والإيمان بالمصير الواحد.. والعروبة تبقى منفتحة كلياً على التعددية الدينية.

ويرى الدكتور الحص: أن الفكر القومي العربي مادة مطروحة دوماً على طاولة الحوار والنقاش والبحث والتطوير، والسؤال الذي يطرح، ما هي الصيغة أو الصيغ التي ينبغي أن تستخلص في ترجمة العروبة مساراً صاعداً، وجهداً مشتركاً، وهدفاً نبيلاً، يصبّ في مصلحة الأمة جمعاء؟ وبالتالي في خدمة شعوبها جميعاً.. كيف يجب أن نوظف قضية العروبة في خدمة الإنسان العربي، بما يحصّن أمنه، ويثري هناءه، وينمّي أسباب سعادته، ويوطد مكانته على الساحة الدولية، ويأتي الجواب: لا بد من العمل على تحقيق اتحاد عربي على غرار الاتحاد الأوروبي، لا بل وأبعد فنحن أولى بالاتحاد فيما ما يجمع بيننا من الأوروبيين، وندرك أن طريق الاتحاد لا بد أن يمرّ في محطتين: التنمية والديمقراطية..

الدكتور عزمي بشارة يرى أن القومية ضرورية ليس للشعب العربي فحسب بل لضمان الدول القطرية، وهي عملية لتوحيد أغلبية الشعب وجامع سياسي وتعبير عن تطلعات سياسية لها تاريخ قديم وحديث، وهي حاجة للوصول إلى مجتمع حديث

قائم على الانتماء الفردي، وأيضاً لتزويد المواطن العربي بهوية ثقافية جامعة، والدول العربية القطرية لا تستطيع الاستغناء عن العروبة كقومية في عملية بناء أمة مواطنية للعرب ولغير العرب، كما أنها تشكل أساساً لتعاون الدول العربية ووحدتها في المستقبل، على نمط الاتحاد الأوروبي، وما بين الدول العربية من المشترك والموحد أكثر بكثير مما بين دول أوروبة التي لا تجمعها لغة قومية.



الكلمات والدراسات والأبحاث التي قدمت في المؤتمر، كانت مسكونة بالسؤال عن قضايا تجديد الهوية وتوجيه العمل المشترك من أجل تأكيد هذه الهوية، وبيان الفارق الكبير بين القوة التي توفرها الأمة العربية الموحدّة، في مقابل الضعف والهزيمة المحتملة في كل صراع يتصدى له قطر واحد، وهي النتائج المترتبة بالتأكيد على انقسام الأمة إلى أقطار بعضها ذات معنى، وإلى شظايا تافهة وأشباه شظايا أكثر تفاهة، قد رغب من نصبّوا عليها، ومن نصّبهم أن يطلقوا عليها اسم «دولة» مع أنها في الحقيقة لا ترقى، ولا بأي معنى من المعاني إلى اكتساب شرف هذا الاسم، حسب تعبير الدكتور يوسف سلامة.

بعض الدراسات كانت واعية لما نتعرض له من هجمات تستهدف تفكيك وجودنا وهويتنا، ليس لنكون على سوية الغرب وعلى صورته ومثاله، بل لنندمج في نظامه الكوني، كما نحن – بتخلفنا..لنكون ملحقاً مستتبعاً في سوقه الاقتصادي، ومداه الأمني، وأدوات في منظومة مركبة من تفاوتات الحقوق والواجبات..

إن الأمة العربية، ذات المصير المشترك، تتصارع –الآن– في داخلها قوى وجماعات وحكومات، وتتهجّر من أرضها كفاءات وعقول وخبرات، وتتعمق في مجتمعها الواحد، دعوات لمزيد من الانقسامات.. ففي واقع الحال العربي، بفضل الاستراتيجية الأمريكية، تتنازع الآن «هويات» على حساب الهوية العربية المشتركة،

بعض هذه الهويات «إقليمي شرق أوسطي» أو «طائفي» وبعضها الآخر «ديني» و«عرقي» وكأن المقصود هو أن تنزع هذه الأمة ثوب هويتها ولا يهم ما ترتدي بعده من مقاييس، فالمهم هو نزع الهوية العربية.. والمؤسف أن أغلب الحكومات العربية تتعامل مع هذه المواضيع المصيرية وفق منظور إقليمي ضيق، وليس في إطار رؤية عربية مشتركة ومصير عربي واحد.

لعل أسوأ ما في الواقع العربي الراهن هو حال التمزق، فشعار الديمقراطية أصبح نقيضاً لشعار التحرر الوطني أو بالعكس، والولاء الوطني أصبح يعني تنكّراً للعروبة، وللعمل العربي المشترك، والاهتمامات الدينية أصبحت خطراً على الوحدة الوطنية، ويرافق هذا الحال الذي يحدد أبعاده الدكتور صبحي غندور في القضايا والأهداف، رؤى خاطئة عن «المثقفين العرب» من حيث تعريفهم أو تحديد دورهم، فهذه الرؤى تفترض أن «المثقفين العرب» هم جماعة ذات رؤية موحدة، بينما هم في حقيقة الأمر جماعات متعددة برؤى فكرية وسياسية مختلفة قد تبلغ أحياناً حدّ التعارض والتناقض، وهنا يبرز دور الفئة الواعية لدورها الريادي والحضاري والتنويري الذي قامت في عصر النهضة واليقظة العربية في بداية القرن الماضي، والذي يمكن أن تقوم به في مرحلتنا الراهنة، مرحلة المصير العربي الواحد، والرغبة القوية والحاسمة بتجديد الفكر القومي.



تجديد الفكر القومي، يستدعي ضرورة تحديد مفاهيم القومية في الفكر العربي المعاصر، لأن لها مفاهيم متنوعة وتدور حول مقولات الأمة والدولة والشعب والوطن واللغة، ولها مدارس ونظريات متعددة.. التجديد يعني القيام باستثمارات كبيرة في البنية التحتية للثقافة، وفي إعادة بناء السوق الثقافية العربية، وتشجيع الإبداع والإنتاج الأدبي والفني العربي، وخلق تنمية ثقافية عربية.. التجديد هو الوعي

بأن المجتمع العربي مجتمع مرحلي- انتقالي- تراثي، تتجاذبه الحداثة والسلفية أو العصرنة والتراثية، أي إن المجتمع العربي تراثي في ثقافته التي تعود بعيداً في التاريخ إلى ما قبل التاريخ وإلى الإسلام الذي دمغها بطابعه الخاص وتسبّب بتوسعها وانتشارها وتفاعلها مع ثقافات المنطقة الأخرى، ثم إن المجتمع العربي ما يزال يمّر في مرحلة انتقالية امتدت من مطلع القرن التاسع عشر حتى وقتنا الحاضر، وقد تمّر عقود أخرى قبل أن يختبر المجتمع العربي استقراراً نسبياً وتتشكل معالم نهضته الحديثة، ومن طبيعة الأمور في المراحل الانتقالية أن ينشغل الناس بالميل نحو تحديد هويتهم وطموحاتهم وعلاقتهم بثقافتهم أصيلة كانت أو مكتسبة، وكل ما نرجوه ألا تطول هذه المرحلة!؟.

تجديد الفكر القومي يعني تجاوز حالة الاغتراب التي تعاني منها على صعيد الأفراد والجماعات والمجتمع، والعمل على تنشيط المجتمع الأهلي وإدماجه في حركة البناء والتطور والنمو.. لقد جرّبنا ما يسمى التنميّة، ولكننا فهمناها في الأغلب بأبعادها الاقتصادية من منطلق النموذج الغربي، فترسخّت بل وازدادت الفروقات الداخلية نتيجة لها، ثم تحدثنا لزمن طويل، دون ممارسة فعلية عن الثورة والتحولات الثورية، وقد جربنا بعض أشكالها مما أدى بنا إلى مواقع محبطة..

هناك فجوات عميقة تفصل بين الواقع والحلم في الحياة العربية الحديثة، الواقع العربي الحالي، مضطرب ومتصادم ويحتاج إلى تحليل ووصف وتشخيص وتحريك وإلى آلية عمل تتفق وقدرات الإنسان العربي لا سيما من الناحية النفسية والاجتماعية والاقتصادية..

إن الحضارة في جوهرها مشروع للنهوض، وعلى الإسهامات الفكرية القومية أن تدرك هذا الأمر، وتدرك أين موقعها فيه أو محلّها منه، لتصب في السياق الصحيح، ففي وضعنا الراهن ليس بوسعنا الحديث عن الإنسان العربي ككل، ولا عن مدن

فاضلة، ولاعن ثورات في الفكر القومي، وإنما بوسعنا أن نجعل مكاننا وزماننا أفضل من السابق ولو بدرجات..

قد يكون من الصعب، مع ما قدم من تحليلات ودراسات ومداخلات، في مؤتمر الفكر القومي والمصير العربي، التكهن بمستقبل هذا الفكر وهذا المصير في زمن المتغيرات العالمية والهيمنة الأمريكية وعمليات الاستلاب والتغريب والتخريب التي تمارسها على العالم، وأعتقد أن ما تم من تحليل ودراسة وعرض قاعدي ومستقبلي لا غنى عنه، وعن تفهمه واستيعابه ومراعاة متطلباته إذا كانت الإدارة واعية وهادفة لتحقيق غاياته وطموحاته..

إن عملية تجديد الفكر القومي، حتى تستوفي الأصول الجديدة للإثمار من جديد، هي بحاجة ماسة إلى مراجعة نقدية شاملة، تأخذ بعين الاعتبار التحولات العالمية في الفكر والمنهج والرؤى، وأن ترتبط بالواقع على ما هو عليه، وبالنموذج المرغوب تحقيقه، وبالوسائل المتاحة، كي يعاد تشكيل الوعي الثقافي القومي العربي، والدخول في عصر عربي جديد..



الأيام الثقافية السورية في اليمن

تجلّيات الثقافة العربية بكل أبعادها ومكوناتها، حملتها سورية إلى اليمن السعيد من خلال الأيام الثقافية العربية السورية التي أقامتها وزارة الثقافة في مدن صنعاء والمكلاّ، وحضرموت وعدن وتعز بين (١٠ و١٦) أيار/ مايو ٢٠٠٨. فكانت علاقة التمازج الحضاري بين ثقافة بلاد الشام، وثقافة اليمن القديمة قدم الأسطورة، والتي منها ولدت الثقافة العربية المتكاملة، ومنها تمَّ صوغ نقلات حضارية في تاريخ العرب بكل امتداداته ورياداته ومنجزاته..



بدايات الحضارة والفنون التي أسفرت عن معالمها مواقع: ست مرخو، واللطامنة، والغرماشي، والكوم، والمريبط، وتل حلف وماري وإيبلا وأوغاريت ومسكنة وتل ليلان ودمشق وحلب وحمص وتدمر وبصرى وغيرها.. حملنا نماذج منها إلى ممالك اليمن السعيد في معين وقتبان وحضرموت، وسبأ وحِمْيَرَ وغيرها.. لقد مزجنا تراث وفنون الماضي وصولاً إلى امتزاجاته في الحاضر من خلال الحرف والفنون والصناعات التقليدية التي اشتهرت بها سورية عبر تاريخها الطويل، ولوحات الفن التشكيلي السوري التي تعود بتجلياتها وإشراقاتها إلى لوحات جدران الكهوف في موقع «تل بقرص» والقصر الملكي في ماري، ومنحوتات مملكة إيبلا، وأوغاريت وعين دارا وتل ليلان وتدمر وآفاميا، وفسيفساء الجامع الأموي الكبير بدمشق والقصور الأموية

في البادية السورية.. وأيضاً من فرقة «إنانا للمسرح الراقص» التي حلّقت في سماء الفن الرائع، وقدمت ملامح من «هواجس الشام» الحافل بمخزون الجمال وعبق الفل والياسمين، و«رقصة ستي» وإيقاع الدبكة السورية التي يعود قدمها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، في ساحلنا العربي السوري.. ولم تغب فرقة «شيوخ سلاطين الطرب» عن التعريف بالمدرسة الحلبية العريقة في الغناء والموسيقا، فكان لها حضورها القوي والمميز في مدن يمنية عديدة، تفاعل جمهورها معها بشكل لافت عرفاناً بما قدّم عناصرها من حسن أداء، وجودة غناء، وصلت إلى درجة «السلطنة»..

لقد كانت قافلة الشام الثقافية والغنية التي حطت رحالها في اليمن السعيد، بمثابة تذكير للأجيال الحالية بقوافل البخور، ومسالك المحطات التجارية والاقتصادية والثقافية القديمة التي كانت تربط بين بلدينا الشقيقين.. لقد كان أهل الشام واليمن في الماضي نشطاء في تجارتهم الواسعة، فنقلوا من الصين والهند وسواحل إفريقية الشرقية إلى المصريين والكنعانيين والآشوريين المعادن الثمينة والأقمشة الحريرية والتوابل والبخور وريش النعام..

الأيام الثقافية السورية في اليمن الشقيق، أتاحت لنا الاطلاع على جانب بسيط من معالم التاريخ والحضارة والفنون والعمارة في صنعاء ومحيطها، وكنّا نأمل لوكان هناك فسحة أكبر من الزمن حتى نتعرف على عظمة هذا البلد العظيم، الغني بمعالمه وبطبيعته وعمارته، وتاريخه، الذي يمتد من عصور ما قبل التاريخ وحتى فترة ممالك القوافل، وصولاً إلى العصور العربية الإسلامية.. وهناك آلاف من المواقع والمعالم الأثرية التي تشهد على ذلك الإرث الثقافي والحضاري العظيم الذي مرّ به اليمن الشقيق، في ظل الوتيرة المتسارعة للنمو السكاني، وظاهرة التمدن، والأشكال الحديثة من طرق العيش والتوسع الاقتصادي المرتبط بتنفيذ مشاريع كبيرة في البنى التحتية..

لقد عبّر كثير ممن يعمل في حقلي التراث والآثار في اليمن السعيد عن مخاوفهم من التهديدات المحتملة على التراث المعماري والثقافي، مالم يتم اتخاذ تدابير وقائية تحول دون ذلك، وقد ذكرتني هذه المخاوف بمخاوفنا على دمشق القديمة وحلب القديمة وتدمر وبصرى الشام وغيرها من مدن التراث والحضارة والتاريخ في سورية.

اليمن الشقيق، شأنه شأن بقية دول العالم، يسعى للحفاظ على هويته وميراثه الثقافي والحضاري، لأن المحافظة على هذا التراث. وإجراء الدراسات والتنقيبات الأثرية يعد أمراً أساسياً لفهم المظاهر المختلفة من حياة وتاريخ الحضارة اليمنية القديمة، وقد صادف وجودنا، ما أعلنه علماء الآثار عن اكتشاف آثار أقدام ديناصورات ضخمة وطويلة العنق على الساحل اليمني، في أول اكتشاف لآثار ديناصورات في الجزيرة العربية، وهذا النوع عرف باسم «سوروبود» وهو من أكبر الحيوانات البّرية التي تمشي على أربع أرجل، وكانت بدينة وتقتات على النباتات.

وأظهرت آثار هذه الأقدام التي يعود تاريخها إلى /١٥٠/ مليون سنة على أن الديناصورات، كانت تهرول بسرعة على امتداد الساحل اليمني بحثاً عن الطعام، وقد جابت هذه المخلوقات الأرض منذ قرابة /٢٢٨/ مليون سنة وحتى /٦٥/ مليون سنة مضت، ويتراوح طول آثار الأقدام التي عثر عليها، وجرى حفظها بعناية، قرب العاصمة صنعاء، بين (٤٣ و٧٠) سنتميتراً، وبفرق بين القدم والأخرى يصل إلى (٢,٥) متر.. ولم يكتشف العلماء في الجزيرة العربية سوى حفريات قليلة لديناصورات وبقايا يحتمل أن تكون لديناصورات طويلة العنق كانت تعيش في اليمن.



في صنعاء القديمة، يتجسد التاريخ أحرفاً تتلألأ على مشارف إبداع إنساني

فريد لاوجود له إلا في اليمن السعيد، حيث يجد المرء نفسه، مجبراً على الوقوف والتأمل لفن الإبداع الأصيل الرائع، لأنامل الإنسان العربي اليمني التي صنعت كل هذا الإرث الحضاري العظيم الحافل بآيات الإعجاز، ومشاهد الجمال الآسر، لبلد تتصدر مدنه الأثرية منظومة التراث الإنساني العالمي..

في صنعاء القديمة لم يترك الإنسان شيئاً بغير نقش، فتبدو الأبنية بطوابقها العديدة ونقوشها وزخرفتها البديعة كقناديل معلقة، تحكي روعة الجهد والإبداع الإنساني الذي في بناء هذه المنازل الفريدة في العالم القديم.. في صنعاء القديمة يمكن تتبع بحب ودهشة وإعجاب روعة الإنجاز العمراني من الفنان والمهندس اليمني القديم الذي ترجم إحساساته وانفعالاته وهواجسه الروحية ومعتقداته الدينية والفلسفية في الزخرفة إلى أبعد مدى، إما على عقود الجص والأبواب الخشبية، أو في الأحزمة على عقود الحجر والطين..

لقد تميّزت البيوت القديمة في صنعاء باعتمادها على الطين كمادة أساسية في البناء والتشييد، لأسباب لها مدلولاتها في تأكيد خبرة ومهارة وتفرّد البنائين اليمنيين القدامى، فالطين أساساً ينتج عن تحلل الصخور النارية ويعتمد لونه على المركبات المعدنية المكونة له، ولذا نراه يتدرج من الأبيض الفاتح إلى البني الغامق، ويعد الطين من أفضل المواد العازلة للحرارة، ومنه استمدت العمارة اليمنية نماذجها وأنماطها وأهمها نمط المنازل المبنية من الطوب المحروق الذي يتجلى بقوة في صنعاء القديمة، التي صنّفت منازلها كإحدى أكثر عواصم العالم تميزاً بطابعها المعماري الفريد الذي جعل منها درّة من درر التراث الإنساني والعالمي، والتي يعود تاريخها إلى مئات السنين، ويقدّر عدد المنازل والأبنية القديمة المتلاصقة في صنعاء بنحو /١٤/ ألف منزل أثري، ويدرك الزائر، لهذه المدينة منذ الوهلة الأولى، اللمسات الفنية للإبداع التي يستشفها المرء ببساطة من تلك المقاييس الدقيقة، وذلك التناسق العجيب في الزوايا والمقاطع المختلفة التي تتألف منها المنازل، إضافة إلى ذلك الاستعراض

الممتع لشتى فنون الزخرفة الحجرية والطوبية والجصيّة، التي حوّلت واجهات المباني القديمة إلى تحف فنية غاية في الجمال والروعة..

قد يرتفع البيت الصنعاني إلى سبعة أدوار، ويربط بين كل طابق وآخر حزام من الخارج، يصنع من المادة النباتية نفسها، وبأشكال هندسية بديعة الزخرفة، ولكل دور وظيفة مستقلة، فالطابق الأرضي يستعمل كمخازن وحظائر للماشية، والرحى التي كانت تستخدم لطحن الحبوب.. الطابق الثاني، فهو خاص بالنساء والأطفال، فيما تخصص الطوابق العليا للرجال، وفي معظم القصور الصنعانية، حجرات علوية تدعى الواحدة منها «المفرج» وهي غرفة مستطيلة الشكل، مزينة جوانبها ورفوفها بتشكيلات زخرفية، ومفروشة بالفرش والمساند الملّونة.

تقول الأستاذة افتكار القاضي، والأستاذ أحمد محمد هاشم في كتاباتهما عن العمارة اليمنية القديمة: لقد تأثر العمران في البيوت اليمنية بمعطيات الإسلام، وخاصة مفاهيم الزخرفة والهندسة، وقسمت المساكن إلى قسمين لغرض فصل النساء عن الرجال، وأتت الخصوصية بكل قسم في الاستقبال والمعيشة والنوم، كما شيدت قلاع ملاصقة للأسوار التي تحيط بالمدن، وبطريقة فنية استوعبت المتغيرات الحديثة التي ارتبطت بالبيئة والمناخ، فاستخدم في تصميمها المشربيات المصنوعة من الجص والطوب المحروق، في تناغم أصيل..



زيارة المتحف الوطني في صنعاء، محطة لابد منها للتعرف على تاريخ وحضارة وفنون اليمن القديمة، فهذا المتحف الجميل، الأثري البناء والطراز، يمتلك ثروة غنية ومتنوعة وشاملة من القطع والأدوات الأثرية التي اكتشفت في العديد من المواقع والأوابد الأثرية، ويعود تاريخها إلى فترات التاريخ اليمني منذ عصور ما قبل التاريخ وعصر الحضارات اليمنية القديمة، والحضارة العربية الإسلامية، كما يضم نماذج

كثيرة تمثّل أدوات التراث الشعبي والصناعات التقليدية التي تشتهر بها اليمن منذ زمن موغل في القدم..

زيارة المتحف الوطني الذي أقيم في أحد قصور «الإمام» القديمة وفق هندسته وطرازه المعماري القديم أتاحت لنا الاطلاع على عمليات الترميم والصيانة لتمثال برونزي شهير يتميز بخصوصية نادرة، ويعد من أهم مقتنيات المتحف، ويعبّر عن وجه اليمن الحضاري لأنه نافذة يشع منها عبق التاريخ اليمني إلى العالم الخارجي..

لقد أرسل هذا التمثال إلى متحف اللوفر الباريسي، وتمت عمليات ترميمه وإعادته كاملاً، ليعرض في إحدى أهم قاعات المتحف الوطني، في خزانة خاصة به، وقد أظهرت عمليات الترميم والصيانة الكتابات المنقوشة على صدر التمثال بخط المسند، ومكان اكتشافه في محافظة الجوف، مدينة نشق (البيضاء)..

إدارة المتحف الوطني في اليمن، كانت حريصة على إبراز الهدّية القيّمة التي أهداها رئيس الجمهورية اليمني إلى المتحف، وتضم أربعين قطعة أثرية متنوعة مصنوعة من البرونز والخزف، وتمثل مزاهر وجنابي ورؤوس رماح وسكاكين، وتمثال صغير لجمل عليه راكب، ومعظم هذه القطع والأدوات يعود تاريخها إلى عصور ما قبل الإسلام، واللافت عمليات الترميم الدقيقة التي أجريت لهذه القطع الأثرية قبل عرضها على زوار المتحف.. وهنا لابد من الإشادة بعمليات التوثيق والتسجيل المتحفي المتطورة في المتحف مما يدل على منهجية علمية دقيقة في حفظ وتسجيل المقتنيات الأثرية، في متحف صنعاء الوطني، ذاكرة التاريخ اليمني..

صنعاء- اليمن (10-16) أيار 2008

عسر هضم ثقافي

الاحتجاج والتعبير عن عدم الرضا، سمة من سمات عصرنا الحالي.. لقد أصبحنا نعاني من عسر هضم ثقافي.. تعطّلت لدينا وظيفة العقل، وأصبحنا نسأل أنفسنا: ما العمل إزاء تشويه دور العقل؟! فمنذ عقود زمنية عديدة يتردد هذا السؤال في كل مناسبة.. أكثر مفكري العالم طرحوه دون جواب.. الثقافة في العالم أجمع تتنفس في صعوبة، فالكمائن تنصب لها عند كل منحى.. ثمة تجويف لدورها، ترى هل تغيّر هدف الثقافة؟ لا أعتقد ذلك، فالهدف منها تهذيب الفرد وتقريب الحضارات.. الثقافة كما يقول الأديب وضاح الحلو: «هي تنسيق وتحليل وطرح أسئلة حول الوجود البشري والإلهي، وكيفية ائتلاف هذه العناصر، قديماً منذ الحضارة الفرعونية، كانت الثقافة تُعنى بتربية الناشئة، وفي اليونان القديمة لعبت مدرسة إسبارطة دوراً في التربية القتالية والجسدية، ومدرسة أثينا في التربية الفكرية والقيادية والثقافية، حتى بوجهها القديم، لم تتناحر، تناحرت المصالح الاقتصادية»..

في عالم اليوم لعبت «العولمة» دوراً كبيراً في تطويع الشعوب، وإخضاعها وطمس هوياتها، وحولتها إلى مساحات وامتدادات استهلاكية، وأعلن المشروع الفكري الرأسمالي الأمريكي عن نفسه بكل صفاقة وتجبّر وصلافة وانعدام إنسانية، وقامت ثقافة «العولمة» بدورها الذي أسقط الكل لمصلحة الجزء، وتهديم أسس الحضارات البشرية تحت شعار «الرجل الأبيض يمدّن العالم» وسادت ثقافة الغربة والاغتراب

والارتهان والاستلاب، والتغريب عن الهوية الأصيلة.. وفعلت هذه السياسة البغيضة دورها في استشراء الانغلاق، وتفشي الجهل، وهيمنة ضيق الأفق على العقول..

إن الاحتجاج وسياسة عسر الهضم الثقافي، أدّت إلى تعطّل وظيفة العقل، وإلى الانغلاق والجهل وضيق الأفق.. الانغلاق أدى إلى طمس البصيرة، وسد منافذ الفكر السليم، والجهل أدى إلى حجب الحقائق عن العقول، وأوقعنا في المزالق والمهالك، وخلق الأوهام في عقولنا، وضيق الأفق حال دون الرؤية السليمة إلى الأمور، ومنعنا من استشراف آفاق المستقبل..

الاحتجاج والانغلاق قادونا، بشكل أو بآخر، إلى الانشداد إلى الماضي، وتكاد الإحالة إلى الماضي تطال كل ميادين حياتنا من الثقافة إلى العلوم إلى الاقتصاد والاجتماع، ويمثّل الاعتداد بالذات أحد أمراض الثقافة العربية، حيث يطغى على العقل العربي جنون امتلاك الحقيقة والرأي الصواب و«يا أرض اشتدي ما حدا قدّي»، ويترافق مع هذا المرض سمة تتصل بسيادة ثقافة التقليد وغلبة النقل على العقل، والعجز عن تصور الجديد وغير المألوف في التراث مما يجعل ثقافتنا، بشكل عام، عاجزة عن تمثّل الحداثة الراهنة، وذلك لانشدادها إلى قياس الحاضر على الماضي، مع الإشارة إلى أن العودة اللاتاريخية إلى الماضي والإقامة فيه، منعتنا من رؤية الإيجابي في هذا الماضي للإفادة منه واستلهامه مجدداً، ووضع ما بات خارج الزمن، جانباً بصفته تعبيراً عن مرحلة محددة من التاريخ العربي، يتسبب التمسك بها، بإعاقات تمنع مسار التقدم وتعرقله.



لقد أثرت سياسة «العولمة» بالتعاون مع الإقامة في الماضي ثقافياً على درجة الإبداع والخلق في المجالات الثقافية والأدبية والفنية والعلمية، وهذا ما يفسّر حالة القحط والإحباط والعجز الثقافي التي نعيشها في عصرنا الحالي، حيث أصبحنا

نعفي أنفسنا من عناء البحث، عبر استلهام الماضي سواء كان فلسفياً أم علمياً أم أدبياً، وإذا ما أثيرت قضايا وأسئلة فإنها تأتي بعد أن يكون الزمن قد تجاوزها وطرح تحديات جديدة، ويفسّر هذا الوضع عدم قدرة العقل العربي اللحاق بالحداثة، وبإحداث حد من القطيعة مع التراث والماضي واستيعابه وغربلته بما يسمح بمواكبة الحاضر، وجاء استعصاء الحداثة بمكوناتها المتعددة، ليؤكد أن ما تعرفه المجتمعات العربية ليس سوى تحديث مقطوع الجذور عن الخلفية الفكرية التي أنتجته، لذلك ليس غريباً أن نجد نسبة كبيرة من المثقفين العرب يفتشون عن أجوبة على أسئلة صعبة في ثنايا مؤلفات مفكّري الماضي..

انهيار «الأيديولوجيات» بدأ في القرن العشرين، وبلغ منتهاه في آخر القرن نفسه.. لقد ظنّ كثيرون أن انتشار العقل والعلم هو الضامن للسلام بين الشعوب والأمم في العصر الحديث، وجاءت الأحداث التي توالت على مدار النصف الأول من القرن العشرين لتكشف الوجه الحقيقي للاستعمار بصفته إكراهاً واستعباداً للشعوب، وبفعل ما حدث اتجه كثير من المثقفين في العالم إلى مراجعة فكرة الحداثة والتقدم، ووصل صدى إعلان «ميشال فوكو» عن موت الإنسان إلى بعض مثقفينا، فعملوا على إبراز التراث لنقد الحداثة.. لقد نشأت آمال كبرى كان لها ما يبررها بالنظر إلى الظروف التي ميزّت منتصف القرن العشرين، ولكن «العولمة» قضت على تلك الآمال والأحلام..

ويرى الباحث محمد الحداد للخروج من هذا الواقع.. واقع الحلم بالأيديولوجيات التي تفتح أمامنا أبواب المستحيل، علينا أن نكون أكثر تواضعاً فنعمل على ما يلي:

أولاً: استئناف عملية التعريب للمعارف الكونية، بدل الزعم بتقديم البدائل عنها، وسندرك آنذاك الهوة التي تفصلنا عن تلك المعارف، والعسر الذي يواجهنا من ناحية تطويع لغتنا وأساليبنا للخوض في قضايا العالم الحديث».

ثانياً: استئناف تحقيق التراث بدل توظيفه (هذا ما تقوم به وزارة الثقافة من خلال عمل مديرية إحياء ونشر التراث العربي) وسندرك آنذاك عسر التحقيق، ونفهم المسافة التي تفصل بينه وبين شواغلنا المعاصرة.

ثالثاً: فتح فضاء للحوار، لا يكون مضمونه التبشير بالحقائق المطلقة، بل البحث عن وفاق أدنى في القضايا الخلافية ذات البعد العلمي المشترك.

بعبارة أخرى، نحن نحتاج إلى اختبار قدراتنا على الفهم من خلال التعريب والتحقيق، وعلى اختبار قدراتنا على الاقتراح والإقناع من خلال الحوار، وليس من الهيّن على المثقف العربي الذي عاش طويلاً على أوهام الزعامة والتبشير أن يقبل بالتحوّل إلى دور المتدّرب، لكن مهما بدا له هذا الدور مخلّاً بكرامته المتضخمة فإنه أرحم من أن يواصل ارتداء لبوس أوسع من حجمه، وأن يواصل سياسة الاحتجاج والتعبير عن عدم الرضا..



في شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام ٢٠٠٥م، وقّعت في مقر المنظمّة العالمية للتربية والعلوم والثقافة، في باريس، (١٤٨) دولة -باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل- على اتفاقية «التنوّع الثقافي» التي تؤكد على حق الدول في حماية منتوجها الثقافي ودعمه، وعدم تعريض ثقافتها لخطر الذوبان والانقراض، وكان لي شرف المشاركة والمناقشة في إقرار هذه الاتفاقية التي نشأت وتبلورت بنودها من كون المنتوج الثقافي يحمل محتوى حضارياً لصيقاً بقضية الهوية، فهو ليس محايداً لغيره من السلع الثقافية، بل يحمل ويروّج للثقافة التي صدر عنها، ومن هنا استشعر الجميع أن فتح الأبواب أمام المنتجات الثقافية المهيمنة، من دون اكتساب تنافسيّة عالية، من شأنه أن ينعكس على الثقافة الوطنية لكل بلد، وهذا ما فعلته «العولمة» على ثقافات الشعوب والأمم التي سعت على انتزاع القيم من أصلها العلوي، وإلحاقها

بالمجال الثقافي في العالم، وفي هذا التحويل نوع من المصادرة لتاريخ الحضارة الإنسانية عموماً، وخلق ثقافة عالمية تعلي القوي وتقلل من أهمية الفقير، مما خلق حالة من الإحباط والألم في نفوس المثقفين العرب، ولا يخفى على أحد أن هذه الحالة ليست ناجمة فقط على «آثار العولمة» بل أيضاً عن معايشة تاريخية طويلة للتخلف والعجز والتهميش والاستلاب الفكري والحضاري..

إن المثقفين العرب، الذين يعيشون منذ عقود زمنية عديدة، حالة «عسر هضم ثقافي» تتفاعل في ذاكرتهم الجماعية، بقوة شديدة مشاعر الانتماء إلى جزء من العالم المتميز (وطنهم العربي، مهد الحضارات والأديان والفكر والفلسفة والعلوم والابتكارات، ومنطقتهم ذات أهمية استراتيجية بالغة، تختزن أكبر احتياطي للطاقة) وهذا ما كان من المفروض أن يمنحهم مكانة مرموقة في العالم، بالإضافة إلى ضمان انتعاش وازدهار اقتصادي، لم يروه مطلقاً، لأنه بقي خارج إرادتهم، ولاقدرة لهم على التأثير والاستفادة منه.. كل هذا ضاعف من شعورهم بالهامشية والإحباط والحرمان، وقد انعكس هذا في كتاباتهم وتحليلاتهم ودراساتهم وأدبياتهم..

لقد ثبت علمياً وفكرياً أن الثقافة لن يكون لها أثر إبداعي مؤّثر وفاعل إلا بقدر ما تستطيع فيه أمتنا العربية كسر الانكسار المفروض علينا من جراء كواكب الحصار الاستراتيجي الخارجي، ونهب ناتج النفط والإنتاج العربي، وعندما يستطيع العرب القيام يصبح لثقافتنا العربية مستقبل زاهر..

العالم الذي يسعى إلى التحرر والتقدم، بدأ مرحلة تغيير متسارعة، في الصين والهند وشرقي آسيا يصاغ العالم الجديد من أولوية الجماعة (الأمة، الأسرة، الإقليم، المؤسسات الإنتاجية والاجتماعية..) وبالتالي التضامن –في مقابل- تأكيد الفرد، وجعل الفردانية غاية المجتمعات الإنسانية، وتأكيد مفهوم الإنسانية والاجتماعية، وتأكيد مكانة القيم الأخلاقية والفلسفية والتمسك بالاستقرار واستمرارية السلطة المجتمعية في قلب الأمة..

أمـام هذا التحرك الهائل في وقتنا الراهن، من أين يبدأ اجتهادنا الثقافي والفكري؟ حول هذا الموضوع يقول المفكر الدكتور أنور عبد الملك: «على أمتنا العربية أن تتجه بكل ما تملك من قوة إلى تحقيق مستوى متقدم من الفعالية لوحدتها، بحيث تستطيع أن تتقدم للحاق بركب نهضة آسيا، وهذه دعوة يمكن أن تلحق بمشروع نهضة الشرق الحضاري، وكذا أن تلبي مطالب الحداثة، مع الحفاظ على الخصوصية الحضارية والثقافية والقومية..

إن أمتنا العربية إذ تسعى إلى إدراك محاور تحرك ومعاني عملية صياغة العالم الجديد، أصبح لزاماً عليها أن تنهج طريق الفكر التساؤلي، دون الجمود والشكلية، والسعي إلى الوصفات السهلة، وبطبيعة الأمر عليها أن تؤكد أن تاريخية النظرة إلى المستقبل تتضافر مع الموقف الفكري والتساؤلي، ولن يحسم مستقبل الثقافة في أمتنا العربية إلا العمل القومي –دولاً وشعوباً– للتحرر واستقلال القرار وفعالية الأداء».

إنَّنا نحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى مراجعة تاريخنا وتراثنا بما يسمح بالإفادة مما هو حي فيه، وتجاوز ما تقادمه الزمن، وتشكل معركة النقد أحد الشروط الأساسية لتجديد الثقافة العربية وللخروج من حالة «عسر الهضم» التي نعيشها، بما يتناسب مع معطيات العصر الراهن وتحدياته الكبيرة.



وداعاً . يوسف شاهين

ودَّعت الأوساط الثقافية والفنية العربية والعالمية في السابع والعشرين من تموز ٢٠٠٨، المخرج العربي الكبير يوسف شاهين، هذا الفنان الرائع الذي صنع الجمال من قسوة الواقع العربي، وحقق خلال مسيرته الفنية الحافلة بالعطاء والتجدد والإبداع، أكثر من أربعين فيلماً سينمائياً ووثائقياً وتسجيلياً، ولعب دوراً كبيراً في الارتقاء بمستوى السينما العربية والوصول بها إلى العالمية، وساهم كثيراً في جعل الصورة السينمائية أكثر حيوية ورشاقة واحتكاكاً مباشراً مع التفاصيل التي تصنع اللحظة وأسئلتها وآفاقها..

كان «شاهين» في كل ما صنع وأنتج وأخرج من أفلام سينمائية كما يقول عنه الناقد نديم جرجورة: «هو نفسه الذي سطع مدوّياً في فضاء السينما العربية، معيداً للسينما حيويتها في صنع جمال مختلف، مستمدة من أسئلة المخرج ومن بشاعة الواقع، وقسوة الأزمات، والتباس العلاقات الإنسانية، ضاخاً فيه ملامح من وجع النكبات وفرح الانتصار من داخل الهزيمة».

عبقرية يوسف شاهين دفعته إلى اختيار التمارين الفنية السينمائية المختلفة منذ عام ١٩٥٠ عند إنجاز «بابا أمين»، فظهر العادي بوفرة، مانحاً الأهم سينمائياً ودرامياً وثقافياً فرصة استقطاب المهتمين إلى المشاهدة الهادئة للغليان الذاتي والإنساني المعتمل في شاهين نفسه، كما في أفلامه الشهيرة «الاختيار» و«العصفور»

و«حدوته مصرية» و«إسكندرية كمان وكمان» و«المصير» و«وداعاً بونابرت» و«اليوم السادس» وغيرها..

لقد شكّل يوسف شاهين في كثير من أفلامه المهمّة، حالة غموض في علاقته مع الناس ومع النقّاد والمهتمين بأعماله التي أثارت الجدل والحوارات الساخنة والحادة في أحيان كثيرة، لكنه نجح في أن يكون سينمائياً شعبياً عندما بسّط الشكل السينمائي من دون أن يتغاضى عن محاسن الصورة السينمائية وتنويعاتها المختلفة.

لقد تواصل شاهين مع الناس في أكثر أفلامه، عن هذا يقول المنتج الفرنسي الراحل «آمبير بلزان» الذي عمل مع شاهين مراراً: «يستطيع شاهين أن يصنع أفلاماً بإخراج ضخم، ويقول ما يرغب في قوله.. يستطيع أن يكون لديه خطاب سياسي قريب جداً من بلده، وأن يتحدث عن المفارقات التاريخية في العلاقات القائمة بين الدول المتطورة والنامية، ويستطيع أن يصنع من الفيلم مرآة حقيقية لذاته كي يعيد صوغ معالمها على مشرحة نفسية وثقافية وروحية، وفي الوقت نفسه يجعل من هذا التشريح البصري نافذة للإطلالة على المعالم الأوسع للحياة والذاكرة والتفاصيل الجانبية، التي تساهم في صنع معنى للعيش في عالم مضطرب، متغيّر، لا حدود لآفاق تحوّلاته..».



خلال عملي في وزارة الثقافة، ومشاركاتي في المؤتمرات والمهرجانات الثقافية والفنية في سورية والوطن العربي، أتيحت لي الفرص العديدة للالتقاء بالفنان الكبير يوسف شاهين، وقد أجريت معه لقاء صحفي منذ أكثر من عشرين عاماً، وكنت كلما التقيته أزداد حباً وإعجاباً بـ«جنون» هذا الرجل المعجون بالفن دون حدود، كان دائم الحركة في جلساته، صوته تميزه الأذن من بين آلاف الأصوات، وطريقة تدخينه لا يمكن تقليدها..

هو استثناء ـ في مرحه وحيويته وإشراقه وقفشاته وفنّه الشامل.. درس التمثيل والإخـراج السينمائي ـ في جامعة«باسادينا» ـ في «لوس أنجلوس» بالولايات المتحدة الأمريكية.. وشاء أن يكون ممثلاً، وهذا ما فعله ـ في فيلمه «باب الحديد» ولكنه على الرغم من نجاحه، أدرك أنه يجب أن يكون مخرجاً وليس ممثلاً، ومنذ الخمسينيات من القرن الماضي لم يتوقف عن البحث عن بديل منه عن «أناه الأخرى» ويقول النقاد أنه مثّل ـ في جميع أفلامه التي أخرجها من خلال الآخرين..

لقد نفض يوسف شاهين الغبار عن السينما المصرية ـ في مرحلتها الذهبية، وكثيراً ما كان يصدم المشاهدين ويجعلهم يتيهون ـ في دهاليز اللغة البصرية، ـ في مرحلة لم يكن الجمهور السينمائي مستعداً بعد لتقنياته السردية الحداثية، عندما قدم أعمالاً شبه تجريبية لصديقه الموسيقار الراحل فريد الأطرش ـ في فيلميه «أنت حبيبي» و«ودعّت حبك» ثم ـ في فيلمه الشهير «باب الحديد» الذي مازال مدرجاً على جدول أفضل الأفلام العربية العشرة ـ في تاريخ السينما العربية، وقد عكست أفلامه الواقع الاجتماعي المصري والعربي بشكل عام، ومدى رغبته الشديدة ـ في التغيير، وخاصة بعد ثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٣، حيث تزامنت مرحلته السينمائية الأنضج مع نمو الوعي القومي عند العرب والمصريين، فكانت هديته للثورة الجزائرية من خلال فيلم «جميلة» عام ١٩٥٨، وفيلمه التاريخي الضخم عن «الناصر صلاح الدين» حيث استطاع بإمكانات متواضعة، أن يقدّم عملاً فنياً متكامل العناصر الدرامية والجمالية والتقنية، ويضارع أبرز الإنتاجات السينمائية العالمية، كما تناول ـ في فيلم «فجر يوم جديد» ملامح التحولات الاشتراكية التي كانت تطاول مصر الشقيقة ـ في مرحلة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر.. ثم كانت ملحمة «الأرض» التي انطلق منها نحو العالمية والشهرة الكبيرة، وقد ساعده ـ في ذلك الأبعاد الإنسانية الشاملة التي أعطاها لفيلمه، فقد كانت مشكلة الأرض والسلطة من أهم ما يعانيه الفلاحون ـ في تلك المرحلة من تاريخ وطننا العربي والعالم الثالث..

بعد «الأرض» بدأت مرحلة جديدة من إبداعات يوسف شاهين السينمائية، ومن أهم سماتها الارتباط الزمني بما يحدث في المجتمع المصري، سواء على الصعيد السياسي أو الاجتماعي، كما كان الحال في كل من أفلام «الاختيار» و«العصفور» و«عودة الابن الضال» وهي التي تمضي في التعبير عن الواقع الممزق، ويعد فيلم «الاختيار» أكثر أفلامه توغلاً في أعماق النفس البشرية، وهو لا يتحدث عن صراع اجتماعي كما في «الأرض» ولا عن فساد سياسي كما في «العصفور» لكنه يتناول نظاماً اجتماعياً كاملاً بفكرته وسلوكه وتركيبته الهشّة، وهذا النظام هو الذي يحدد شكل النظام السياسي والاقتصادي وليس العكس..



لقد نُشرت عن شاهين مئات المقالات والدراسات، وعدد من الكتب المهمة بلغات عديدة، كما أن مجلات عالمية متخصصة أصدرت عنه أعداداً خاصة بمناسبة رحيله.. لقد تعاملت الأوساط الثقافية والفنية مع شاهين بصفته أحد أعلام الفن السابع في العالم، وباعتباره أحد معالم مصر وثقافتها، والحق يقال إنه لا يمكن النظر إليه إلا في بعده الشمولي والريادي والتنويري والحيوي، فقد كانت السينما تخرج من بين أصابعه.. لقد تنقل بين الواقعية و«الفانتازيا» وبين الالتزام السياسي والسيرة الذاتية، وبين التاريخ والاستعراض، واختبر أشكالاً غير معهودة في السينما العربية، وبقي كما قال عنه الكاتب «بيار أبي صعب»على امتداد ستين عاماً، المثالي المذبوح حيّاً، مثل قرينه «هاملت».

في سنواته الأخيرة، خاض مع الأصولية في مصر أكثر من مواجهة، من «المهاجر» إلى «المصير» وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أن خياراته ومشاغله القومية لم تتبدّل مع تبدل «الموضة» وبقيت بوصلته تحسن تحديد الأولويات السياسية والأخلاقية في زمن اختلاط المعايير والقيم..

لقد رفعت ضده أكثر من قضية في محاكم القاهرة لمنع فيلم «المهاجر»، وتراوحت الاتهامات الموجهة إليه بين تجسيد شخصية النبي «يوسف» الدينية المحرّم تجسيدها، وإيحاءاته التي فسّرت بالدعوة إلى «التطبيع» من خلال أصل بطله «رام» (الذي رأى فيه بعضهم عبرانياً) حسب تحليل الصديق الدكتور رياض عصمت، وقد خاض شاهين معركة على صعيد الوطن العربي كله من أجل حرّية التعبير والإبداع، مثبتاً للملأ أن في فيلم «المهاجر» شيئاً من سيرته الذاتية، وقد امتزجت باستلهام حر من قصة «يوسف» عليه السلام.

هذه الحملات المغرضة شجعته ودفعته إلى متابعة مسيرته في فيلم «المصير» الذي يحكي قصة الفيلسوف والمفكر العربي «ابن رشد» ومصيره في ظل حكم الخليفة المنصور في الأندلس، وقام شاهين في هذا الفيلم بإسقاط معاصر على تغلغل الأصولية والإرهاب في أوساط الشباب بدفع وتحريض من جهات ذات أطماع شخصية.. لقد قارع «شاهين» الحجة بالحجة من خلال شخصية إسلامية متنوّرة ورائدة..

لقد صور شاهين المفكّر «ابن رشد» وكأنه يعيش في نهايات القرن العشرين، مأساته وحرق كتبه هي المأساة نفسها التي يعانيها المثقف والمبدع العربي في وقتنا الراهن، ومع ذلك لم يسلم من المثقفين أنفسهم فها هم يتهمونه في الثمانينيات بالوقوع في فخ «الخواجة» بعد قبوله لعبة الإنتاج المشترك مع فرنسا، علماً بأن «وداعاً بونابرت» فيلم خاص في تاريخ شاهين، يختصر خطابه في العلاقة مع الغرب، منهل المعرفة والنهضة والتنوير من جهة، ومصدر أشكال الاستغلال والاستعمار والعنف من جهة أخرى.. لم يهادن شاهين يوماً ذلك الغرب، رغم كل التهم التي وجّهت إليه.

رحيل يوسف شاهين عن عالمنا، سيمنح أعماله السينمائية أنفاساً جديدة،

وسوف ينجذب إليها الشباب يكتشفونها من جديد، ويقومون بدراستها وتقييمها ويفهمون قيمها وأبعادها وتقنياتها ومراميها وآفاقها الواسعة المدى.. أفلامه ستبقى معبرة عن انفتاح الأفق وتلاقي الحضارات والروحانيات، ومسيرته ستبقى «حدوته» مصرية من أجل السينما وحرية الإنسان.



في البحث عن مكونات الإبداع عند يوسف شاهين، من خلال مجمل أعماله التي قدمها على مدى مشواره الفني الطويل، يمكن القول إن المكان والزمان والموسيقا والرمز والنساء أهم مكونات هذا الإبداع، فشاهين لم يتخل يوماً عن أي منها في فيلم من أفلامه، يمكن أن يعلي بعضاً منها. على الآخر، لكنه لا يتجاهل إحداها، ويحتفظ بها ويصر عليها كجزء من مكونات فيلمه.

أخبار الأدب المصرية اختارت أن تطلق على رؤية شاهين الإخراجية بـ«الواقعية النفسية» تمييزاً لها عن الواقعية الاجتماعية، والواقعية الاشتراكية اللذين هيمنا على تاريخ السينما في مصر، وفي هذا المفهوم فإن سينما شاهين احتفالية حتى وهي تتحدث عن وقائع وأفكار ومشاعر، ومن هنا كان اهتمامه البالغ بالموسيقا والرقص والتشكيل.. الموسيقا والأغاني في أفلامه لا يمكن فصلها عن معنى الفيلم وعن الإحساس به، والشيء اللافت قدرة شاهين على استشراف مستقبل الذوق الموسيقي العام، ولم يكن اهتمامه بالرقص أقل من اهتمامه بالموسيقا حتى اتهمه البعض بـ«تتفيه القضايا السياسية واختزالها في الرقص» كما في «المصير» أو جعل «القرداتي» يعزف ويجيد رقصات «جين كيلي» و«فريد أستير» كما في «اليوم السادس».

الرقص عند شاهين، هو قمّة فنون الداء التعبيري، وحتى في الأفلام التي لا تحتوي على رقصات، فإن حركة الممثلين داخل الكادر، وحركة الكاميرا من حولهم ترسم خطوات راقصة مرسومة بدقة.

في أفلام شاهين نادراً ما نجد كادراً مفتوحاً أو عشوائي التكوين، وغالباً ما يتم التنسيق بين حركة الممثلين وحركة «الكاميرا» لرسم تكوينات جديدة، داخل اللقطة الواحدة، مما يجعلنا ندرك أن هناك رغبة أكيدة لديه لتحويل كل لقطة إلى لوحة تشكيلية حيّة.

«الواقعية النفسية» التي وسمت رؤية شاهين الإخراجية، جعلت بعض النقاد يقولون إن معظم أعماله فيها شيء منه، وإنه دوماً يودع تكوينه النفسي، وبعض صفاته، وجزءاً من شخصيته، في إحدى شخصيات كل شريط يخرجه، حول هذا الموضوع تقول الكاتبة سعاد شوقي: «لعلنا نلاحظ أن يوسف شاهين من السينمائيين العرب القلائل جداً الذين استطاعوا الحديث عن أنفسهم وهمومهم وهواجسهم الذاتية من دون الابتعاد عن هموم الوطن والمجتمع، حيث يلتقي عنده الهم الذاتي بالهّم الموضوعي بلا أي افتعال، فيؤلفان نظرة نقدية ثاقبة وحادة للواقع الاجتماعي والسياسي».



سَجِّلْ! أنا عربي

شكّل رحيل الشاعر العربي الكبير محمود درويش، صدمة كبيرة لعشاق الشعر والأدب والحياة في الوطن العربي، وبغيابه اكتشفنا كم كان كبيراً هذا الرجل المناضل الذي أثرى الوجدان العربي بشعره وحضوره ونضاله المستمر خلال ما يزيد عن خمسين عاماً.. مع وفاته، انهالت التعازي إلى وطنه من زعماء عرب وأجانب، ومثقفين وأدباء وسياسيين، أجمعوا على أن رحيل عاشق فلسطين سيخلف خواء، لن تتمكن من سدّه سوى أشعاره ومواقفه التي ستبقى خالدة في مسيرة الشعر والأدب العربي.

محمود درويش عايش الموت قبل سنوات عديدة من رحيله.. كتب «جداريته» بعد أزمة قلبية رهيبة.. بعدها دخل في حضرة الغياب، وصادق أسراره، وبواطنه، وكلماته، فرأى الموت من الداخل، وعاشه، وتعايش معه، بل تقمّصه، ثم خرج من حضرة الغياب إلى حضرة الشعر، كان يولد ثانية وثالثة ورابعة، ويحيا ثانية وثالثة ورابعة، ويواصل العيش، قريباً من الموت، هاجساً به، لكن منتصراً عليه.. إلا أن الموت هذه المرّة كان هو الموت الحقيقي، الموت الخائن، الذي أدخل الشاعر الكبير في متاهته، من غير رجوع.. لقد ترك فلسطين الحبيبة وحيدة، لكنه أوصاها أن تحتفظ بشعره في ذاكرتها، وهو الذي حفظ ذكرياتها في شعره وفي قلبه المتعب منذ سنوات طويلة.. لقد أصبحت فلسطين في مسيرته مجازاً عاماً لفقد عدن، وللولادة والعبث

لكرب الانخلاع والمنفى والوجود.. لقد كان شاعرها القومي، وأفضل شعراء العربية مبيعاً وحضوراً. فقد ترجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة، وكان الغرب يراه شاعراً بقامة عالمية..

كانت أمه «حورية» لا تحسن القراءة والكتابة، غير أن جدّه علّمه القراءة، وعلمه الحلم والأمل وكيف يكون شاعراً، وحين بلغ السابعة من عمره، كان درويش يكتب الشعر، الذي منحه لقب «شاعر المقاومة» من خلال «أوراق الزيتون» و«عاشق من فلسطين»، وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره، أصبحت قصيدته «بطاقة هوية» التي خاطب بها شرطياً إسرائيلياً «سجّلْ أنا عربي، ورقم بطاقتي خمسون ألف» صرخة تحد جماعية، أدت إلى اعتقاله في مكان إقامته سنة ١٩٦٧، وأصبحت أغنية احتجاج، وهكذا فعلت قصيدة «أمي» التي تتحدث عن حنين ابن سجين، إلى خبز أمه، وقهوة أمه..



يقول الأديب الكبير «إدوارد سعيد» في دراسة له عن محمود درويش: «عرّفت قصائد درويش الكفاحية المبكرة بالوجود الفلسطيني، معيدة التأكيد على الهوية بعد شتات ١٩٤٨، وكان الأول في موجة من الشعراء الذين كتبوا من داخل إسرائيل، عندما كانت (غولدا مائير) تصر قائلة: «لايوجد فلسطينيون» وتزامن ظهور شعر درويش الغنائي مع ولادة الحركة الفلسطينية بعد الهزيمة العربية في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧م.

ويقول درويش عن تجربته هذه: «في الخمسينيات من القرن العشرين، آمنا نحن العرب بإمكانية أن يكون الشعر سلاحاً، وأن على القصيدة أن تكون واضحة مباشرة.. على الشعر الاهتمام بالاجتماعي، ولكن عليه الاعتناء بنفسه أيضاً،

بالجماليات آمنت أن أفضل شيء في الحياة أن أكون شاعراً.. في كل مرة أنهي فيها ديواناً، أشعر أنه الأول والأخير».

كانت فلسطين بالنسبة إليه ليست جغرافيا فحسب، بقدر ما هي أيضاً تراجيديا وبطولة، ولاهي فلسطينية فقط، بقدر ما هي إخصاب لفكرة العربي عن نفسه، ومعنى إضافي لمعنى وجوده، في صراعه مع خارجه ومع داخله، ليكون جزءاً من تاريخه الخاص، ومن تاريخه العام..

يقول الصديق الشاعر إلياس خوري: الشعر ماء اللغة، به تغتسل من ذاكرتها، وتصنع ذاكرتها في آن معاً.. كأن الكلمات التي يكتبها الشعراء تأتي من مكان سري في أعماقنا، من تجربة تبحث عن لغتها، ومن كلمات تتجدد من ماء الشعر.. تجربة محمود درويش هي ابنة هذا الماء، به غسلت لغتها وجددتها، أقامت من المأساة الفلسطينية جدارية شعرية كبرى تختزن في أعماقها هذا الغوص في ماء الشعر وماء الحياة.. نستطيع أن نقرأ التجربة الدرويشية في مستويات متعددة ننسبها إلى أرضها، ونكتشف ملحمة مقاومة الشعب الفلسطيني للاندثار والموت فتصبح القصائد شكلاً لتاريخ المأساة»..

محمود درويش، كان في كل ما كتب يلتزم الغنائية في شعره، وهروبه منها أحياناً، أو وقوفه بين الإيقاع والنثر ليس وقوف المحايد، فهو لا يخرج من الإيقاع، ولا يدخل في النثر، وإنما يقف في المنطقة التي تؤهله لاستخراج كل ما فيهما من مثيرات تغري الشعر بالمغامرة وبالبحث الدائم عن الجديد.

على مدى رحلته الشعرية، كان درويش يوظف كل طاقاته في بناء النص الجديد، ثم يوظف كل الطاقات بعد إنجازه لهدمه وتجاوزه، وبناء النص الذي يليه بأدوات مختلفة، فهو يدخل إلى الشعر من بوابات مختلفة، ولايعيد طرق الباب مرتين، حول ذلك يقول في حوار معه: «لقد دخلت إلى ديوان «لماذا تركت الحصان وحيداً» من

بوابة السيرة الذاتية للمكان والذات، وذهبت إلى «سرير الغريبة» من بوابة الحب، لأستقر في «الجدارية» في ظلال الإحساس بتجربة الموت».



محمود درويش هو المؤرخ الغريب الذي أرهقته الأوجاع العربية، لذلك فهو يكتب التاريخ بلغة لا يتداولها المؤرخون، وفي مهنته الغريبة- كما يقول الناقد فيصل دراج: «يكون الشاعر مقيداً وطليقاً في آن، مقيداً وهو مشدود إلى صرخته الفلسطينية، وطليقاً وهو يشتق الحزن الفلسطيني من تاريخ الشعر كله، ولعلَّ المرض، الذي أبعد الصخرة قليلاً، هو الذي أتاح لمحمود أن يلتقي بالشعر الخالص، وهو يتأمل قوة الحياة وهشاشتها في آن.. بدا الشعر في «الجدارية» تتويجاً لمسارٍ توزع على الاجتهاد والإبداع، ومرآة تكشف عن معرفة رفيعة وثقافة شعرية واسعة، احتضنت الشعر العربي القديم والحديث، وموروثاً شعرياً كونياً متعدد الألوان»..

في جوابه عن سؤال الحلم وسؤال الشعر، يقول درويش:

«الحلم لا ينتهي، ولكن هناك حالات نمرّ بها، يكون فيها الشعر مهدداً، إذاً كيف نحتفظ بقدرتنا على الحلم، صحيح أن الشعر حلم، وأنا يعجبني تعبير لأحد الشعراء الإيطاليين يقول فيه: (الشعر حلم يحلم في حضور العقل) فالشعر ملازم طبعاً للهمّ الإنساني، ومدى قياس حرّية الشخص يرتبط بمدى قدرته على أن يحلم دون أن يكون هو نفسه رقيباً على أحلامه، نحن نعيش في مناطق متوترة ومتأزمة، أصبحنا فيها رقباء على أنفسنا، فكثرة التعامل مع الرقابة، والإدمان عليها قد تحوّل الشخص إلى رقيب على نفسه، لكن في الشعر يبدو أن الإحساس بوجود الرقيب قد يطور جماليات الشعر».

حلم درويش في الشعر، جعله يدغدغ النفوس اليائسة المحرومة ويغدق عليها

كثيراً من الآمال.. لقد رجّع في صدره كل الآهات، وغنّى على أوتاره كلّ الأصوات، جامعاً أحاديث القرية إلى أحاديث المدينة، وهمسات الشجر إلى أغاني العصافير، إلى نداءات الأبطال في القيود والسلاسل..

كثيراً ما يمزج درويش في حبّه بين المرأة والوطن، فتخرج صور الأرض والنخيل والبيارات وحقول السنابل.. رموزاً أو انعكاسا لوجه الحبيبة الهاجعة في باله ومخيلته، فتأتي الصور في هذا الصدد منقطعة كما لو قطرات ندى سارحة في أضواء الفجر، فالوطن هنا لا يأخذ هوية جامدة كما يقول الناقد ياسين الأيوبي، بل يسمو مع الشاعر إلى إغفاءة في مطاوي الأغصان، وإشراقة الشمس على حقول السنابل، وإلى أغنيات الأطفال في رسومهم المتحركة على الرمال، وفوق أديم الماء..

وما أكثر ما تغنّى محمود بالطفولة، فهي عنده حجر انطلاق ومحطة انتهاء، لا يرتاح إلا عندها، كأنها الحضن الأكبر الذي يدغدغ رأس الإنسان كبيراً كان أم صغيراً.



لقد أحبت الجماهير العربية، من المحيط إلى الخليج..شعر محمود درويش، ورفعت الكثير من مقاطعه كشعارات ورايات، وحسبه أنه كان شاعر قضية قبل أي شيء آخر. ودرويش كان يعي هذه القضية بكل آفاقها وأبعادها، وكان دائم الاندماج بحركة الجماهير في كل المراحل التي مرّت بها القضية الفلسطينية والأمة العربية، وكان يرى أن الشعر يؤدي دوره الثوري داخل الجماهير لا خارجها..

الوطن هو الشيء الأساسي، في شعر محمود ونثره وحياته يقول: «نحن لم نبحث عنه.. عن هذا الوطن، في حلم أسطوري، وخيال بعيد، ولا في صفحة جميلة من كتاب قديم، نحن لم نصنع هذا الوطن كما تصنع المؤسسات والمنشآت، هو الذي صنعنا،

هو أبونا وأمنا، ونحن لم نقف أمام الاختيار، لم نشتر هذا الوطن من حانوت أو وكالة، فنحن لا نتبنّاه، ولم يقنعنا أحد بحبه، لقد وجدنا أنفسنا نبضاً في دمه ولحمه، ونخاعاً في عظمه، وهو لهذا، لنا، ونحن له».

كان محمود درويش، صرخة شعب يدافع عن حقّه في الوجود، ويكافح لانتزاع هذا الحق من الغاصبين- لقد وضع نفسه أمام التحدي والبقاء، والكفاح والصمود في وجه الغاصب، رافعاً باستمرار راية فلسطين واسمها، بالعمل والدم والشعر والكلام الذي صار رصاصاً وقنبلة..

لأنه عاش في الأرض المحتلة ظل درويش يحس أنه مصلوب هو وشعبه، مثل جميع القيم التي يمثلها السيد المسيح (ع) وغيره من الأنبياء والثوار والمصلحين، ولكن الأمل لا يفارق الشاعر في النصر وفي الخلاص من هذا الصليب، يقول:

«من غابة الزيتون جاء الصدى

وكنت مصلوباً على النار

أقول للغربان! لاتنهشي

فربما تشتي السما.. ربما

أنزل يوماً عن صليبي.. ترى

كيف أعود حافياً عاري»..

وكانت نظرته في مجمل شعره ونثره، نظرة إنسانية، نبيلة، شاملة.. نظرة تدعو إلى العدل، ولا تدعو إلى الانتقام والثأر والحقد على العدو الإسرائيلي.. نظرة تدعو إلى إعادة الحقوق المسلوبة، دون أن تنزلق إلى مهاوي العنصرية والإرهاب..

محمود درويش، كان شاعر الأرض بامتياز.. لقد تمسّك بها، بأعشابها.. بصخورها وتراثها وترابها إلى أبعد الحدود.. قضية ارتباطه بالأرض قضية مقدسة

لا جدال حولها، فهو يلح دائماً –في شعره ونثره– على التمسك بالأرض والدفاع عنها، ومن هنا استحق بجدارة لقب «شاعر الأرض المحتلة» و«شاعر فلسطين» و«عاشق فلسطين» و«شاعر الحب والحنان» نحو شعبه وأرضه المسلوبة.



في الشام كان محمود درويش يعرف من هو في وسط الزحام، وكان دائم التواصل معها:

«دمشق.. يا دمشق

تدخلين الحرب كما تدخل الفتيات ليالي الزفاف..

وتخرجين من الحرب كما يخرج الأطفال من البحيرات.

وحين تقفين، يا دمشق، تتحول الجداول إلى قامات.

وحين تمشين، يا دمشق، يتجمّد الغروب على حافة الأفق.

وإلى أين يا دمشق؟

كأن الأغاني أصيبت بحنجرة لا تغني،

والشعراء يتعلمون الأبجدية من حجارتك الصغيرة.

كوني أي شيء يا دمشق، فلن تكوني إلا دمشق،

كوني سكيناً وقشرينا، يتدفق منا بردى الذي يبقى كما

كان: مواطناً عادياً يدفع الضرائب ويقصف بالقنابل،

ولا يرحل عن البيت.

كوني أي شيء يا دمشق،

فلن تكوني إلا دمشق التي لا تنزل عن الأشجار،

ولا تنحني.

إلى أين.. إلى أين؟

ليس في المدى مكان، لأن زمانك يرتدي ملابس

الميدان، فيتدلى المدى خيطاً من ثيابك.

دمشق.. يا دمشق!

ساعي البريد ينتظر،

والفراشة تحارب،

ولا تنتهي رسالتي إليك يا دمشق..»



سيمفونية القدر

أعتقد جازماً أن الموسيقار الألماني لودفينغ فان بيتهوفن (١٧٧٠-١٨٢٨م) هو الأكثر شهرة وشعبية وعظمة في العالم، فقد غمر فكر ووجدان البشر أكثر من أي عظيم آخر عاش في أي عصر من العصور.. فهو البطل المأساوي والزعيم الموسيقي والأب والمعلم، وهو الشاعر الفيلسوف المتأمل، والمناضل الذي لم يستسلم وهو العاشق المتعبّد، وهو الفنان المبدع الذي أعطى البشرية خلاصة فكره وحسّه ونضاله ومأساته، وكانت أعماله تراثاً إنسانياً رائداً لكل اتجاهات التطور الموسيقي من بعده.. لقد صارع القدر وأبدع أعظم نتاجاته، وكان كلما اشتد عليه الصمم، زاد إمكانية على سماع الأصوات الإلهية التي دوّنها في موسيقاه، ولذلك عندما وصل صممه إلى منتهاه، أبدع أعظم أعمال البشرية على الإطلاق.. إن صراعه مع القدر هذا مرّ بمراحل متعددة، حتى وصل إلى مرحلة السكينة والهدوء.. لا إذعاناً واستسلاماً، ولكن انتصاراً على قوى الضعف البشري والمرض والمهانة.. لقد وصل في انتصاره على القدر إلى حدّ كتابة نشيد السلام، الذي دعا فيه إلى قمة الوحدة والحب والإخاء بين البشر..

كانت الموسيقا بالنسبة إلى بيتهوفن تشكّل رابطة جدلية وثقى بين الدراما والصفاء، ووسيلة تعبيرية مثلى، بسيطة ومعقدّة عن طموحات الإنسان وآماله.. هذه هي عقيدته منذ شبابه، وإن تغيرّت فالتغيّر لم يشمل المضمون، إذ إن كل شيء

أساسي في فنه موجود منذ أعماله الأولى، والمتغيّر الوحيد هو الإطار القالب الذي تحطّم شيئاً فشيئاً على دفعات متعاقبة، أما الصوت الموسيقي فقد أصبح مع الزمن فكراً حقيقياً متزناً، ووصل إلى أعماق لم يصلها غيره من قبل، إلى عالم حسي فريد نادر.. إنه بيتهوفن العظيم الإنسان الشامل الذي طغى اسمه على كل القرن التاسع عشر، وتسنم عرش الموسيقا برضى الجميع، وانعقدت عليه الراية دون جدال، وأطلقوا عليه لقب «جبار الموسيقا» و«الرجل الفائق»..

كثيرون بحثوا عن سر هذا الرجل وسرّ تعلق الناس به، وأعتقد أن سرّه يكمن في جعل إنسانيته القطب الساطع، فعبّر عن مشاعره أمام جدول يترقرق، أو فلاحين يرقصون، أو رياح تعصف، فأخبرنا برأيه في القدر المجيد البطل، وضرّج بالشجو أبسط رسم إيقاعي، وأغنى كلاً من جُمله بعنصر عاطفي وأدخلها في تنازع، وبثّ فيها حرارة باطنة، وهذا ما جعل موسيقاه أليفة قريبة من الفهم..



ديوان أعمال بيتهوفن أقل وفرة من ديوان معظم ملحني زمانه، على أنه يحوي تسع سيمفونيات، وخمس «كونشرتوهات» و«كونسرتو» واحداً للكمان و«أوبرا فيديلو» وموسيقا مسرح «إيغمونت» و«بروميتيه» والملك «إيتان» و«خرائب أثينا» وافتتاحيات «ليونور» الثلاث، وافتتاحيتي «كوريو لان» وقداسين منهما القداس الكبير الشهير بـ«القداس الاحتفالي» وتوشيحاً واحداً هو «المسيح في جبل الزيتون» وأعمالاً كثيرة من موسيقا الحجرة..

تحتل سيمفونيات بيتهوفن التسع المرتبة الأولى من حيث الشهرة والانتشار، مقارنة بمؤلفاته الأخرى، ويعود السبب إلى أن هذه السيمفونيات هي الأعمال الأكثر تسجيلاً في تاريخ الموسيقا الكلاسيكية حتى اليوم، إذ قلّما نجد قائد أوركسترا لم يسجلها كاملة، وأحياناً أكثر من مرة، أو بشكل جزئي، ومن لم يسجلها، فهو بالتأكيد

قاد إحداها، أو أكثر في حفلة حيّة، أما فيما يخص السيمفونيات نفسها، فيمكن القول إن السيمفونية الخامسة تتقاسم المرتبة الأولى مع التاسعة من حيث الأهمية العالمية، قد يفضّل أحدنا السابعة أو الثالثة أو السادسة، لكن ما هو مؤكد أنه من المستحيل ألا نجد من لا يستطيع التعرف إلى السيمفونية الخامسة.. التي مازالت بخير وتحتل المرتبة الأولى من حيث الأهمية العالمية بعد مئتي عام من تأليفها (١٨٠٨-٢٠٠٩). والتي يحتفل بها العالم بهذه المناسبة..

يقول أنطون شيندلر (صديق بيتهوفن) عن هذه السيمفونية: «لقد أراد منها المؤلف الصورة التالية:

- القدر يقرع الباب، لذلك عرفت بسمفونية القدر، ولو أنها لم تحمل رسمياً هذا الاسم».

وقد أنهى بيتهوفن كتابتها في عام ١٨٠٨م وكان قد بدأ العمل على تأليفها قبل أربع سنوات، أي مباشرة بعد السيمفونية الثالثة، وبها طوّر مدرسته المستقلة التي اعتمد فيها نظام (أربع حركات) وقدّم فيها جديداً من ناحية الإيقاع والنسيج الأوركسترالي والنفس المتحرر من قيود القواعد التي نتجت من مراعاة مزاج الملوك والأباطرة الذين كان يحتقرهم علناً..

يقول المايسترو يوسف السيسي عن السيمفونية الخامسة: «هي أول إفصاح عن عبقرية بيتهوفن الناضجة.. إنها الرجل الجديد أمام قدره منتصراً بقوة الخير وقوة الإله.. إنها ملحمة تصور رحلة الإنسان من العذاب والمعاناة إلى الحكمة والمعرفة، ومن الحكمة إلى الشجاعة والأمل.. ثم إلى الحياة الأبدية الخالدة». وكانت هذه السيمفونية في حركتها الأخيرة، حيث المارش العظيم، هي أول عمل سيمفوني في تاريخ الموسيقا تستعمل فيه آلات «الترومبون» وبالتالي تزيد فيه بالضرورة آلات الأوركسترا عدداً لتتوازن أصواتها مع الآلات النحاسية..



لقد بنى بيتهوفن أعماله الموسيقية على الأوركسترا الكلاسيكية المتقدمة المتكاملة عدداً وفناً.. اتقاناً وإبداعاً في العزف الآلي على أساس مادة النغم.. رائداً من روّاد مدرسة فينا الكلاسيكية، لقد ازدهر فن السيمفونية في عهده، وانتعش «الكونشرتو» في زمانه بفضل التقنية والاختيار الجيد لتلك الألحان التي أبدعها بيتهوفن، الذي ركز في سيمفونياته الأخيرة على ضبط الإيقاع بمختلف أصنافه وأشكاله، بإضافة إيقاعات موسيقية عديدة تتصف بالنشاط والسرور الطافح بالإشراق الغني.. وإن هذا اللون لم يكن موجوداً في العصر الموسيقي الباروكي..

قدرة بيتهوفن وإبداعه المتطور دفعاه إلى توظيب وتنظيم أصناف الآلات الموسيقية، مما جعل زيادة نسبة مجاميع الوتريات كالآتي: «الكمان الأول٤، الكمان الثاني٢، وضاعف قسم الهوائيات بهدف إعطائها جودة النغم المفعم بالقوة والتعبير، وهذا ما جعل موسيقاه في تطور واضح من عمل إلى عمل وخاصة في السيمفونية الخامسة التي فتحت أمامة الآفاق واسعة للخروج من الشكل الكلاسيكي والتحرر من القيود التي كانت مفروضة قبله، لقد انطلق كفنان ناضج حلّق في سماء الخيال، مسترسلاً في أعماق الفكر، مطلقاً لنفسه عنان الخلق والإبداع، وبصورة إجمالية تتمثل سيمفونياته التسع بالالتزام التام بالناس (سياسياً واجتماعياً) وشكلاً ومضموناً، وخير مثال على ذلك نجده في السيمفونية الخامسة التي جاءت بعد جهود متواصلة، وتجارب عديدة، مما جعلها نموذجاً لارتباط الشكل أو الصيغة بالمادة والبناء الرصين والمنطق السليم في تسلسل حوادثها، وقد قال عنها الفيلسوف الألماني الكبير نيتشه: «إنها السيمفونية الوحيدة المعبّرة عن المشاعر الإنسانية الكاملة»، وقد تركت هذه السيمفونية آثارها الواضحة في أعماله اللاحقة واعتبرها بمثابة القدر حيث قال: «هكذا يطرق القدر بابي» وكتب مرة إلى صديق يقول: «صديقك بيتهوفن يقود الآن حياة تعسة، كلها صراع ضد الطبيعة، وضد ذلك القدر، الذي كثيراً ما تعرّض لعناني، لما ينزل بالمخلوقات من نكبات تأتي على أجمل زهرة فتودي بجمالها».

هذه الحال التي مرّ بها بيتهوفن، وعنفوان التحدي لقدر فقدان السمع، جعلته فنّاناً متمكناً من رسم الخواطر الشخصية المؤثرة بما حدث في نفسه من انعكاس الأحزان والآلام النفسية التي خاضها بنفسه، فهو فنان عظيم ذو قدرة فائقة، ومرهف الحس يشعر بهذه الأحاسيس والعواطف، ويلمس تياراً جديداً جرف الحياة في ذلك العصر الرومانسي.

لقد كانت ألحان بيتهوفن شديدة التركيز، مشحونة بطاقة كبيرة تتضمن كل ما ينبثق عنها، ولا تنكشف إلا عند تفاعل اللحن، فقد لخّص مطلع السيمفونية الخامسة بجملة موسيقية قصيرة جدّاً، مؤلفة من ثلاث علامات سريعة، تليها علامة طويلة (القدر يقرع الباب) ومن هذه العلامات (النقرات) الأربع المتتالية، بنى بيتهوفن الحركة الأولى من السيمفونية، ولخّص بها صراعه مع القدر، وقدّم للعالم سيمفونية من أشد الألحان تركيزاً وإعجازاً في التصميمات السيمفونية.

النجاح العظيم الذي حصدته السيمفونية الخامسة، دفع بيتهوفن إلى تأليف السيمفونية السادسة التي نلاحظ فيها وصفاً دقيقاً للحياة النمساوية- الريفية المطبوعة بطابع «الكونسرت» ثم تبعها بالسيمفونية السابعة التي تحمل الكثير من الأفكار الفلسفية ومنها جاء وصفه لنفسه: «أنا باخوس أعصر الكرمة لأقدم لبني الإنسان من رحقيها سلسبيلاً عذباً، ليبعث النشوة والطرب في النفوس.. أنا من يعلم الناس، كيف يكون الجنون الدائم للعقل» ومثل غيرها، كسبت هذه السيمفونية شهرة عالمية فريدة، وكان فحواها مقدمة فرح بلا نهاية في أربع حركات موسيقية..

لقد وجدت السيمفونية في بيتهوفن بطلها الحقيقي، الذي رفعها إلى ذروة لم يعد من الممكن تجاوزها، وبلغ بها حّداً من الكمال لا يمكن تجاوزه، وكان قمة التتويج في السيمفونية التاسعة «الكورالية»، التي قال عنها فاغنر: «إننا ننظر إلى هذا العمل كعلامة تاريخية تحدد عهداً جديداً في هذا الفن العالمي، فمن خلاله عاش العالم

ظاهرة نادرة قلّما يجود التاريخ بمثلها، في أي زمان أو مكان»، وكانت بمثابة الحب والسلام المؤطرة بوشائج التعبير والسرور البشري، المبنية على الشموخ المتماسك بإعادات متتابعة جميلة بالتلوين الفني والإبداع المنسّق في العزف والتلحين، وبمضمون إنساني خالد، وبأحاسيس فياضة متدفقة إلى الثورة والسلام وخاصة في المقطع الأخير من الحركة الرابعة، حيث ينشد «الكورال» نشيد «دعوة إلى الفرح» من قصيدة للشاعر «شيلر».

تعبّر السيمفونية التاسعة عن عاطفة المسّرة، فحركتها الأولى تجسّد الصراع من أجل الفرح، الذي لم يأت بعد، بينما ترسم الحركة الثانية سراب النشوة، أما الحركة الثالثة فإنها ترجّع ذكرى السعادة، التي مضت وانتهت غير مخلّفة وراءها إلا الحسرة، وتصور الحركة الرابعة بلوغ الغبطة الحقيقية، وهذا النصر لا يتم فعلاً إلاّ في الأبدية..

السعادة التي انتظرها بيتهوفن بفارغ الصبر كرجل وكموسيقار طوال حياته، وجدها وعبّر عنها في ختام السيمفونية التاسعة، حيث تتلقى النفس الفرح، الذي هو هدف الحياة الأوحد، إنه نداء إنساني عميق المعنى.. إنه الفرح الأصيل الذي يترعرع في الأبدية وحدها، إذ إن كل ما عداه باطل، وهذا ما عبّر عنه الجزء المغنّى من السيمفونية، الملحنّ على كلمات «شيلر».. حكيم يقف في المحراب، ماداً يديه، مهيباً بصوته الجهير بصفوف البشر المتجمعين خلفه رفوفاً رفوفاً، أن يتخلّوا عن الأغاني القديمة، وأن يرتلوا الأهزوجة الوحيدة الجديرة بأن يترنم بها المرء ألا وهي «نشيد الفرح»، وبعد صيحة «البارتيون» وتجاوب حناجر الجوقة بكاملها معها كالصدى، يكون ذلك بمثابة إعلان عن القبول والتضامن والانطلاق على دروب مشرقة بالأماني نحو السعادة التي تنتظرهم في البعيد، منطلقين بلهفة لتحقيق الوعود البرّاقة التي تلوح في الأفق، يضحكون للدنيا والدنيا تضحك لهم..

القدس، مدينة الزيتون

احتفاء بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩م، تقوم وزارة الثقافة بتنظيم مجموعة من الأنشطة والفعاليات والندوات والمؤتمرات الثقافية والفنية على مدار الربع الأول من هذا العام، احتفاء بهذا الحدث الثقافي الذي سيتم من خلاله استحضار عظمة هذه المدينة، عبر التاريخ، منذ بداية التاريخ الإنساني وحتى يومنا هذا..

لقد حملت القدس منذ الألف الثاني قبل الميلاد، أسماء متعددة تدل على قدمها وعلى مكانتها العظيمة في الحضارات القديمة، فهي «روشاليموم» في الكتابات المصرية التي يعود تاريخها إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، وهي «أورساليم» في مراسلات تل العمارنة المصرية التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهي «أورشاليمو» في كتابات الملك «سنحاريب» الآشوري، في القرن السابع قبل الميلاد، وهي «هيروسوليما» في الكتابات والمصادر اليونانية والرومانية، وهي «بيت المقدس» و«القدس الشريف» و«المدينة المقدسة» في كتابات العهود العربية والإسلامية، ومن أسمائها أيضاً: مدينة الزيتون، ومدينة المسجد الأقصى..

ومعنى «أورساليم» يُعتقد أنه مركب من عنصرين لغويين، أي «مؤسسة الرب ساليم، وساليم في النصوص الأوغاريتية التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، هو أحد الأرباب المعروفة في أساطيرها وهو رب الشفق والفجر، ويميل

بعض العلماء إلى تفسير الاسم بـ«مدينة السلام» و«أرض السلام» وذهب بعضهم إلى إعطاء معنى مجازياً للاسم بمعنى «مدينة الله» و«مدينة العدل» و«مدينة الحق» وغيرها من المعاني..

في الكتاب المهم الذي أصدرته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإسيسكو» عن «القدس الشريف» بقلم الزميل الدكتور شوقي شعث عام ١٩٩٨م، تشير المعلومات الواردة فيه إلى استيطان إنسان ما قبل التاريخ القدس، ويعتقد أن ذلك الاستيطان كان فوق البقعة التي كان يقوم فيها الحي اليوناني في أعلى وادي ريفايم، Rephaim، فقد عثر هناك على عدة لقى أثرية تعود إلى تلك الفترة، إضافة إلى قطع وأدوات صوانية يعود تاريخها إلى العصر الآشولي تحمل صفات مشتركة مع قطع وجدت في كهوف يبرود السورية، وتشير التنقيبات الأثرية إلى وجود مدينة القدس في العصر البرونزي القديم في الألف الثالث قبل الميلاد، وبقايا سور المدينة يعود تاريخها إلى /١٨٠٠/ قبل الميلاد، وخاصة تلك الحجارة الضخمة التي تقع أجزاء منها في السفح الشرقي للهضبة التي بنيت عليها المدينة.

لقد كانت مساحة القدس في عهدها الباكر، تحتل موقعاً تبلغ مساحته نحو /١١/ فداناً، وتحدثنا نتائج التنقيبات الأثرية عن بقايا العصر البرونزي الوسيط الباكر التي لم يبق منها إلا أشياء قليلة، وأن المدينة أصبحت مزدهرة في العهد البرونزي الوسيط والمتأخر أي بين القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، واستمرت بين تطور وازدهار وانحسار وضعف حتى خروج العرب المسلمين من الجزيرة العربية، يحملون عقيدة جديدة فيها خير للناس أجمعين، فاستطاعوا تحرير بلاد الشام كلها، ومن بينها مدينة القدس الشريف، حيث أصبحت منذ فتحها على يد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، مدينة عربية إسلامية، سنة ١٥هـ/٦٣٨م.



لقد كانت حادثة «الإسراء والمعراج» وما ورد فيها من آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، واتخاذ القدس أولى القبلتين، بداية اهتمام العرب المسلمين بهذه البقعة التاريخية من فلسطين والوطن العربي.. ثم كانت الخطوة الثانية حين حرر العرب المسلمون القدس الشريف من أيدي الروم البيزنطيين، وحضر الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب بنفسه ليشهد الفتح، ويزور الصخرة الشريفة، -صخرة المعراج- ويُعنى بها، ويقيم مسجداً إلى جوارها لا تزال آثاره ومعالمه باقية.. ثم جاءت الخطوة الثالثة التي عزّزت إلى الأبد مكانة بيت المقدس وحرمه الشريف في أنظار العالم الإسلامي، حين شيّد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان صرح المسجدين العظيمين، الأقصى وقبة الصخرة، وكان هذا العمل من الناحيتين العمرانية والمعمارية، وفق دراسة الزميل الدكتور عبد القادر ريحاوي، انطلاقة مبكرة، لم يعرفها تاريخ الحضارات من قبل، وسجّل تاريخ الفن والعمارة، بكل تقدير وإعجاب هذا الإنجاز العظيم لحضارة العرب والمسلمين.

لقد أولى خلفاء بني أمية القدس الشريف اهتماماً كبيراً، فقد أحبوا فلسطين والقدس لدرجة أن عبد الملك شغف بالإقامة في بيت المقدس، ودلّت نتائج التنقيبات الأثرية على بقايا القصور التي أقيمت في زمن بني أمية حول الحرم.. وتابع العباسيون هذا الاهتمام، حيث زارها الخلفاء، المنصور، والمهدي، والمأمون، وفي زمن العباسيين عاش المسلمون والمسيحيون في القدس في وفاق تام، وعندما ضعفت الدولة العباسية نتيجة النزاع على الخلافة، دخلت القدس وفلسطين في ولاية الطولونيين، وجاء بعدهم الاخشيديون، ثم أصبحت القدس في العهد الفاطمي مزدهرة ومشهورة بخصب تربتها وزيتونها وزيتها ومؤسساتها التعليمية والطبية، يقول عنها المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: مدينة القدس في هذا العهد بنيانها حجر، ولا نرى أحسن منه، ولاأتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها..

لقد جمعت الدنيا والآخرة». كما وصف «ناصر خسرو» المدينة حين زارها عام ١٠٤٧م بقوله: «يحيط بالمدينة سور منيع، مبني بالحجارة، وللسور أبواب من حديد، يقطن فيها عشرون ألفاً من السكان، بينهم صناع كثيرون، ولكل صنعة سوق خاص بها».

لقد انتهز الإفرنج الخلافات والصراعات التي كانت قائمة بين الدولة الفاطمية والسلاجقة، فاغتصبوا مدينة القدس الشريف التي طالما سعوا إليها رغبة في تأمين طريق الحج المسيحي إلى الديار المقدسة –على حد زعمهم– وقد حاول الإفرنج أثناء حكمهم للمدينة تغيير معالمها، فوضعوا على الصخرة صليباً، وحوّلوا المسجد الأقصى إلى مقر لفرسان الداوية والاستبارية، وأقاموا عدداً من المباني الدينية، وعندما استردها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين شهدت المدينة رخاء وتطوراً كبيراً فأقيمت فيها المدارس والمعاهد والأربطة والمستشفيات، وانتعشت الحركة التجارية، كما حظيت باهتمام السلاطين في العهد المملوكي، وكان الظاهر بيبرس في طليعة السلاطين الذين اهتموا بالمدينة، فقد زارها مرتين، كما زارها السلطان قلاوون والناصر محمد والأشرف قايتباي، وأقاموا فيها منشآت علمية كثيرة نجد بعضها لا يزال قائماً يدل على أنها كانت آية في الفن والعمارة..

وفي العهد العثماني رممت القلعة وبنيت منشآت معمارية كثيرة مثل: المساجد والتكايا والمدارس والسبل، بالإضافة إلى إعادة بناء قبة الصخرة وقيام العديد من الأبنية العامة، وجعلت القدس متصرفية مستقلة عام ١٨٧١م.



أهمية القدس التاريخية والدينية والعمرانية والمعمارية، دفعت المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» إلى تسجيلها في عداد الممتلكات الثقافية العالمية التي يجب الحفاظ عليها وصيانتها وترميمها، وقد درست هذه المعالم من قبل علماء ومؤسسات علمية عالمية منذ وقت مبكر في منتصف القرن التاسع عشر، حيث تمكنت

البعثات من التعرّف عل سوار مدينة القدس القديمة والأنفاق والقنوات في وادي قدرون وقلعة القدس وغيرها..

لقد حظيت القدس بالاهتمام الكبير في جميع أنحاء العالم، ولم يكن هذا الاهتمام دينياً فقط، ولكنه اتسع ليشمل اهتمامات أخرى، حضارية وحضرية وثقافية واجتماعية وسياسية وغيرها، ورغم اختلاف الدوافع من زمن إلى آخر، إلا أن المدينة بقيت مسرحاً لأحداث عظيمة ما زالت موضع بحث وتقويم حتى اليوم، ومازالت مدينة تنبض بالحياة، لم ينقطع ماضيها عن حاضرها، ولا يتوقع لمستقبلها أن يفعل ذلك..

في دراسته عن «الثقافة العربية وعروبة القدس» يقول الباحث الفلسطيني الدكتور إبراهيم الدقاق: «تواجه القدس اليوم مشكلات متعددة، يأتي في مقدمتها إعادة هيكلة المدينة، وهويتها على يد إسرائيل التي تسعى إلى إعطائها طابعاً هجيناً يجمع أسطرة الماضي اليهودي، بالقيم الغربية، وتشمل أيضاً تهديد هوية الفلسطينيين السياسية والثقافة واستمرارهم في الوجود في المدينة تحت الظروف القائمة الآن.. التي تخضع القدس لعملية تغريب واستلاب، وتخضع الهوية والثقافة الفلسطينية إلى عملية تفتيت مبرمج، ويتم ذلك من خلال إحداث طلاق كامل بين القدس كمدينة، وبين إنسانها الفلسطيني، وطلاق بين المدينة وتراثها وحضارتها، أي طلاق بين الجغرافية (السياسة المقدسية) التي استقرت عبر قرون طويلة، وبين هويتها وثقافتها التي أنتجتها».

تقوم إسرائيل منذ سنوات عديدة بتفريغ القدس من سكان العرب، وتقوم بعزل المدينة عن محيطها، وتحدث تشويهاً في تخطيطها الحضري، وتسعى مجموعات يهودية متعددة لهدم المسجد الأقصى والصخرة المشرّفة، وبناء هيكل يهودي مكانهما (الهيكل الثالث).. لذلك سكن الوجدان الفلسطيني منذ بدايات القرن

الماضي هاجس الخوف على المدينة من الضياع بإيقاعه الرتيب المستنفر لأحاسيس التطيّر والقلق، وقد تعمّق هذا الشعور في عام ١٩٤٨ وبعد ذلك في عام ١٩٦٧، وهذا ما يفسّر جوهر الاهتمام الفلسطيني والعربي والإسلامي بالقدس، وهذه المشاعر تزداد تألقاً ووهجاً في كل لحظة يستشعر العرب والمسلمون خطراً أو تهديداً يحدق بالمدينة، ويعرّض كيانها ووجودها للضياع والاستلاب.

لقد تعرضت القدس العربية منذ احتلالها في عام ١٩٦٧ وحتى اليوم إلى سلسلة من الإجراءات التعسفية والأخطار المحدقة التي تهدف إلى إحلال تراث إسرائيلي هجين في المدينة بعيداً عن تاريخ وتراث وحضارة وفنون قديمة شهدتها منذ آلاف السنين..



منذ اللحظات الأولى للاحتلال الإسرائيلي للقدس الشريف، قامت إسرائيل بتدمير واجتثاث حارة المغاربة، بما فيها من نسيج معماري وحضاري وإنساني دون رحمة أو شفقة، وقامت بعزل المدينة العربية عن محيطها، وبنت داخل المدينة المسّورة ما يسمى بـ«الحي اليهودي» أو «حارة اليهود» على حساب حارة الشرف العربية التي لم تكن تتجاوز عقارات اليهود فيها بضعة دور، وتم الاستيلاء على مجموعة كبيرة من البيوت العربية في قلب المدينة بعدة طرق وأساليب ملتوية، تحولت إلى سكن لمجموعات دينية متطرفة، وتوّجت هذه الإجراءات التعسفية القهرية بإنشاء مجموعة من المستوطنات التي شكلت حزاماً عازلاً للقدس عن محيطها العربي في بقية أجزاء فلسطين، وبجدار فصل عنصري أشبه ما يكون بقفص..

يقول المهندس يوسف سعيد النتشه، المختص بالآثار الفلسطينية: «لقد بالغت

إسرائيل باستخدام جميع الوسائل والطرق الثقافية من أجل تفريغ المدينة من تاريخها وتراثها، ومن أولى الوسائل التي استخدمت، كانت محاولة تسويق شرعية الاحتلال الإسرائيلي عبر سلسلة من الحفريات الأثرية.. وشملت مواقع عديدة في أنحاء المدينة كافة، وخاصة حول المسجد الأقصى المبارك، على امتداد الجدار الجنوبي، وتم الكشف في هذه المنطقة عن مجموعة من القصور الأموية، وكان أخطر هذه الحفريات ماعرف مجازاً بحفريات النفق والتي جرت أسفل الجدار الغربي للمسجد الأقصى وموازاته، وقد تضررت المباني العربية الإسلامية الواقعة بمحاذاة الجدار الغربي من جراء هذه الحفريات»..

عمليات التهويد للقدس الشريف، دفعت منظمة اليونسكو ولجنة التراث العالمي إلى اتخاذ قرارات عديدة وإرسال بعثات دولية لدراسة أوضاع المدينة، ومنع التعديات على الآثار والأوابد الدينية المقدسة، والتراث الثقافي للبلدة، ولكن إسرائيل – كعادتها- ضربت عرض الحائط بكل المواثيق والقرارات، واستمرت بعمليات التهويد والتخريب للآثار العربية الإسلامية التي تحفل بها مدينة القدس..

في ظل هذه الأوضاع الحزينة والمؤلمة لمدينة الزيتون التي نحتفل بها عاصمة للثقافة العربية، ماذا يمكن عمله للمساعدة في النهوض الثقافي فيها؟!

إن ضخامة التحدي والجهود الكبيرة التي تقوم بها إسرائيل، لطمس معالم المدينة، يستدعي من الجهات العربية والإسلامية وضع خطة بعيدة المدى، للنهوض الثقافي بالمدينة، وحماية تراثها العربي والإسلامي مثل: إقامة المكتبات ودعم المتاحف والقيام بالتنقيب الأثري في المواقع المحيطة بالقدس، وترميم الأوابد والمباني التاريخية والدينية والمدنية التي يعود تاريخها إلى عهود تمتد منذ بدايات

الإسلام وحتى العهود المتأخرة، والقيام بتوثيق معالم المدينة عن طريق إنتاج الأفلام الوثائقية عنها، وإعداد النشرات العلمية، والكتب والدراسات عنها ونشرها عالمياً بلغات متعددة، وتشجيع الصناعات التقليدية والحرف التي كانت تشتهر بها مدينة القدس منذ زمن طويل مثل: صناعة التطريز والحفر على خشب الزيتون، وصناعة الخزف والنقش على الصدف وغيرها..

القدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩، كانت فرصة جيدة للثقافة علّها تعيد تجديد نفسها، عبر استعادة التراث الثقافي والحضاري لهذه المدينة المقدسة، لتصبح جزءاً من المعرفة، انطلاقاً من أن المعرفة هي قدرة إنسانية، تتصل بالنمو والعدالة، وتنتشر في جميع جوانب النشاط الإنساني.



من أجل ثقافة عربية شاملة

برعاية كريمة من السيد الرئيس بشار الأسد، عقدت في دمشق بين (١٦ و١٧ تشرين الثاني ٢٠٠٨م) اجتماعات الدورة السادسة عشرة لمؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، وقد نابت عن السيد الرئيس في الرعاية والافتتاح السيدة الدكتورة نجاح العطار، نائب رئيس الجمهورية، التي ألقت كلمة معبّرة، فيها الكثير من الاعتزاز بدور السيد الرئيس الذي يحمل مشعل الثقافة العربية فكراً وتنويراً وإبداعاً وإيماناً بمعطيات التاريخ والحضارة، وبالأمة العربية من المحيط إلى الخليج، وبالمستقبل المنوّر بالمعرفة، وبالراهن تطلعاً واعياً إلى إشراقة فجر جديد، واستعادة مجد الأيام التي تسنمنا فيها ذروة التاريخ..

لقد دعت الدكتورة العطار زملاء درب الثقافة في الوطن العربي، إلى متابعة الدرب الذي قطعناه معاً، كتفاً بكتف، في عمل مشترك، نتلاقى على أهدافه، ونرسم معالمه، ليكون السبيل إلى تحقيق تقدم يضع أجيالنا في قلب العصر، ويمدّها بالنسغ المحيي دون أن نضيّع الهوية الجامعة، واللغة الموحدة، والثقافة المتجذرة، والثوابت المرتكزة على وعي لحقائق الوجود والإيمان بطاقات الأمة العربية وإمكاناتها..

وأعادت الدكتورة العطار إلى الذاكرة لمحات مما كان في شأن الخطة الشاملة للثقافة العربية منذ المؤتمر الثقافي العربي الأول الذي عقد في عمان عام ١٩٧٦، ووضّحت الخطوط الرئيسة الناظمة للثقافة العربية التي يجب أن تتماشى مع أحدث

القواعد العلمية الثقافية من حيث سلامتها وتقدميتها واستلهامها تراثنا الباذخ عراقة، وحداثتنا الصاعدة طموحاً، ورأت الدكتورة العطار أن من حق الأجيال أن تتشكل فكرياً في المناخات العقلية الأشد انفتاحاً على العصر الأكثر تجاوباً مع الأصيل من التراث، وأن تكون في مجرى الحياة الثقافية السليمة التي ترى في الإنسان وتحرره وتقدمه طموحاً مستقبلياً كبيراً، ولفتت إلى أن الدنيا تغيّرت من حولنا، وتزلزلت قواعد ومفاهيم وأسس، ولم يعد الإنسان ملتصقاً بالأرض، بل صار يتحرك في الزمان النجمي، وعلينا جميعاً أن نوسع أفقنا إلى ما بعد نقطة اللانهاية.. صار على الثقافة أن تلعب دورها التغييري الذي لا بد من أن نعيد إليه وهجه وزخمه وأن نعمل على خلق بيئة ثقافية مواتية لهذا التغيير على مهاد من الفكر المتقدم الذي لايتنكر لثوابت الأمة، ولا يخشى في الوقت ذاته من الفناء في الحضارات الأخرى، وهو يمدّ جسور التواصل معها، وأن نحمل مسؤولية الإنماء الثقافي، وأن نشرع الأبواب لفتوحات العلم المذهلة ساعين إلى امتلاك التقنيات التي حققتها الكشوفات العلمية الثورية في كل المجالات من المعلوماتية، إلى الإلكترونيات، إلى اقتصادات المعرفة، إلى الحواسب والشابكات والأقمار الصناعية والمحطات الفضائية والثورات الرقمية، كي نبقى في قلب ثقافة عصرنا نعيه ونتماشى مع ركبه..

بدوره الدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة أكّد في كلمته على أهمية التحام الشمل العربي على أرض دمشق، وقال نحن أمة تنشد السلام، والذين يصنعون المستقبل هم المفكرون والمثقفون والمبدعون، مشيراً إلى فشل محاولات البعض في الغرب لصق الإرهاب بالإسلام، لتصوير الإسلام على أنه عنف وإرهاب. وقال: هناك من يريد أن يقسّمنا إلى شيع وطوائف وإثنيّات وأعراق، بينما نحن أمة واحدة، وعلينا أن ندرك أن الاختلاف هو سنة الحياة، وألاّ نخاف من اختلافنا في الرأي، وأن النهوض باللغة العربية هو العنوان الأهم، وهو أن نبقى عرباً، ولا أمة من دون لغة، وأي أمة تفقد لغتها تفقد حضورها وطريقها..



لقد شملت وثيقة العمل التي قدمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى مؤتمر وزراء الثقافة في الوطن العربي، تقارير ومشروعات ثقافية، تتناول الأوضاع الثقافية في الدول العربية من خلال «الحولية العربية للثقافة ٢٠٠٥-٢٠٠٦» والعقد العربي للتنمية الثقافية «٢٠٠٥-٢٠١٤» ومشروع العواصم الثقافية العربية وخاصة القدس عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٩، ومشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة، وهو المشروع الذي أقرّته القمة العربية في مؤتمرها بدمشق ٢٠٠٨، والاتفاقيات الثقافية، مثل: الاتفاقية الثقافية العربية المشتركة، والاتفاقية العربية لحماية المأثورات الشعبية، والاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف، والاتفاقية العربية لتيسير انتقال الإنتاج الثقافي العربي.. كما عرضت المنظمة موضوع تحديث الخطة الشاملة للثقافة العربية الذي تدعمه وتتبناه حكومة الكويت الشقيقة، وطرح موضوع إحداث الهيئة العربية للمسرح، وإقامة مهرجان ثقافي صيني- عربي، يقام بالتبادل بين مدن عربية وصينية، وقد حظيت هذه المشاريع والاتفاقيات على موافقة المؤتمر وأصبحت موضع التنفيذ..

محطات كثيرة يمكن التوقف عندها في وثيقة العمل التي عرضتها «الاليكسو» على مؤتمر وزراء الثقافة العرب، نخص بالذكر منها:

- دعوة الدول العربية إلى العمل على الإعداد الميداني لمواقع التراث الثقافي والطبيعي ذات القيمة العالمية المتميزة في أراضيها، وتقديم ملفات تسجيلها إلى مراكز التراث العالمي، ودعوتها إلى إعداد قوائمها التمهيدية وتحديثها وتقديمها إلى مركز التراث العالمي في الوقت المحدد، فلم يسجّل عام ٢٠٠٧ سوى موقع عربي واحد هو «مدينة سامراء الأثرية» في العراق، وضعت مباشرة على قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر، وسجل عام ٢٠٠٨ موقعان عربيان، أحدهما ثقافي هو «مدائن صالح» في المملكة العربية السعودية، والثاني طبيعي هو «سقطرى» في اليمن، ومما يؤسف له أن لا يوجد أي موقع عربي مرشح للتسجيل عام ٢٠٠٩؟!

– قرر المؤتمر العمل على تحديث «الخطة الشاملة للثقافة العربية» التي أقرت بتونس عام ١٩٨٥، ويعد هذا الأمر امتداداً لجهد ثقافي عربي، قامت به دولة الكويت الشقيقة، وحاجة بالغة لتعزيز العمل العربي المشترك في مجال التراث الثقافي في داخل الوطن العربي، وإبراز الحضور العربي على الساحة الدولية.

– دعوة الدول العربية إلى تعزيز العمل العربي المشترك في مجال التراث الثقافي والحضاري وحمايته وصيانته، وتبادل الخبرات الفنية، وتشجيع البعثات المشتركة للاستفادة من الخبرات العربية، وتقديم الدعم إلى الهيئات المهنية والاتحادات والجمعيات المعنية بالآثار في الدول العربية، وتفعيل دورها لتحقيق الأهداف التي أنشئت من أجلها.

– التراث الشعبي (المأثورات الشعبية العربية) تراث متنوع في المكان والزمان، في الوقت الذي هو فيه تراث حي متطور يعبّر عن الوجدان القومي، لذلك فهو ليس عاملاً ثقافياً فحسب، وإنما يجب النظر إليه باعتباره عامل وحدة ونوعية في آن واحد، وإلى الفنون الشعبية العربية بجوانبها المادية والروحية على أنها وحدة متماسكة في الأسس العامة التي قامت عليها، وفي الأسلوب الذي تؤدى به، وفي المضمون من حيث معناه وأهدافه، والخطة الشاملة للثقافة العربية، حددت سياسة ثقافية عربية دعت إلى البدء في جمع الفنون الشعبية وتسجيلها وتوثيقها في الوطن العربي كله، كما دعت إلى تكوين فرق عمل من الباحثين للقيام بالتسجيل والتوثيق وإنشاء المتاحف الخاصة بهذه الفنون وفق التقنيات والأساليب الحديثة في الحفظ والعرض، وإصدار القوانين والتشريعات اللازمة لصون هذه الفنون وحمايتها، وإجراء الدراسات العملية حولها، وإصدار مجموعات مصورة عن روائع الفنون الشعبية العربية ونشرها والتعريف بها بمختلف اللغات.

– إيلاء الاهتمام بالمشروع الرقمي للتراث العربي، الذي يتطلع إلى إصدار عدّة

«مخرجات» تؤكد وجود ذاكرة مشتركة للتراث العربي، فالذاكرة التراثية للأمة العربية توحّد الأمة، وتدعم الصلات الأخوية بين أبناء الشعب العربي، وتتمركز هذه الذاكرة في العصور العربية الإسلامية، فيبرز المشروع في «المخرجات» الخطوط الزمنية للعصور العربية الإسلامية مثل: العصر الأموي والعباسي والمملوكي والعثماني، فتظهر النماذج المعمارية والعناصر الزخرفية والأشكال الهندسية صلة الربط بين التراث في البلاد العربية، وتعطي بعداً آخر للتراث والثقافة، وتظهره بمضمون أعمق وأوضح، ويتطلع المشروع إلى إصدار كتيّبات لنماذج من مقتنيات المتاحف وسير العلماء العرب، وأهم المدن العربية والتراث الشعبي والصور الضوئية للربط بين مقتنيات المتاحف والمكتبات العربية، وتعزز أهمية الثقافة والتراث العربي بشتى جوانبه..



في محور دراسة «الأوضاع الثقافية في الدول العربية» طرحت مواضيع مهمة تتعلق بالعقد العربي للتنمية الثقافية (٢٠٠٥-٢٠١٤) ولعلَّ أبرز موضوعات هذا العقد نجاحاً، مشروع العواصم الثقافية العربية الذي بدأ في إطار العقد العالمي للتنمية الثقافية الذي أقرته «اليونسكو»، وتواصل فيما أقره مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، في إطار خطط التنمية الثقافية العربية.. فقد حقق مشروع العواصم الثقافية العربية تقارباً وتعاوناً كبيرين بين المثقفين والمبدعين العرب والجمهور في البلدان التي تحتفي بعواصمها الثقافية، كما حقق التعاون العربي المنشود بين الوزارات المسؤولة عن الثقافة في دول الوطن العربي، وقد استجاب هذا العقد إلى تحقيق الأمور التالية:

- وضع الثقافة في محور عملية التنمية في الوطن العربي.

- تأكيد الهوية الثقافية وتعزيزها والحفاظ عليها.

- تشجيع الإبداع وتعزيز المشاركة في الحياة الثقافية في الوطن العربي، وتأهيل الثقافة العربية لمواجهة المستقبل، ومجابهة تحديات العولمة.

- دعم التفاعل والحوار بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى، وتعزيز السياسات والممارسات الثقافية.

- تعزيز التنوع الثقافي في عصر العولمة.

- دعم الموارد البشرية الكفيلة بتحقيق التنمية الثقافية الشاملة والمستديمة.

- تفعيل دور البحوث والدراسات والمؤسسات في رسم السياسات الثقافية.

- إكساب التعاون العربي الثقافي البيني ومع الخارج مزيداً من النجاعة والفاعلية، والارتقاء به من مستوى التبادل إلى مستوى التنسيق والمعرفة والتكامل.

وسوف يتم الاحتفاء بالمدن العربية التالية وفق الترتيب التالي:

القدس٢٠٠٩- الدوحة ٢٠١٠- طرابلس ٢٠١١- المنامة ٢٠١٢- بغداد ٢٠١٣، وقد وضعت الدول العربية برامج عديدة للاحتفال بالقدس، عاصمة العرب التي بزغ فجر الحضارة على أرضها، واغتنى التاريخ من مهدها، ونام الزمان على كتفها لترتقي مهداً للأنبياء وأرضاً للرسالات السماوية والحضارات القديمة.

وقد وضعت الأهداف الاستراتيجية العامة لاحتفالية القدس التي حددت في:

- إعادة الصدارة لمدينة القدس بقيمتها الثقافية وبعدها الحضاري والتاريخي والديني، وحماية معالمها التاريخية والروحية بما يعزز هويتها الثقافية العربية.

- تفعيل الحراك الثقافي في القدس ومحيطها وكسر العزلة الثقافية التي تعيشها المدينة عن واقعها العربي الطبيعي.

- تأهيل بنى تحتية مناسبة للاحتفاء بالقدس عاصمة للثقافة العربية.

- التنسيق مع الدول العربية لتنفيذ نشاطات وفعاليات ثقافية في عواصمها حول القدس.

- تنفيذ حملة دولية من أجل تعزيز هوية القدس العربية.

وتمَّ إيلاء موضوع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع اللغة العربية، تنفيذاً (لقرار القمة العربية الذي عقد في دمشق- آذار ٢٠٠٨) الاهتمام الكبير لدعم حضورها محلياً وعربياً وعالمياً، لأنها الوجه الأساسي من وجوه الهوية العربية، وضرورة دعم حضورها في الشبكة العالمية للمعلومات، وفي الوسائل السمعية والبصرية، تصدياً لما تتعرض له لغتنا من محاولات تهميش في ظل العولمة الشرسة، وتمَّ التأكيد على مسؤولية الدولة والمجتمع في استخدام اللغة العربية (لغة رسمية) في مختلف الميادين المعرفية والثقافية والحياة العامة والأنشطة الفنية والإعلامية، والاهتمام بالصناعات الثقافية ذات الطابع القومي وإنتاجها باللغة العربية، والالتزام باستخدام اللغة العربية في المحافل الدولية، وتعليم اللغة العربية لأبناء الجاليات العربية في المهجر، والتعريف بثقافتنا العربية عن طريق تحقيق ونشر روائع الأدب والفكر العربيين، وتوفيرها بأسعار زهيدة، ونشر الثقافة العربية عبر وسائل الاتصال والإعلام..



كيمياء الحوار على ضفاف المتوسط

في إطار خطة تنمية الثقافة العربية في المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» عقد بين (٤و٥ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨) في مقر المنظمة، مؤتمر «لقاء الثقافات على ضفاف المتوسط: كيمياء حوار متواصل» وشاركت فيه سورية بصفتها «ضيف خاص» تقديراً لدورها الثقافي والحضاري عبر التاريخ، واحتفاء بدمشق عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٨م، وكان لي شرف تمثيل سورية في هذا المؤتمر المهم، وإلقاء كلمة الختام في حفل الافتتاح في قاعة «اليونسكو الثانية» وضمّت أيضاً كلمات الدكتور عبد العزيز عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإسيسكو»، والدكتور مارسيو باربوسا، مساعد المدير العام لليونسكو، والسفير الدكتور موسى بن جعفر بن حسن، المندوب الدائم لسلطنة عُمان لدى اليونسكو، رئيس اللجنة الاستشارية لخطة تنمية الثقافة العربية.

لقد تضمن المؤتمر أربع جلسات علمية:

- الجلسة الأولى: كان محور أبحاثها ودراستها حول الإطار العام لحوار يستقبل ويحول وينقل إرثاً عمره آلاف السنين، مفرداته الأساسية: أرض الإسلام، أصوات وطرق المعرفة، تنقّل الفكر في العالم المتوسطي، أهم مواقع الحوار وأبرز معالمه، وشارك في أبحاث هذه الجلسة المفتوحة النقاش والحوار علماء من السعودية وجامعة ييل الأمريكية والأردن،والمغرب، وعُمان، وفرنسا.

– الجلسة الثانية: كان محورها حول مواضيع الحوار ذات الأفضلية، فاعلوها وأحكامها، ومفرداتها الأساسية: فلسفة،آداب،معارف مهارات،وجوه بارزة، أهم مواقع المعرفة.. وشارك فيها علماء من ليبيا وتونس وفرنسا وكندا والسعودية والعراق وعُمان.

– الجلسة الثالثة: كانت مواضيعها تتمة لمواضيع الجلسة الثانية، ومفرداتها الأساسية: الطب، الرياضيات، علم الفلك، جغرافيون، رحالة، مترجمون، فن، وجوه بارزة، أهم مواقع المعرفة.. وشارك فيها علماء من: بريطانيا، المغرب، الكويت، السودان، أمريكا، لبنان، إيران، فرنسا.

– الجلسة الرابعة: كانت مائدة مستديرة حول آفاق الحوار في حوض البحر المتوسط، مفرداتها الأساسية، تحديات الحوار في الظرف الراهن، الظروف والبيئة المواتية لازدهاره، وتحديد العقبات التي تعوق تحقيقه في الحاضر والمستقبل، وشارك في هذه الجلسة علماء من جامعة الدول العربية، ومنظمة اليونسكو، والمنظمة العالمية للسياحة، والاتحاد الوطني لمسلمي فرنسا، ومنظمة تحالف الحضارات التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، والمدير التنفيذي لمؤسسة «أناليند» الأوروبية المتوسطية للحوار بين الثقافات.



لقد اجتمع هؤلاء العلماء المشهود لهم بالعلم والثقافة والفكر المنفتح على الآخر، في وقت يتعرض فيه مستقبل البشرية في وقتنا الراهن إلى مخاطر جديدة تهدد التعايش والسلام العالميين، وما الحراك المتزايد، والذي هو إحدى سمات «العولمة» إلا ليشوّش المعالم التي كانت ترتسم حولها الحدود القديمة –الثقافية واللغوية والدينية وغيرها– ويرسم مشهداً غير مألوف تختلط فيه الخطوط وتتضارب الأشكال، وفي الوقت الذي يسمح فيه هذا السياق الجديد الوقوف بشكل أفضل على ثراء التنوع الثقافي، فإنه في الوقت ذاته يزيد من سوء التفاهم والتشنج حيال مسألة الهوية..

هكذا فرضت نظرية «صدام الحضارات» نفسها، ناشرة المفهوم الخاطئ القائل: إن العالم ينقسم إلى حضارات جامدة، يمكن أن تختزل أحياناً إلى جانب واحد من جوانبها، غالباً ما يكون الدين، وما كان هذا العرض المغرض والمتشائم لتاريخ الحضارات، إلا ليعتمد على مسلّمات عقائدية مشكوك أصلاً بصحتها العلمية، ولذلك كانت هناك حاجة قصوى لنبرهن أنه ليس هناك ثقافة مكتفية بذاتها، ولا ثقافة تطوّرت لوحدها، أو على أساس النزاع المستمر مع الغير..

إن الثقافات، على العكس من ذلك، ومنذ الأزمنة السحيقة، تغتني بالتبادل من خلال التواصل الدؤوب، كما أن الأفكار تسافر ويجري تبادلها مع الناس ومنتجاتهم.. إن تطور وسائل الاتصال عبر التاريخ، ثم الاكتشافات الكبرى، وأخيراً «العولمة» بأشكالها الراهنة، ساهمت بقدر كبير في تشكيل حوار الثقافات والحضارات، حتى لو لم تكن هذه الاتصالات سهلة دائمة..

لقد قدَّمت منظمة «اليونسكو» في هذا المؤتمر رؤية مشتركة بين الثقافات في العالم العربي الإسلامي، والعالم الغربي، وأبرزت إسهام المنطقة المتوسطية في الإحياء الفكري الذي استفادت منه أوروبة في مجالات العلم والفلسفة والفن والأدب، وبينت مظاهر التأثير المشتركة، مع التركيز على أبرز معالم هذا الحوار، وأهم مواقعه، وألمع شخصياته، وأكد المؤتمر بشكل خاص على أوجه التفاعل، ومنها على سبيل المثال، استيعاب الحضارة العربية الإسلامية لثقافات الإغريق وفارس والهند، والقيام بنقل هذه المعارف والإضافة إليها، وإعادة تشكيلها، عن طريق إسبانيا وصقلية، إلى أوروبة، ودورها في ظهور عصر النهضة في أوروبة، وبفضل العرب ودورهم الحيوي والفاعل في الثقافة الإنسانية تمَّ إنقاذ العلم والفكر والفلسفة العالمية بفضل ترجمتها إلى اللغة العربية، مع إضافات منهجية متكاملة كانت بمثابة «ثورة» أضفت طابعاً شاملاً، اعتمد الفكر الإسلامي المنفتح، المتسامح، الذي نتج عنه كيمياء الحوار المتواصل بين ضفتي البحر المتوسط.

منطق كيمياء الحوار دفع الدكتور مهدي أمبيرش، أستاذ فلسفة الحضارة في جامعة الفاتح (ليبيا) إلى القول إن العلاقات في المجتمع الدولي هي علاقات جسد حي، كل دولة قد يكون لها وظيفة ولكن الجسد العالمي لا ينهض إلا بهذا التكامل في الوظائف، وكل إنسان هو بمثابة الخليّة الحيّة والفاعلة في جسد العلاقات الاجتماعية الطبيعية التي تؤسس عليها العلاقات السياسية والاقتصادية، كما يؤسس عليها خطاب التفاهم أو حوار التفاهم، والتفاهم ليس الافهام، بل عملية مشتركة تنتج عنها الولادة الطبيعية للمفاهيم، وتتقدم الإنسانية من خلالها..

لا يمكن لأي إنسان أو لأي كيان أن يدّعي أنه الحقيقة المطلقة، وهذا الادعاء هو الذي أوجد أزمة المنطق الحلولي، ومنطق الإقصاء والتهميش، وقد أدى هذا إلى نهاية الفكر، وموت الواقع ونهاية التاريخ عند «فوكوياما»، وظهور أزمات في منهج التفكير والخطاب السياسي..



لقد أجمعت الدراسات والأبحاث التي قدّمت في المؤتمر على تجربة الإسلام في العصور الوسطى كانت الأكثر إشراقاً في التاريخ العربي الإسلامي، ويبدو التمسك بهذه التجربة بكونها مرجعية مطلقة، يعكس مدى الرفض العربي الإسلامي لواقع الضعف الذي نعاني منه، والرغبة في إمكانية تجاوزه في المستقبل، لذلك تصبح اللحظة الأكثر إشراقاً في التاريخ العربي الإسلامي، هي اللحظة التي يجب التمسك بها، للتدليل على قدرة العرب على إنجاز تاريخ مجيد، فالذي جعلهم في الماضي يصنعون هذا المجد، يجعلهم هو ذاته يصنعون المجد مجدداً، مع الإشارة إلى ضرورة الابتعاد عن الوقوع في أسر مرجعية الماضي، حتى لا يصبح المطلوب الإجابة عن أسئلة الماضي، وليس الإجابة عن الحاضر والمستقبل..

كيمياء الحوار المتواصل بين ضفتي المتوسط، تفرض عدم وضع عوائق أو موانع اصطناعية في طريق التعمّق في فهم الواقع البشري الذي يتحقق من خلال التحليل الاجتماعي وأدوات العلم والفلسفة، ومن المعروف أن المثقفين والمنفتحين على النقد مقتنعون اقتناعاً راسخاً بأن لا تضارب بين العلم والدين، وبين الفكر الفلسفي والحقيقة الموحى بها، فالعلم والفلسفة والدين في الواقع دروب تتلاقى لتهب الجنس البشري نظرة صحيحة للحكمة والمعرفة، ومعرفة الثقافة تبدد الريبة، وتشجع على البحث المطمئن عن قيم ومبادئ متساوقة مع الهويات الخاصة، لكنها في الوقت نفسه تعمل على الوصول إلى هدف المصلحة المشتركة بين ضفتي المتوسط، وهذا ما يمكن من خلاله الحدّ من «ثقافة الخوف» التي أحد جوانبها ما أطلق عليه «الإسلاموفوبيا» التي لاقت رواجاً وانتشاراً في الغرب بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م، ومع نمو الإسلام في أوروبة، حيث تصاعدت وتيرة هذه الظاهرة، التي تعني خوفاً دائماً وشاذاً، أو كرهاً شديداً لشيء ما.. وأصبحت تهمة «الإرهاب» جاهزة ضد العرب والإسلام عند أي حادثة مهما كانت صغيرة أو بسيطة، ويقومون بتجريد الثقافة العربية الإسلامية من إحدى أنبل خصائصها وهي «طبيعتها وقدرتها على التعامل مع الثقافات الأخرى» وينسون أن لهذه الثقافة التي يصفونها بالإرهاب تاريخاً طويلاً وغنياً في الأخذ والعطاء مع ثقافات الأمم الأخرى، وكان هذا ما أعطى الثقافة العربية مركزها العلمي ووجهها الإنساني الشامل، وكانت الحضارة العربية الإسلامية، أكثر حضارة عالمية واعية لرسالتها الحضارية الشاملة، مما ساهم بشكل كبير في حوار وتلاقح الثقافات والحضارات على أسس السلام والإخاء وتبادل المعرفة المشتركة..

لقد كانت أجواء المؤتمر ودّية جدّاً، حرص المشاركون فيه، البحث عن جواب يطرح نفسه بقوة في ضوء المتغيرات العالمية وتحولات «العولمة»، لسؤال: «إلى أي مدى نحن قادرون على خلق مناخات تسمح بإعادة تفاعل حقيقي بيننا، على ضفتي

المتوسط، وبالذات مع حضارة الغرب التي أعطت عصرنا طابعه، وهل في ظروفنا ما يسمح بأن نمدّ الجسور، ونبني علاقات جديدة قوامها الاحترام المتبادل، من موقع الفاعلين أخذاً وعطاء، لا مستقبلين سلباً واستلاباً، على الرغم من واقع التجزئة والتخلّف الذي نعيشه في وقتنا الراهن».



لقد أجمعت الآراء على أن لا معنى للحوار إلا في إطار موازين القوى، واحترام الآخر دون تعصب أو عنصرية، وبلا ضغائن أو أحقاد بعيداً عن نظرية «الإسلاموفوبيا» التي تقول: «إن الإسلام يقف ضد حرية التعبير»، وكان سحر كلمات «أراغون» واضحاً في كثير من الجلسات والنقاشات: «ما كان سيكون شريطة أن نتذكره»، ونحن لا نريد حواراً بين النخبة فقط، بل حواراً بين الشعوب، والوضع الحالي لا يمكن أن يستمر إذا أردنا أن نتغيّر ونغيّر واقعنا، وما الفائدة إذا لم نخرج من هذه الجدران؟! يجب اختيار موضوعات تكون أكثر تمثيلاً لمجتمعاتنا ولواقعنا.. نحن بحاجة إلى إدخال التنوع في ثقافتنا وحياتنا.. الأجيال القادمة يجب أن لا تكون أسيرة نمط معين من المعلومات، وعلينا أن ننتقل إلى الأفعال وإعطاء الدور لمنظمات المجتمع الأهلي والمدني لتقوم بدورها في مجال كيمياء الحوار المتواصل بين ضفتي المتوسط، والتعامل مع الحاضر بصورة حيوية، وإتاحة الظروف المناسبة للتأكيد على حوض المتوسط، مكان وسيط يجمع بين الحضارات، وعلينا الاستفادة من الإرث الحضاري الكبير الذي يجمعنا منذ عصور قديمة، وما زالت آثاره شاهدة عليه حتى يومنا هذا..

الرغبة في تفكيك التاريخ الثقيل الذي نرزح تحته، كانت واضحة في جلسات المؤتمر، فهناك دعوات لوضع الأحداث في إطارها التاريخي، على قاعدة أن حلول الماضي لا تحل إلا إشكاليات الماضي، وأن استيرادها إلى الحاضر، هو استيراد لا

يختلف كثيراً عن الاستيراد من الغرب، فالاستيراد يكون على نوعين: استيراد عبر الجغرافية، بنقل أفكار وسلع من بلد إلى بلد لا يتماثلان في القيم والتطور والمشكلات، والاستيراد عبر الزمن باستيراد أفكار وقيم وحلول لا تنتمي إلى الزمن الراهن، ولا تجيب عن مشكلاته، إنما على العكس تعمّق من جراحه وتجعله يدور في حلقة مفرغة لا يمكن الخروج منها، وهذا ما نجده في العلاقة المتأزمة -حالياً- مع الغرب..

العربي يريد أن يرى صورته الأكثر إشراقاً التي أفرزها يوماً التاريخ العربي في فترة من فتراته، وهذه الصورة لتعويض معنوي عما يعاني منه العربي في واقع الحال، والعرب في مثل هذه المؤتمرات والملتقيات لا يريدون تكريس حالة الضعف والتبعية التي يعانون منهما منذ قرون عديدة، فيجدون نفسهم بين ذروتين ولكنهم يقبعون بين هاتين الذروتين في قعر الوادي، ذروة الحداثة والتقدم الغربي الذي لا يستطيعون الوصول إليه، وذروة التاريخ العربي الإسلامي الذي لا يمكن استعادته، والمطلوب استيعابه في سياقه الطبيعي، وأن يكون درساً نافعاً، وأن لا يكون درساً معيقاً، وفي كلا الحالتين فهو لا يصنع مستقبلاً.

لقاء الثقافات على ضفاف المتوسط الذي رعته «اليونسكو»كان فرصة جيدة ومهمة في مسيرة كيمياء الحوار المتواصل بين الشمال والجنوب، وكل ما نرجوه أن يتبعها لقاءات ومؤتمرات أخرى، فنحن ما زلنا بحاجة قصوى إلى تقويض جدران الفصل بين الحضارات، والقضاء على الدوافع التي أدت إلى ظاهرة «الإسلاموفوبيا»، وتصحيح صورة العربي المسلم في المناهج التربوية الأوروبية، وتعزيز الحوار البنّاء بين الحضارة والثقافة على أساس الاحترام المتبادل بين الشعوب، وتحويل العلاقات من علاقات تصادم وحروب وكراهية، إلى علاقات حوار ومحبة وسلام..

اليونسكو، باريس 4-5 كانون الأول 2008م



«سقراط» الموسيقى العربية

فقدت الأمة العربية، الموسيقار الكبير، منصور الرحباني، الذي أثرى حياتنا الفنية والموسيقية والمسرحية، مع شقيقه الراحل الكبير عاصي الرحباني بالكثير من الأعمال الخالدة في تاريخ الفن والموسيقى والمسرح الغنائي العربي، التي رسّخت لمسيرة عطاء متواصلة استمرت أكثر من ستين عاماً..

لحَّن وكتب منصور الرحباني للأرض والحب والإنسان، وكان في كل عمل أنجزه وقدّمه، شامخاً، مبدعاً، متجدداً وأكثر حيوية وإشراقاً ودهشة، يطوّع الكلمة الشعرية والجملة الموسيقية، لخدمة أهدافه وأفكاره الباحثة عن مجد الإنسان، والمليئة بالرؤى والاكتشافات والآفاق الواعدة، وأقانيم الفرح الثلاثة: (الإيمان والمحبة والرجاء)..

ولد منصور في عام ١٩٢٥، وعاش مع شقيقه عاصي طفولة بائسة قبل أن يشتهرا في عالم الفن، عن هذه المرحلة يقول منصور: «تشرّدنا في منازل البؤس كثيراً.. سكنّا بيوتاً ليست ببيوت، هذه هي طفولتنا..» ويصف ذلك الواقع المرير بعنفوان في ديوان «بحّار الشتي»:

رابي أنا بهالجرد

رابي بحَفَا في البرد

بجبال خلف جبال

ما بيقطعا الخيّال

وما في حدا بيقطع فيا

إلا نحن والصوت والموّال

وشي كم رفّ حجال».

بدأت الانطلاقة الفنية مع شقيقه عاصي من الإذاعة اللبنانية في عام ١٩٤٥، وعندما اقترن عاصي بالسيدة فيروز، شكّل الثلاثة معاً، تجربة غنائية جديدة في الموسيقى العربية، فتحت آفاقاً واسعة كان عمادها التراث العربي الإسلامي والماروني والبيزنطي والفلكلور اللبناني والعربي، وتيارات الموسيقى الكلاسيكية العالمية، ونستطيع القول، من خلال مسيرة العمل الطويلة والمستمرة للأخوين «رحباني» أنهما شكّلا جديداً رائعاً لم يتكرر للأغنية العربية وصل بها إلى رحاب العالمية، وكانا أفضل من رسّخ وقدّم مسرحيات و«أوبرات» غنائية في الوطن العربي..

كان للأخوين (رحباني) خطّان موسيقيان واضحان، خط موسيقي عربي أصيل، كان مسؤولاً عنه عاصي انطلاقاً من إتقانه العزف على آلة «البزق»، وخط التوزيع الموسيقي المتأثر بالموسيقى الغربية الكلاسيكية، الذي كان منصور مضطلعاً به، وإن كانت عند عاصي نسبة لا بأس بها من التأثر بالموسيقى الغربية، على أن تأثر منصور بالموسيقى التراثية مهم جداً، وإذا جمعنا الاثنين، وفق ما يشير إليه الموسيقار سليم سحاب: «باتت نسبة التأثر بالموسيقى العربية التراثية والغربية على المستوى نفسه، وهذا ما يجعلهما توأمين موسيقيين لا غنى للواحد منهما عن الآخر».



عرفت منصور الرحباني قبل أن ألتقيه بسنوات طويلة من متابعتي لكل ما

أبدع مع شقيقه عاصي من أعمال غنائية وموسيقية ومسرحية رائعة، شكلّت الوعي والوجدان والذائقة للأجيال العربية من المحيط إلى الخليج العربي، وكانت محطات مهمة في تاريخ الفن والموسيقى والغناء والمسرح العربي، وصارت على لسان كل إنسان عربي، محطات عشق وحب وأحلام وردية ورسالات سامية(•)..

ثم دارت الأيام، وتمت اللقاءات العديدة في منزله العتيق الجميل المليء بالحب والود، في «أنطلياس»، وفي مكتبي بدمشق، وأمسيات جميلة في بيروت واللاذقية، وبلودان، وفي ندوات أقمناها في «مهرجان المحبة» عن المسرح الرحباني والغناء والموسيقى، وكانت هناك حوارات «تليفونية» استمرت بشكل متواصل حتى الأيام الأخيرة قبل الرحيل المرير والقاسي على قلوبنا جميعاً..

لقد كان يحدثني في هذه اللقاءات الممتعة والحميمة عن مشاريعه وأفكاره وحبّه لسورية ولشعبها الأبي، ولزنوبيا والمتنبي وللخالد حافظ الأسد وللشام التي قدّم فيها أهم أعماله الموسيقية والمسرحية. وكان دائماً يسمعني شيئاً من شعره والكثير من طرائفه التي تدخل السرور والفرح إلى القلب، مع شيء من الحكمة والتأمل التي ازدادت عنده مع «آخر أيام سقراط» التي وجد من خلالها أنه:

.. حان وقت الصراخ،

وعذابات الإنسان اكتملت

لأن العدالة قلّت في الأرض،

والظالمين أمعنوا بالاعتداء على الحرية!!

وجب أن نستدعي سقراط ليموت من جديد

في ساحة كل مدينة!..

لأن شعب أثينا القديمة، هو كل شعب الأرض، هو أنا وأنتم، فالظلم واحد، والفقر واحد، والضرائب التي أرهقتهم ترهقنا ولأننا مثلهم نقاتل من أجل الخلاص».

كان منصور الرحباني يدرك جيداً في كل ما أبدع من شعر وكلمات أن الكلمة هي السلاح، لذلك وضع أعمق وأبسط الأفكار في مسرحياته الأخيرة: «آخر أيام سقراط» و«حكم الرعيان» و«ملوك الطوائف» و«زنوبيا» و«المتنبي» و«عودة طائر الفينيق» وكان دائم القول: «لا الحقيقة بتتخبّى، ولا الحرية بتتأخر.. وما بيوقف بوح الكلمة، لا خيل، ولا سيوف، ولا عسكر».

في «آخر أيام سقراط» مهّد منصور الرحباني لعمله الرائع: «إذا لم يوقّع الإنسان على كلامه بدمه، لا يثبت هذا الكلام.. الدم حبر الحقيقة»..

عندما يردد الشعب في الفصل الأول من المسرحية: ركعت أثينا.. ركعت أثينا.. ليش يا سقراط.. ليش، يأتي جواب سقراط: «ركعت أثينا لأن أثينا تنازلت عن عظمة أثينا.. ديمقراطيتها غرقت في الفوضى.. المطلوبين حاكمين، والشرفاء محكومين».

وفي «حكم الرعيان» قرع منصور الرحباني بقوة ناقوس الخطر، في المشهد الأخير من عمله، معلناً تشاؤمه وإحساسه بأن الخراب أصبح وشيكاً، لا بل مرئيّاً: «انتبهوا عالوطن.. انتبهوا.. الوطن عم يطير».. لقد بحث الجميع عن مصالحهم الشخصية على حساب مصلحة الوطن، وكانت النتيجة: «طار الوطن.. طار الكرسي، واللي على الكرسي.. ونحنا ملهيين».



منصور الرحباني كان شاعراً كبيراً بامتياز، فمن يدقق في نصوص مسرحياته، وكلمات أغنياته، ودواوينه الجميلة: «أنا الغريب الآخر» و«القصور المائية» و«بحّار الشتي» و«أسافر وحدي ملكاً» وغيرها مما كتب وأبدع، يدرك جيداً أنه عاش عمره

يبحث عن الكلمة الصادقة المعبرة عمّا يجول في خاطر وطنه وأمته العربية، من أحاسيس وآمال مشرعة على المستقبل الواعد:

«يا شعبي..

متّحد بالمجد أنا

متّحد بالموت أنا

بالذل بأوجاع الفقراء

ويداك صليبي

تنبسطان

من الجولان

إلى سيناء».

كلماته الرائعة، جعلت مآسينا وأحزاننا أخفّ وطأة، وأكثر اقتراباً من الجمال والحق والحقيقة، وأكثر بحثاً عن الغامض، ومساءلة عن الوجود، وحواراً مع الآخر، يقول منصور في قصيدة مسافات:

- **الحرية أداة خطرة**

قبل أن تسلّمها لإنسان

عليك أن تعلّمه كيف يستعملها.

- **السعادة هي خوفك على لحظتها من الهروب**
- **الطرائد تأتي حين لا ينتظرها الصياد**
- **القلب الذي يحبّ كثيراً يتألم كثيراً.**
- **فرح الأخذ هو فرح العطاء.**

- **مالُك لا يصبح مالَك إلاّ متى أنفقته!**
- **خير لي ألا أجد من يحبني، من ألا أجد من أحبّه.**
- **السعادة قلقة، أما الحزن فمطمئن!**

لقد سافر منصور الرحباني إلى العالم الآخر «وحده ملكاً»، حارب المرض، وواجهه دون استسلام، بعد أن أصبحت ينابيعه في الكل، وصار النهر والماء، ونادى العشاق «اتحدوا» وأيقظ طفل الأرض، وقصّ شريط النوم وهرب، ليعود ربيعاً يشرق في آذار، ويقوم برصد أرقام الكون، يتمدّد في كل الشطآن، ويسهر في كلّ الخلجان، ويتنزّه في طرقات مدننا، ويزور حدائقنا، ويدقّ على أبوابنا، يحمل الفرح الآتي الذي انتظرناه طويلاً..

«سافر وحده ملكاً» بعد أن فصل الأشياء عن ظلالها» بعد أن كان البحر يبدأ من «أنطلياس» وصارت في منصور تنتهي البحار.. لقد حمل معه بيوت الطفولة، والطرقات التي مشى عليها الأنبياء، وجمع في حقائبه عبير الورد وأمطار تشرين.. لقد نسج من خيوط يأسنا كفن الرحيل، وتركنا نسافر في عمق اللحظات المتسارعة نحلم بالأمل، وصورة الوطن الجميل الذي تحاول خفافيش الظلام تشويه معالمه وألوانه الزاهية المتألقة..



ينتمي منصور الرحباني إلى سلالة شعراء الليل، صباحاته ندى، شعره رقيق ومتوتر، رقراق وأدق تعبيراً من المجهر، ينتهي الموسيقي في منصور حيث يبدأ الشاعر، يستمر حتى في خضم السخرية، في مطاوي الظنون، وأعماق البراري، إنه بضعة شعراء، واحد للعشق، واحد للأرض، واحد للدهشة، واحد للشك.. كان تارة طفلاً محنكاً، وطوراً خبيراً هاوياً، يرتعب ويراقب ويضبط ويتشيطن كالأطفال، ويختبئ كالأطفال، ويثب كالأطفال..

في شعره مجموعة مؤتلفه من الرهافة والتحدي، من العشق المجنّح والهزء اللاذع، من الهشاشة إلى مراودة البطولة، حسب تعبير الشاعر الكبير أنسي الحاج، الذي يرى في شعر منصور الرحباني، سواء المغنّى منه أو المكتوب للمطالعة، المطابقة بين البيت وروحه وبين الشعر والطبيعة، وكان يؤمن بالعبارة التي تقول: «إن الشاعر هو أقرب الكائنات إلى فجر الأشياء».

في رحيل منصور الرحباني الذي كان يتمتع بثقافة أدبية وموسيقية وتاريخية واجتماعية، قلّ نظيرها، كتبت كلمات وسطّرت مقالات ودراسات كثيرة، وسوف يكتب عنه في القادم من الأيام والسنوات، في كل استماع جديد لأغنياته ومشاهدة لمسرحياته التي شهدتها مدارج بعلبك وأعمدتها، ومسرح دمشق الدولي، ودار الأسد للثقافة والفنون بدمشق، وقصر المؤتمرات وكازينو لبنان وقصر البيكاديللي وبيت الدين والأرز ومسارح العالم، وحسبه أنه كان يشكّل في أعماله عمق الانتماء إلى ذاتنا الإنسانية، وتجذّرنا في أرضنا الطيبة، ورسوخنا في هويتنا الحضارية العربية.. وكان أبداً بيننا، نغماً وعبقرية وطنية، استقرّت في الوجدان..

ويبقى التحدي أمام أولاد منصور: غدي ومروان وأسامة، الذين فقدوا سندهم ومرشدهم وأستاذهم، وترك غصّة كبرى في قلوب عشاق فنّه وأدبه في شتى أرجاء الوطن العربي، فمنصور الرحباني ليس رجلاً عادياً، إنه تاريخ في رجل واحد، وقد أعلن الجميع حبّهم وتقديرهم له، يرددون قصيدته التي شدت بهم العظيمة «فيروز»:

رجعت في المساء

كالقمر المسافر

حقولك السماء

حصانك البيادر

أنا نسيب وجهي

تركته يسافر

سافرت البحار

لم تأخذ السفينة

وأنت كالنهار

تشرق في المدينة

الريح تبكي.. تبكي

في الساحة الحزينة..».

منصور الرحباني غادرنا بعد أن بنى وطناً للحب والخير والحق والحرية والجمال.. غادرنا بعد أن أعطى واستمر يعطي حتى الرمق الأخير، وسيبقى في الذاكرة والوجدان «قصيدة حب» على مرّ الزمان.



الصناعات التقليدية والمشاريع المعمارية

توظيف الصناعات التقليدية في المشاريع المعمارية «الخصائص والميزات والإسهامات الاقتصادية» كان عنوان الندوة الدولية، التي عقدت في تونس بين ٢٧ و٣١ من تشرين الأول ٢٠٠٨م، بالتعاون بين مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (أرسيكا) ووزارتي التجارة والصناعات التقليدية، والثقافة والمحافظة على التراث في الجمهورية التونسية، وقد شارك في فعاليات وجلسات هذه الندوة أكثر من /١٠٠/ عالمٍ وباحثٍ وحرفيٍّ، من شتى الدول العربية والإسلامية، وكان لي شرف تمثيل سورية ببحث عن «توظيف الصناعات التقليدية في دمشق القديمة» احتفاء بها عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٨م، كما كُلفت برئاسة الجلسة الخامسة من الندوة، وألقيت كلمة المشاركين في ختام فعالياتها..

جلسات الندوة، تضمنت/١٣/ جلسة، تمحورت مواضيعها حول: أهمية التواصل بين الهندسة المعمارية والصناعات التقليدية، وتجارب بعض الدول في مجال إحياء العلاقة بين الحرف التقليدية والعمارة المحلية، والعمارة بين الماضي، ورؤية مستقبلية للصناعات التقليدية، والصناعات التقليدية بين التراث والابتكار والحداثة، والحرف الخشبية وصناعة الحجر بين العمارة السكنية والمشروعات المعمارية الأخرى، والعمارة التقليدية وحذق المهارات وتوظيف التصاميم والأنماط المختلفة، والفسيفساء والنقش والتبليط والجص في المشروعات المعمارية،

والسيراميك واللوحات الخزفية وتوظيف تقنيات ومواد البناء التقليدية في العمارة الحديثة، والحرفي بين المصمم والمهندس المعماري وحماية الملكية الفكرية والحرف التقليدية بين التراث ومساندة الابتكار، والابتكار في الصناعات التقليدية –دعم جهود السياحة الثقافية والحوار بين الحضارات، والرموز الكتابية وإرساء منظومة معلوماتية للتراث المعماري، والصناعات التقليدية والدور الحيوي في مشاريع التنمية الاقتصادية، وواجهات المعمار وتكوين المهارات وتشجيعها وتنميتها..

وعند التوقف عند أهم الدراسات والأبحاث التي قدمت في هذه الندوة المهمة الشاملة، لا بد من الإشارة في البداية إلى بحث الدكتور نزيه معروف، رئيس برنامج تطوير الحرف اليدوية في «أرسيكا» الذي اعتبر الحرفة امتحاناً رياضياً لعقل الحرفي الذي يقوم بتدريب ذكائه، وتحريكه لإبداع تعبيرات تنمّ عن الجمال الطبيعي الذي يحيط بكل ركن من هذا الكون، كنتيجة طبيعية لمحبة اللّه سبحانه وتعالى للجمال، وبالتالي فإن فطرة الإنسان تدفعه للتعبير أيضاً عن إعجابه بهذا الجمال، ومحاولة إخراج بعض صور هذه الإبداعات من خلال لوحات مختلفة، والابتكار هو الوسيلة التي تدفع الحرفي لتجربة الأفكار والتصاميم الجديدة، واتخاذ القرارات بخصوص الطرق الجديدة للعمل، بما يؤدي إلى دفعه لتحسين نوعية المنتج، والعملية التسويقية، مع الإشارة إلى أهمية إبراز الفوائد الجمالية التي تضيفها الصناعات التقليدية على المنشآت المعمارية، إضافة إلى الدور الذي تقوم به في جانب التعريف بالشخصية التراثية وأصالة الهوية التي تميز مجتمعاتنا عن المجتمعات الأخرى، وهنا يبرز دور الحرفي الذي يجب عليه التوافق مع تحديات العصر المتنامية بشكل مستمر، والعمل على إعداد نفسه ليكون مؤهلاً بقدر كافٍ للتعامل مع تحديات المجتمع، والاستعداد الدائم للتعلم والتخطيط والابتكار والإبداع في ميدان عمله، والبحث الدائم عن فكرة جديدة، تؤدي خدمة جديدة تلبّي حاجة حياتية للمجتمع، واتباع نهج شامل يهدف إلى زيادة الوعي بالتراث الثقافي، وتقدير حقيقة القيمة التي يتمتع بها، وما يرفده

من مردود اقتصادي وسياحي لو أحسن توظيفه، حيث يمثل هذا القطاع الشخصية الثقافية التي تتمتع بها كل دولة..



العلاقة بين الصناعات التقليدية والعمارة، كانت محور أكثر من بحث قُدّم في الندوة، ولا يخفى ارتباط الصناعات التقليدية منذ أن استقر الإنسان في سكن، وقد تطورت هذه العلاقة من البساطة إلى التعقيد مع التقدم العمراني، ورغبة المعمار بمزيد من الابتكار والإبداع لإرضاء الأذواق، فما وصل إلينا من بقايا هذه العمائر (أبنية سكنية- قصور- معابد- قلاع- مساجد- مدارس- كنائس..) تقدم مثالاً واضحاً على براعة ودقة التصميم والتنفيذ وملائمة للبيئة، سواء من حيث استعمال المواد الأولية المتوفرة محلياً أو من حيث توزيع النور ومراعاة اتجاه الرياح، أو دقة تزاوج الحجر مع الرخام والغرانيت ونحتهما وتزيينهما، أو ناحية تصنيع الأبواب بكثير من الإتقان والمتانة وتعشيق الزجاج وزخرفته والتطعيم بالنحاس والحديد..

الباحثة فائقة سباعي عويضة (لبنان) كانت دقيقة في دراستها في العمارة الداخلية والخارجية وفي التفاصيل المعمارية التي قدّمتها من مسجد محمد الأمين في وسط بيروت، وطالبت بضرورة وعي الشعوب العربية والإسلامية أهمية تراثها من الصناعات التقليدية، والعمل على إعادة صياغته بطريقة حديثة للحفاظ على هويتها، والقيام بتشجيع وتدريب اليد العاملة الحرفية، وتوفير المواد الأولية وتوظيف الأموال لتطويرها ونموها.

لقد كان الحِرفي العربي يقوم بتشكيل عمارته تبعاً للظروف البيئية المتنوعة التي يعيش فيها فتأتي معبرّة عن الشخصية المحليّة، وتعطي نوعاً من الاستمرارية الحضارية، وكانت المساكن التقليدية العربية تعتمد على استخدام الطين في البناء، نظراً لقدرته الجيدة على التكيّف مع البيئة، ونظراً لما يتميز به من قدرة منخفضة

على توصيل الحرارة، وتمَّ الاعتماد على الأعمدة الخشبية في تشييد الأسقف، وتمَّ تزيين أركان سطح المبنى بأشكال متدرّجة باعتبار أن هذه المعالجات الزخرفية مفيدة عملياً في إبعاد مياه الأمطار عن جدران وأركان المبنى، كما استعمل الحجر الجيري والمرجاني في المساكن الساحلية، والحجر الجبلي الصلب في المساكن الجبلية، وهكذا تعدّدت طرق ومواد البناء المستخدمة في تشييد المنازل لتلائم الظروف المناخية لكل منطقة على حدة.

تقول الدكتورة نعيمة بن رشيد (المغرب): لقد أثبتت التجارب أن مادة الطين تمتاز بخصائص تركيب عالية الجودة، حيث تمتلك فراغات تكوينية تقوم بتقليل كميات الحرارة، والطين يعدّل رطوبة الهواء، وقد لحقت تطورات هائلة بتقنيات العمارة بالطين منها تحسين مقاومة الماء، وتجنب الشقوق وتحسين العزل الحراري بإضافة نسب ٢ إلى٨٪ من الإسمنت إلى الطين، كما أن مواد البناء التقليدية تتحول عند هدمها إلى مواد أولية يمكن إعادة استخدامها أو اندماجها مع البيئة دون أي تأثيرات سلبية، ولكن مع ظهور وتوفر مواد البناء الجديدة مثل: الإسمنت والخرسانة المسلحة، بدأت العمارة العربية تشهد نمطاً معمارياً جديداً يعتمد نماذج مستوردة وغريبة عن منظومة المؤثرات البيئية..

هذا الواقع الجديد تطلّب العمل على إيجاد مخارج علمية وعملية تضمن التعايش بين العمارة الطينية والعمارة الإسمنتية التي أخذت تفرض وجودها بحكم الواقع ومتغيراته، وأصبح المعماري ينظر إلى العمارة الطينية على أنها مصدر فكري وعلمي يستلهم منها التصاميم، ويعمل على تطويرها ودمجها مع مستلزمات العمارة الحديثة..

لقد أصبحنا نشاهد اليوم اهتمام بعض دول العالم الحديث بدراسة استخدام الطين كمادة تساعد في إنشاء حضارة المستقبل الجديد علمياً وتقنياً نحو الأفضل،

باعتبارها مادة مفيدة لها مميزات كثيرة تتناسب وطبيعة حياة الإنسان والمجتمع، وقد توصل العديد من الباحثين في العمارة إلى القول إن الطين هي مادة المستقبل المعمارية، وتبنوا رؤية جديدة لبناء بيت حديث من الطين، يكون مناخه معتدل على مدار السنة دافئ في الشتاء، وبارد في الصيف، هواؤه ذو نسبة رطوبة ثابتة ومثالية صحياً.



القراءة التاريخية الدقيقة لتطور العمارة العربية الإسلامية، من حيث النشأة والنمو والتطور والنماذج، تشير إلى ظاهرة ذات خصوصية متميزة، تحمل العديد من المعاني والرموز المهمة للتواصل الحضاري المستمر الذي يواجه في عالم اليوم تحديات «العولمة» و«الحداثة» وعمليات التغريب والاستلاب، مما يطرح السؤال التالي: هل يمكن للعمارة العربية الإسلامية تحصين نموذجها الثقافي والعمراني، أمام تحديات «العصرنة» لنماذج وأنماط ثقافية «عولمية»؟ وهل يمكنها إبراز ملامحها الحضارية على الساحة العالمية، كما فعلت في ماضيها الغابر؟!

إن الوطن العربي والعالم الإسلامي حافل بتجارب ومهارات فنية وهندسية ومعمارية بالغة الأهمية، إلا أنه لم يتح لها مجال الدخول في مشروعات عالمية، بسبب هيمنة قوى الاستلاب والتغريب الغربية على الفكر العالمي، الذي تمَّ تشويهه فناً وحضارة وثقافة.

استشراف مستقبل العمارة العربية الإسلامية يتطلب:

— البحث عن الذات كبديل للتبعية الثقافية والفكرية في العمارة والعمران، وتوعية الأجيال بأهمية مميزات التراث الحضاري العربي.

— التوعية الثقافية والتربوية بأهمية التراث العمراني العربي وترميم الأوابد والآثار والمواقع الشاهدة على هذا التراث.

– الترويج للتراث العمراني العربي، وبيان أثره المادي والروحي في حضارات العالم.

– دعم مراكز البحوث الدولية التي تتناول قضايا الفن المعماري العربي الإسلامي، وإقامة الندوات المشتركة، وتنظيم القوافل والمعارض للتعريف بفن العمارة العربية الإسلامية، وتكثيف التعاون مع الشبكات الفضائية والمعلوماتية العالمية، ودعم مراكز التوثيق العربية.

– تشجيع السياحة الثقافية للفنون العمرانية العربية الإسلامية، بصفتها شكلاً من أشكال الحوار الثقافي والحضاري بين شعوب العالم.

إن الفن المعماري أكثر قدرة من غيره على التواصل مع الآخر، والحضارة العربية الإسلامية تواصلت مع مختلف الحضارات في بلاد الشام والرافدين والهند وفارس والصين والأندلس، وقد استفادت منها وأضافت إليها وأغنتها، وقد لعب الفن المعماري العربي الإسلامي دوراً كبيراً في خلق حوار فني حضاري متميز، لأنه انطلق من هويته وحافظ على خصوصيته الثقافية، فاستطاع من خلال جمالية إبداعية، تقديم الوجه الحقيقي للحضارة العربية الإسلامية، والفن المعماري العربي، يمكن في وقتنا الراهن أن يلعب دوراً كبيراً في تعزيز حوار الثقافات والحضارات فيما لو أحسن تسويقه والدعاية له بوساطة مؤسسات وهيئات عربية لها حضورها العالمي.

إن تعددية الحضارات، واحترام تراث الآخرين، والاستفادة منه، من شأنه موازنة العالم، ويمكن للغرب، إذا تحوّل نحو التسامح والوضوح والنظرة الإنسانية، أن يتحاور مع الآخرين في سبيل تقدم المسيرة الإنسانية، ومن هذا المنطلق ينبغي الوعي والاهتمام بتاريخنا الحضاري، لأنه السبيل الوحيد لتصحيح الصورة النمطية التي أريد لها، لأغراض سياسية، والهدف تشويه الإسلام ثقافة وفناً وحضارة داخل العالم الإسلامي وخارجه..



نستطيع القول من خلال الآراء والدراسات التي قدّمت في الندوة الدولية حول توظيف الصناعات التقليدية في المشاريع المعمارية، إنّ التدهور والتخلف في العمارة العربية والإسلامية في وقتنا الراهن، يكاد يكون نتيجة لحالنا الاقتصادي والسياسي والفني، فالفكر المعماري الذي تربت وتدربت عليه الغالبية العظمى من المعماريين في العالم الإسلامي لا يحترم ولا يعي قيمة عمارته المحليّة، وما يرتبط بها من حرف وفنون ومفاهيم ثقافية وحضارية، نتيجة لتأثير التعليم بمدارس ومناهج الغرب، والذي لا يتناسب مع احتياجات السكان المحليين، والنتيجة كانت عمارة مغتربة عن أرضها وجذورها..

إن المجتمعات التي لم ينقطع عنها التواصل الحضاري مع منتجها المعماري أكثر تماسكاً، وأكثر قدرة ومعرفة في اكتشاف وتحديد هويتها، وصياغة مستقبلها في إطار هذه الهوية ممثلة في تاريخها ودينها وأرضها وثقافتها ومكانتها.. لذلك فهي تعد مجالاً خصباً لإعادة صياغة عمارتها وعمرانها الخاص المبني على أساس من خصوصية الهوية والأرض والتاريخ، وكان لهذا التطور في الفكر والرؤية أثره الكبير في العقدين السابقين على تطور مفهوم السياحة البيئية، المتوافقة مع الطبيعة، والتي تستلهم وتحافظ على البيئة وحضارة المجتمعات المحلية، وشخصية العمارة المحلية في المنتج الخاص الذي تقدمه للسائح لتحقيق مردود إيجابي على البيئة الطبيعية والمجتمع المحلي، وقد أثبتت الدراسات أن المجتمعات المحلية أصبحت أكثر تماسكاً بهويتها بعد احتكاكها بمشروعات سياحية بيئية.

لقد ساعدت السياحة البيئية على تطوير الصناعات الحرفية للمجتمع المحلي والحفاظ عليها، كما ارتبطت السياحة البيئية بالعمارة المحلية، وأصبح هناك فرصة جيدة لعودة البنّائين والحرفيين التقليديين الذين تعرضت طرقهم التقليدية للانقراض، كما ساعدت في إنعاش جميع الحرف المتعلقة بالبناء والزخرفة والتزيين الداخلي، كما يحدث حالياً في دمشق القديمة، وحلب القديمة، حيث عاد الألق

والتجدد إلى كثير من الحرف التقليدية والطرز المعمارية القديمة في البيوت القديمة التي أعيد ترميمها واستخدامها، وانتشرت العدوى إلى البيوت الحديثة التي تبنى وفق طرز وتقسيمات قديمة كانت مزدهرة ومعروفة في البيوت والمساكن والقصور العريقة في القرون الماضية.

لقد أعيد الاعتبار للعمارة الداخلية التقليدية وللصناعات الحرفية المرافقة لها، ووجد من يهتم بها بعد أن تعرضت للاندثار، وتراجع قيمتها الوظيفية والثقافية تحت ضغط «التغريب» والاستلاب الحضاري والفني والفكري الذي فرض علينا في العقود الماضية، وقاد هذا إلى التفكير في التوسع في إنشاء القرى الحرفية وربطها بالسياحة، حيث وضع موضوع زيارة هذه القرى على جدول رحلات الوفود السياحية، للاستمتاع بقضاء نصف يوم على الأقل في هذه القرى، والاطلاع عن كثب على تفاصيل تكوين القطعة الحِرفية، وكيفية تشكيلها وصياغتها من خلال أنامل الصانع أو الصانعة التقليدية، مع التعرّف على طبيعة المواد الأولية والألوان الطبيعية المستخدمة، التي تتميز بخصائصها الغير ضارة بالبيئة، مما يؤدي إلى التفاعل بين الصانع التقليدي والسائح بشكل يوفر للأخير فرصة لاقتناء قطعة أصلية من يد الحرفي، وفي نفس الوقت إشعار الصانع التقليدي بشكل متواصل بأن هناك طلب على منتوجه، ومعنى ذلك ترويج دائم وتسويق مستمر لهذا المنتوج، مما يدفع للابتكار الدائم، والتطور المستمر.

تونس (27-31 تشرين الأول 2008م)

هل مات الشعر؟

في خريف عام ١٩٩٩، كان لي شرف المشاركة، وتمثيل المجموعة العربية، في اجتماعات المؤتمر العام للمنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» في باريس، لجنة التراث والثقافة (اللجنة الرابعة) حيث قامت المنظمة بإجراء استقصاء دولي، بمساعدة البروفيسور «ألكسندر بلوخ» الأمين العام الدولي السابق لرابطة القلم، والمستشار الفخري لدى «اليونسكو» شمل خمسين منظمة وطنية ودولية وإقليمية متخصصة في الشعر، وتمَّ استلام ثلاثين رداً، وكان الهدف من هذا الاستقصاء، الذي جرى عن طريق استبيان، استطلاع رأي أوساط الشعراء، في مختلف المناطق الجغرافية الثقافية، عن الطريقة التي يمكن أن يعلن بها عن هذا اليوم، وقد اقترحت الخيارات الثلاثة الآتية:

- إعلان يوم دولي للشعر في تاريخ ثابت كل سنة.

- الاحتفال باليوم العالمي للشعر في تواريخ تتطابق مع تاريخ اليوم الوطني للشعر المعتمد أصلاً في كل بلد.

- تنظيم مناسبة عالمية للاحتفاء بالشعر كل سنة في دولة عضو في منظمة اليونسكو.

وفي اجتماع خاص، ضمّ مجموعة من كبار الشعراء في العالم، تمَّ فيه دراسة

أوضاع الشعر في نهاية القرن الماضي على نحو منفصل، وطرحت فيه الاعتبارات التالية:

١- يوجد في عالم اليوم تعطش لبعض الاحتياجات الجمالية، ويمكن للشعر أن يلبي هذه الاحتياجات إذا اعترف بدوره الاجتماعي في مجال التواصل بين البشر حيث يشكل أداة لإيقاظ الوعي والتعبير عنه.

٢- يشهد العالم منذ عشرين عاماً، حركة حقيقية لصالح الشعر، وأصبحت الأنشطة الشعرية تتكاثر في مختلف الدول الأعضاء في «اليونسكو» ويزداد الشعراء عدداً.

٣- كل هذا يعبّر عن حاجة اجتماعية تدفع الشبيبة، على الأخص، إلى العودة إلى المنابع، وتشكيل وسيلة، يمكنهم بها مواجهة الذات، بينما يشدّهم العالم الخارجي إليه بقوة بعيداً عن ذواتهم.

٤- تمثّل هذه الحركة الاجتماعية، عودة إلى اكتشاف القيم المتوارثة، والتقليد الشفوي، وقبول الكلمة المنطوقة، كعنصر بارز، يعزز البعد الاجتماعي لدى الإنسان، ويجعله أكثر انسجاماً مع نفسه..

إن جميع من استشيروا بهذا المشروع المهم، أبدوا اهتماماً بالغاً بقيام «اليونسكو» لهذه المبادرة العالمية لدعم الشعر، التي تؤدي إلى الاعتراف بالحركات الشعرية الوطنية والإقليمية والدولية، وإعطائها دفعة جديدة، وينبغي لهذه المبادرة أن تستهدف أساساً دعم التنوع اللغوي، من خلال التعبير الشعري ، وبعد تحليل مختلف الأشكال التي يمكن أن تتخذها هذه المبادرة.. تمَّ الاتفاق على إعلان الحادي والعشرين من شهر آذار، يوماً عالمياً للشعر، ليشكّل إطاراً للأنشطة والجهود المضطلع بها على مختلف الأصعدة من أجل دعم الشعر..



لقد كان الهدف من يوم الشعر العالمي الذي بدأ الاحتفال به من عام /٢٠٠٠/ تشجيع ما يلي:

- الجهود التي يبذلها صغار الناشرين في سوق الكتاب، عن طريق نشر عدد متزايد من الدواوين للشعراء الشباب.

- العودة إلى أسلوب الإلقاء الشعري، أو ما يعرف بالعروض الحيّة، نظراً لأن أمسيات إلقاء الشعر، تلقى –اليوم- إقبالاً متزايداً.

- إقامة حوارات بين الشعر وغيره من الفنون مثل: المسرح والرقص والموسيقى والرسم، وبين موضوعات راهنة في عالم اليوم.

- القيام بمناسبة اليوم العالمي للشعر، بالربط بين أنواع الفنون كافة، وبين الفلسفة التي تقترب من الفن كثيراً، لتسليط الضوء من جديد على عبارة «ديلاكروا» الفنان الإسباني الشهير، الذي قال في مذكراته: «لا يوجد فن بلا شعر».

- تحسين نظرة الإعلام إلى الشعر، بحيث لا يعتبر فن القصيدة، فناً ولىّ عهده، بل فناً يتيح للمجتمع بأكمله العودة إلى اكتشاف هويته، والتأكيد عليها.

واليوم بعد مرور نحو عشر سنوات على قرار منظمة «اليونسكو»، هل استطاع عشاق الشعر وروّاده أن يغيّروا من واقع الحال شيئاً؟ وهل نفض الشعر جناحيه وعاد إلى الحياة، بعد أن كادت تطويه إلى الأبد قاطرة ابتدعتها حضارات العجلة «الحديثة» حسب تعبير شاعرنا الكبير الأستاذ سليمان العيسى، في ندوة أقمناها احتفاء بيوم الشعر العالمي يوم ٢٢ آذار /مارس ٢٠٠٩؟! أردناها تحية ومحبة وأمسية ناقشنا فيها جملة من الأمور والمواضيع حول حال الشعر في هذه الأيام بشكل عام، وحال القصيدة، وموت القصيدة العمودية، وتدهور قراءة الشعر، وتراجع دور النقد الشعري ، وتدريس الشعر في مراحل التعليم المختلفة..

معارض الكتاب في شتى أصقاع الوطن العربي، تقدّم الدلائل الواضحة، على تراجع الشعر، وبروز الرواية.. هناك من يقول إن الناس أصبحت تحب سماع الشعر، ولا تحب قراءته؟ وإن أغلب الدواوين التي تنشر في هذه الأيام، لا علاقة لها بالشعر، وإن تهافت أكثر الشعراء، وراء أوهام الحداثة، منع شعرهم من أن يصبح مقبولاً ومحترماً، وإن قصيدة النثر كان لها دورها البارز في ابتعاد الجمهور عن الشعر، وإن ابتعاد الشعراء عن الوزن والقافية والموسيقى، جعل كتاباتهم عبارة عن كلام مرصوص فوق بعض، وإن عالم النشر الإلكتروني، قد غيرّ مفاهيم النشر[١]..

يقولون الجمهور اختلف، فلم يعد كتلة واحدة، فلكل شاعر جمهوره وعشاقه، وتأثيره، فكثير من الشباب والفتيات يبحثون عن سبل لتعويض الإحساس بالإشباع النفسي والعاطفي، فيجدونه في شعر نزار قباني، وكثير منهم يبحثون عن الشاعر ككائن آدمي، فيجدونه في محمود درويش وعمر أبو ريشة، وسليمان العيسى ويوسف الخطيب وصلاح عبد الصبور وغيرهم..

يرى الناقد المصري الكبير صلاح فضل: «أن الشعر منذ أن دخل مرحلة الحداثة، قد تخلّى –بشكل واضح– عن وظيفته الإعلامية، التي كان يعبّر عنها بشكل مباشر عن الضمير القومي، ورؤية الجماهير، وقد أصبح تلقيّه –تقريباً– مقصوراً على صفوة المثقفين والمهتمين بالحركة الشعرية، والمتابعين لتطورها، ولم ينج من ذلك سوى شعر العاميّة، الذي ظلّ محتفظاً بقاعدته الشعبية العريضة، وبجمهوره الواسع».



أنصار قصيدة النثر يقولون في معرض الدفاع عنها، إن ظهورها كان بمثابة تطور في الأنواع الأدبية، وإنها كانت خروجاً عن النمط والمتن السائد، وكانت خطوة ضرورية في الشعر العربي، فهي بمثابة الزلزال الذي فجّر أرض الكتابة العربية، وإن

التحوّل إلى قصيدة النثر، كان ضرورياً من أجل التعبير عن الواقع، وإن القصيدة النثرية صارت تحتوي تقاطعات فنية وأدبية متعددة، بحيث أن الشاعر قد أصبح يعتمد على ميراث مختلف عن الميراث الذي اعتمدت عليه قصيدة التفعيلة (سردية- بصرية).. لقد تقدم المعنى، وتراجع الشكل والإيقاع التقليديين، ونشأت علاقات أوسع في الرؤية، وحرية التعبير.. إنه إيقاع الحياة الجديد بكل ما فيه من متغيرات وتقنيات متسارعة..

وهناك من يقول، لماذا هذا الصراع المزعوم بين القديم والحداثة، وشعر التفعيلة، وشعر النثر، فالشعرية العربية لم تعرف الثبات والجمود في مسيرتها الطويلة، بل إن أهم ما يميزها، أنها تجدد نفسها لتتوافق مع ظرفها التاريخي والحضاري، وكانت ترحل من زمن إلى آخر، حاملة ركائزها الأساسية، ثم تضيف إليها أو تحذف منها، أو تعدّل فيها، وفق الشرط الحضاري المصاحب لها.. والمدقق في تتابع المراحل الشعرية، يلحظ أن كل مرحلة كانت بمثابة رد فعل لما سبقها، (جماعة أبولو- جماعة شعر)، وهنا لا بد من الإشارة إلى الاتهام الكبير الذي وجه إلى شعراء هذه المراحل.. لقد عطلّوا الشعر، وأضروه، وأبعدوا الجمهور عن الشعر، بانغلاق عوالمهم، وإن الشعراء اللاحقين احتاجوا إلى زمن للتحرر من تركتهم الثقيلة.

أمسيات الشعر وملتقياته التي أقيمت مؤخراً في عدة عواصم عربية، أثبتت بما لا يقبل الشك وجود صراع أجيال عدة على صدارة المشهد الشعري العربي، حيث ظهر بشكل واضح أن تجاور الأجيال بات مستحيلاً، مثلما استحال تجاور الأشكال المختلفة للقصيدة، وهذا ما لمسناه في أمسيات دمشق الشعرية، وملتقى القاهرة الثاني للشعر العربي، وفعاليات الملتقى الأول لقصيدة النثر، وملتقى مهرجان دبي وغيرها، وأعتقد أن هذا الواقع لا يسر أحداً من النقّاد والمتابعين لشؤون القصيدة ومسارها، والتجديد والإبداع والحداثة لا ترتبط بعمر معيّن، فمهرجان القاهرة الثاني للشعر العربي، الذي خلت أمسياته تقريباً من شعراء وباحثين تقل أعمارهم

عن الخمسين عاماً، أهدى أعماله للشاعر خليل مطران، باعتباره «رمزاً للتجديد والتجريب في الشعر العربي الحديث».

الشعر ما زال موجوداً، ومأساته في بعض من يتعاطاه وينظمه ويتعامل معه، وقد وصلت مأساته ذروتها في الصراع بين أنماطه وأنواعه، خاصة بين التفعيلة وقصيدة النثر، وهو ليس صراعاً تقنياً خالصاً، كما يرجون له، وإنما هو صراع بين هيئات اجتماعية متناقضة..

كثيرون ممن أعرفهم من الأدباء والشعراء والنقاد، في زمن الإحباطات المتكررة التي مرت على أمتنا العربية، فقدوا إيمانهم بصدقية المناسبات التكريمية الخاصة والعامة على اختلاف أنواعها، ومنها يوم الشعر العالمي، في زمن يعيش فيه عزلة وكآبة، وليس من يحميه من وحشته، لا بيوت الشعر ولا مهرجاناتها ولا أمسياته ولا فعالياته.. والمطلوب أن يجد من يحميه في قلوبنا وفي وجودنا، بعيداً عن التأثيرات السلبية التي خلقتها الطبيعة المادية والاستهلاكية للعصر الراهن..

عودة الحياة للشعر، كما في عصوره الذهبية، تحتاج إلى منهج مدروس ومتكامل، يأخذ على عاتقه إعادة فتح قنواته في تواصلنا وحوارنا اليومي مع أنفسنا والآخر..

زمن القصيدة لم ينتهِ، كما يحاول البعض أن يوهمنا، وشاعرنا الراحل الكبير محمود درويش، قبل أن يرحل وجه نصائح إلى الشعراء الشباب، نجدها مناسبة لكل مبدع يرسم خطواته في مسار طويل:

«لا تصدق خلاصاتنا، وانسها

وابتدئ من كلامك أنت، كأنك

أول من يكتب الشعر،

أو آخر الشعراء!

إن قرأت لنا، فلكي لا تكون امتداداً

لأهوائنا،

بل لتصحيح أخطائنا في كتاب الشقاء.

الحقيقة بيضاء، فاكتب عليها

بحبر الغراب،

والحقيقة سوداء، فاكتب عليها

بضوء السراب!

إن أردت مبارزة النسر

حلّق مَعَه

إن عشقتَ فتاة فكن أنت

لا هي

من يشتهي مصرعه

إن أطلت التأمل في وردة

لن تزحزحك العاصفة

القصيدة في الزمن الصعب

زهرٌ جميلٌ على مقبرة!

لا نصيحة في الحب، لكنها التجربة

لا نصيحة في الشعر، لكنها الموهبة».

ختاماً، نقول لكل مشكك، الشعر لا يموت، كان منذ عصور الجاهلية، أحد أهم قنوات التواصل مع الآخر، وكان أجمله يشيع الحب والجمال، وينشر السلام والمحبة بين بني البشر.. في عالم اليوم، نريد للشعر أن يصلح ما أفسدته أخلاقيات «العولمة» ومتغيرات العصر، نريد للشعر أن يبعث الإرادة في النفوس، ويضيء متاهات دروبنا المظلمة، ويعيد إحساسنا بالمدى والندى والجمال..



مؤتمر العلاقات السورية- اللبنانية

توّجت سورية احتفالاتها الربيعية المتجذرة في القدم، بمؤتمر العلاقات السورية - اللبنانية الذي عقد في دمشق بين (١٤و١٨) نيسان ٢٠٠٩، وضم أكثر من /١٥٠/ باحثاً ومفكراً ومثقفاً، اجتمعوا برعاية كريمة من الأستاذة الدكتورة نجاح العطار، نائب رئيس الجمهورية العربية السورية، التي افتتحت المؤتمر بالتحية والحب والترحاب في أصدق معانيه، ونقلت تحية القائد الرئيس بشار الأسد، الذي يرى في نضال سورية ولبنان المشترك، أمثولة وطنية قومية، تدخل في سياق التاريخ، مأثرة تاريخ، ويتجاوز بما حققته، وستحققه، كل قول عابر وهامشي، لا يرقى إلى صدقية الوقائع، أو إلى آفاق التكاتف الذي كان، مؤمناً بأن سورية ولبنان بلد واحد، في اللسان وفي الجنان.. بينهما حدود للسيادة هي موضع الاحترام، لكنها في واقعها، لا تحجب حقيقة واضحة هي أن الشعبين شعب واحد، من نسب وتاريخ ومصالح مشتركة، وهمّ وطني وقومي.. في قلب القلب من بلاد الشام.. يضعهما في خندق واحد.

وأضافت الدكتورة العطار في كلمتها المنهجية: لقد وقفنا.. نحن وأنتم.. في سورية ولبنان.. في وجه كل المحاولات للنيل من وجود أمتنا وأمنها.. وللتآمر على تطلعاتها وأهدافها، وعملنا معاً على تطويق الأحداث التي تتالت.. وسعينا لاستتباب الطمأنينة وتحويل الجحيم الذي أرادوه، إلى سلام اجتماعي، ووحدة وطنية، ولم يكن بمقدور سورية أن تكون غير مبالية، حيال أحداث لا يفيد منها إلا العدو الذي

يجب أن تتوحد جهودنا كلها ضده، بحكم صلاتنا الأخوية، وبحكم وحدتنا الجغرافية والسياسية والروحية جميعاً.

وأكدت الدكتورة العطار في كلمتها: أن سورية كانت ولا تزال توءم لبنان.. وكانت مخلصة في اندفاعها مع أبنائه الميامين.. لإحلال الوفاق الوطني في ربوعه، والحفاظ على وحدته أرضاً وشعباً، وبسط سلطته الشرعية على كل أنحائه، واستتباب الأمن فيه، وبلسمة الجراح، وقد أعطت برهانها بشهادة الدم، وشهادة المفاداة..

بدوره الدكتور سليم الحص، رئيس وزراء لبنان الأسبق أكد في كلمة المشاركين اللبنانيين في المؤتمر على عمق العلاقات السورية اللبنانية فقال: نحن في لبنان وسورية شعب واحد في دولتين، والعلاقات بين البلدين تكون طبيعية عندما تكون مميزة، ولبنان عربي الانتماء والهوية، وعروبة لبنان تمرّ عملياً بدمشق، وعبثاً القفز في الحديث عن عروبة لبنان فوق دمشق إلى أي عاصمة عربية أخرى، فوشائج القربى على مستوى الأفراد والعائلات بين الشعبين عميقة على وجه ملحوظ، واللبنانيون باتوا يدركون أهمية سورية كبوابة للاقتصاد اللبناني إلى سائر الأسواق العربية، ولاسيما الخليجية منها، فضلاً عن المصالح المتشعبة على كل الصعد.



«وحدة الجغرافية والتاريخ والشعب والمصير في بلاد الشام» كانت عنوان المحور الأول للمؤتمر، فالأصول الجغرافية والعرقية والتاريخية والحضارية والثقافية كانت ومازالت واحدة منذ أقدم العصور والأزمنة حتى وقتنا الراهن، وسورية الطبيعية، كانت عبر العصور، الرقعة الجغرافية الأكثر حضوراً في الحضارات القديمة، فموقعها الطبيعي في بلاد الشام، وجودة مناخها، ووفرة غلالها، جعلها مهداً ممتازاً لقيام الحضارة، ونشوء التجمّعات البشرية، ففي هذه الرقعة الجغرافية، حيث تلتقي آسية وأوروبة وأفريقيا، ازدهرت منذ فجر التاريخ عناصر التجارة والحضارة والفنون

والفكر والفلسفة والاجتماع والدين، وراحت تنتظم في مجتمعات بشرية حضارية، لا خلاف حول أصلها ووحدتها وريادتها وإبداعاتها..

حول هذا الموضوع قدّم الدكتور محمد محفّل مقاربة تاريخية علمية، مشيراً فيها إلى دور سورية الطبيعي منذ الألف السابع قبل الميلاد، مبيناً أن بلاد كنعان لا تقتصر على فلسطين، التي حصرتها الكتابات التوراتية جغرافياً بـ«فلسطين» أو «سورية الجنوبية» لأهداف استيطانية، مخالفة بذلك الوثائق القديمة، التي تغطي مختلف بقاع سورية الطبيعية، كما أنها لا تعني البلاد الواطئة، وفق ما استخلصه «البعض» من الأسفار التوراتية.

وحدة الجغرافية والتاريخ والحضارة والمصير المشترك، عبر العصور قادت المنطقة إلى مراحل متقدمة وواحدة في العصور الكنعانية والآرامية والبيزنطية والعربية الإسلامية وصولاً إلى فترة الاحتلال العثماني التي امتدت نحو /٤٠٠/ سنة، مما أوجد حالة من الاستقرار كانت تنعم بها بلاد الشام نتيجة وحدتها التاريخية والجغرافية، وهذا ما أكده بحث الأستاذ يوسف الشويري من لبنان، حيث كانت ولاية بيروت في القرن التاسع عشر جزءاً إدارياً من بلاد الشام، ولم تنفصل عنه اقتصادياً أو اجتماعياً أو ثقافياً، والدليل على ذلك تعيين جمال باشا قائداً للفيلق الرابع العثماني، ولفت إلى أن وحدة بلاد الشام في هذه الفترة، كانت مادة حيّة تتداولها الدوائر الدبلوماسية ويناقشها أبناء البلاد كحل للأزمات المختلفة بين حين وآخر طوال هذه الفترة، معتبراً أن توحيد إبراهيم باشا، لبلاد الشام كان نقطة البداية لتبلور وعي جديد، وبروز واضح لوحدة المصير لبلاد الشام، رغم تعدد الجهات التي تبنّتها، وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم تكن وحدة بلاد الشام مثاراً للجدل أو للخلاف.

الدكتور مسعود ضاهر (لبنان) توقف عند روّاد الوعي القومي العربي والنهضة

العربية الأولى في بلاد الشام، فأشار إلى أن العرب لم ينجحوا بشكل أو بآخر في توطين مقولات النهضة العربية الأولى، ولا في توطين التكنولوجيا والعلوم العصرية، وهنا تكمن مأساة روَّاد النهضة العربية، حيث إن مقولاتهم العلمية بقيت مجرد شعارات تستعاد في مناسبات عابرة، مع الإشارة إلى بعض المحاولات القليلة التي قام بها عدد من المثقفين (الشوام) الذين استطاعوا بناء تراث عربي عقلاني على درجة عالية من التكامل، ولا يزال أكثر رسوخاً في الفكر العربي الحديث والمعاصر، إلا أن عدم توظيفه في بناء دولة عصرية أضعف مواقع القوى العقلانية في الوطن العربي، والتي لن يستقيم مسارها إلا بوضع التراث العقلاني لعصر النهضة الأولى في موقعه الذي يستحقه.



لقد بدأ الوعي السياسي في بلاد الشام مع بداية النهضة الفكرية العامة فيها في القرن التاسع عشر، وكان لاتصال سكانها بالغرب وبثقافته أثره الجلي في هذه النهضة وفي الوعي السياسي الذي رافقها، وتبلور هذا الوعي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، واتخذ اتجاهات متعددة، وظهرت الدعوة إلى «الوطن السوري» الذي يشمل بلاد الشام كلها في أعقاب الفتنة الطائفية سنة ١٨٦٠، ووزعت المناشير في بيروت خلال عامي ١٨٨٠ و١٨٨١، التي كانت تبدأ في النداء «يا أبناء سورية» و«يا أهل الوطن» وتشحذ الهمم بـ«النخوة العربية» و«الحميّة السورية» وكانت هناك جمعيات نادت بـ«الأمة السورية» ولكن الغرب تنكّر لوعوده بعد الثورة العربية الكبرى، ومؤتمر «سان ريمو»، وشعر عرب المشرق أن قرارات الحلفاء التي جاءت بعده أنها خيانة كبرى. وانتهت المملكة السورية، حيث نفذت فرنسا قرار المجلس الأعلى للحلفاء، واتفاق «جورج لويد- كليمنصو» وزحفت قواتها إلى دمشق، فلقيت مقاومة في معركة ميسلون، التي استشهد فيها وزير الحربية يوسف العظمة، وتقدمت هذه القوات، فدخلت دمشق في ١٩٢٠/٧/٢٤، وأقدم الجنرال غورو، المفوّض

السامي الفرنسي وقائد القوات الفرنسية في الشرق، على تقطيع أوصال سورية الشمالية وتجزئتها إلى عدة كيانات سياسية- إدارية..

ويرى الدكتور علي محافظة (الأردن) أنَّ وحدة بلاد الشام لم تصمد أمام قوى البغي والهيمنة الأوروبية، على الرغم من المقاومة الوطنية المسلحة والجهاد السياسي الذي رفعت لواءه تنظيمات سياسية عديدة طوال سبع سنوات (١٩١٤- ١٩٢٠) ويعود هذا الإخفاق إلى عدة أسباب أهمها: ضعف الوعي السياسي على الصعيد الشعبي، وضعف الصلة بين التنظيمات السياسية التي كانت تدافع عن وحدة بلاد الشام واستقلالها، والجماهير الشعبية بين المدن والأرياف والبادية، وافتقار المقاومة الوطنية إلى الدعم المالي، وعدم توافر الأسلحة والذخيرة لاستمرار المقاومة ونجاحها..

لقد جاءت سلطة الانتداب الفرنسي لتقيم كيان لبنان، وتفكك كيان سورية إلى دويلات، ولكن الصلات ظلّت مستمرة ضد الانتداب من أجل الاستقلال والتحرير المشترك، وعندما أعلنت سورية إضرابها الستيني عام ١٩٣٦ هبّ لبنان لدعم الحركة الوطنية في سورية، وكانت النضالات المشتركة قواعد وثوابت مميزة في مسيرة البلدين الشقيقين، وخاصة إفشال مشاريع السيطرة الاستعمارية بعد الاستقلال مثل: «حلف بغداد» وأحداث عام ١٩٥٨، ومبدأ «أيزنهاور» ورفض مظاهر التطبيع مع إسرائيل، ورفض الاستسلام للمشاريع الأمريكية والإمبريالية..

وعلى الرغم من محاولات الفصل بين الشعبين في سورية ولبنان، من أكثر من جهة إقليمية ودولية إعمالاً لقاعدة «فرّق تسد» فإن العلاقة الأخوية لم تنقطع، لا بل إنها – بعد كل محاولة قطع- تعود وتشتد تجذراً ونمواً، وما ذلك إلا بسبب حقيقة العلاقة وعمقها التاريخي والجغرافي، حول ذلك يقول العميد أمين حطيط (لبنان): «مهما غالى البعض يبقى الشعب في لبنان وسورية واحداً في الجذور والمصدر،

وبوعيه القومي يتحسس المخاطر ذاتها لذلك يَشتدّ تقارباً، كلما اشتدت التهديدات والمحاولات لفصله.. حقيقة بات الكل على قناعة بها».



«الإصلاح الاقتصادي بين البلدين، والأبعاد الإنمائية» كانت محور قراءة للدكتور جورج قرم (لبنان) الذي حدد مواقع الإصلاح في كلا البلدين، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة التطور نحو بيئة مالية واقتصادية متجانسة بينهما، وتنشيط علاقات الشراكة بين المنشآت الاقتصادية اللبنانية والسورية، وإعادة تأهيل الاقتصاد السوري واللبناني معاً لكي يواجها بالتالي التحديات المحلية والإقليمية والدولية بكفاءة عالية، واستنفار القدرات التنافسية التكاملية بين الاقتصادين..

ويرى الدكتور قرم أنه يتوجب أولاً النظر إلى السمات السلبية المشتركة لاقتصاد البلدين كي نستخرج منها السبل الكفيلة بالوصول إلى الإصلاح الاقتصادي بشكل متناسق، في جو من التكامل المبني على نظرة دقيقة إلى قدرات البلدين في إطار تعاون حقيقي ومثمر يشعر الشعبين بتحسن مستويات معيشتهم بفضل مثل هذا التعاون الإصلاحي والتكاملي المشترك.

إن الوصول إلى إطلاق حالة تكاملية نشطة تؤدي إلى زيادة القدرة التنافسية للبلدين معاً، وإلى تحسين مستويات المعيشة، وبشكل خاص تراجع معدلات البطالة وعودة الأدمغة والكفاءات من الخارج في كلا البلدين، يتطلب العمل على مستويات مختلفة:

- إجراء دراسة معمّقة للقطاعات المختلفة (صناعية- زراعية- خدماتية) لتحديد فرص التكامل بين شركات القطاع الخاص من كلا البلدين أو -إذا اقتضى الأمر- بين شركات القطاع العام السوري، وشركات القطاع الخاص اللبناني.

- إجراء التناسق بين النظام الضريبي في البلدين لتفادي التنافس في جلب الاستثمار الخارجي.

- تقارب وتناسق أنظمة الحمايات الاجتماعية في البلدين كي يصبحا متشابهين، وبالتدريج تقارب نظام الاقتطاعات على الرواتب والأجور في القطاع الخاص ونظام التقاعد للقطاع العام في البلدين.

- إجراء التناسق بين النظامين المصرفيين والسياسات النقدية والمالية والمصرفية بين البلدين.

- تنشيط البورصة في كلا البلدين وربطهما فيما بعد، لكي يتسنّى للمستثمر التوظيف في أسهم لبنانية أو أسهم سورية لدى نفس الوسيط.

- إعادة تأهيل وتوسيع مراكز العبور بين البلدين.

- وضع أساليب مشتركة لمكافحة الفساد.

هذه طموحات تتطلب إرادة اقتصادية وسياسية، مع شيء من التطلّع المستقبلي الطموح، ورؤية واضحة للمسار، المتعدد الجوانب الذي يجب أن نمشي عليه بعد الدراسة المعمّقة والحوار المتواصل.

لقد شكلت محاور مؤتمر العلاقات السورية - اللبنانية والمداخلات التي تمت خلاله وعلى هامشه إثراءً للأفكار والآراء والآفاق الواعدة، لتقويم وتصحيح ومعالجة هذه العلاقات، وكان أول من أشار إلى أهمية إجراء هذه الإجراءات الشاملة الرئيس القائد بشار الأسد، الذي اتصفت جلسة الحوار التي أجراها مع المشاركين في المؤتمر بالصراحة، وكانت أجوبته شاملة متميزة بالرؤية الثاقبة والبعيدة للعلاقات السورية اللبنانية، وضرورة إيجاد الحلول الحقيقية لها..

لقد كانت الكلمة التي ألقاها الشاعر اللبناني الكبير جوزيف حرب، باسم المؤتمرين السوريين واللبنانيين في لقائهم مع السيد الرئيس بشار الأسد، معبّرة عن مشاعر كل سوري ولبناني: «إن لبنان في غياب سورية بلد ناقص، وإن سورية في غياب لبنان، بلد ناقص، وليس مؤتمر العلاقات السورية- اللبنانية، الذي نعقده مثقفين سوريين ولبنانيين، إلا ورقة ثقافية، معرفية، علمية، فكرية، أكاديمية، تقدم إلى السياسة الحكيمة، في سبيل إزالة هذا النقص».

دمشق 14-18 نيسان 2009

الحوار بين الحضارتين العربية والصينية

الدورة الثالثة لندوة الحوار بين الحضارتين العربية والصينية، حطّت رحالها في تونس بين (١١و١٢) أيار ٢٠٠٩ ، بمشاركة نحو /٨٠/ من الباحثين والأدباء والعلماء والسياسيين والإعلاميين العرب والصينيين، وقد مثّلت سورية، برفقة الصديق الأستاذ نزيه خوري، مدير العلاقات الثقافية في وزارتنا العتيدة، وحظيت هذه الدورة بمباركة القمة العربية التي عقدت في دمشق (آذار ٢٠٠٨) ، وقمة الدوحة (آذار ٢٠٠٩) ، إيماناً بضرورة دفع الحوار الثقافي والحضاري العربي- الصيني إلى آفاق رحبة، ليشكّل أنموذجاً يحتذى به للتناغم بين الشعبين الصديقين على المستويات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية..

عقدت الدورة بقصر المجمّع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة»، وترأس الوفد العربي الأستاذ عبد الرؤوف الباسطي، وزير الثقافة والمحافظة على التراث بالجمهورية التونسية، بينما ترأس الوفد الصيني الأستاذ «باي ليتشن» نائب رئيس اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني، وناقش المشاركون محاور الندوة الثلاثة، مواضيع غاية في الأهمية، أولها كان «موضوع الصين في الثقافة العربية، والعرب في الثقافة الصينية»، وثانيها «القيم الإنسانية والحضارية في الثقافتين العربية والصينية»، وثالثها «أهمية التعاون العربي الصيني في مجال العلم والتكنولوجيا ووسائل الاتصال»..

لقد ثمّن المشاركون ما تحقق من تقدم في مجال التعاون الثقافي في إطار منتدى التعـاون العربي الصيني، وأكدوا على أهمية استمـرار التواصل الثقافي والحضاري والحـوار البنّـاء، وتأكيـد ما تحقق في لقـاء دورة بكين عـام ٢٠٠٥، ودورة جدّة عام ٢٠٠٧، وجددوا التأكيد على نبذ الصراع والصدام بين الحضارات، وترسيخ مبادئ الحوار والتفاهم والتحالف بينها، وتعزيز التشاور من أجل التوصل إلى رؤية مشتركة لتحديـات المستقبل، قوامها المساواة والاحترام والمنفعـة المتبادلة، وتعزيز التضامن السياسـي، وصيانـة السلام والاستقـرار، وتعزيـز التعددية في العلاقـات الدولية، والترحيب بالمبـادرات الإقليمية والدولية الداعمة للحـوار بين الحضارات، والتأكيد على تعزيز التعاون العربي الصيني في مختلف المجالات، وفقاً لما نصّت عليه البيانات الصـادرة عـن الاجتماعات الوزاريـة، والبرامـج التنفيذية لمنتدى التعـاون العربي الصينـي، ومنطلق ذلك رصيد ثري من العلاقات ضاربة جذوره في أعماق التاريخ.. رصيد يحضّنا على المضي قدماً بخطى متسارعة على نحو يزيد من تعظيم المصالح المشتركة، ويحقق قدراً أكبر من المصالح المتبادلة، بين قطبين ينتميان إلى حضارتين عريقتين، أسهمتا إسهاماً كبيراً في إثراء الحضارة الإنسانية..



لقـد كان «باي ليتشـن» رئيس الوفـد الصيني، دقيقاً في تحليـل واقع العلاقات العربيـة الصينية، التي توسع الحوار بينها، وشمـل جوانب عديدة وقد شكل الحوار الحضـاري الفعّال والمثمر أساساً متيناً للصداقة العربية الصينية، وتعد هذه الندوة نموذجاً للاحترام والتفاهـم والاستفادة المتبادلة بين مختلف الحضارات، لما له من دور فعّـال في تكريس تنوع الحضارات، وتنوع النمـاذج التنموية، ونشر روح التسامح والانسجـام والتعاون وتعزيز الحـوار والتواصل، وتبديد السلـوك، وإزالة الحواجز، وإيجاد القواسم المشتركة، وترك الخلافات جانباً، وتحقيق التنمية المشتركة..

نلاحظ أن كثيراً من هذه المقترحات البناءة، قد أخذت طريقها إلى التنفيذ منذ الـدورة الأولى لهذا المنتدى، فقـد تمَّ إنشاء آلية مهرجان الفنون الذي تقيمه الصين والـدول العربيـة بالتنـاوب كل سنتين، وعقـدت في إطار المنتدى نـدوات في مجالات الإعلام والتعليم العالي والثقافة واللغة مما وفّر الفرص للخبراء العرب والصينيين لتبـادل المعرفة والخبرة بصورة مستفيضـة، وإن محطة التلفزيون المركزي الصيني بصـدد إطلاق قناة فضائية صينية باللغة العربية قبـل نهاية عام ٢٠٠٩، وتمَّ إنشاء /٨/ معاهـد «كونفوشيوس» لتدريس اللغة الصينية في الدول العربية، وسيتم إطلاق مشـروع الترجمـة المتبادلة للمؤلفـات العربية والصينيـة قريباً، وقد شـكّل التبادل الصينــي العربــي في مجال النشر ركنــاً مهماً من أركان الحـوار الحضاري الذي ما فتئ يتطـوّر ويتعمّق، وجاء المعرض الذي ضم /١٤٩/ عنواناً مـن المؤلفات العربية المترجمـة والمنشـورة في الصين، ليؤكد ضـرورة دعم عمليات النشـر المشتركة التي تدعم الحوار المشترك، وتساهم في الاطلاع على ثقافة الشعبين الصديقين..

لقد تميّزت العلاقات العربية الصينية على الدوام بالتعاون والتفاهم المتبادلين، وقد خلت من الرواسب والأحقاد، كما أن الصين لا تمتلك أطماعاً توسُّعية أو عدوانية تجـاه الوطـن العربي، بـل أيدتهُ في جميع قضايـاه العادلة، الأمر الـذي يضفي على العلاقات العربية الصينيـة حالة من الاطمئنان، وما أشبه اليوم بالأمس، فكما كان العرب قديمـاً يكيلون للصينيين المديح لدقّتهم وإتقانهـم وحكمتهم وعدلهم، ونقلوا عنهم صناعة الورق والطباعة والحرير، فإنهم يتطلعون في القرن الحادي والعشرين إلى مساعـدة الصـين في إدخال التقنيـات الحديثة لبلادهم، واكتسـاب المزيد من الخبرات والاستفادة من التجارب التي اكتسبتها الصين في السنوات الماضية، لاسيما في مجالات الاعتماد على النفس والتضامن والوقوف في مواجهة الضغوط الأجنبية، وتوحيـد الأوطان، وخاصة بعد أن أصبحت الصين ثالث دولة في العالم ترسل مركبة فضائيـة مأهولـة إلى الفضاء، وثالث دولـة بالنسبة لحجم تجارتهـا الخارجية إلى العالم..

ويعد المجال الثقافي من أهم مجالات التعاون وأكثرها أثراً في العلاقات العربية الصينية، ويرجع ذلك إلى قدمه، وإلى استمراريته، وإلى رخص تكاليفه، ويمكن القول إنه كان لظهور الإسلام دوره الكبير في حفز همم العرب على السعي في الأرض، والاتجاه نحو الشرق وصولاً إلى الصين، والتي يرى المؤرخون أن الإسلام دخلها قبل أن يدخل الأندلس، وأن أول مسجد بني خارج الجزيرة العربية هو مسجد بني في الصين، وأن دخول اللغة العربية وتعليمها قد بدأ في الصين منذ القرن السابع الميلادي، حيث كانت المساجد تقوم بهذا الدور، وقد أدى هذا إلى تواصل حضاري تلاقت فيه الخبرات والتجارة، والتقت فيه روافد الحكمة بين الشعبين، كما حدثت نسبة من التداخل اللغوي بين العربية والصينية.

تشكّل هذه المنتديات والندوات وجلسات العمل العربي الصيني فرصة جيدة للاستفادة من تجربة هذه الدولة العملاقة المترامية الأطراف التي في تقديرات البحث العلمي، يمكن القول عنها إنها ستصبح –دون شك– في العقد الثالث من القرن الحالي، أكبر اقتصاد قومي في العالم، وستكون قوة مختلفة عن أي قوة عظمى عرفها العالم، ذلك أن النظام الاقتصادي السياسي الذي تعمل على تطويره، هو هجين وفريد، يضم عناصر كثيرة تجمع بين عناصر الاشتراكية والرأسمالية على السواء، ونظامها الذي أفرزته سياسة الإصلاح والانفتاح في نهاية عام ١٩٧٨، والتي وصفت بـ «الثورة الجديدة» كان مختلفاً عن أي نظام عرفه العالم، إذ صار تحرير الفكر والديمقراطية أساس التطور والانطلاق نحو التغيير والانفتاح والتحول من عبادة الفرد إلى تطوير الديمقراطية والقوانين..

التحول الأكبر كان بالانتقال من النظرية الاشتراكية التقليدية، إلى الاشتراكية ذات الخصائص الصينية من أجل التنمية السلمية للصين، لتحقيق التحديات الاشتراكية، بمعنى آخر، اختار الحزب الشيوعي الصيني، التحول من نمط الاشتراكية السوفيتية، الذي تبنّته الصين في الماضي، إلى اشتراكية ذات خصائص

صينية، وبفضل ذلك خرجت الصين من ركودها، وصارت مجتمعاً مفعماً بالنشاط والحيوية والتجدد.. لقد ودّع الصينيون الفقر، في مجتمع لم يكن يستطيع توفير الطعام والدفء لغالبية أبنائه، وحققت الصين ذات المليار وثلاثمئة مليون نسمة نمواً اقتصادياً متواصلاً بمعدل (١٠٪) تقريباً، خلال ثلاثين سنة، وصارت البلد الأول عالمياً من حيث احتياطي العملات الأجنبية، ولم يعد الصينيون يعانون من نقص السلع، وودعوا زمن الشراء بـ «البونات»، وتراجع عدد الفقراء كثيراً، وارتفع مستوى أو متوسط دخل الفرد، وتطور بناء الديمقراطية والقوانين تطوراً سريعاً، ومع النهضة الاقتصادية والفكرية والصناعية والعمرانية، استعاد الشعب الصيني كرامته وعزته وتاريخه العظيم، وأصبح شعار «إنهاض الصين ومواكبة العصر مفهوماً جديداً لحب الوطن والروح القومية في الصين المعاصرة».

لقد تمثّلت العناصر الأساسية لإصلاح النظام الاقتصادي الصيني في الإبقاء على الملكية العامة، باعتبارها القوام الأساسي للملكية، مع تطوير عناصر اقتصادية متنوعة لإنشاء نظام حديث للشركات والمؤسسات، يتواكب مع متطلبات اقتصاد السوق، وإنشاء نظام سوق موحد في عموم البلاد، ودمج السوق المحليّة مع السوق الدولية من أجل التوزيع الأفضل للموارد، وتغيير وظيفة الحكومة في الإدارة الاقتصادية، وتشجيع جزء من أبناء الشعب على تحقيق الثراء، والسير على طريق الرخاء المشترك، وتقديم الضمان الاجتماعي لسكان المناطق الحضرية والمناطق الريفية، لدفع التنمية الاقتصادية والاستقرار الاجتماعي.

حتى نهاية عام ٢٠٠٧، استثمر في الصين مستثمرون ينتمون إلى نحو /٢٠٠/ دولة ومنطقة في العالم، وبلغ عدد المؤسسات الأجنبية للتمويل /٥٩١/ ألفاً، وتتطلع التكتلات المالية الدولية الكبيرة، والمؤسسات العابرة للقارات إلى السوق الصينية، وحالياً يوجد استثمارات لنحو /٤٥٠/ شركة بين أقوى /٥٠٠/ شركة متعددة الجنسيات في العالم، وقامت الصين منذ انضمامها إلى منظمة التجارة العالمية

بتخفيض المستوى الشامل للرسوم الجمركية، وشرعت في بناء نظام حقوق الملكية الفكرية.



التغيرات لم تتوقف في الصين عند الجوانب المادية، بل امتدت إلى الحياة الفكرية والروحية والفنية، ففي نهاية عام ٢٠٠٧ كان في الصين /٢٧٩١/ مكتبة عامة، فيها أكثر من /٥٠٠/ مليون نسخة من الكتب، وأصبحت الصين جديرة بلقب «بلد المتاحف» إذ يوجد فيها /١٦٣٤/ متحفاً، ويبلغ عدد مقتنياتها أكثر من /٢٠/ مليون قطعة أثرية، وتقيم هذه المتاحف قرابة عشرة آلاف معرض في السنة، وتم تسجيل أكثر من /٤٠٠/ ألف موقع معروف للآثار التاريخية، غير قابلة للنقل، وتم وضع /٢٣٥١/ موقعاً أثرياً تحت الحماية على المستوى الوطني، وأكثر من /٧٠/ ألف موقع أثري على مستوى المقاطعة، وأكثر من /٦٠/ ألف موقع أثري على مستوى المدينة والمحافظة..

باختصار يمكن القول إن التاريخ لم يشهد أبداً مثل هذا التحول العاصف.. «ديناميات» النمو قوية جداً في الصين، لقد فرضت تحديات جديدة على الطريقة الغربية في النظر إلى العالم، بفضل مجموعة كبيرة من الخصائص الثقافية والفكرية والاقتصادية والتعليمية والسياسية الرائدة..

إن التحدي الصيني ذكّر أمريكا وأوروبة، ومن يهمهم الأمر أن التاريخ لم يتوقف عند «العولمة» الأمريكية، وأن الصراع «الداروين» بين النظم الاجتماعية والاقتصادية مستمر، وعلى نقيض آراء كثير من «حكماء الاقتصاد» فإن صعود «التنين الأكبر» سوف يشكل تحدياً للمسلّمة القائلة: «إن الدول -الأمم- سوف تختفي إن عاجلاً أم آجلاً» وعودة الصين إلى الظهور بقوة، وهي من أقدم أمم العالم، ومن أكثرها وعياً بالذات، وأكثرها حماساً للحفاظ على حسّها الوطني.. مؤشر كبير على أن العالم

أصبح على عتبة جديـدة للسياسة الواقعية في القرن الواحد والعشرين، حيث الأمم والاقتصاديات القومية ستكون موضع اهتمام بالغ في الحقيقة.

الصـين ترمـز إلى إمكانات الإمبراطوريات القديمة، والتـي كانت عظيمة يوماً مـا، وهي تدمـج نفسها من جديد في العـالم الحديث، والقرن الحـالي سيكون قرن الصين، وقـد أصبحت الثقافة الصينية أول ثقافة قديمة تنهض وتسقط، ثم تنهض ثانيـة بقوة وعظمة، مما يؤكد دورهـا الهائل في تحديد شكل الاتجاهات والسياسات والمؤسسات الكوكبية الجديدة..

منتدى الحوار الحضاري العربي الصيني، يشكّل دعوة ملحّة لنا إذا أردنا اللحاق بركب الحضارة والتطوّر والتقدم.. إذا أردنا أن نفعل ما يفعله الصينيون، وأن نفكر على مدى بعيد، في تجربة غنية وطموحة وواعدة، هي مثار دهشة وإعجاب العالم..

تونس 11-12 أيار 2009



رهانات المستقبل الكبرى

«رهانات المستقبل الكبرى» عنوان حلقات بحث، ومحاورات تقوم منظمة «اليونسكو» العالمية، بعقدها منذ سنوات عديدة، ويشارك في جلساتها العلمية والفكرية والإبداعية والأدبية شخصيات عالمية من ذوي الشهرة الكبيرة، وقد صدرت هذه الحلقات والحوارات ضمن سلسلة عن «اليونسكو» تضم موضوعات شتى، تمثّل تحديات كبيرة لا بد للإنسان، في كل زمان ومكان، من التصدي لها صوناً لإنسانيته في عالم التحديات التي تقتضي علينا مواجهة أسئلتها في محاولة لاستباق أحداثها واحتمالات التطور الكامنة في كل مرحلة من مراحلها، على أساس أسئلة «كانط» الكلاسيكية: «ماذا يمكنني أن أعرف؟» و«ماذا يمكنني أن أفعل؟» و«ماذا يجوز لي أن آمل؟».

رهانات المستقبل تتطلب معرفة طبيعته التي تتجلى في المجالات التالية: مجالات الحرية، ومجالات القدرة، ومجالات العزيمة.

مجالات الحرية تكمن في أن المستقبل مفتوح لعدة تطورات ممكنة، لذا يتمثّل أول عمل يقوم به المختص في الاستشراف، في محاولة استباق الأحداث، وتبيّن أشكال المستقبل، التي توجد، كالبذرة في طيّات الحاضر، وبما أن المستقبل غير محدد سلفاً، فإن النتائج المنجزة ستكون شديدة التناقض، تبعاً لردود الفعل، إما كأشخاص عارفين، أو كأشخاص عاملين.

فبالنسبــة إلى الشخص العارف سيكون المستقبل مصــدر قلق، قد يتزايد كلما شعر، خطأً أو صواباً، بتسارع التغييرات، وتداخل التبعات وتكاثرها، وبأن المجتمعات أصبحــت تجابــه أكثر فأكثر مخاطــر تحدّق بأنظمــة كاملة، وفي المقابـل وبصفة لا شعوريــة أو شعورية يسعــى الشخص العامل إلى مقاومة هذا الشعــور بالقلق والغمّ، فيحــاول أن يتبيّن وجود ثوابت في نظام الطبيعــة، وفي النظام الاجتماعي تتيح له أن يفكّر في الفرق بين اليوم والغد، كما لو كان مثل الفرق بين الأمس واليوم.

أمــا مجــالات القدرة فتعنــي أننا مقتــدرون، كل الاقتدار، على خلــق الغد الذي نحلــم به، مثلما يفعل الملاّح الذي يحــاول استباق الريح التي أخذت تهبّ، وأن يسرع بالرجوع إلى الميناء سالماً.

ومجــالات العزيمة عنوانهــا: «لايوجد رياح مواتية لمن لايعــرف أين يذهب» فما تفيدنــا محاولتنــا لاستباق أشكال المستقبـل الممكنة، والتعرّف علــى التوجهات التي يحويهــا محيطنا الاستراتيجــي، إذا كنّا لانعرف، المكان الــذي نعتزم الذهاب إليه؟ وهنــا يعتــبر المستقبل مجال التعبير عــن الإرادة، ومجال التعبــير عن حلم يمحّصه العقل تمحيصاً، ومجال التعبير عن مشروع سوف يتجنّد الناس لتحقيقه.



لقــد حــدد العلماء المستقبل، القــرن الحادي والعشرين، عندمــا اعتبروه «عهد الإعلام» وفي الواقع، تعرّض الاقتصاد الشامل لتغيير أعمق بكثير، لأن علوم الإعلام وعلــوم الحياة، بعد تطورها خلال أكثر من أربعين سنة، على حدة، وبصفة متوازية، أخــذت اليــوم تلتحم لتكــوّن قــوة تكنولوجيّة واقتصاديــة واحدة، وستغــدو القاعدة الأساسية للقرن الحالي.. قرن التكنولوجيا الإحيائية، ولقد صارت الأداة الإعلامية تستعمــل أكثر فأكــثر لمعالجة الكميّة الكبيرة من المعلومــات الجينيّة التي تمثّل المادة الأوليــة للاقتصــاد الجديــد والشامــل، وذلك بفك رموزهــا ومراقبتهــا وتنظيمها،

وبفضل هذه الأداة الإعلامية، أحدثت المؤسسات الدولية، مجمّعات ضخمة مختصة في علوم الحياة بهدف بناء عالم صناعي إحيائي.

التجارة الجينية، تبشّر بمغانم عظمى على المدى القصير.. أجناس جديدة من النباتات والحيوانات، ومصادر للطاقة، وموارد متجددة ومصادر صيدلانية، ولكن من سوء النيّة التوهّم بأن كل هذه المغانم ليس لها تكاليف.. إن انعكاسات هذا العلم الجديد على المحيط ونتائجه الاجتماعية والأخلاقية وتداعيات تطبيقاته التكنولوجية، ستكون مروّعة حقاً.. هل سيؤول الإحداث الاصطناعي لأجناس مستنسخة ومتخطيّة للحدود الجينية إلى نهاية الطبيعة وتعويضها في القرن الحالي، بعالم اصطناعي إحيائي؟ وهل سيؤدي التسويق على أوسع نطاق لأجسام مستحدثة بفضل الهندسة الجينية إلى التلّوث الجيني؟ وهل سيتسبب ذلك في أضرار لا سبيل على جبرها قد تلحق بالمحيط الحيوي في القرن الحادي والعشرين؟ وما عسانا نقول عن عالم يصنع فيه الرضّع على مقتضى الرغبات والشهوات منذ مرحلة الحمل؟ وما هي المخاطر التي قد تنتج عن صنع رضّع متسمين لأول وهلة بـ «الكمال»؟

السؤال الذي يطرح نفسه: من يقود هذه الثورة؟.. تقودها مؤسسات عملاقة مختصة في علوم الحياة، تقوم حالياً بمناورات لمراقبة التجارة الجينية في القرن الحادي والعشرين، ذلك أن من يتحكمّ في الجينات يتحكم في القرن الحادي والعشرين، لأن الجينات تشكّل المادة الأولية لهذا القرن، مثلما كانت المنتجات النفطية والمعدنية مادة العهد الاستعماري والصناعي.. أما رهان اللعبة الحالية فهو اقتناء البراءات، التي ستصبح بموجبها الجينات ملكية فكرية لإحدى تلك المؤسسات المختصة في البحث التكنولوجي الإحيائي.. فهي إذاً بصدد استكشاف المعمورة على عجل، مفتشة عن الجينات النادرة في الطبيعة، ومتوجّهة إلى النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، حيث يتكاثر التنوع الإحيائي، بحثاً عن أندر البكتريات والفيروسات والنباتات والحيوانات والأعراق البشرية، وما أن تستكشف هذه الجينات وتعزلها

حتــى تبادر بتسجيلها باسمها.. إننا نشهد اليوم سباقاً عنيفاً لإحاطة آخر الممتلكات العمومية بأسوار وسياجات بهدف حيازة الحدود البيولوجية للحياة..

لقــد أخذت بلدان الجنوب تحتج، على ما يسمى بـ«النهب الإحيائي» الذي يعتبر الحياة نفسها مجــرد قيمة نفعية ومجموعة من المشاريع والبرامج القابلة للمضاربة والاحتــكار، والمشكلــة لا تكمــن في العلم، بــل في استعمالاتــه التي كثيراً مــا تكون لا أخلاقية..



رهانــات المستقبــل في الثقافة: «عولمة، حيرة ثقافية، عنــف» فنحن نجتاز اليوم فترة حاسمة، انقسمت آراء العلماء والخبراء حولها.. يعتقد البعض منهم أن نشاط «الشوفينيــة» العرقية قــد يؤدي إلى «صــدام الحضارات» على حــدّ تعبير «صموئيل هنتغتن» وإلى تفاقم الإبادات الجماعية، إنه السيناريو الأخطر يدعمه قلق اجتماعي وثقــافي غائــم في أكثر الحــالات.. ويرى البعضــ الآخر في العولمــة الثقافية المتقدمة الآن، تهجينــاً للثقافات والعرقيات، قد يسير فيهــا الترابط جنباً إلى جنب مع تطور الاختــلاف، وقــد يفضي هذا التعايش بــين التعدديات في نهاية الأمــر إلى مزيد من التسامــح وإلى توطيــد السلام، وإن حــركات الهجرة والزيجــات المختلطة والتباين الاجتماعــي ظواهر تسير كلّها في اتجــاه هذا الافتراض، وكذلك شأن ظهور الهويات المختلطة، الثقافية منها والعرقية على حد سواء..

ووصلــت رهانات المستقبــل إلى استشراف مفهوم التراث، الــذي يراه البعض، وعاءً وصندوقاً يجمع فيه الإنسان أغلى ممتلكاته بعد اغترافها من ذاكرته، يخزنها هنــاك لينقلَها إلى خلَفه، ولكن هذا الشيء الأفضل من كل ما فينا، والذي يضعه كل جيــل في هذا الصندوق ليس متماثلاً في كل العهود، فسيكون الذهب والحجارة تارة، وكل أنواع الثروات، وقد يكون كذلك الأهرام، وقصر فيرساي، أي الممتلكات الثقافية

والتاريخية، ويوجد أخيراً ما يسمى بالتراث المشترك بين الإنسانية (أعماق البحار- القمر أو التراث الجيني)..

وللـتراث خصوصية تتمثّل في تكثيف الزمان، ولكن هـل يتعلق الأمر بالمحافظة علـى التراث لكي يُنقل بطريقة أفضـل؟ ألا ينقل بالأحرى، لكي يحفظ؟ بداهة يجب المحافظـة علـى التراث لفائدة الأجيـال القادمة، ومع ذلك نحـن لا نعرف شيئاً عن أذواق وحاجيـات هـذه الأجيال، فكيف نعرف ما ينبغي أن ينقـل إليهم؟.. إن أفضل طريقة للحفاظ على مصالحهم هي إبقاء الخيارات مفتوحة، ويشكّل التراث والجيل القـادم والتنميـة المستدامة، كلاً متماسكاً عجيباً، ولكـن علينا أن نحدد لمن سيُنقل التراث.. فحامل الـتراث فرداً كان أو جماعة يحافظ عليه بشيء من الإيثار والمحبة والاحترام..

لذلـك نحن مضطـرون في رهانات المستقبل الكبرى إلى إعـادة اختراع التراث مـن منظور الأجيال القادمـة، من منطلق الافتراض للطبيعـة الرمزية للتراث، لكل ما يجمـع ويربط، داخلنا وخارجنا، وهذا يدعونـا إلى اليقظة والانتباه والخوف من الالتباس والنسيان.. ومن أجل ذلك أسست نظم قانونية للدفاع عن الموروثات الفنية والعلميـة واللغويـة، وعن كل العلامات التـي يعبّر بها الناس عـن معنى العالم الذي يسكنونه، من بصمات الأيدي على جدران مغاور العصر الحجري القديم، إلى أكثر شهادات الفن المعاصر تطوراً..

ذلـك هو التراث: شبكة احتمالات، قطعة فنية تنتظر شكلاً، نص ينتظر معنى، وحيـاة تنتظـر تاريخـاً، مادة بناء حيّـة قابلة للتجـدد، ومادة بنـاء ذات دلالة قابلة للتأويـل.. التراث، أجداد أوائل شرعوا في التشييد والبناء، وأجيال قادمة، مستفيدة من الهبة، وبين الاثنين تقف الأجيال الحاضرة عابرة للتحويل..



في «رهانــات المستقبــل الكبرى» هل يقــوى الأدب، كما نعرفــه، على الصمود في القــرن الحــادي والعشرين؟.. لقد تماهى، منــذ قرون عديدة، مــع الكفاح من أجل الحريــة، حرية القول، قــول كل شيء، وتصوّر كل شيء، وتبليــغ كل شيء، ورجاء كل شــيء، دون عنف غير العنف الرمزي أو الخيالي، في كنف احترام الآخر، أو احترام القارئ..

الأوضــاع غير سارة، قد نستطيع المرور مــن قصر الأحلام، إلى حضارة زاخرة بالكتب المفتقرة إلى القراء، وقد يكون عدد الناشرين في تناقص مستمر، وقد يصبح القــارئ البطل الكبير للمستقبل، وسيدعى إلى البرامج التلفزيونية المعدّة للجماهير الكبــيرة، وقد يكــون الأدب –اليوم- شبيهاً بمذياع يبث في الفــراغ.. وهذا ما تؤكدهُ مقولة «أرنست هيمنغواي»: «عندما تتدهور الأشياء في المجتمع يكون الأدب في الخط الأول»..

نلاحــظ أنــه لم يعد للكاتب دور يقوم به بالقدر الــذي كان له منذ بضع سنوات، عندما كان «القَلم أقوى من السيف» وإن الاهتمام بالكاتب أصبح قليلاً في مجتمعات اليــوم، وهذا دليل على تناقصــ دوره، ولكن هذا يجب ألا يجعلنا ننسى أن الأدب فن لا بــد من وجوده في حياتنا، وأن القراءة تمكننا من الحلم ومن التعبير عن شكل من أشكال الحقيقة..

في العهد الذي ساد فيه الفيديو، شهدت دائرة الكتابة، سقوطاً بارزاً، ولئن حمل عهدنــا سمة «الإلكتروني» فإنه يظل مؤسســاً على الكتابة، وقد سجّل استعمال الورق تقهقراً على ما يبدو، تقهقراً يحافظ على تراث الإنسانية الغابي، وبالإمكان من جهة أخــرى تعويض الورق التقليــدي بورق متغيّر، كيميائي أو مستنســخ، ولا تتصل تقنية الخطــاب –التي هي الأدب- بشكل محدد في الكتاب فحسب، ومن الأكيد أن الكتاب جسم مناسب، ولكن إيجاد ركائز جديدة للقراءة خارج شاشة الحاسوب أمر ممكن أيضاً..

كثـيرون هم الذين تزعجهـم الأزمة التي تمرّ بها الروايــة، عالمياً، ولكن الأزمة الفعليــة هي أزمــة الكتّاب في علاقتهم مع ما يسمى «الروايــة» لقد أصبح للمصطلح في الحقيقــة معنــى أوسع ليشمل أشكالاً عديدة من القصــ (في صيغة الغائب، أو في صيغــة المتكلم) بينما أصبح الالتفات إلى القارئ في صيغة المخاطب مهملاً مهجوراً، علــى الإطلاق، وقد أصبح بالإمكان قبــول كل أشكال الكتابة تحت تسمية «الرواية»- المذكرات- الرواية المجزأة- الرواية التقليدية..

إن مستقبــل الرواية مرتبط بمستقبل الإنسان، وسيحافظ النـاس، طالما تكلموا، علــى إرادة التعبــير بالخطاب، ولن يكــون زوال الرواية ممكنــاً إلا في مجتمع الصم والبكم، ولئــن دفعتنا حضارتنا «التكنولوجية» نحو ثقافة وحدات التعداد الإلكتروني الأحادية المقطع، فإن وزن الكلمة سيبقى كاملاً لأن اللغة تولد من جديد مع ولادة كل إنسان..

المشكلــة اليــوم أننــا أضعنا كل صلة بكبــار الكتّاب الذين يعالجــون مسائل مثل المنزلــة الإنسانية والشك والأمل والرغبــة في التقارب مع الآخرين، ومع كل ما حدث ويحــدث نجد الكاتب يواصل كتابته رغم الفشــل أو رغم الموت، وهو كالمقاتل يواصل القتــال لأنه يؤمن بشيء أقوى من موته ذاته.. ذلــك أن الكتابة تعطي معنى لحياته، ولأن همّه الرئيسي يتمثّل في إبلاغ صوته.



الباروديّ والمعرّي والموسيقا

يعـد الأديب والشاعـر والسياسي الظريف فخري البـارودي (١٨٨٦-١٩٦٦م) مـن أشهر الشخصيات العربيـة السورية التي أثرت الحيـاة السياسية والاجتماعية والثقافيـة في القـرن العشرين، ويكفـي أن نقول إنه شاعر الحسـ المرهف والمشاعر الوطنيـة الجياشة الـذي هتفت الأجيال العربيـة من المحيط الأطلسـي إلى الخليج العربي، نشيده الهادر الذي أصبح نشيد الوحدة العربية:

بـــلاد الـــعـــرب أوطـــانـي
مـــن الـــشـــام لـــبـــغـــدان
ومـــن نجـــد إلى يمـــنٍ
إلى مـــصـــر فـــتـــطـــوان

مـن يعود إلى تـراث هذا المناضل الكبير، يجده ذلك الرجـل الذي كرّس حياته وماله وجهده لخدمة وطنه وأمته.. إنه تاريخ يتكلم.. ابن حي القنوات الشهير بدمشق، حيث كانت البداية لحياة حافلة بالعطاء والحيوية الدافقة والهوايات والمشاريع التي تركت آثارها شاهدة عليه حتى يومنا هذا.

لقد أخذت الموسيقا من حياة فخري البارودي الشيء الكثير، فكان أحد روادها في سوريـة والوطن العربي، فقد نظم الأزجال والأناشيد الحماسيّة والوطنية ليغنيها أهـل الطـرب وتلاميذ المدارسـ، حيث ملكت الموسيقـا قلبه ومشاعـره وأحاسيسه،

وأمضـى جـزءاً كبيراً مـن حياتـه يستمع ويقـارن وينتقـد ويدوّن ويقيـم الحفلات والأمسيات الغنائية والموسيقية في داره الشهيرة..

لقـد ألّف البـارودي «موسوعة الموسيقـا» التي جمع فيها معـارف عديدة وغنية عـن الموسيقا والموسيقيين والطـرب والمطربين في سورية والوطن العربي، ويجمع من عاصـره وعايشه علـى دوره الكبير في تقويم نشاز الـتراث الغنائي العربي، فقد كان يحفظ الوزن والنغم بكل دقة، ويعرف جيداً المقامات العراقية والبشارف الأندلسية، وكان لـه الـدور الكبير في الحفاظ عليها وبعثها من جديـد، وإحياء رقص السماح.. لقد كان موسيقياً في حياته ونثره وشعره، عن ذلك يقول: «ما حيلتي أنا ولع بالموسيقا وأيقن أن الطبيعة البشرية لا غنى لها عنها إلا إذا كانت شوهاء أو بتراء».



بحـث البارودي عن الموسيقا وأعلامها عبر التاريخ العربي، قاده إلى أبي العلاء المعـري، وعلاقتـه بالموسيقـا.. لقـد استغربت عندما وقعـت بين يـدي مقالة كتبها البـارودي عن «المعـري والموسيقـا» منذ أكثر من خمسـين سنة، فأبـو العلاء شاعر وفيلسوف حكيم وزاهد ولغوي ونحوي، أما أن يكون موسيقيًّا، فهذا شأن جديد.

لقد بحث فخري البارودي في حياة هذا الإنسان العظيم وأثر الموسيقا في نفسه، فقد كان المعري بصيراً انقطعت بينه وبين الدنيا الأسباب إلا بسبب من أذنه ولمسه، فـكان حري أن تراعي هـذه الأذن المرهفة كل ما حوله، والمعري لم ينقطع عن خوض مـا كان يخوض فيـه جميع النـاسـ، إلا بعد أن شـارف الأربعين من عمـره، فهو إذاً قبـل ذلك قـد استمع إلى الموسيقا ساعياً لسماعها أو غـير ساع، سمعها في الأفراح، وسمعهـا في المآدب العامـة، وسمعها من أفواه الحداة في القوافـل التي كانت تحمله بـين الشام وسمعهـا من صديق يدمدم، أو جار يترّنم علـى الأقل، وقد أثبت المعري،

تذوّقـه للموسيقا، وتحليله لآثارها واطلاعه على ضروبهـا وألحانها في شتى أشعاره ومؤلفاته.

أمـا اطلاعه على ضروب وألحـان موسيقا عصره فقد أنبأنا به كتاب «الفصول والغايـات» بتفصيل لا نجده عند مؤلفي ذلك العصر، حتى المغنيين منهم والملحنين، ويؤكد شعر ونثر المعري أنه لم يكتفِ بالعلم بطرق الألحان وضروبها، بل كان يتذوقها ويقـوم بتحليـل آثارها في نفوس السامعـين، يقول في «اللزوميّـات» ينعي التكبّر على الإنسان:

مـا كـبره وثـقـيـل الـلـحـن يمنعه
مـن سـرعـة الـفـهـم تـرسـيـل وتمـديـد

فالمعري لا يكتفي أن يعدد ضروب اللحن من ثقيل وخفيف الثقيل والرمل والهزج وغيرهـا، بـل إنه يعرف طبائع هذه الضروب معرفة مـن تخطت هذه الألحان سمعه إلى قلبـه وشعوره، فهو قد وعي طبيعـة اللحن الثقيل وشعر أن من طبيعة هذا اللحن أن لا يكون سريعاً إلى الفهم لطول الترسل والتمديد فيه.

ويـرى البارودي أن واحداً في المئـة من المغنيين- حتى الحذّاق منهم- لا يعرفون تأثـير صفات الغنـاء -التي منهـا الاسترسال والتمديـد- ولا بأس مـن ذكر بعض صفـات الغناء لـنرى أن أبا العلاء، كان في هذا الفن مـن العلماء، فمنها: الاجتهاد، والاستهـلال، والمناضلـة، والمخاتلـة، والتغريد، والتفخيـم، والترخيـم، والمراسلة، والمطاولـة، والترجيـع، والتفريـغ، والتقدير والتوطئـة، والاتفاق، وتقديـر الأنفاس، والإضعاف والتذلل، والاتصال والتحرّش، والابتداع.. إلى غير ذلك مما لا يعرفه إلا الراسخون في هذا الفن الجميل.. والمعري لا يكتفي بذلك، بل إنه يطلعنا على خبرته بعلاقات الألحان بعضها ببعض، وبأنه خبير بقواعد الانتقال من لحن إلى لحن حتى

يأتـي علـى آخرها، ففي «رسالة الغفـران» يقول على لسان ابـن القارح لإحدى قيان الجنة (اعملي قول أبي أمامة):

أمـــن آل مـيــة رائـــح أو مغتـد
عــجــلان ذا زاد وغـــير مــزود

ثقيـلاً أولَ (فتصنعه فتجيء به مطرباً، وفي أعضـاء السامع متسرباً، ولو نحت صنم من الأحجار، ثم سمع ذلك الصوت لرقص فيقول: (هلم خفيف الثقيل الأول) فتنبعـث فيه بنغـم، لو سمعه الغريض لأقـر أن ما ترنم به مريض فـإذا أجادته قال (عليك بالثقيل الثاني) فتأتي به فإذا رأى ذلك قال (سبحان الله كلما كشفت القدرة بدت لها عجائب، فصيري إلى خفيف الثقيل الثاني فإنك لمجيدة محسنة، ثم يقترح عليهـا الرمل وخفيفه وأخاه الهزج، فـإذا تيقن لها حذاقة وعرف منها بالعود لباقة، هلـل وكبّر وأطال حمد ربه واعتبر.. فمـن هذا الخبر يظهر لنا أن المعري كان عارفاً بأصول الخروج من لحن إلى لحن، إذ إن بين الأنغام توافقاً وتنافراً، وليست كل نغمة توافق السير مع غيرها من النغمات، بل إن هنـاك نغمات لا تأتلف مع غيرها البتة.



نرى بعض الجهلاء لعلم الموسيقا في أيامنا، يقترحون على مغنٍ أغنية من مقام (السيـكاه)، بينما يكون المغني آخذاً بإنشاد أغنية من (الحجازكار) مثلاً، ففي مثل هـذا الحال لا يعلم إلا الله تعالى مقـدار ما يصيب المغني من التأثر التنافري الواقع بـين النغمتين، وهذا مالم يغفل عنه المعري، كمـا تبين لنا سابقاً، وقد جاء في رسائل «إخـوان الصفا» أن الخروج من لحن إلى لحن، والانتقال منه ليس له طريق إلا على أحـد الوجهين، إما أن ينقطع ويسكت ويصلح الدساتـين والأوتار بالحذق والإرخاء، ويبـدأ ويستأنـف لحناً آخر، أو يترك الأمر لحاله، ويخـرج من ذلك اللحن إلى لحن

قريب منه، مماثل له، وهو أن ينتقل من الثقيل إلى خفيفه، أو من الخفيف إلى ثقيله، أو إلى ما قارب منه..

يرى المعري في الموسيقا لذة منزّهة، لا تخلب اللب، كما تفعل الخمر، ولا تثلم الشرف أو تنغص العيش، كما يحتمل أن تفعل النساء، وإنما هي لذة منزهة -كما قال- تسمو بالروح ولا تهيّج الجسد، إلا إذا استعانت بمعاني الشعر أو بحرارة الخمر أو بقرب الكواعب الغر.. فالمعري بين نارين، النار الأولى هي أنه يؤثر الموسيقا، لو كان يمكن أن تكون اللذة المنزهة الوحيدة التي يلجأ إليها الناس، وهو يشير دائماً إلى إعجابه بها:

وهواك عندي كالغناء فإنه

حسن لدي ثقيله وخفيفه

ويسترسل مع شعوره وخياله في عالم الألحان فيقول:

وغنت لنا في دار سابور قينة

من الورق مطراب الأصائل مهدال

والنار الثانية التي اكتوى بها المعري برضاه، وأراد أن يكوي بها جميع العالمين، وهي التسلح بكل قوى الإرادة لخنق الغرائز، وكبت المشاعر، واجتناب اللذائذ، والابتعاد عن كل ما يغري بالاستسلام لمفاتن ومباهج الحياة.

فهو إذاً على تذوقه وفهمه لرفعة شأن الموسيقا، مضطر إلى أن لا يجعلها تتكئ إلى غيرها من المتع واللذائذ الجسدية، ولا مغرياً يحرّك الغرائز ويذوّق الأماني والأحلام.



نعود إلى «زعيم الشباب» فخري البارودي الذي كان من أوائل المقاومين للاحتلال الفرنسي لسورية، فشارك في معركة ميسلون (٢٤ تموز ١٩٢٠م)، وكان من كبار المشاركين في التحريض على الثورة السورية ودعمها، فاعتقل أكثر من مرة، وسجن في سجن قلعة دمشق، وقام بتأسيس فرقة القمصان الحديدية، عام ١٩٣٦م التي أريد لها أن تكون دعامة للجيش السوري المقبل، ومن مآثره التي لم تتكرر «مشروع الفرنك» الذي يقضي بأن يدفع كل مواطن سوري فرنكاً سورياً واحداً (خمسة قروش) كل شهر، يُنفق في سبيل الدعاية للقضية العربية ولسورية في الخارج..

بعد استقلال سورية عام ١٩٤٦م، وجّه البارودي عنايته إلى إحياء التراث الموسيقي العربي وجمعه وتدوينه، وقام بإتمام مشروعه الرائد في إنشاء معهد للموسيقا بدمشق، فاستأجر داراً تصلح لهذا الغرض، واتصل بمن يثق بهم ، وبمن يتقنون تدريسها (نظرياً وعملياً) وقام بتسليم رئاسة القسم الغربي في المعهد إلى الموسيقي البارون الروسي «بلنك» واتصل بالشيخ علي الدرويش في حلب، ليسند إليه رئاسة القسم الشرقي (العربي)، وقد تخرّج من هذا المعهد كبار الموسيقيين والملحنين والعازفين، الذين ساهموا مساهمة فعّالة في نهضة الموسيقا في سورية والوطن العربي..

فخري البارودي، كان في حياته وأدبه وظُرفه ونضاله وفنه عربياً سوريّاً بامتياز، وهو القائل:

أنت سورية بلادي

أنت عنوان الكرامة



بودلـــير العـــرب

أن تكتب عن الشاعر والأديب علي الجندي بمناسبة رحيله عن عالمنا، كأنَّك تبحث في ذاكرة وخيال، وتحاور الزمان، وتبحر في زوارق وسفن مبحرات مع الليل، وتقيم حوارات مع آلهة الصحراء وعروس البحر..

عندما تقرأ شعر علي الجندي، تشعر أنَّك أمام عاشق المسك والحفاوة.. أمام شاعر الجلالة والرهبة، أمام راعي النجوم، وحامل ميزانها والثريا، وحاطب كل مواسمها الواعدة.. أمام شاعر العشق والبكاء.. وأنَّك أمام أمير في مقاصير نعمته الباردة.. وتشعر أيضاً أنَّك أمام خيبة العمر والأحلام والأوهام:

«آه أشعر بالبرد يمازج ناري،

كلّ جذوري تأكلها الديدان،

شيء يخترق مجاري نسغي،

يحفر فيه نفقاً،

ضوء يتفجر هناك، فأصبح شيئاً شفافاً،

من منكم يتسلق جذعي؟

من «يشلخ» غصناً مني.. »

لقد عَبَر وحده الجسر، والصمت البارد يلمس وجهه، وحمل جسمه آثار الفيضان وأهوال الرحلة من «طوروس» إلى «البصرة».. وها هو فوق تراب جزيرة الصمت، لا صوت ولا ظلاً للصوت.. النخيل يصلّي للعتمة، ويسأل عن دمشق وأحوالها في غيبته:

«.. متى يا دمشق يكون اللقاء؟!
متى أيُّها الحب تسعفني بالحنين المدمّر حتى أهاجر عن مقعدي،
فأهرب من كل هذي المساخر..
في كل عام تقام هنا باسم قاتلنا الشعر..
آه متى؟!
وباسم فلسطين غنوا،
وتاجر بعضهم بهويتها والجدائل!
باع الكثيرون أثوابها بالكلام المنمّق،
بعض تزين فوق المنابر،
حتى بدمع الجليل ودم الشهيد «شواربه»
وانتضى الفاء واللام والسين والطاء والياء والنون
سيفاً من الكذب المتواصل».



علي الجندي، في أدبه وشعره، مسح عن وجهه ريح الغروب، وتجاوز منذ زمن بعيد ضحكته المجلجلة، فتح في الصحراء آفاقه الجديدة، كان دائماً يقتفي ظل «الحبيب» وكثيراً ما ضلّ عن آثاره المحتملة، وساح في مجرى الأوهاد.. لقد خذلته الريح في البوادي، وأحسّ بوحشة الإيحاء في كل البلاد.. كل أصحابه راحوا، ولم يسمع سوى رجع الصدى.

«.. عَبَرنا بحار العواصف، جزنا برازخ ليل الصباب،

وطافت زوارقنا المستميتة ليلاً على كل مرفأ،

و.. عدنا ولا من مرايا لأشيائنا الضائعة!

ولا من صليب صغير، حزين لتمثال فجر الشباب..».

كانت الصحراء تسكنه، وتحتضن ظلمة حياته.. صوته السجين أغنية تودّع عهد العنفوان، وعند مفارق الطرق القديمة يحتسي حزنه ويغترب، ويشتمّ تراب أيامه التي أفلّت، وينتحب على أيامه الخالية، وعلى مدينته سلمية التي تنام وادعة في الخريف الشفيف، على شرفة البادية السورية، وأبناؤها الذين يرقبون حقول المواسم كل صباح بحب، وينتظرون أسابيعها الباقية، يروحون صبحاً.. يعودون عند المساء، ينامون.. أحلامهم لا تروّض جوعاً وقهراً وخوفاً من العاديات.. ولكنهم يحلمون!..

كان علي الجندي، متأثراً بالفلسفة والفلاسفة، وخاصة نيتشه، وأوسكار وايلد، الذي كثيراً ما ردد قوله الشهير: «إذا أردت أن تكتب، فاكتب بدمك» وبالفعل، كتب علي الجندي بدمه، بعد أن ملأ الغبار أيامه، وأحلامه، وبعد أن تسوّل مع «موسى ابن نصير في شوارع دمشق»، وتعرّف على الناس عن قرب.. بعضهم يغرق في النوم، وبعض ينفر للحرب، وبعض هاجر نحو حقول الصبّار ليجني رزق الشوك.. يخاطب موسى بن نصير، فيقول:

«..يا موسى،

ماذا تفعل في هذا البلد الموحش والناس يمرّون بوجهك

والعينين الزائغتين فما يلتفتون؟

إن عرفوك تغاضوا، أو جهلوك امتعضوا..

تبدو للناس جنازة إنسان مرميّ فوق رصيف الدنيا

فانفر يا موسى!

.. ينهض موسى بن نصير من قعدته المخزية،

يشد بقامته ما ساعده العمر التالف و..

يحدّق قدماً في لا شيء،

يجتزّ من الأشجار المهزولة غصناً و.. يسير،

يلوّح بالغصن بهمة شاب يتقن تلويح السيف،

يخاطب جمعاً وهمياً تمتمةً..

ويسير، ويسير.. تباطأ خطواته،

يتوقف،

يتّخذ الغصن اليابس عكازاً..».



كان علي الجندي في سنواته الأخيرة متعباً حتى الموت، كانت عيناه أكثر حناناً، فيه وداعة طفل شرس.. ما فارقه التعب ولا لحظة.. يهرب من وجع الحزن والملل، فيسقط في تعب متواصل، ومع ذلك ظلّ «الشاعر المتمرد» و«زوربا اليوناني» يرافقانه في إهمال، و«بوهيمية» كي ينسى غصّة الحياة ومرارتها، وكثيراً ما كان يحتكم إلى ذاكرة التاريخ التي لا ترحم، يبحث عن روّاد الحرف وروّاد الأمكنة والحارات الشعبية، في ليالي الغرباء، فيجتاز معهم سراديب من الظلمة المفترضة، وكان يطلّ على بحر اللاذقية فيرى في كثير من الأحيان فجاً من الأسماك، وتيارات من الأطفال، وأشفاقاً لفجر يتلظّى..

لقد تسكّع علي الجندي على أرصفة الخوف طويلاً، وفي كثير من الأحيان عاش

كأمير، يجهر بضحكته، وظلّ وفياً لزقزقة الفجر والاحتراق بأشفاقه اللهيبة.. ظلّ يقاوم، بما ملك من قوة، ولكن الفواجع كسرته، وتمرده كان في شعره وفي وحشته وألمه وغربته في عالم مبعثر متصدع..

«..عندما يحتلّني حزن مفاجئ

وأراني متعباً مثل حجر..

أحتوي شكلك ما بين يديّ

-أيها الوجه المالئ!..

وأداري شغفي، أغفو على صوت المطر

وأغني في خفوت وضجر:

«سائق الأظعان يطوي البيدَ طيّ».

«.. حبي نسيم الربيع قادني إلى الصحراء»

وكانت الصحراء وحشة والعطش شاملاً!

ووجهك غائباً عني.

انتهى كل الوهج خواء وا..أسفاه!».

علي الجندي، كان حتى أيامه الأخيرة يرفض الاعتراف بالشيخوخة.. كان أسير شخصيته الشابة دوماً، التي تمتلك القدرة على المزاح وسرعة البديهة.. حاول كثيراً أن يجمّل عالمه بالشعر، على طريقته الخاصة ، التي تؤكد شاعريته الدافقة وأسلوبه الخاص، الذي تميّز به بصورة خاصة في «رباعياته»:

.. أحلم في هذا العمر الموطوء..

بموسيقا رائعة التجوال خلال «دروب الغابات» المجهولة،

بالعزلة في برّية أحزاني المأهولة..

بالنوم على صدرك يا «ماما»

فيصير العالم قيلولة..



عاش علي الجندي «بعيداً في الصمت، قريباً في النسيان» إذا شاء جعل لوجهه أقنعةً للرقص، وأقنعة للمسرح، وأجنحة للهرب المتواصل..

أقفز، أتأرجح،

أشنق جسمي في الريح،

أدلّي قامتي المنهكة إلى البئر

أروح، أجيء مع النسمة،

أتدلّى في العتمة،

أتعلق ما بين الأرض الموحشة وأي سماء مقفرة..

أغمض عينيّ وأترك لضواري البريّة أن تغتال هدوئي،

أو تفترس حناني.

في «هواجسه الأخيرة» خفّ حماسه لكتاب العمر، بعد أن تراخى إيمانه بالكتابة في سنواته الأخيرة، كان يريد أن يكتبه في قالب روائي، أي أكثر من سيرة ذاتية، خلاصة فكر، ويبدو حتى هذه الأمنيات الصغيرة،كانت غير متاحة.. كان يفكر بغرفة حيناً، ويتصوّر الوحشة القادمة.. كان يفكر بالهجرة إلى سلمية والإقامة هناك.. هناك بعد كل هذا الرحيل عنها.. ماذا سيفعل؟!

يقول: «مجرد التفكير «بالتشرد» يصيبني بالصداع، فأنا على الرغم من أنني في الأعماق مشرد ونَوَري،لكنني عملياً كنت دائماً في بيت ومع الآخرين، والتشرد الفعلي بحاجة إلى شجاعة لا أمتلكها، وما أحسبني ملكتها يوماً، فأن تلقي بنفسك في الوحدة أو العوز أو الاستيحاش شيء لا يستطيعه سوى مريض بطل.. ويبدو لي أنني لم أكن كذلك مطلقاً!!».

شاعرنا الكبير، طوبى لمن ترك أثراً، وأعمالك الشعرية الإبداعية، سوف تبقى مدرسة ينهل منها عشاق الأدب والشعر والفكر والفلسفة.. سوف نبقى نحسّ بغربتك العزلاء، لأنك رسمت فوق جبين اللغة إشارة، وكنت كلمة تتلظى، وكان كل ما فيك أرجوان.. قامتك على امتداد القلم.. إبداعك قناديل تفيض بنور لاينضب..



معركــــة «اليونســـكو»

تداعيات خسارة وزير الثقافة المصري الأستاذ فاروق حسني، معركة «اليونسكو» استأثرت بمقالات ودراسات وتصريحات لا حدّ لها على مدى الشهرين الماضيين، في كبريات الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية العربية والعالمية، التي وصفت خسارته بالهزيمة المصرية والعربية، وإن مصر لم تستطع تحقيق طموحها بإدارة الصرح الثقافي الدولي الأعلى للدفاع عن التراث الثقافي للإنسانية، وحماية حريّة التعبير، وإن الأوروبيين نجحوا في الساعات الأخيرة من معركة الانتخاب، باستخدام «كاسحة» الاتحاد الأوروبي، لدعم البلغارية «إيرينا بوكوفا» لتكون أول امرأة مديراً عاماً لمنظمة «اليونسكو» التي لم يكن متوقعاً فوزها حتى من رئيس مجلس وزراء بلدها «بويكو بوريسوف» الذي قال تعليقاً على فوزها: «هذا اعتراف كبير لبلغاريا، لقد دعمنا ترشيح بوكوفا، بشكل هائل، ولكن في البداية بدت فرصها في الفوز ضئيلة جداً، وانتخابها لم يكن متوقعاً، وهو نصر كبير لدولة صغيرة مثل بلغاريا».

لقد اعتبر فاروق حسني أن فشله في الفوز بمنصب المدير العام لليونسكو يؤكد أن هذه المنظمّة أصبحت «مسيّسة» في حين عبّرت وسائل الإعلام العبرية عن «شماتة» واضحة، وأثبت الغرب بنهجه في انتخابات «اليونسكو» أنه غير معني إطلاقاً وغير حريص على حوار الحضارات..

لقد واجه فاروق حسني إرهاباً فكرياً وثقافياً، لا تقدر عليه إلا الصهيونية

العالمية التي تحرّكت بقوة وشراسة في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبة ضده، وكأنها كما قال عنها جهاد الخازن في «الحياة»: حملة صليبية جديدة على مرشح عربي، مصري، مسلم.. لقد جعلوا من كذبة «حرق الكتب الإسرائيلية» فطيرة مجبولة بالدم، وطالبوا بأن لا تضع «اليونسكو» بين يدي شرطي ثقافة، أو «إرهابي ثقافة».. الصهاينة لم ينسوا تصريحات سابقة قال فيها بأن الإسرائيليين يسرقون كل شيء، الإرث الموسيقي، السينما، وحتى الملابس، وأن إسرائيل في نظره تعرف، على الدوام، كيف تسرق ما ليس لها، وهم يذكرون أيضاً قوله: بأن الثقافة الإسرائيلية غير إنسانية، لأنها ثقافة عدوانية، عنصرية، دعائية، تستند إلى مبدأ بسيط: سرقة كل ما ليس لها، وإشهار ملكيتها له لاحقاً..

لقد كان واضحاً بأن إسرائيل تخشى وصول مرشح عربي، مهما كان «معتدلاً» إلى رئاسة «اليونسكو» المكلّفة بحماية التراث الإنساني العالمي، لأن الدولة الصهيونية ترى ذلك تهديداً لما تقوم به من أعمال منافية للتشريعات والقوانين الدولية وخاصة فيما يتعلق بمحاولات تهويد القدس وطمس معالمها العربية والتاريخية.



لقد ألقت خسارة فاروق حسني تداعياتها على الأوساط الثقافية والسياسية، لدرجة أن هناك من طالب الحكومة المصرية بالتحقيق في أسباب خسارة منصب مدير عام منظمة «اليونسكو»، وهناك من طالب الدول العربية والإسلامية بالانسحاب من منظمة «اليونسكو» احتجاجاً على التحالفات غير الشريفة التي واجهت المرشح المصري لإسقاطه، لأن «قلعة الثقافة العالمية» تحوّلت إلى أداة سياسية تتلاعب بها الدول الكبرى، وأن ما جرى يكشف عن عنصرية غربية لا تقيم وزناً لأي مرشح عربي، ولا للحوار الثقافي بين الشمال والجنوب، الذي تعمّق إثر انتخابات «اليونسكو» وبرزت

مقولة «كبلنج» شاعر الإمبراطورية البريطانية قبل أن تغرب عنها الشمس: «الشرق شرق، والغرب غرب ولن يلتقيا..»..

لقد سقط فاروق حسني بعد أربع جولات من الانتخابات، وكان الفائز الأول عندما اتسعت دائرة المنافسة، ولكن عندما انحصرت المنافسة بين المرشحة الأوروبية وزيرة الخارجية البلغارية «إيرينا بوكوفا» وبين مرشحنا العربي الإسلامي، ظهر وجه أوروبة الخائف من «الإسلاموفوبيا» التي زرعوها في عقول أبناء دول الشمال، بطريقة بعيدة كل البعد عن الدين الإسلامي السمح، وحصل ما حصل.. لقد تحالف اللوبي الصهيوني مع الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبة، وسقط مرشح الجنوب في الجولة الأخيرة، بعد معركة شرسة خاضها في مواجهة تحالف دول الجنوب، لتتحول «اليونسكو» إلى أداة سياسية تخضع لموازين المصالح السياسية بدلاً من الثقافية.. إنها السياسة الأكثر تأثيراً في أي انتخابات لمنظمة دولية، وهذه الانتخابات لم تكن كل أوراق اللعبة السياسية في الأيدي المصرية، على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها الحكومة المصرية خلال أكثر من سنتين.. ألم يكن انتخاب «ماتسورا» الياباني انتخاباً سياسياً؟! ألم يفز على مرشح السعودية «غازي القصيبي» رغم الثقل الاقتصادي، وعلى مرشح مصري لم تسانده السياسة المصرية؟! ألم يكن انسحاب الولايات المتحدة من «اليونسكو» لنحو /٢٠/ عاماً بدوافع سياسية؟!.

لقد قدّمت الحكومة المصرية تنازلات كثيرة للفوز بمنصب مدير عام «اليونسكو» وكانت أولى بوادرها، اعتذار وزير الثقافة الأستاذ فاروق حسني عن تصريحاته بحرق الكتب الإسرائيلية، والوعود بترجمة هذه الكتب إلى اللغة العربية، والقيام بترميم الآثار اليهودية في القاهرة واتخاذ خطوات نحو الانفتاح على فكر العدو الصهيوني..

لقد سعت الحكومة المصرية بكل الوسائل الممكنة إلى إزالة الحواجز والعقبات

التي تعترض مرشحها، ولكن الحملة الصهيونية والأمريكية كانت أقوى، وصورته صحيفة «ليبراسيون» الفرنسية بأنه «الرجل الذي يحلم بإحراق الكتب»، وفي خضم الحملة المعادية، لم يشفع لفاروق حسني ما يشتهر به من «اعتدال» و«فرانكوفونية» و«موالاة للغرب» وبجرة قلم أصبح «معادياً للسامية»، وبين يوم وليلة تحوّل إلى بطل مهزوم فاقد الصلاحية.. ولخصت مجلة «روز اليوسف» ما حدث بأنه «حرب حضارية طاحنة تؤكد أن الغرب يقف ضد الآخرين في اللحظة الحاسمة على أساس الدين»، وأعربت المنظمات الصهيونية عن سعادتها بـ«انتصار العقل» بعد اختيار «بوكوفا» لرئاسة «اليونسكو» فيما قال الكاتب اليهودي «إيلي فيزل» الحاصل على جائزة «نوبل» للسلام: «إن اليونسكو نجت من فضيحة ومن كارثة أخلاقية».



يقول غازي القصيبي، المرشح العربي السابق لمنصب مدير عام «اليونسكو»: «بعد الحدث يصبح كل الناس، حتى أكثرهم غباءً (حكماء) والهزيمة طفل يتيم، أما الانتصار فيدّعيه ألف أب وأب» وهكذا كتبت مقالات لا حدّ لها عن العوامل التي ساهمت في سقوط فاروق حسني، منها ما يتعلق بشخصه، وما يمثله سياسياً، ومنها ما يتعلق بأعماله وعدم الرضى الصهيوني عنه، ومنها ما يتعلّق بالأداء الوظيفي، فقد واجه أشرس الانتقادات في بلاده، وكيف سيكون الحال فيما لو نجح في اجتياز امتحانات «اليونسكو»؟!..

في كتابتنا عن «معركة اليونسكو» حاولنا أن نقرأ ما حدث قراءة لا تستند إلى العواطف ولاتشتعل بالانفعال، لقد عرفت الأستاذ فاروق حسني منذ نحو عشرين عاماً، من خلال عملي في اللجنة الدائمة للثقافة العربية، ومشاركتي في مؤتمرات الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، ومؤتمرات وزراء الثقافة الإسلامية، والمؤتمرات العامة لليونسكو، وغيرها من اللقاءات، وكان آخرها في

مؤتمر وزراء الثقافة العرب الذي عقد في دمشق، خريف العام الماضي، بمناسبة الاحتفاء بدمشق عاصمة للثقافة العربية، وقد وجدت في هذا الرجل حبّه لمصر وللعرب وللثقافة العربية، وانفتاحه على الآخر بلباقة نادرة، على عكس ما يدّعيه منتقدوه من حملة بعض الأقلام، ويبدو أن قدره أن يُنتقد لأنه بقي كل هذه المدة في منصب وزير الثقافة (٢٢عاماً)، والطريف أن وزير الثقافة الفرنسي السابق «أندريه مالرو»، كان سيصبح «عدو الثقافة رقم واحد» في فرنسا، لو بقي في منصبه كل هذه المدة»..

الرأي عندي، الحمد لله لأن «كوتشيرو ماتسورا» لم يسلّمه صولجان منظمة «اليونسكو»، لأنها أصبحت خلال العقد الماضي رازحة، تحت عبء البيروقراطية، وبالتالي سوف يتحمّل المدير الجديد مسؤولية كل هذه التركة الثقيلة، التي يسيطر عليها ويحمل مفاتيحها مجموعة من البيروقراطيين المتمسكين بالدفاع عن مواقعهم، وتعزيزها..

لقد شاركت في عشرة مؤتمرات عامة لليونسكو منها خمسة في ظل إدارة السيد «كوتشيرو ماتسورا» من عام ١٩٩٩ وحتى عام ٢٠٠٩م وتعرّفت على هذا الإنسان المتواضع من خلال هذه المؤتمرات واللقاءات التي تقام على هوامشها، ومن خلال زياراته الأخيرة إلى دمشق في شهر كانون الثاني /يناير ٢٠٠٩.. والسؤال الذي يطرح نفسه ماذا قدّم لليونسكو؟! وماهي حقيقة الإصلاح الذي قام به؟! وهل مازالت اليونسكو تلبّي الأهداف التي أناطتها بها الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٥: «بما أن الحروب تنشأ في نفوس البشر، فيجب إذاً تنمية الدفاع عن السلام في تلك النفوس نفسها» وللتوصل إلى ذلك، أوصت الأمم المتحدة بتكثيف التبادل الحرّ في مجالات التربية والعلوم والثقافة والاتصالات، من أجل التوصل إلى سلام يرتكز على مثال أعلى «ديمقراطي مع احترام التنوع الثقافي لكل بلد».



في دراسة نشرتها مجلة «لوموند ديبلوماتيك» الفرنسية، عشيّة انتخاب المدير العام الجديد لليونسكو، تحدثت عن حال المنظمة، وعن حصاد السيد «ماتسورا» التي وجدت المنظمة نفسها في عهده بإدارة شخص لا علاقة له بمجالات الكفاءة، ولا بمجالات الأنظمة والقواعد التي تدير العمل، والحقيقة أن «ماتسورا» بعد تسلمه السلطة، انخرط في طريق «الإصلاح» الاقتصادي، وسمحت له تلك السياسة بمحو أي أثر للشؤون الإدارية، ولبرنامج «ثقافة السلام» الذي وضعه سلفه الإسباني «فيديريكو مايور»، وقام بإلغاء خمسين وظيفة رفيعة المستوى، من أجل تقليص النفقات، وألغيت مجلة «رسالة اليونسكو» التي ظلّت رمزاً للمنظمة منذ عام ١٩٤٧، وكانت تترجم إلى ثلاثين لغة، ومنها العربية طبعاً، وأبجدية المكفوفين «البراي»، وأتلفت آلاف الكتب والتقارير والأبحاث والمنشورات والوثائق، بسبب عدم توافر مكان كاف لحفظها، وتعرّض أعضاء المجلس التنفيذي لليونسكو للتنكيد والتحييد، وانكب «ماتسورا» على تنفيذ «الإصلاحات» التي يحبذّها الأمريكيون، مما أثر بشكل كبير على أداء المنظمة ودورها الثقافي العالمي..

لقد جرى في الدورة الخامسة والثلاثين للمؤتمر العام لليونسكو التي عقدت في باريس بين (٦ و٢٣) تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٩، اعتماد مشاريع البرامج والميزانيات لنشاطات عامي (٢٠١٠ و٢٠١١) التي أعدّها السيد «هانز دورفيل» وهو عضو بارز في فريق عمل السيد «ماتسورا» وكانت منسوخة بوضوح عن سياسات إدارة المدير السابق، وتستعيد أساساً شوائبها، مع فارق بسيط أن «أمانة السر» أو ما تعرف بـ «السلطة الثالثة» اعتبرتها مدافعة عن الذات، وهكذا ستعيق الإدارة القديمة الإصلاحات المرتقبة من جانب الإدارة الحالية، وحين ذاك لن يتمكن أحد من ادعاء الجهل لتبرير تفكك المنظمة الثقافية والفكرية الوحيدة في نظام الأمم المتحدة.

إن ما حدث ، حدث في انتخابات منظمة «اليونسكو» المهم أن يستفيد العرب جميعاً من التجربة، من السهل أن يقول الرئيس المصري لوزير ثقافته: «ارم وراء

ظهرك» ومن السهل أن نقول له «حظاً سعيداً في المرة القادمة» ولكن الأهم فهم قواعد الانتخابات في أي منظمة دولية، وأن ندرك أسرار اللعبة، ولا نخوض المنافسة بالاعتماد على «العنتريات» التي ذهب زمنها منذ زمن بعيد..

غازي القصيبي الذي سبق أن ذاق طعم الخسارة في الدورة الانتخابية السابقة، وجّه رسالة بعد كل ما حدث، قال فيها:

- الدرس الأول: لا تصدق ما تسمع من وعود.

- الدرس الثاني: المعركة الحقيقية لا تبدأ مع انطلاق الحملة، بل مع ميلاد كل ترشيح.

وبعبارة أقل دبلوماسية، يعني الدرس الأول، أن الدول عادة لا يهمها من هو المرشح، ولا ما هي مؤهلاته، بقدر ما يهمها أن تحمي مصالحها الوطنية الضيّقة، وإذا ما ألقت بها هذه المصالح في اتجاه معين فسوف تتبعه وتذهب كل الوعود المعسولة أدراج الرياح، والدرس الثاني يعني بصراحة، أن كل مرشح جديد هو في الحقيقة خصم جديد (لا مجرد منافس) خاصة إذا كان ينتمي إلى قارة المرشح العربي، أو يطمح في الحصول على أصوات الدول ذاتها.

والآن بعد أن اتضحت الصورة، يمكن القول إن تجاهل هذين الدرسين، كان في نهاية المطاف المسؤول، إلى حدّ كبير، عن هزيمة العرب الجديدة، وما حدث «كان ردّة حقيقية إلى عهد الحرب الباردة، ومعارك الشمال والجنوب» وتكرار لمذّلة عربية بلا مقابل على وقع أنغام السلام الوهميّة..



الاستثمار في التنوّع الثقافي والحوار بين الثقافات

اجتماعات المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة «اليونسكو» (الدورة الخامسة والثلاثون) التي عقدت في باريس بين (٦ و ٢٣ تشرين الأول الماضي) أتاحت لنا فرصة الحضور والمشاركة في إطلاق تقرير اليونسكو العالمي حول «الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات» بحضور أكثر من /٢٠٠/ دولة ومنظمة عالمية وشعبية، وكانت مناسبة للإطلاع على أهداف وغايات هذا الموضوع الذي برزت معانيه منذ مطلع القرن الحالي، وارتبطت به محاولات إظهار أهمية التنوع الثقافي في مجالات مختلفة (اللغات، التعليم، الاتصال،الإبداع) التي يمكن أن تعتبر أساسية لصون التنوع الثقافي والترويج له بهدف إقناع صناع القرار، ومختلف أصحاب المصلحة، بأهمية الاستثمار في التنوع الثقافي كبعد من أبعاد الحوار بين الثقافات، والطرق التي يجب أن نقوم بها إزاء التنمية المستدامة.

يكشف التقرير المنظورات الجديدة لتحديّات التنوع الثقافي، ويسعى إلى وضع الحلول لها من خلال فهم أفضل للظواهر الكامنة خلفها، بما يتمشّى مع أعمال سابقة قامت بها «اليونسكو» مثل: «تنوعنّا الخلاّق» و«العرق والتاريخ» الذي كتبه «كلود ليفي شتراوس» في عام ١٩٥٢، حيث أشار عالم «الانتربولوجيا» الفرنسي إلى وجوب عدم الاقتصار في حماية التعدد الثقافي على حفظ الوضع القائم: «فالتنوع نفسه هو الذي يتعيّن إنقاذه، وليس الشكل الخارجي المرئي الذي تلبسُه كل مرحلة من هذا التنوّع»..

التنوع في الوجود

التنوع الثقافي يعني ضمان استمرار التنوّع في الوجود، وليس استمرار حالة معينة من حالات التنوع في تخليد نفسها إلى ما لا نهاية، ويفترض هذا توفر القدرة على قبول التغيّر الثقافي والحفاظ عليه، دون اعتباره من أحكام القدر، وقد بيّن تقرير اللجنة العالمية المعنية بـ «الثقافة والتنمية» على أن التنوع الثقافي ليس ببساطة مجرد أصل من الأصول الممتلكة التي ينبغي حفظها، بل هو مورد يحتاج إلى تعزيزه والترويج له، مع الاهتمام بصورة خاصة بما له من فوائد محتملة، بما في ذلك المجالات البعيدة عن الثقافة بمعناها الضيق.

بعد هذا المدخل، ترى ما هو التنوّع الثقافي؟!: التنوع الثقافي بالدرجة الأولى حقيقة واقعة، فهناك مجموعة واسعة متباينة من الثقافات المتميّزة التي يمكن التمييز بينها على أساس الملاحظة «الاتنوغرافية» حتى وإن كان تحديد الخطوط التي ترسم حدود ثقافة معينة أصعب مما قد يبدو للوهلة الأولى، إضافة إلى ذلك، فإن الوعي بهذا التنوّع أصبح اليوم أمراً شائعاً، إذ يسّرت له تقنيات العصر تبادل المعلومات، وتزايد تقبّل المجتمعات لبعضها البعض، وأصبح التنوع الثقافي شاغلاً رئيساً من الشواغل الاجتماعية، وقد وجدت دول العالم نفسها حائرة في كيفية الاستجابة، وكثيراً ما يتطلب الأمر استجابة عاجلة، وهذا ما أوقعها في البحث عن استنباط طرق جديدة، وبروز صعوبات عديدة.

تكمن الصعوبة الأولى في الطابع الثقافي، فكثير من المجتمعات ترجع في أصولها إلى إثنيّات عرقية ولغوية متعددة، مما يدعو إلى اعتماد تعريف أوسع للثقافة، ولكنه يجب أن يتمشى مع التعريف الذي جسّده «إعلان مكسيكو بشأن السياسات الثقافية» الذي أصدرته «اليونسكو» عام ١٩٨٢: «مجموعة الصفات الروحية والمادية والثقافية والعاطفية المتميزة بكاملها بما يتحدد به المجتمع أو المجموعة الاجتماعية» ولا يشمل ذلك «مجرد الفنون والأدب، بل كذلك أساليب المعيشة والحقوق الأساسية للكائن الإنساني ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات».

الصعوبة الثانية، تتعلق في تحديد مكونات التنوّع الثقافي، وفي هذا الصدد تُعطى مصطلحات «الثقافة» و«الحضارة» و«الشعوب» معانٍ تتباين حسب السياق العلمي أو السياسي، ففي حين أن «الثقافات» تشير إلى كيانات، تُعرّف علاقة الواحدة بالأخرى، فإن مصطلح «الحضارة» يشير إلى ثقافات أكدت قيمها أو رؤاها للعالم، باعتبارها عالمية وتتبنّى نهجاً توسعياً إزاء تلك التي لا تشاطرها هذه القيم أو الرؤى (أو لم تشاطرها ذاك بعد).. غير أن الحضارة في مفهوم «اليونسكو» وهو مفهوم بعيد عن النظريات الإيديولوجية التي تتنبأ بوقوع «صدام الحضارات» ويقول: بأنه «عملية مستمرة لتقبّل كل ثقافات العالم على قدم المساواة في إطار مشروع كوني دائم».

الصوبة الثالثة، تتعلق في علاقة الثقافات بالتغيّر، فقد احتاج الأمر إلى سبعة عقود خلال القرن العشرين، للبدء في فهم الثقافات، باعتبارها كيانات متغيّرة، وكان الاتجاه قبل ذلك يميل إلى اعتبار الثقافات ثابتة أساساً «تتناقل» الأجيال مضمونها عبر قنوات مختلفة، من قبيل التعليم أو ممارسات دخول المجتمع على اختلافها، أما اليوم، فإن الثقافة تفهم على نحو متزايد، بأنها عملية تتطور من خلالها المجتمعات على مسارات خاصة بها، ويفي مفهوم الاختلاف بصورة مناسبة «بالديناميكية» الخاصة بها التي تجعل الثقافة تتغيّر مع الحفاظ على نفسها كما هي، وما نحتاج إليه هو وضع سياسات تضفي صبغة إيجابية على «الفروقات الثقافية» بحيث يمكن للمجموعات التي تتصل فيما بينها أو للأفراد الذين يحتكون فيما بينهم، العثور في ذلك «الفارق» على الحافز الذي يدفع إلى متابعة التطور والتغيّر، وليس الانطواء في هويات مغلقة، وهذا يدفعنا على وجوب إتباع نهج جديد إزاء التنوّع الثقافي، وهو نهج يراعي الحركية، وتحديات الهوية مما يرتبط بدوام التغيّر الثقافي، وهنا يكمن التحدي الرئيسي في كيفيّة «إدارة التنوّع».

تحديات جديدة

هناك تحديات جديدة أمام «التنوّع الثقافي» يطرحها نحو شبكات الاتصال والمعلومات، وتزايد التداخل والتشابك بين الاقتصاديات الوطنية وتطور الأسواق، والتوسع في الصلات بين الثقافات على تنوعها، وقد أدت «العولمة» إلى اندماج

التبادلات المتنوعة المتعددة الثقافات، وتخفيف الارتباط بين الظاهرة الثقافية وموقعها الجغرافي من خلال نقل الأحداث والتأثيرات والتجارب البعيدة إلى جوارنا مباشرة، و «العولمة» أدت أيضاً إلى نمو الهجرة الدولية، مما أدى إلى تغيرات ثقافية مستحدثة، تدل على أن التنوع يتولد باستمرار، كما أن نمو السياحة الدولية يشكّل ظاهرة أخرى لها آثار محتملة مهمة على التنوع الثقافي ونشوء أشكال جديدة من التفاعل بين الثقافات..

في سياق تعدد الثقافات، يختار بعض الناس اعتماد شكل معيّن من أشكال الهوية، في حين أن آخرين يختارون العيش بهوية مزدوجة، بينما يعمد غيرهم إلى خلق هويات هجينة لأنفسهم، مما جعلنا أمام عصر جديد لاستكشاف مفهوم التنوع الثقافي يعتمد على التفاعل المثمر بين جميع شعوب البشر، وهذا يتطلب وضع أسس جديدة للحوار بين الثقافات، تتجاوز حدود النموذج السائد في «الحوار بين الحضارات» وتشمل مستلزمات ذلك النظر في طرق التواصل بين الثقافات، وإدراك أوجه التشابه الثقافي المشتركة، والأهداف المتقاسمة، وتحديد التحديات التي ستواجهها عملية التوفيق بين الفوارق الثقافية.

الثقافات ليست كيانات ساكنة منكمشة على ذاتها، كما صورتها نظرية «صدام الحضارات» لصموئيل هنتفتون، التي تفترض وجود انتماء وحيد، وليس انتماءات متعددة بين المجتمعات البشرية، ولا تراعي الترابط التكافلي والتفاعلي الثقافي فيما بينها، فوصف الفوارق بين الثقافات باعتبارها تصدعات أرضية عميقة يعني تجاهل مساميّة الحدود الثقافية والإمكانات الخلاّقة لدى الأفراد الذين تحيط بهم هذه الحدود.

في مختلف مراحل التاريخ، يجد التداخل والتشابك بين الثقافات تعبيراً في أشكال وممارسات ثقافية مختلفة، من الاستعارات والتبادلات الثقافية (طريق الحرير – طريق التوابل..) إلى فرض الثقافات عن طريق الحروب والفتوحات والاستعمار وغيرها... واليوم وعلى الصعيد النظري، على الأقل، أدى الاعتراف

بعالمية حقوق الإنسان، إلى التمكّن من التفكير في قيام تبادلات حقيقية على أساس المساواة بين جميع ثقافات العالم، ونشأت لقاءات واستعارات وتبادلات ثقافية أكثر انتظاماً من شأنها التفكير في تصنيفات الفئات الثقافية والاعتراف بتعدد مصادر هويتنا، مما ساعد على تحويل التركيز عن «الفوارق» باتجاه قدراتنا المشتركة على التطور والتغيّر من خلال التفاعل ومعرفة التاريخ، وفهم القواعد الثقافية التي تتغلّب على القوالب النمطية الثقافية عن طريق الحوار بين الثقافات.

القوالب النمطية وخطر توقف الحوار مع الآخر

القوالب النمطية الثقافية، ترسم الحدود الفاصلة بين مجموعة ما من جهة، و «الآخر» الغريب من جهة أخرى، لذلك فإنها تحمل معها خطر توقف الحوار عند عقبة الفوارق، وإمكانية أن تولّد الفوارق، التعصّب، والثقافات التي تنتمي إلى تقاليد حضارية مختلفة، ميّالة، بشكل خاص إلى تعريف كل منها للأخرى من خلال القوالب النمطيّة، والتوترات بين الثقافات كثيراً ما تهيمن عليها نزاعات الماضي المتبقية في الذاكرة، والتفسيرات المتعارضة لأحداث خلت، والمنازعات بين القيم، وخصوصاً، القيم الدينية... ويبقى الحوار، هو مفتاح التغلّب على تلك العداوات العميقة الجذور، وإجهاض تعبيراتها السياسية التي كثيراً ما تتسم بالعنف، ويكمن التحدي الثقافي، الذي يواجهه كل مجتمع متعدد الثقافات، في التوفيق بين الاعتراف بالخصائص الثقافية، وحمايتها واحترامها من جهة، وبين تأكيد القيم المشتركة عالمياً، والناشئة عن التفاعل بين هذه الخصائص الثقافية، والترويج لهذه القيم، من جهة أخرى، وفي سياق العمل على مواجهة هذا التحدي، يمكن للتوترات بين الهويات المختلفة أن تصبح القوة الدافعة لتجدد الوحدة الوطنية على أساس فهم التماسك الاجتماعي باعتباره تكاملاً بين مكوناته الثقافية المتنوعة.

يعتمد الحوار بين الثقافات، إلى حدّ بعيد على كفاءات التعامل بين الثقافات، وتعرّف بأنها مجموعة القدرات اللازمة للتفاعل بصورة مناسبة، مع أولئك المختلفين عنك.. وهذه القدرات تتعلق بالتواصل أساساً، بيد أنها تنطوي أيضاً، على إعادة تشكيل منظوراتنا وفهمنا للعالم، فالأمر لا يتعلّق بالثقافات بقدر ما يتعلّق بالناس،

من أفراد وجماعات، بما لديهم من تعقيدات و ولاءات متعددة، الذين يشاركون في عملية الحوار، فما يقرر النجاح في الحوار بين الثقافات ليس معرفة الآخرين، بل القدرة الأساسية على الاستماع والمرونة المعرفية والتعاطف والتواضع وحسن الاستقبال.

المرأة ودورها في عملية الحوار الثقافي

للمرأة دورها الكبير في عملية الحوار بين الثقافات، والترويج للتنوع الثقافي، لأنها في كثير من الأحيان «حاملة القيم» في عملية نقل اللغة والقواعد الأخلاقية، ونظم القيم، والمعتقدات الدينية والأنماط السلوكية... ويكمن مفتاح النجاح بين الثقافات وبين الأديان، في الاعتراف بالمساواة في الكرامة بين المشاركين، ويفترض هذا الاعتراف بما لديهم من أشكال متنوعة للمعرفة، ومن طرائق التعبير والعادات والتقاليد واحترامها، كما يفترض بذل الجهود لخلق سياق ثقافي محايد للحوار، يمكّن المجتمعات من التعبير عن نفسها بمنتهى الحرية.

ومن منظور التنوع الثقافي ينظر إلى اللغات باعتبارها الحامل للهوية والقيم ورؤى العالم، ويعكس تنوعها، تكيف المجموعات البشرية الخلاّق مع بيئاتها الطبيعية والاجتماعية المتغيّرة، ويعتقد علماء اللغة، أن نسبة كبيرة من لغات العالم سوف تندثر خلال القرن الحالي، فنصف اللغات الموجودة - اليوم – ويقدر عددها بين (٨٠٠٠ و ٦٠٠) لغة، يتكلم بها أقل من (٦٠،٠٠٠) شخص، ويقال إن لغة واحدة من هذا النوع، يختفي كل أسبوعين.. في حين أن نمو لغات التفاهم (الانكليزية خاصة) المرتبطة بعمليات «العولمة» يخلّف آثاراً كبرى على اللغات في مختلف أنحاء العالم، وهذه اللغات تتغيّر استجابة لشروط سياسية واقتصادية وثقافية لا تعد ولا تحصى، كما أن الآثار التي تخلّفها «العولمة» على التنوع اللغوي بعيدة عن البساطة، وكثيراً ما تكون متناقضة، وفي كثير من الحالات لا يجري التحول من لغات الأقليات، باتجاه الإنكليزية، بل باتجاه لغات منافسة، ولهجات إقليمية أخرى، مما يوحي بأن الاستخدام الواسع الانتشار للانكليزية قد يقتصر على غايات محددة، مثل التواصل الوظيفي، كما أن «العولمة» قد شجعت على إتباع نُهج هجينة أكثر تعددية

إزاء الإنكليزية، وقد تعرضت مجتمعات لغوية كثيرة للتشتت في مختلف أنحاء العالم بسبب الهجرة أو التوسع الاستعماري، أو نزوح اللاجئين أو الانتقال لأسباب مهنية، ومع تزايد تعدد أشكال الروابط بين اللغة والمكان تصبح أنماط التواصل شديدة التنوع وتتسم بتبدل القواعد والتعددية اللغوية، واختلاف إمكانيات الاستقبال باللغات أو اللهجات المتباينة، كما تتميز بخليط من المهارات الكاملة والجزئية والمختصة، وبهذا الشكل، تتمكن الشبكات المتوسعة باستمرار، والمستندة إلى الهواتف النقّالة و «الانترنيت» السريعة، وغير ذلك من «تكنولوجيا» المعلومات والاتصالات من خلق أشكال جديدة من الاجتماع البشري، لم يسبق لها مثيل من حيث حجمها ومرونتها، وتشمل المدن والدول والثقافات، وهذه الأشكال بدورها تصنع أشكالاً وممارسات لغوية جديدة ترتبط بهويات ثقافية جديدة، توسع من الحدود القائمة بين المجالات العامة والخاصة، وبين الأبعاد الاجتماعية والثقافية والتعليمية، بل وتعيد رسم هذه الحدود.

على الرغم من تعقّد العالم المعاصر، فإن كثيرًا من اللغات، تبقى ذات «مجال ضيق» ومحدّدة بالثقافة، إلى حد كبير، وتتكيف اللغات مع الأوضاع «الإيكولوجية» المحددة، شأنها في ذلك شأن الأنواع في الطبيعة، كما وأن لها تاريخيتها على غرار الآثار الثقافية، وتؤدي اللغات، وظيفة مهمة في رسم الحدود بين مختلف المجموعات الاجتماعية، وعند اختفاء لغة ما، فإن استرجاعها أصعب بكثير من استرجاع أي من المكونات الأخرى للهوية، وتمارس اللغات المهيمنة سلطة اجتذاب المتكلمين بلغات الأقليات، فالشباب بخاصة، يميلون إلى إلباس هويتهم لباس لغات الأكثرية لأغراض التواصل، وينعكس هذا عبر الأجيال المتعاقبة، في ضياع كثير من اللغات العامية، مع ما كانت تجسّده من تنوّع ثقافي..

ويعتبر كثيرون أن حيوية اللغة معيار يقاس به التنوع الثقافي، نظرًا لأن الجوانب الرئيسة في الثقافة الإنسانية جميعها- عمليًا- إنما تعتمد على اللغة في تناقلها، لذلك فإن تنشيطها مرهون بعودة المجتمع إلى تأكيد هويته الثقافية، ويمكن لـ «تكنولوجيا» المعلومات والاتصالات الجديدة أن تؤثر إيجابيًا على جهود التنشيط هذه، ويتحقق

أكبر نجاح في حال مشاركة وسائط الإعلام في الجهد العام، ولا يمكن النجاح في تنفيذ كل ما ذكرناه إلا من خلال التعليم، حيث حددت اللجنة العالمية المعنية بالتعليم للقرن الحادي والعشرين ذلك بـ: «التعلّم من أجل أن تكون» و«التعلّم من أجل أن تعرف» و«التعلّم من أجل أن تفعل» و«التعلم من أجل العيش المشترك» وهذه البنود الأربعة يجب أن يحتل التنوّع الثقافي مكانًا له في صميمها، وقدرات التعامل مع الثقافات ينبغي ألا تقتصر على الصفوف المدرسية، بل يجب أن تمتد لتشمل «جامعة الحياة» ولا بد من تعزيز الشمول في الصفوف الدراسية والبيئة المدرسية عمومًا، ومن خلال إشراك الأبوين والمجتمعات المحلية..

ثقافة القرية الكونية

ومع تحوّل العالم تدريجيًا إلى «قرية كونية» فإن المشهد الذي يشمل الصحافة والكتب والإذاعة والتلفزيون والسينما والانترنيت ومختلف أنواع الأدوات الرقمية أصبح يلعب دورًا رئيسًا، في تشكيل أذواقنا وقيمنا ورؤانا العالمية، وفي خلق فرصٍ أكبر للحوار بين الثقافات، ولتعدد الأصوات، واستكشاف ما هو مختلف ومجهول، وتدفق الأفكار بصورة حرّة وطليقة، وهنا يتعيّن أن يحتل التنوّع الثقافي مكانة في قلب الإعلام الجيد.

ومن الأهمية الإشارة إلى العلاقات المتداخلة بين التنوّع الثقافي، ومجموعة عريضة من الأنشطة بدءاً من الخلق الثقافي، ومرورًا بإضفاء الصبغة التجارية على أشكال التعبير الثقافية، وحتى التأثيرات الأوسع للثقافة على الأعمال والسوق، وبهذا المعنى يمكن أن يعتبر الخلق الفني، وجميع أشكال الابتكار التي تغطي مختلف جوانب النشاط البشري مصادر أولية مبدعة للتنوع الثقافي، الذي يقود بدوره إلى الإبداع، وهنا يجب أن نتجنب فكرة الإبداع المتمركزة حول «الإثنية» فالإبداع ينبغي أن يفهم باعتباره يشمل كل أنواع الإنتاج المادي الذي يعطي به الإنسان معنى لوجوده، وتختلف حدود «الفن» إلى حد كبير، بين الثقافات، مما يعكس التباين في الرؤية، وفي المواد والتقنيات المتاحة أمام المجتمعات المعنية، وقد تميّز النصف الثاني من القرن

العشرين بتنوّع كبير في الأذواق والأماكن والأسواق في عالم الفن، ونحو التبادلات الفنية في مختلف أنحاء العالم..

ومن منظور الممارسات الفنية المعاصرة، فإن العالم ينتقل إلى أشكال من التعبير، باتجاه الخارج، ولم يعد مبنيًا على أساس العلاقة بين المركز والإقليم، وقد أسهم هذا التوسع في الرؤى والتعبيرات الفنية إلى أشكال من الإغناء المتبادل تنعكس في جميع أشكال الإبداع الفني، وفي حين أن على السياسات الثقافية أن تكون منفتحة أمام هذه التأثيرات المتبادلة بين الثقافات، فإن عليها أيضًا أن تدرك أن هذه الاتجاهات «العولميّة» لا تخلو من المخاطر على التنوع الثقافي، فقد ظهر أن الاستعارات أو الأشكال الهجينة التي أدت «العولمة» إلى ظهورها ليست إلا مجرد قوالب نمطيّة، مثل حال الأسواق الدولية للفن «الغريب»..

السياحة الثقافية

وتلعب السياحة، في عالم اليوم دورًا مهمًا، من حيث كونها تجمع بين مبادرات تستهدف الربح، وبين الترويج للحوار بين الثقافات، وبعد عقود زمنية مما يدعى «السياحة الجماهيرية» نشاهد اليوم تجددًا في السياحة بحثًا عن الأصالة المدفوعة بالرغبة في اكتشاف الآخرين في بيئتهم الطبيعية والاجتماعية والثقافية، ويمكن للسياحة التي يطلق عليها اسم «السياحة الثقافية» والتي تشمل أشكال السياحة الدينية، والسياحة المرتبطة بمواقع التراث العالمي، أن تساعد على الترويج للتفاهم الثقافي من خلال رؤية الآخرين، والتعرّف على عمقهم الثقافي والحضاري، مما يسهم في «التنمية المستدامة» ويعزز الثقة بما لدى الآخرين مكنونات ثقافية متنوعة.

التنمية المستدامة، وفق استراتيجيات «اليونسكو» لا يمكن أن تكون محايدة ثقافيًا، إذ عليها ألا تكتفي بأن تتصف بالحساسية تجاه الثقافات، بل أن تستفيد أيضًا من المكاسب الناجمة عن التفاعل الحيوي بين الثقافات، وفي السنوات القليلة الماضية، تزايد التركيز على إدماج البعد الثقافي في التفكير الإنمائي، وفي مشروعات التنمية الشاملة، وتكمن نواة نهج التنوع الثقافي في الفكرة القائلة بأن «الثقافات هي

مسارات تتجه نحو المستقبل» وبأننا «نحتاج إلى تغيير واسع في طريقة نظرنا إلى الثقافة، لكي نخلق علاقة أكثر إنتاجية بين الانتروبولوجيا والاقتصاد.. بين الثقافة والتنمية في معركتنا ضد الفقر» وهذا التفكير يقتضي منّا أن نضع المستقبل، وليس الماضي في صحيح تفكيرنا حول الثقافة، فالمهمة الملقاة على عاتقنا تتمثل في إطلاق «القدرة على التوق والطموح» وفي تمكين الأفراد والجماعات من العمل كوكلاء لبناء تنميتهم بأنفسهم، وهذا يتم من خلال استعادة الدور الذي يمكن أن يقوم به التراث اللامادي، وتنشيط الفنون الحرفية، و الترويج للسياحة على أساس المجتمعات المحلية، وتعزيز الصلة الخلاّقة بين الثقافات والتقاليد والحداثة.

هامش:

- تقرير «اليونسكو» العالمي رقم /٢/ حول الاستثمار في التنوع الثقافي صدر باللغة الانكليزية ضمن منشورات اليونسكو لعام ٢٠٠٩، وسيتم صدوره بالفرنسية والعربية والروسية والصينية والإسبانية قريبًا، وتم إطلاق المشروع في القاعة رقم /٢/ بمقر «اليونسكو» في باريس في مؤتمر عام بتاريخ ٢٠/١٠/٢٠٠٩.

مجتمع المعرفة

كيف يمكن أن يصبح واقعاً؟!

إن تطور وانتشار تكنولوجيا المعلومات والاتصال الجديدة، وبروز «الإنترنيت» كشبكة عامة، فتح آفاقاً واسعة لا حدود لها أمام المعرفة التي كانت حتى فترة قريبة حكراً على حلقات الحكماء والعارفين، وكانت السرّية المبدأ الناظم لمجتمعاتها، فأصبحت بفضل الانفتاح وانتشار المعارف والعلوم متاحة للجميع، وبأشكال متعددة، وبفضل «عصر المعلومات» تميزّت مجتمعات اليوم، عن المجتمعات القديمة، بطابعها التكاملي الشامل، أفرزت «مجتمعات شبكية» تتميز بوعيها الأفضل بالمشكلات الكلّية، فالإضرار بالبيئة، والمخاطر التكنولوجية، والأزمات الاقتصادية والفقر.. عناصر يؤمل معالجتها من خلال التعاون الدولي، والمشاركة العلمية، إذ تشكّل المعرفة دعامة قوية للكفاح ضد الفقر ومشاكل الإنسان الحياتية.

لقد استعمل مفهوم «مجتمع المعرفة» لأول مرة في عام ١٩٦٩ من قبل «بيتر دروكر» الأستاذ الجامعي، وقد تعمّق هذا المفهوم في التسعينيات من القرن الماضي، بفضل دراسات عديدة نشرت من قبل مجموعة من الباحثين، وأكدت على ضرورة إنتاج ومعالجة وتحويل ونشر واستعمال المعلومات من أجل خلق وتطبيق المعارف الضرورية للتنمية الإنسانية، بمعنى لا معنى للمجتمع العالمي للمعلومات إذا لم يسّهل إنطلاق مجتمعات المعرفة التي أساسها (المعرفة والفكر والوعي) ومنطلقها حريّة التعبير، التي تعّد أساس التنمية البشرية، التي تفتح أبواب تقاسم المعلومات

والمعرفة، ولأنها تنبع من المثل العليا التي تشرّع حماية التنوّع الثقافي، والإستخدام الأفضل للتكنولوجيا الجديدة..

ولم يغفل بعض العلماء الإشارة إلى إحدى النتائج المباشرة لبروز اقتصاد يقوم على المعرفة، فتصبح البلدان الغنية أكثر غنى، والبلدان الفقيرة تصاب بالركود، بسبب عدم الاستثمارات في البنى التحتية، أو الطاقات المنتجة للمعرفة، أو لغياب معايير تضمن ظروفاً مناسبة لإنتاج هذه المعرفة (نوعية نظام الحكم أو القدرة على حماية المعارف المبدعة من التنافس الدولي) والمفارقة الغريبة، أنه يزداد جهلنا بقدر ما يزداد تملّكنا للمعارف، فمع ظهور أسناد جديدة للمعرفة، ويبدو ازدهار العالم الآلي من دون حدود منذراً بشلل للقدرات الإنسانية، إذ مع تسارع معالجة المعلومات ونقلها، يظهر تفاوت متزايد بين مقياس الزمن التكنولوجي الشديد السرعة، ومقياس زمن الفكر «الدماغي» الذي لا يبدو أنه قد تطور منذ آلاف السنين، ألا يؤدي هذا التفاوت إلى خطورة رؤية الدماغ وقد تجاوزته الآلات والبرامج التي أبدعها؟! فالمعلومة في مستوى الفكر الإنساني بتكاثرها، عصيّة أكثر فأكثر على الفرز والمعالجة والسيطرة، وصعوبة إيجاد المعلومة المناسبة في «الطرق الكبرى للمعلومات» تعادل صعوبة الشرب من مضخة ماء لمكافحة الحريق..

صحيح أن الماء غزير، لكن علينا ألا نفرق، إذ لا يمكن في المعلومات أن يصير الإنسان أداة لمزيد من المعارف، إلا إذا كانت الوسائل التي تتيح «معالجة» هذه المعلومات وتحويلها من معلومات إلى معارف بعمل فكري، في مستوى المهمّة.. إن هذه المهمّة توكل إلى آلات، كما يوضحه بروز محركات البحث في «الإنترنيت» فكم من إنسان في هذه الظروف، ما عدا علماء الرياضيات، سيتمكن بعد بضعة عقود من القيام بحساب ذهني؟! ألا يسرّع إزدهار التكنولوجيا الجديدة، تبعيتنا التكنولوجية؟! ومع ذلك، تظل الآلات مهما بلغت من الكمال غير قادرة على تعويض الإنسان عن العمل الفكري الذي يحوّل المعلومة إلى المعرفة، وإن هذه القدرة على فرز المعلومة

بصورة مناسبة هي ما ستكلّف به المدرسة، مع زوال التعلّم عن ظهر قلب، وأتمتة الذاكرة.



في مجتمع المعلومات لم تعد الثقافة تُبنى على نموذج الاستقرار المستمر الذي خلقته ثقافة التجديد، بل البحث المستمر عن الجديد والرؤية البعيدة المدى، حيث تكون قدرة الابتكار والإبداع، حجر الأساس في المنافسة، بمعنى تشجيع ثقافة التجديد، تسهيل سريع لانتشار الاختراعات والأفكار الجديدة في مجتمع معيّن بأكمله، غير أن التجديد لا يكون بمراسيم وقرارات، ولأن التجديد أصبح غير ممكن التوقع، فمن المهم التأكيد على الشروط التي تساعد على ظهور لا سياق مجدّد.

ستشتمل وظائف المستقبل أكثر فأكثر على إنتاج المعارف وتبادلها وتحويلها، وستنخرط مجتمعاتنا بكاملها في تمثّل مدّ مستمر من المعارف الجديدة، وسيكون الطلب على المعرفة أعظم منه في أي وقت مضى، لكن أنماطه ستتغيّر.. لن يكون الأمر عبارة عن تدرّب على نشاط معيّن، قد يجعله التطور العلمي والتكنولوجي باطلاً بسرعة، في مجتمعات التجديد، سيكون طلب المعرفة على قدر احتياجات إعادة تأهيل متجدّدة دائماً، سيكون التكوين المهني نفسه مرغماً على التطور.. إن شهادة اليوم هي قبل كل شيء تأهيل اجتماعي، وستفرض ثقافة الابتكار أن تحتوي الشهادات بحدّ ذاتها على تاريخ انتهاء الفعالية لكي نكافح ضد جمود الكفاءات المعرفية، ونلبّي طلباً مستمراً لكفاءات جديدة.

إن الحدث الجديد الكبير في عالمنا المعاصر هو إعطاء قيمة لا سابق لها لكل ما هو مستحدث ومتغيّر وجديد، ويتفوّق التغيير رمزياً على الديمومة، والقطيعة على الاستمرار، حتى ولو كان ثمن ذلك أحياناً عدم الاستقرار، وشعور بعدم الأمان، وفي أيامنا هذه تسير النشاطات الإنسانية، حتى في المجال الاقتصادي، تبعاً لصيغ علم

الجمال والإبداعية، أكثر مما تُدرس حسب إعادة الإنتاج والاستمرار، كما حدث في القرن التاسع عشر، حيث تم الانتقال من اقتصاد الطلب، القائم على الحاجة، إلى اقتصاد عرض يرتكز على قانون ترويج البضائع.. لقد أصبح الجديد والمدهش والسحري، اليوم بضائع حقيقيّة تنتج «القيمة المضافة».

إن رفع قيمة الابتكار، بحد ذاتها، اجتماعياً، كما يعبّر عنها الآن، يهدد الاستقرار غالباً، وأصبحت ثقافة الابتكار «موضة» شائعة، وهذا ما أدى إلى القلق الذي عبّر عنه بعض العلماء بما أطلق عليه قدوم «ما بعد الإنسانية» التي ستتطلب إعادة التفكير بالإجراءات المرتبطة بإنتاج المعرفة ونقلها، بما يتناسب مع التطورات التقنية التي تجعل المهارات باطلة بشكل أسرع فأسرع، ومن المناسب في مجالات المعرفة المختلفة، أن نشجع اكتساب آليات تعلّم مرنة، بدل أن نفرض كتلة محددة من المعارف..

إن «تعليم التعلّم» يعني تعلّم التفكير، والشك والتأقلم بأسرع ما يمكن، ومعرفة مساءلة التراث الثقافي، مع احترام الإجماع، والسماح لكل شخص بالمحافظة على «مستواه» دوماً حتى لا يتراجع..



تتساءل الإنسانية، أكثر فأكثر عن قدرتها على السيطرة على إبداعاتها، ففي الواقع، إن تطور العلم يؤدي إلى طرح أسئلة جديدة تماماً، مما يدع غالباً السلطات التقليدية بأشكالها الحكومية والعلمية والدينية والمجتمعية.. دون قدرة حقيقية على تعديل مسار التحولات، ولا على تعديل نتائجها الأخلاقية والاجتماعية.. هذه الحقيقة تشرح دون شك، جزءاً من الريبة من العلم الذي يعبّر عنها الرأي العام، حيث يتهم العلم أحياناً بعدم مبالاته بالنتائج المترتبة على التطورات المتعلقة بالبيئة أو بمستقبل الجنس البشري.

لمدة طويلة نُظر إلى العلم بصورة إيجابية، وباحترام وصل في بعض الأحيان حدّ الإنبهار والإجلال، فالإنسانية لم يكن لها في يوم من الأيام مالها - الآن - من سلطة تأثيرية على صحتها وعلى بيئتها، بل على وجودها نفسه، فقد بدأ الرأي العام، عقب بعض الاختراعات العسكرية والكوارث الصناعية والبيئية وبخاصة الكيميائية والذرّية منها، بالقلق من النتائج الوخيمة التي يمكن أن تصيب الأجيال الحالية والمستقبلية بسبب العلوم والتقنيات التي يصعب السيطرة عليها، أو التي تستعمل لأغراض شريرة، فالريبة من العلوم أصبحت في عالم اليوم مشروعة، إذ أن احتمال الإنجراف يطرح مسائل تختلف عليها العلمية نفسها.

لقد وجدت سابقاً قوانين ناظمة لأخلاقيات العلوم ولسلوك العاملين فيها، واليوم، المخاطر الناجمة عن «التكنولوجيات» الحيوية، وعن الأبحاث الطبية، والتكنولوجيا المتناهية الصغر، يجب أن تحتل مكانة متزايدة في التفكير الأخلاقي، وعلى العلماء أن يفكروا بالنتائج الأخلاقية لأبحاثهم، والإعداد العلمي والأخلاقي المبكر ضروري، من أجل إيقاظ مفهوم المسؤولية عند الباحثين، ويجب أن يدخل هذا الإعداد بصورة منهجية في عمل برامج كل مستويات، التعليم العلمي، ويقوّم التقويم المناسب.

لقد صارت العلوم و«التكنولوجيات» حاضرة أكثر فأكثر في حياتنا اليومية، وفي المناقشات العامة، وأصبح نشر ثقافة علمية حقيقية ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها من حياة اجتماعية واقتصادية وسياسية سليمة، وبدون تعميم ثقافة كهذه سيتفاقم عدم المساواة بين الأفراد، وبين الجنسين، وبين الأجيال والمجموعات الاجتماعية والدول، وتزداد الفروقات حسب مقدار حيازة كل طرف على معارف علمية متلائمة مع البيئات الديناميكية التي تميز مجتمعات المعرفة.. هذه المجتمعات التي تعمّق ضرورة «محو الأمية العلمية» التي تسنح لكل فرد بأن يتخذ قرارات شخصية على المستوى الطبي مثلاً، أو قرارات جماعية عندما يتعلق الأمر باستعمال المعطيات الشخصية، فالجمهور ليس بحاجة بالضرورة لأن يحوز على كل المعارف العلمية

الموجودة في المناهج العلمية، لكن على الأقل يكفيه أن يستطيع الحكم على صحة الحجج المقدمة من قبل الخبراء، وفهم النتائج المحتملة للإجراءات التي ينوي المسؤولون تنفيذها، على الاقتصاد والحفاظ على الصحة والبيئة..

الثقافة العلمية ليست ثقافة العلماء، وقد اعتبرت لمدة طويلة شكلاً من أشكال الثقافة الخاصة المخصصة للعلماء، والواقع أنها تشكل أفضل وسيلة للإعداد لثقافة متعددة العلوم تؤهل الأفراد للوصول إلى أشكال مختلفة من المعرفة، وهذه النقطة رئيسة للحوار بين العلوم النظرية والطبيعية من جهة، وبين العلوم الاجتماعية والإنسانية من جهة أخرى، ولا سيما أن الجسور بينهما نادرة، وأحيانًا متصارعة، فالثقافة العلمية تتضمن الإعداد لثقافة متعددة العلوم، لأن على الثقافة العلمية للباحثين أن تتعدى حقل اختصاصهم المحدد، ومهما كانت الثقافة، ثقافة مختصين، فهي مدعوة لأن تصبح ثقافة مشتركة ضرورية للإحاطة بتنوع الثقافات، والمعارف الإنسانية.. إنها وحدها تسمح ببناء مجال عام يمكن فيه لكل ثقافة مهنية أو سياسية أو إثنية أو أخلاقية أن تدخل بحوار مع زميلاتها..

إذن يجب على الثقافة العلمية أن تعطي لكل فرد القدرة على فهم الرهانات والتحديات المرتبطة بالحقول العلمية الكبرى، وبخاصة إذا كان لها تأثير أخلاقي أو سياسي، ومن ثم على الثقافة أن تحفّز في كل فرد القدرة على تنظيم المعلومات بطريقة ذكية وخصبة، إذ أن تعدد مصادر المعلومات يمكن أن يصبح عائقًا إذا لم تعرف كيفية إقامة العلاقات بين المعطيات المتاحة لنا، ووضع تسلسل هرمي لها، وبالتالي اتخاذ الإختيار الأفضل.



إن إحدى التحديات التي على مجتمعات المعرفة مواجهتها، سيكون مجابهة عدم الاستقرار، وانعدام الأمن، اللذين يمثلان النتيجة الاجتماعية والسياسية للتقدم

العلمي والإبتكارات التكنولوجية، إذ إن الخبرة يمكن أن تنتج حقائق يقينية، لكنها تنتج أيضًا قدرًا كبيرًا من الريبة، ومن الجلي أن «جيوسياسة» القرن الواحد والعشرين، قد تأثرت بعمق نتيجة لبروز مجتمعات المعرفة، لأن المعرفة، والمعلومات يشكلان أكثر فأكثر الموارد الإستراتيجية بامتياز، والرهان السياسي الملح، في مجتمعات المعرفة، سيكون الهدف للحصول على الموارد المعرفية، والمعرفة قد تستخدم لعمل الخير أو لعمل الشر، للبناء أو للهدم، إلا أن هذا القول لا يعني أن نضع التقدم موضع الشك، بل التساؤل في بعض الحالات عن عقلانية المسعى العلمي الذي استطاع الإنسان الإنتفاع به، وبالنظر إلى الحياد الأخلاقي للمعرفة، علينا السعي أكثر من أي وقت مضى من أجل ضمير أخلاقي وسياسي لمجتمعات المعرفة..

ستجد مجتمعات المعرفة نفسها في مواجهة شكوك متزايدة حول مستقبل البشرية وكوكب الأرض، فتصاعد المخاطر الناتج عن تناقص الموارد الطبيعية، قد يؤدي إلى تعزيز التفاوت الموجود أكثر، وبخاصة التفاوت بين الشمال والجنوب، إذ أن غالبية الصراعات المسلحة، سواء منها المحلية أو الدولية، ناجمة من قريب أو بعيد عن صراعات للسيطرة على الموارد الطبيعية، سواء تعلّق الأمر بنزاعات للاستحواذ على مواد أولية، أو بأشكال عنيفة من التنافس بين الأطراف تستعمل المورد نفسه لأغراض متناقضة (الحرب من أجل الطاقة- الحرب من أجل المياه..)

إن أحد التحديات التي على مجتمعات المعرفة أن تواجهها سيكون خلق أشكال مستدامة، وتشاورية للاستعمال السلمي للموارد، لتجنب الصراعات أو الحروب بالضوابط والتحكيم، وهي مهمة لا يمكن أن تتم بفاعلية من دون تعبئة علوم الطبيعة والمجتمع، ومن دون تقاسم المعرفة، التي يتطلب تقدّمها مشاركة الجميع..

دعائم مجتمع المعرفة لكي تصبح حقيقة ينبغي القيام بالأمور التالية:

١- ارتقاء أفضل بالمعارف الموجودة لمكافحة الشرخ المعرفي، وذلك بالإبقاء على

قدرات البلدان الموجودة، والتي تناقصت كثيرًا بفعل هجرة الكفاءات التي تميل إلى الإزدياد..

٢- إن الوعي بغنى المعارف الموجودة في البلدان النامية، يتطلب تعبئة كل أطراف المجتمع، من أجل إعلاء القيمة أو صيانة النوعية، ولن تستحق مجتمعات المعرفة اسمها إلا إذا استطاع أكبر عدد ممكن من الأفراد أن يغدو منتجًا للمعرفة، ولا يظل مجرد مستهلك للمعرفة المتوافرة حاليًا.

٣- تكامل أفضل لسياسات المعرفة، تسمح بمواجهة التحديات التي تطرحها «العولمة»، والاستجابة لمقتضيات تنمية تؤسس على المعرفة، والعمل على إشراك أكبر عدد من السكان، من خلال إقامة البنى التحتية للمعلومات، وعلى المستوى العالمي من خلال جهد تضامني مع البلدان الأقل تقدمًا، وتزايد للمعونة العامة للتنمية..

مجتمع المعرفة هل هو حلم أم سياسة، لقد طرحت أفكاره وفصوله في دراسات معمّقة وجدّية في أدبيات «اليونسكو» وفي مؤلفات ومشاريع عديدة، قام بها كبار العلماء في العالم، وأحسب أن هذا المجتمع يمكن أن يصبح واقعًا للتنمية بكل أبعادها الأخلاقية والإنسانية والمعرفية والثقافية، فيما لو أحسنا الدراسة والمعالجة والتطبيق.

الفهرس